الدكتور
عفيف البهنسي

عمران الفيحاء

دراسة في تكون مدينة دمشق

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

عمران الفيحاء

دراسة في تكون مدينة دمشق

عمران الفيحاء

دراسة في تكوين مدينة دمشق

الدكتور
عفيف البهنسي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي: ١٥٨٥,٠٣٢

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-013-7

الرقم الموضوعي: ٩٣٠

الموضوع: تاريخ العرب والإسلام

العنوان: عمران الفيحاء

التأليف: د. عفيف البهنسي

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية- دمشق

عدد الصفحات: ٣٠٠ ص

قياس الصفحة: ١٧×٢٤ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

Http://www.fikr.com

e-mail: info@fikr.com



الطبعة الأولى

رجب ١٤٢٣هـ

حزيران (يونيو) ٢٠٠٢م

مقدمة في تكون المدينة العربية

مقدمة في تكون المدينة العربية

إن مدينة مثل دمشق أو حلب وهما مدينتان عريقتان ابتدأ وجودهما منذ ما يقرب من أربعة آلاف عام، يمكن أن تعتبرا نموذجاً للمدينة التاريخية، خاصة أنه لم يمض على وجود أية مدينة في الغرب وحتى أثينا وروما ما يزيد عن نصف هذا الزمن.. بينما ظهرت أكثر المدن الكبرى في نهاية القرون الوسطى أو في بداية عصر النهضة.

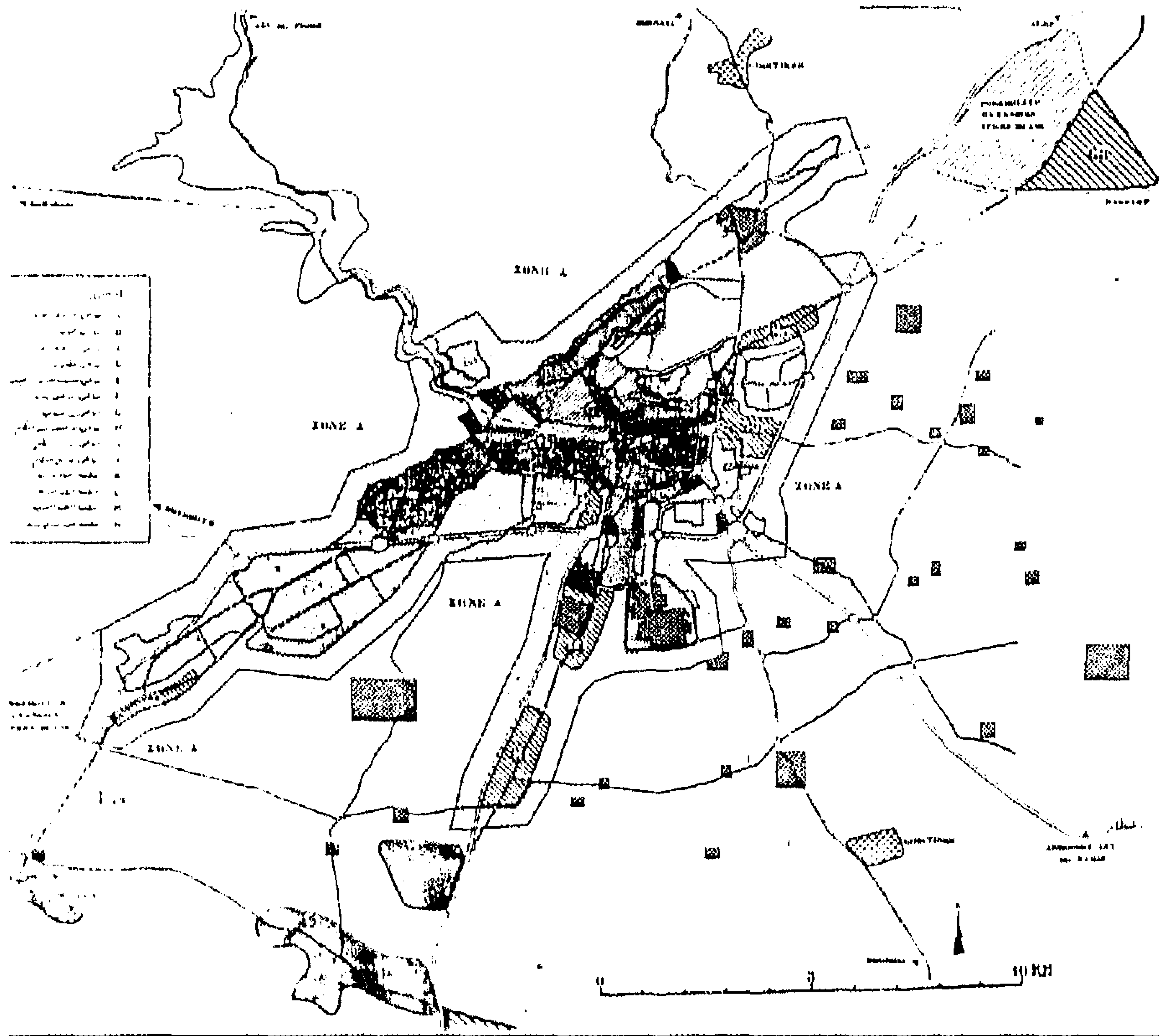
ومع هذا فإن المدن العربية الأخرى كبغداد والقاهرة ليستا من المدن الحديثة، ولو أن الأولى أنشئت في عهد المنصور العباسي عام (٧٦٢م) والثانية في عهد المعز الفاطمي عام (٩٦٩م). واحتفظت المدينتان بطابع الإنسان العربي وحملتا تقاليد الحضارة العربية، وانسجمتا انسجاماً كاملاً مع طبيعة المناخ في هذه المنطقة الدافئة المتصلة بالبوادي والصحارى.

لابد أن نؤكد قبل الحديث عن خصائص العمران العربي والعمارة العربية، أن المقياس الذي قامت عليه المدينة العربية هو الإنسان، ومع أن العمارة الكلاسية قامت أيضاً على مقياس عضوي وهو المسمى (بالمودول Module) الذي يعتمد على مقاييس الإنسان ونسبه الجمالية من خلال أبعاد بعض أجزائه، كالرأس والإصبع، إلا أن هذه النسب كانت موضوعة، بل خاضعة للحساب الذي أصبح مجرداً بعد أن ابتدأ مستمداً من الإنسان. وهكذا انفصلت العمارة والعمران الاغريقية عن الطبيعية لتخضع إلى العقل، وانفصل الفن عن الواقع لكي يرتبط بالمثال.

أما الإنسان من حيث هو روح وتاريخ. ومن حيث هو كائن اجتماعي مرتبط بتقاليد، فلقد كان دائماً مقياس المدينة العربية منذ نشوئها قبل التاريخ بأربعة آلاف عام وحتى اليوم، ولعله كان كذلك عند تشكل المدينة الغوطية وتوسع المدينة بعد عصر النهضة في الغرب.

ولقد فطن مخططو المدن الحديثون إلى أهمية الإنسان في محاولاتهم العمرانية الجديدة ونادوا بما يسمى بالمنظور الإنساني[1] أي إعطاء المدينة المظهر الذي ينم عن ماضي وأصالة الإنسان، وهي خصائص ثابتة لا يملك المرء القدرة على الاستغناء عنها ببساطة، ذلك أن الإنسان مهما اختلفت طبائعه يبقى

(١) انظر : K . Lynch:L'image de la cite -Dunod-Paris ١٩٦٩p. ٥



تنظيـــم المنـــاطـــق

بحاجة إلى التعاطف مع محيطه الذي يرتبط روحياً بنموذج معين، وهذه الحاجة عميقة وجوهرية تمتد جذورها في الماضي على نحو يجعل لتلك الشخصية العمرانية أهميتها من الناحية العملية والوجدانية على السواء[1].

وأما الإنسان العربي فإن تراث أمته الضخم والعريق جداً يقوي تعاطفه مع الماضي ومع ميراثه الحضاري إلى درجة عالية.

لقد خضعت المدينة العربية في تشكلها إلى مجموعة من الثوابت والمتحولات وأول هذه الثوابت هو المناخ، ونحن نعلم أن أكثر المدن العربية تقع قريبة من سواحل البحر الأبيض المتوسط، ولهذا فإن مناخها متوسطي مرتبط بإقليم المنطقة المعتدلة الشمالية، أي إن فصول السنة متميزة وإن الشتاء فيه لطيف ذو أمطار غزيرة، وإن الصيف حار وجاف

(١) نفس المرجع أعلاه

وإن المدى الحراري فيه، أي الفرق اليومي بين الحرارة والبرودة ضعيف.

وتعتبر الناحية الروحية والعاطفية من الثوابت السيكولوجية للإنسان الشرقي وخاصة العربي.

وليس من السهل على العربي أن يقتلع جذوره النفسية حتى ولو عاش زمناً طويلاً في مدينة غريبة. فهو مؤمن يتطلع إلى الله والسماء، وخيالي تثيره الذكريات والأماني، وهو قبلي يحب أسرته وقومه، ثم هو داخلي يبحث عن السر والاستقلال. ولقد خضعت المدينة العربية لهذا المقياس الثابت.

ومن الثوابت الأساسية، الأرض بتضاريسها وتربتها وهي التي تحدد شكل المدينة ومادة بنائها واختلاف الكثافة السكانية فيها.

لقد قامت المدينة العربية التقليدية على ترتيب عضوي في تنظيم شوارعها وأزقتها، وفي رفع واجهات المساكن المطلة على هذه الممرات التي لم تكن مخصصة إلا للمشاة وبعض الدواب والعربات الصغيرة. وكان هذا الترتيب منسجماً مع الحاجات اليومية ومع الدوافع الاجتماعية التي تجعل كل حارة في كل حي أشبه بمجموعة سكانية متآلفة منسجمة.

ولم تكن هذه الحارات أو النهج (بالتعبير المغربي) بعيدة عن الذوق، بل كانت ساحرة أخاذة بتعرجاتها التي تفاجئ المار بمظاهر إنشائية جديدة وبيوت مختلفة الأشكال تبرز منها بعض الشبابيك والمشبكات والكتبيات البارزة والقوادم التي تظلل هذه الطرقات في الصيف، فتجعل السير فيها منعشاً رطباً، وتدفئها في الشتاء فتحمي الناس حماية كاملة من المطر والعواصف والتراب الذي اشتهرت المدن الداخلية بوفرته. ولقد أعاب (لوكوربوزيه) هذا النوع من الطرقات المتعرجة الذي اعتبره مضيعة للوقت. بينما رأى فيه (رايت) عنصراً جمالياً منسجماً مع راحة الإنسان الذي يعتبر نفسه أشبه بنزهة وهو يمشي المسافات التي لاتكشف عن طول مداها الطويل لتعرجها، فلا يمل ولا يشعر بمشقة السير، كما يحدث لمن يسير في طريق مستقيم يعد الخطوات خطوة خطوة لكي يصل إلى نهاية الطريق الذي يراه ماثلاً أمامه، ويشغله الوصول إليه أكثر مما تشغله المتعة في السير بالطريق الطويل.

ولقد عبر (رايت) عن رأيه بمثال جرى معه نفسه عندما كان طفلاً، فلقد أراد أن يصعد مع عمه قمة وكانا في ضاحية يقضيان عطلة الأسبوع، فصعد العم متحدياً الطفل بخط مستقيم فوصل القمة قبل ابن أخيه الصغير الذي يسير مع شعاب الطريق الصاعد مستريحاً يجمع بعض الزهور والنباتات العطرة، وعندما وصل متأخراً عن عمه، قال عمه اذكر دائماً أن الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين، فقال الطفل لقد سبقتني ولكن يا عمي ينقصك ما جمعته أنا من الأزهار.

لقد كان رايت يريد أن يقول ولا شك، إن



دممشق ـ خطط التوسع والامتداد

الطريق المستقيم صحيح في الهندسة ولكنه قد يكون خطأ في الحياة. إن السير المنحني يريح الإنسان ويخفف من تعبه أو من شعوره بالمشقة، ثم هو يساعده على شيء من الإيقاع الذي يجعل الطريق مستساغاً كما يفعل البدو الرحل عندما ينشدون. والواقع أن المدن الأموية الأولى مثل القيروان[1] وواسط[2] أو المدن العباسية مثل سامراء[3] (سر من رأى) كانت تنشأ وفق ترتيب هندسي مسبق يتضمن شوارع مستقيمة عريضة وقد كان يبلغ عرضها أحياناً (٥٠) متراً. ولكن الأمر لم يستمر هكذا نظراً لأن ضرورات الحياة الاجتماعية والمناخ كانت تفرض على الإنسان العربي أن يلجأ إلى نمط المدينة المتكاثفة التي انتشرت تماماً في العصر الوسيط. وكانت المدينة العربية بشكلها المغلق المكثف سبباً في دعم انتشار الدين الإسلامي وتقاليده وأخلاقه في الأقاليم المفتوحة، وكانت المدينة الإسلامية

(١) القيروان : بناها عقبة بن نافع عام ٦٦٩ بعد أن فتح إفريقيا في عهد معاوية وكانت محاطة بسور وفيها مسجد ودار للأمارة وبيوت للجند

(٢) واسط : بناها الحجاج بأمر عبد الملك بن مروان عام ٦٩٣.

(٣) سامراء : بناها المعتصم شمالي بغداد عام ٨٣٥م وبنى قصراً ومسجداً ومئذنة ملوية.

بهذا المعنى تحمل عوامل بقائها ونموها وارتباطها العضوي بالإنسان العربي. كما كانت منطلقاً قومياً للدفاع عن الحرية والاستقلال.

وفي المدينة تمتد الأزقة والشوارع مع امتداد الحاجة إلى المواصلات السهلة والمتعة. لتوصل الناس من بيوتهم المغلقة إلى مراكز تجمعهم في المساجد والأسواق.

أما تقسيم المدينة فلقد ابتدأ منذ صدر الإسلام يعتمد على مجموعة من الأحياء المستقلة التي تنتسب إلى زعيم قبلي أو زعيم ديني، وتلتف هذه الأحياء حول مركز المدينة وهو المسجد أو الضريح. ويحيط بهذه المدينة والأحياء سور محصن له أبواب متعددة. ثم تغيير أساس تقسيم المدينة العربية بحسب النشاطات، كالنشاط العلمي، والنشاط الحرفي، والنشاط التجاري[1].

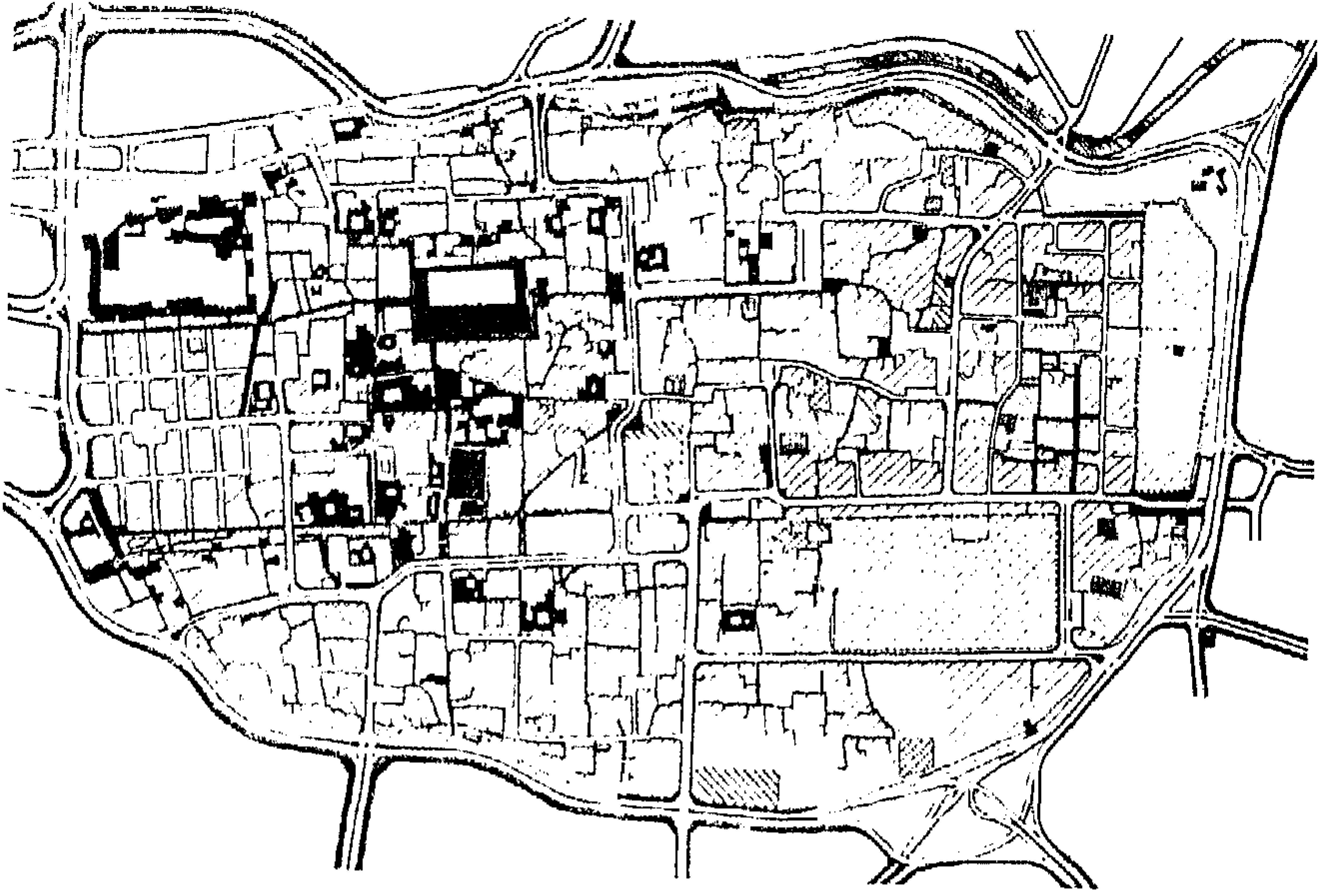
لقد كان لهذه الثوابت انعكاسات واضحة تجلت في شكل الطراز العربي الذي اعتمد على القبة التي ترمز إلى السماء وقوتها الحافظة الحانية والقبوة التي تجعل السقف جزءاً من الجدران، فيشعر الإنسان أنه يعيش داخل ذاته بينما السقف المضلع يضع الحدود أمام الشعور بالاستقلال والطمأنينة.

كذلك اعتمد الطراز العربي على الصحن الداخلي المفتوح نحو السماء التي تهب الطقس الملطف الرحيم والشعور بالتعالي والاندماج بالكليات.

إن مدينة دمشق التي أضحت مملكة بارزة قوية أيام الآراميين تصارع الآشوريين والفرس، كانت تحمل منذ البداية خصائص العمران العربي الأصيل الذي يتفق مع الظروف الاجتماعية والمناخية. ولقد بدا الفرق واضحاً عندما سيطر الإغريق على المدينة وعلى جميع المدن السورية بعد عام (٣٣٣ ق. م)، فأقيمت مدينة حديثة على النمط الشطرنجي المألوف في العمران الإغريقي، إلى جانب النمط الآرامي الذي يقوم على مجاميع من الأحياء المتداخلة التي تحيط بمعبد حدد إله العاصفة والرعد والمطر. مدينتان متلاصقتان، الأولى تقع إلى الشرق وكانت مقراً للسلطة ومركزاً للسوق الرسمية (الآغورا) والمسرح والمعبد، والمدينة التقليدية التي انكفأ المواطنون الأصليون فيها على أنفسهم يعيشون حياتهم وتقاليدهم.

ومما لاشك فيه أن هذه المدينة القديمة لم تستطع مقاومة المدينة الرومانية التي ترسخت بعد عام (٦٤ ق. م). على النمط الإغريقي نفسه متفرعة عن الشارعين الرئيسيين وخاصة الشارع المستقيم الذي ما زال قائماً حتى يومنا هذا. وهكذا ضؤلت أهمية المدينة التقليدية عندما نزح السكان إلى القرى المجاورة، إلى كفر بطنا ودوما وحرستا وداريا، وهي آرامية كما يبدو من اسمها. إلى أن تعود إلى الظهور عند عودة السكان الأصليين إليها. وتجلى ذلك منذ ظهور المسيحية التي أصبحت دين المواطنين الآراميين القابعين في الجبال أو المنتشرين

(١) انظر: J.Berque : Les arabes -Sindbad-Paris ١٩٧٣p. ٣٣



مخطط مدينة دمشق القديمة ضمن الأسوار ــ عن ايكوشار

في القرى. دين شرقي عربي استطاع الآراميون من خلاله تكوين عصبية عقائدية، تناهض الوثنية والاحتلال الروماني. وكانت المدينة التقليدية بتكوينها المتداخل، معقل المواطنين للدفاع عن قضاياهم وحريتهم وللانفصال عن المحتل كما هو الأمر اليوم في أحياء (القصبة) في المغرب وماشابهها في المشرق.

ومع ذلك لقد كانت مدينة دمشق مقسومة إلى قسمين:

القسم الرسمي الذي يحمل طابعاً مستحدثاً غربياً يقوم على الشوارع المتعارضة والأحياء المستطيلة (١٠٠م ٤٥ م) ومنها صفان متوازيان من البيوت المستطيلة المساحة أيضاً والمتساوية في أكثر الأحيان.

ومن قسم شعبي مؤلف من حارات وأزقة ملتوية ذات أبواب خاصة وفيها بيوت متلاحمة ذات فراغات داخلية. هكذا كان حال دمشق منذ ألفي عام. وما أشبه الأمس البعيد باليوم حيث أصبحت المدينة على شكلين، شكلها التقليدي العريق، وشكل

جديد مستورد يقوم على مبادئ النظام الكلاسيكي نفسها. ولكن ظروف المدينة القديمة التي استمرت قائمة حتى بداية هذا القرن والتي سوغت دائماً استمرار هذا النمط المتضامن، لم تعد ذاتها تماماً في القرن العشرين، حيث ظهرت مواد إنشائية جديدة رخيصة التكاليف سهلة التنفيذ كالإسمنت أو المعدن، وحيث ابتكرت وسائل حديثة لراحة الإنسان في بيته كالكهرباء وأدواته، وراحته خارج بيته كوسائل النقل الحديثة، وتكاثر الناس في المدينة العربية خلال هذا القرن تزايداً هندسياً، وكان لابد من تطوير المدينة التقليدية مع حاجات وشروط العصر الحديث.

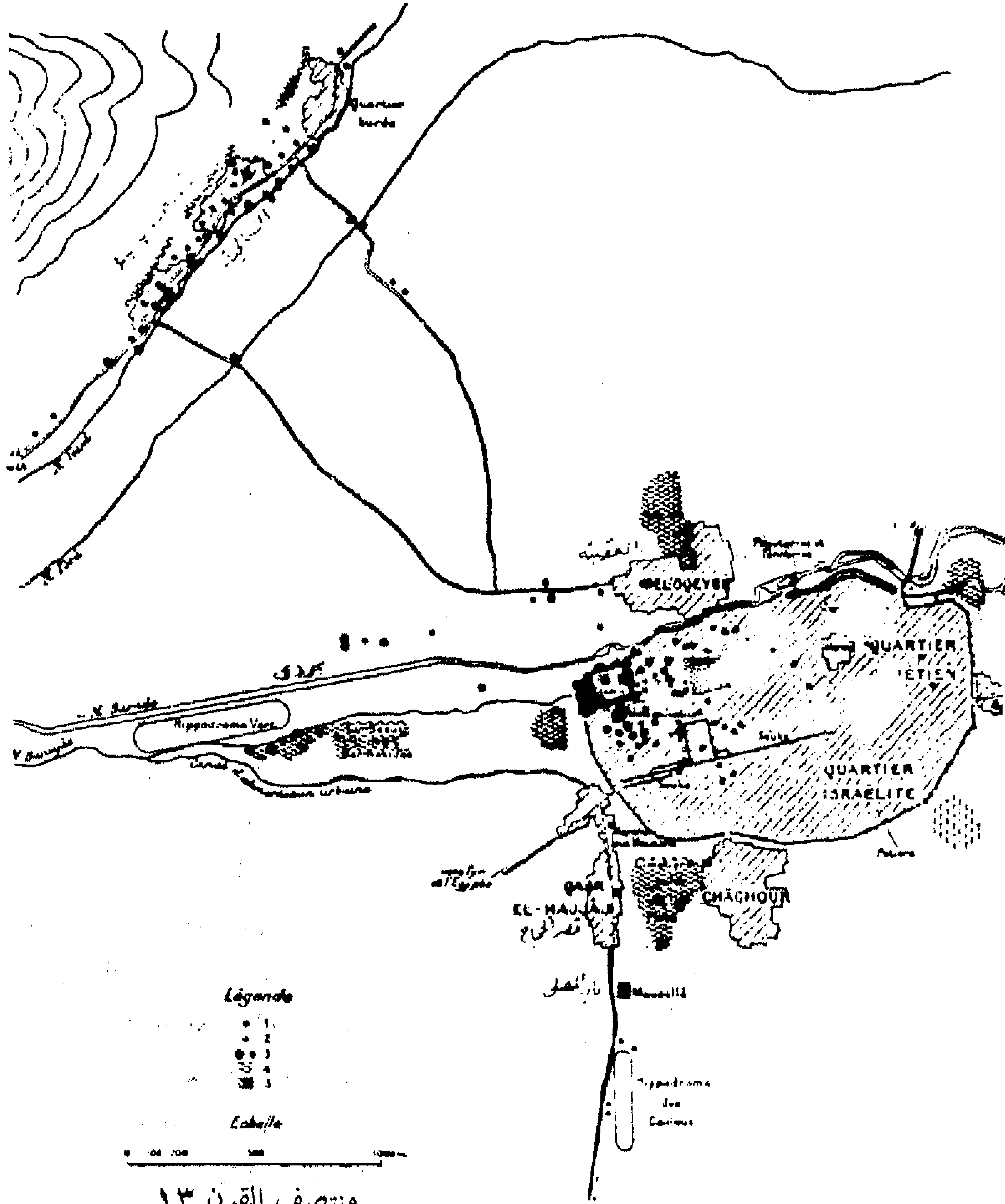
و الواقع أن دمشق كما عرفناها، مدينة صغيرة محدودة بسورها القديم، تتخللها أزقة ضيقة ملتوية لاتسمح أبداً بمرور السيارات، وليس فيها ساحات عامة تسمح بتحقيق فراغ صحي وجمالي أو تسمح بوقوف السيارات المتزايدة. وأن البيت المبني بمواد سريعة الالتهاب كان معرضاً للحرائق دائماً دون أن يكون بمقدور حافلات الإطفاء إنقاذه.

و لم تستطع مدينة دمشق التقليدية استيعاب الأعداد المتزايدة من السكان. إذ إنها قاصرة عن التوسع الأفقي والعمودي، فهي محصورة بسورها أو بحزامها الأخضر، ثم هي محصورة بارتفاعها المحدود بطابقين لاأكثر يهيمن عليها المسجد الجامع وحده ومآذن المساجد الأخرى وقبابها.

إن طابع المدينة القديمة المتداخل المتضامن كان انعكاساً لروح العشيرة التي تضخمت في نطاق الشعور القومي. ولقد أعطى المثال على نوع من الحياة المشتركة الأليفة، فالناس يتسابقون لإقامة السبل لسقاية المارين والمحتاجين. ثم تساهم السلطة إلى جانب السكان بإنشاء الحمامات الرائعة بأقسامها الثلاثة وبمياهها الحارة وزخرفاتها البديعة(1)، وفي هذه الحمامات كان سكان الحي الواحد يجتمعون، الرجال في الليل والنساء في النهار (وقد يكون لكل جنس حمامّه المستقل) وهناك يتبادلون طعامهم وحكاياتهم وخدماتهم فتزداد الألفة والأخوة بينهم، ويكون الحمام فرصة للترويح عن النفس والسعادة. وتقدم الخدمات التموينية مباشرة إلى المساكن إذ يتجول البائع محملاً على دابته أنواع الخضار والفواكه أو المعجنات، داعياً إلى بضاعته بعبارات سجعية موسيقية، ويتبادل الناس الأحاديث مع أصحاب الدكاكين ويجلسون أمام محالهم جماعات كما يجلسون في المقاهي. ويجتمعون في الأعياد والمناسبات كما لو كانوا أسرة واحدة.

أما البيت التقليدي فهو متشابه في شرق البلاد العربية ومغربها، فهو ذو واجهات صماء خالية من النوافذ، ولايكاد يستبين المرء روعة العمارة والزخرفة إلا بعد أن يزور البيت ويدخل إلى صحنه ليرى نفسه في فسحة سماوية واسعة تتوسطها بحرة

(١) H . Sauvarir;Description de Damas-Journal asiatique ,serie III-VII



مخطط دمشق القرن ١٣

كبيرة يتدفق الماء إليها من ينابيع برونزية بأشكال حيوانية، وتزين هذه الفسحة أشجار الليمون والنارنج، ويفوح منها عبير الفل والياسمين. وتحيط هذه الفسحة السماوية غرف عديدة قد يصل عددها إلى الثلاثين غرفة، وترتفع جدران الغرفة إلى أكثر من خمسة أمتار يغطيها سقف من الأعمدة الكبيرة التي تحمل ألواحاً خشبية ملونة، وتكتسي الجدران أحياناً بزخرفات خشبية رائعة تندمج فيها أبواب الخزائن

التي تحفظ فيها أشياء كثيرة من الفرش والمونة والملابس. وتنفتح نوافذ هذه الغرف العديدة على الصحن لتمتع الناظر بمشهد الصحن من جهة وبدفء الشمس من جهة أخرى.

وأبرز هذه الغرف هو الإيوان، أي الغرفة العالية السقف يبلغ ارتفاعه ضعفي ارتفاع سقف الغرف، وينفتح هذا الإيوان كلياً على الصحن يزينه من الأعلى قوس كبير مزخرف بطريقة (الأبلق)، وهو حشوات من ملاط معين على حجر أو جص محفور.

أما القاعة، فهي صالة الاستقبال الكبيرة وتمتاز بسقفها العالي وبأرضها المختلفة الارتفاع، إذ إن مكان الجلوس يرتفع عن مكان الاستقبال بما يزيد عن نصف متر، وقد تكون القاعة مؤلفة من جناح واحد أو جناحين أو ثلاثة أجنحة ويطلق على الجناح كله (طزر) وهي تركية الأصل. وتغطي جدران القاعة زخرفات خشبية ملونة ونافرة فيها صور نباتية وزهور وفيها لوحات لمشاهد مدن وبساتين، ثم يعلوها إفريز محلى بشريط كتابي يتضمن شعراً رقيقاً يمجد صاحب البيت ويباركه ويثني على بانيه وصانع الفن فيه.

وفي القسم المنخفض من القاعة بحرة صغيرة يتدفق الماء فيها باستمرار، يأتيها من عل بعد أن يسقط على سلسبيل يزين أحد الجدران. أما نوافذ القاعة العليا فهي ذات زجاج ملون أو معشق يعكس ألوانه الزاهية على جدران القاعة فيزيدها بهاء ورونقاً.

حتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت دمشق محافظة على أصالتها، على الرغم من ظهور أرباض جديدة خارج السور. ولكن التأثيرات الغربية التي بدت في طراز الباروك والأسلوب الجديد أحدثت تغييراً أولياً في شكل الزخارف، وليس في عمران المدينة وعمارتها، إلى أن ظهرت عمارات كلاسية محدثة في الأبنية العامة في بداية هذا القرن العشرين، أثرت في شكل العمارة الخاصة التي استعارت من عناصر العمارة الكلاسية، وتبعها تأثير فرنسي أيام الانتداب، فظهرت في دمشق مساكن تحمل الطابع الكولينيالي. ولكن مصلحة الكاداسترو قامت لأول مرة في عام (١٩٢٠م) برفع النسيج العمراني لدمشق القديمة بدقة بالغة، وعلى هذا المخطط أقام دانجيه وإيكوشار المخطط التنظيمي الأول سنة (١٩٣٦م) الذي لم يستقر طويلاً، فلقد صدر في عام (١٩٦٧م) المخطط التنظيمي الواسع الذي أفسح في المجال لتوسيع المدينة حسب مقتضيات التطور السكاني والاجتماعي. وعلى أساسه تعاقبت الجهود العُمرانية لتحقيق مشاريع قادرة على استيعاب تطور المدينة مستقبلياً.

وفي هذا الكتاب عرض لمراحل تكوّن مدينة دمشق التي تجمع آثار قِدَمِها ومعالم حداثتها جنباً إلى جنب.

الفصل الأول

تكون أقدم مدينة في العالم
مازالت زاهرة حتى اليوم

١- الحدود القديمة

٢- التطور التاريخي

٣- قبل التاريخ

٤- بداية التاريخ

٥- دمشق الآرامية

٦- دمشق في العصور الكلاسيكية

٧- دمشق عاصمة الدولة الأموية

٨- دمشق بعد الأمويين

٩- دمشق في العهد المملوكي والعثماني

تكون أقدم مدينة في العالم مازالت زاهرة حتى اليوم

١ - الحدود القديمة

١/١ حدود مدينة دمشق اليوم تبتدىء من سفوح قاسيون حتى البادية، يفصلها شريط أخضر يسمى (الغوطة)، ويروي هذه المدينة نهر بردى (قرقر) بأقنيته التي توزعت على مصاطب المدينة من الغرب إلى الشرق لتروي المدينة بجميع مناسيبها، ولتروي الغوطة المحيطة بها، ثم يصب ببحيرة العتيبة في أقصى الغوطة، وأقدم ما ورد من حديث عن هذا النهر يعود إلى الألف الأول قبل الميلاد[١].

ولكن ليس من السهل وضع حدود ثابتة لمدينة دمشق قبل التاريخ، ذلك أنه ليس من أثر لأي أسوار تساعدنا على ذلك.

٢/١ هناك رأي سائد عند المؤرخين[٢] هو أن دمشق هي أقدم مدينة ما زالت موجودة في العالم. ويرجح المؤرخ القديم يوسفوس تاريخ إنشائها إلى عهد عزرا بن رام بن سام بن نوح، وهو افتراض توراتي، ولكن البحث الأثري لا يخضع لتاريخ الأنساب.

٣/١ إن أقدم ما تؤكده الدراسات التاريخية، أن دمشق في العهد الآرامي (الألف الأول قبل الميلاد) كانت متوضعة في شرقي المدينة. وأن المعبد الآرامي (معبد حدد) كان في موقع الجامع الأموي اليوم، هذا الموقع الذي احتل مكان المعبد الروماني (معبد جوبيتر)[٣].

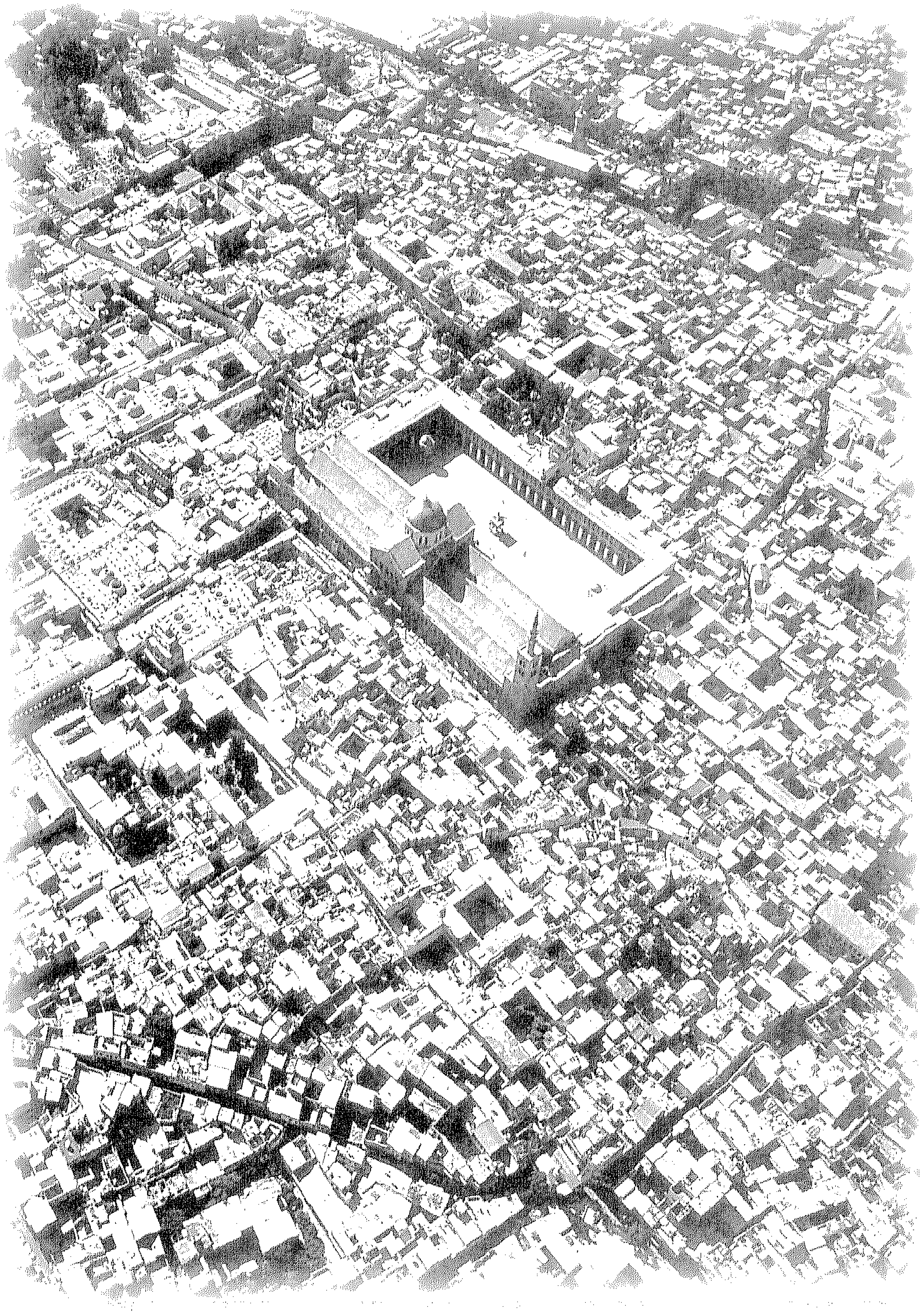
والإله حدد رامان هو إله الرعد والخصب، ومن المعتقد أنه كان يعبد في هذا المكان المقدس، بدلالة العثور على لوح بازلتي (سنة ١٩٤٦م) عليه نقش بارز يمثل أبا الهول، لعله يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد. وهذا اللوح محفوظ في المتحف الوطني بدمشق.

٢ - التطور التاريخي

١/٢ لقد توقع الباحثون وجود آثار آرامية في منطقة (السماكة) قرب الباب الشرقي للمدينة، ولكن لم تجر تنقيبات أثرية بعد هناك. على أن الآثار الرومانية لاتخفي نفسها[٤]. ويرى (سوفاجيه)[٥] أن المنطقة التي تسمى البريص أي الحصن، تحوي آثار قصر أنطوخيوس الرابع الذي حكم دمشق في نهاية القرن الثاني ق. م، بل إنه يعتقد أن هذا القصر، أنشىء على أنقاض قصر آرامي.

٢/٢ وهكذا فإن المحور الأساسي للمدينة، كان في ذلك الوقت وحتى العهد الروماني يمتد من القصر في تل السماكة وحتى المعبد في موقع الجامع الأموي. بيد أن الوثائق

(١) -Sauvajet , Esquisse d'une histoire de la ville de Damas - Revue des Etudes 8,427-28
(٢) F. Unger ; 1957- Porter - 1855 - Thwbron 1969.
(٣) G.Greenfield, The Aramian Cod Raman-IEJ* 195 -98
(٤) C- Watzinger and K. Wulzinger, Damaskus-H.4. Berlin-Walter de gruyter 1921-pp44-46
(٥) J. Sauvajet; Op cit-p.428



دمشق التاريخية ومركزها الجامع الكبير

صورة جوية من الجنوب الشرقي

المكتوبة لم تتحدث عن مدينة دمشق في منتصف عصر البرونز، وفي القرن التاسع والثامن قبل الميلاد ابتدأ اسم دمشق بالظهور. ولكن هذا لا يعني أن دمشق ابتدأت منذ ذلك التاريخ، إذ ورد اسمها (دامسكي) في وثائق إيبلا التي تعود إلى عام (٢٢٣٠ ق. م).

وثمة دراسات استقرائية تتم اليوم للبحث عن تاريخ دمشق قبل العهد الآرامي، من خلال اسم آخر يعتقد أنه كان يطلق على هذه المدينة هو (آبوم).

٣/٢ اسم دمشق

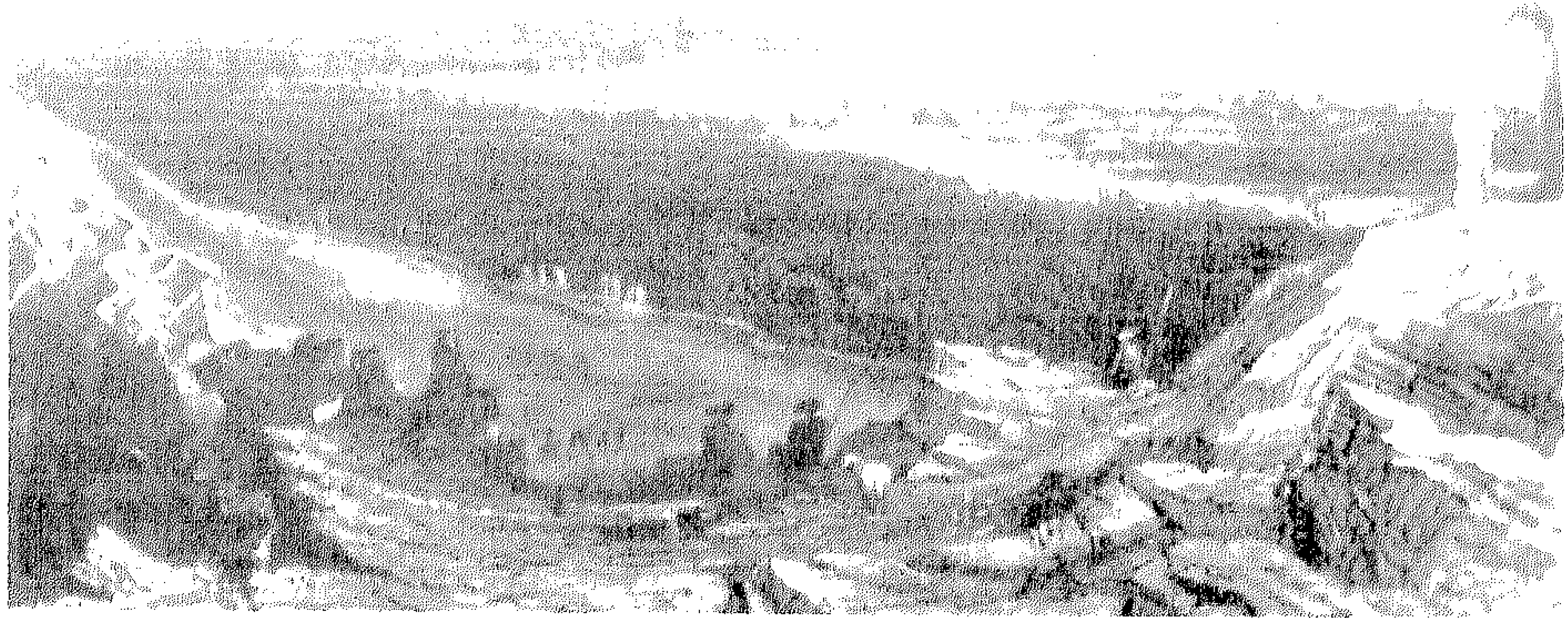
لقد ورد اسم دمشق في ألواح تحوتمس الثالث فرعون مصر، بلفظ تيماسك مع أسماء المدن التي احتلها، ونقش ذلك على جدران معبد الكرنك في الأقصر (القرن ١٤ ق. م). وورد هذا الاسم ذاته في ألواح تل العمارنة التي كانت ترد من دمشق، لقد قرئت هكذا، دمشقا، أو دومشقا أو تيماشكي. وفي حفريات كميد اللوز في لبنان، عثر على رسالة موجهة إلى ملك تامشقا واسمه (زالايا). وفي التوراة ورد الاسم هكذا داميّسيك ودوميّسيك ودارميسيك وفي نصوص آشورية حديثة ورد الاسم، دمشقا أو دمشقي أو دمشقو. وفي الكتابات الآرامية القديمة ورد الاسم كما نعرفه اليوم (دمشق)[1] وفي وثائق إيبلا ورد الاسم (دامسكي) كما يقول بيتيناتو.

٤/٢ إن هذا الاسم، كما يبدو، مؤلف من مقطعين الأول (دو) أو (دا) وهي تعني اسم الإشارة ذو أو ذا، أو دار وتعني موقعاً حصيناً. والمقطع الثاني (ميسيك) وهي كما يبدو مشتقة من (سقي) كما يقول هوبت[2]، وهكذا تعني التسمية داراميسك الأرض المسقية.

ويرى أولبرايت[3] إن كلمة ميسيك هي أصل الكلمة العربية (مشق) وتعني الحجر الجصّي، وأن التسمية دومشق تعني (ذو الحجر الجصّي)، ويؤكد سوفاجيه هذا الرأي.

٤/٢ اسم آبوم

لقد أبانت الدراسات أن مملكة آبوم كانت



منظر دمشق من الربوة التي تعلوها قبة السيار (رسم يدوي)

(١) Parpola; Neo Assyrian Toponymj-Neeu Kirrchen-Vluyn-1970p.103

(٢) P.Haupt; Midian and Sinaii -ZDMG-1909-p.528.

(٣) W. F Albright; Anew Archaeoligical Interpretatin BASOR 1961-p.no.53

قائمة في الألف الثاني قبل الميلاد، وتلتها مملكة آرام في الألف الأول. ولقد ظهر اسم آبوم لأول مرة في وثائق سقارة في مصر، وكان أولبرايت أول من حدد موقع آبوم في دمشق[1]. ولقد ظهر هذا الاسم أيضاً في ألواح تل العمارنة في شكلين (آ بي) و(أو بي) و(بي) كما ظهر في النصوص الحثية (آ بي) أو (آ با). ويبرر هذه التحولات اللفظية اختلاف اللهجات والألسنة والقراءات، ولكن أولبرايت يفضل استعمال اسم آبوم ويعني (القصب الكثيف)، وهذا الاسم ينسجم مع هذا النبات المعروف في غوطة دمشق.

٥/٢ اسم آرام

وخلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، انتشر اسم (آرام) أو مملكة آرام وعاصمتها دمشق، وتعني كلمة آرام (الأعالي)، ولقد أطلق على مناطق أخرى مثل آرام صوبا وآرام بيت رحوب وآرام النهرين وهي ممالك آرامية، ولكن اسم آرام فقط، كما ورد في النصوص يعني دمشق وعند الدلالة على جميع الممالك الآرامية فكان يطلق اسم (كل آرام)، كما هو الأمر في لوح سفيرة، وعندما يطلق اسم ملك آرام فإن هذا يعني ملك دمشق كما ورد في نقش يعود إلى القرن التاسع ق.م.

٦/٢ الاسم بالآشورية

ولم يستعمل الآشوريون كلمة دمشق، بل استعملوا اسم (إيميريشو) أو (شا إيميريشو) أي مدينة الإله حددإيميرى، أو تعني دمشق باللهجة الآشورية.

لقد ورد اسم آيبوم مقروناً بكلمة (حك) وتعني حاكم آيبوم، (حك أيبوم) وكان اسمه (آحوكبكابو).

٧/٢ الصالحية، مركز المدينة

وهناك احتمال كبير أن مركز هذه المدينة هو تل الصالحية الذي أجريت فيه تنقيبات وتم العثور على آثار أسوار محيطة تعود إلى منتصف عصر البرونز، ترتفع أكثر من ثلاثة أمتار وهي مبنية من الطين.

وتمتاز الصالحية بموقعها المشرف على ضفاف فروع بردى وهي مركز استطلاعي هام يساعد على مراقبة المواصلات باتجاه تدمر وقطنة.

٣ - قبل التاريخ

١/٣ حسب رأي العالمة الأثرية جارود[2] فإن دمشق تعود إلى العصر الآشولي الحجري الذي يعود إلى مئات ألوف السنين، وكانت مأهولة جداً بالسكان، وبخاصة في المرتفعات المحيطة بها وعلى شطآن نهري بردى والأعوج، ذلك أن حوض دمشق، كان بحيرة كبيرة كما تأكد للعالم (فان ليره).

وفي الواقع، لقد عثر عام (١٩٣٠م) على بقايا عظام وظران تعود إلى العصر الآشولي في موقعي وادي شركس والأشرفية. كما عثر على أدوات حجرية في حوض نهر بردى وفي برزة حول دمشق، وهي تعود إلى هذا العصر. كما عثر على أدوات تعود إلى العصر

(١) W.F .Albright; The Land of Damascus between 950-1750 B C.BASOR 1941 p.34-35.

(٢) D.A.E Garrod; An outline of Palastosene Prehistoiry in Palestine-Lebanon Syria-quaternaria-6pp.451 541-546.



اللافالوازي والموستري في المزة والهامة وهي عصور حجرية قديمة تعود إلى آلاف السنين.

٢/٣ العصر الحجري الحديث

على أن العصر الحجري الحديث الذي يبتدئ من الألف التاسع قبل الميلاد هو أكثر وضوحاً في مدينة دمشق وضواحيها. فلقد قام العالم (دوكونتانسون) بالتعاون مع مديرية الآثار بإجراء تنقيبات وأبحاث بين عامي (١٩٦٠-١٩٧٥م) في تلال محيطة بدمشق، اثنان منها في شرقي المدينة جنوبي بحيرة العتيبة، وهما تل أسود وتل الغريفة، وتل ثالث في غربي المدينة (طريق سعسع) هو تل الرماد، وتعود هذه التلال الثلاثة إلى بداية العصر الحجري الحديث أي إلى الألف الثامن ق. م. أو الألف السابع ق. م.

٣/٣ تل أسود

لقد قدمت لنا مكتشفات تل أسود شواهد هامة على الرغم من ضآلتها، فلقد تبين شكل العمارة في العصر الحجري الحديث، والمؤلفة من بيوت من القصب والأغصان والطين، كما عثر على تماثيل طينية صغيرة لأشكال آدمية أو حيوانية، وعلى عدد من الجماجم، وثمة هيكل عظمي لطفل صغير.

٤/٣ تل الغريفة

وفي موقع الغريفة، عثر عام (١٩٧٤م) على آثار جدار مبني من الطين، وتأكد أن المنشآت كانت مدعمة أيضاً بقضبان القصب، وثمة إناء طيني وتماثيل أثبت الفحص بالفحم (١٤)، أن هذا الموقع يعود إلى منتصف الألف السابع[1].

٥/٣ تل الرماد

أما موقع تل الرماد، فلقد استمرت التنقيبات فيه زمناً أطول بلغ عشر سنوات أي من عام (١٩٦٣-١٩٧٣م)، وفيه تم اكتشاف آثار مستوطن سكني، وكانت المنازل بأبعاد (٣×٤م)، وكانت الجدران مرفوعة من الطين المدكوك. كما عثر على أفران وعنابر أنشئت أيضاً من الطين وطليت بالجص. ومن أهم المكتشفات جماجم مطلية ومزخرفة بالجص، تشابه تلك التي عثر عليها في أريحا (فلسطين)، وتماثيل طينية صغيرة، وحوامل طينية للجماجم التي كانت تعرض في البيوت تكريماً لأصحابها، وهذا يدل على سريان

(١) H. de Contenson; Ghoraife et la cronologie du neolitique damascenien AAAs25-184.

عادة عبادة الأجداد، وعلى الأقل احترامهم وتكريمهم، كما عثر على أوانٍ فخارية مصقولة ومحزّزة.

وتأكد للمكتشفين أن الإنسان القديم في هذا الموقع، كان يمارس الزراعة، فلقد عثر على حبوب متفحمة متنوعة. وكان يمارس القنص للحصول على اللحوم، وكان يربي الحيوانات كالأبقار والماعز. ولقد عثر على أدوات حجرية على شكل فأس ومنجل وحربة سهم.

ويرجع تل الرماد - بحسب تحديد الفحم - إلى منتصف الألف السابع أيضاً. وهذا يعني أن هذه التلال الثلاثة، كانت تشكل مواقع سكنية متكاملة حول البحيرة، مبنية من الطين المدكوك نظراً لندرة الحجر والصخور، مما يجعلها مختلفة عن موقع أريحا المبني من الحجر والذي يعود إلى زمن معاصر، ومما يجعل هذا المستوطن الذي كان يشكل دمشق القديمة قديماً قدم أريحا، ولكنه استمر مأهولاً حتى الألف الرابع ق. م.

٦/٣ تل حزامي

أما تل حزامي (ويقع حيث مطار دمشق اليوم) القريب من تل أسود فانه يعود إلى الألف الرابعة، وفيه عثر على آثار بيوت مستطيلة مبنية من الطين تضم عدداً من الغرف تنفتح الأبواب بينها.

وهذا يفسر تحول المدينة القديمة باتجاه موقع المدينة الحالية، ولا ندري أين كان موقع مركز هذه المدينة، وذلك بسبب التحولات التي تحدثها البحيرات وتشكيلاتها.

٧/٣ عصر البرونز

ولكن فان ليره[1] ومن خلال كشوفه في تل الصالحية (في سفح جبل قاسيون)، وفي موقع الدرخبية على نهر الأعوج، أكد استمرار وجود المدينة في بداية منتصف عصر البرونز، ثم تضاؤل هذه المدينة في نهاية عصر البرونز. وذلك بسبب عدم إرواء غوطة دمشق إرواءً مستقراً. وفي منتصف عصر البرونز تحمل اسم دمشق اسم مملكة آبوم التي تحدثنا عنها وكانت مسورة تضم مواقع متعددة، إذ كانت مدن أخرى قد أحيطت بالأسوار قبل ذلك العصر، مثل ماري (تل الحريري على الفرات) ومثل يمحاض (حلب) وقطنة (المشرفه حمص).

٤ - بداية التاريخ

١/٤ من المحتمل أن مركز هذه المملكة (آبوم) كان تل الصالحية[2] المحاط بالأسوار كما ذكرناه. وكان هذا الموقع يسمح بربط مواقع أخرى مثل تل أسود والرماد والغريفة والتي تقع بين بحيرتي الهيجانة والعتيبة. هذه المواقع التي كانت ضواحي المدينة القديمة كما يبدو.

وهذا يعني أن دمشق اليوم كانت هي مركز هذه المملكة التي تحمل اسم آبوم أي الدغل أو القصب أو دغل القصب، هذا النبات المنتشر في الغوطة.

(١) G. Pettinato : The Archives of Ebla-Empire inscribed in cly-Garden City Double day 1981-p226.

(٢) W.J. Van lire; A note on Five Early Neolithic sites in Inland Syria AAA, 13p.116-117

٢/٤ ويتحدث العالم دوسان[1] الذي نشر ألواح ماري، عن ورود اسم آبوم في ألواح قصر زيميري ليم في ماري، وعن ورود أسماء ملوكها (هايا بوم شار) و(زوزو شار معان) كما وردت كلمات (شارا بوم) و(أويل آبوم) وأويل، وكلمة (شار) أو (أويل) تعني الملك أو الحاكم أو الرجل. كما عرفنا اسمين آخرين لملوك آبوم هما أريوانا وزالايا.

٣/٤ ويظهر اسم دمشق كدلالة على مركز آبوم بشكل (تيمشك) و(تامسكو) في نقوش معبد آمون في الكرنك خلال عهد تحوتمس الثالث. ثم يظهر مرة ثانية في نقائش معبد طيبة خلال حكم أمينوفيس الثالث. وفي رسائل تل العمارنة مقتطفات من معلومات تبين أن دمشق وأرض أو بي (أي آبوم) كانتا معاً تابعتين لمصر في عهد أخناتون.

٤/٤ وبعد عهد رمسيس الثالث (١١٦٦ ق. م) استقلت دمشق عن أي تأثير مصري، وبرزت إلى الوجود كشخصية دولية متميزة ثم انتشرت منها الثقافة واللغة الآرامية[2] .

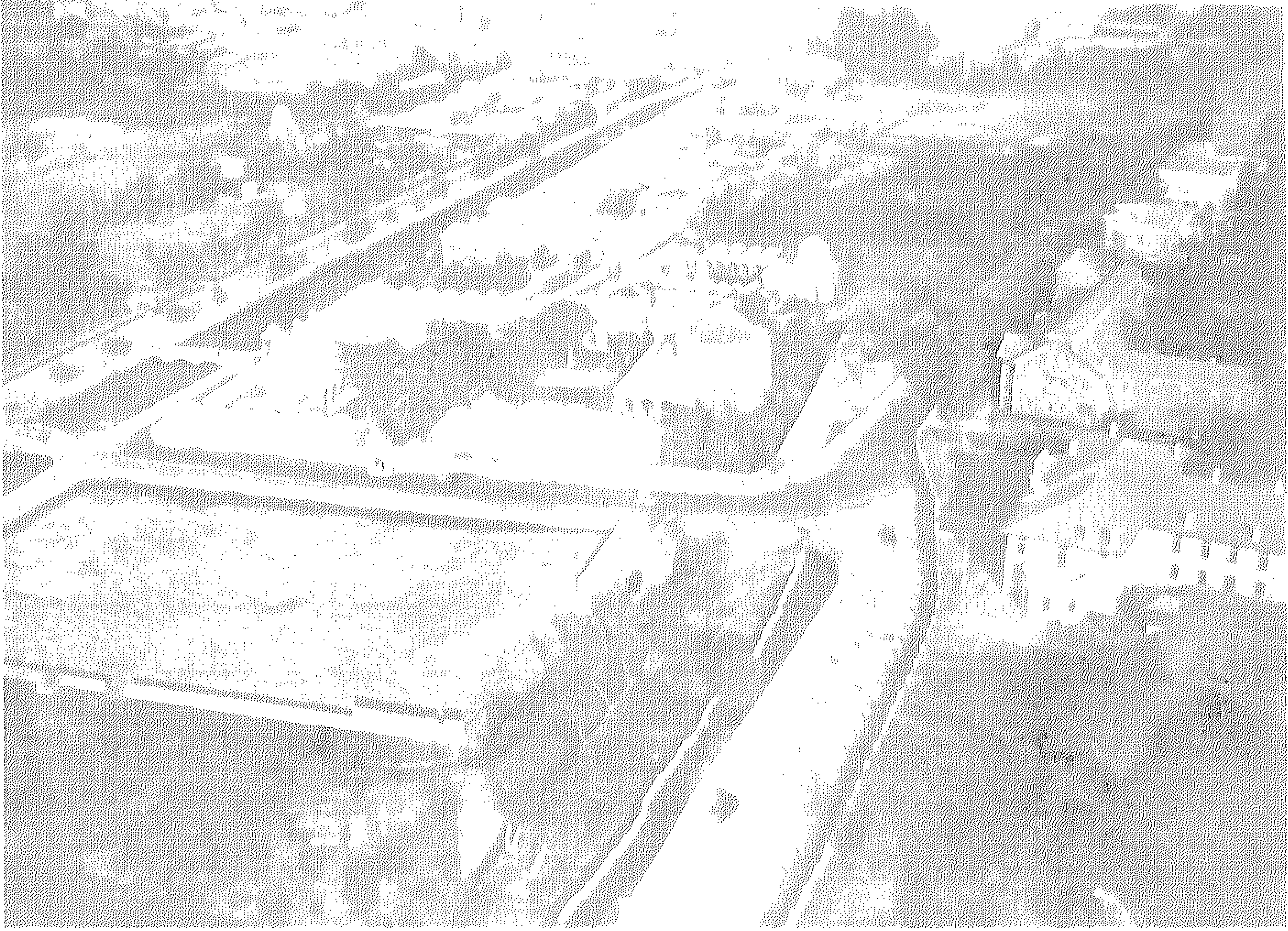
٥ - دمشق الآرامية

١/٥ أول ظهور للآرامين كان فيما ورد في نقوش طيبة عند ذكر الحرب بينهم وبين الآشوريين بقيادة الملك تغلات بلاصر (١١١٦-١٠٧٦ق.م) في منطقة الفرات الأعلى والأوسط[3] .

٢/٥ ظهرت مملكة دمشق الآرامية في القرن الحادي عشر ق. م، ثم أصبحت المملكة الأكثر قوة في الشرق في منتصف القرن التاسع ق. م، وجابهت الآشوريين وصدتهم وكانت تمتد حدودها من بحيرة قطينة شمالاً وحتى بحيرة طبرية جنوباً. ولقد ورد اسم دمشق آرام لأول مرة في عهد شلمنصر الثالث (٨٥٣ ق. م) الذي حاول الاستيلاء عليها، وكان ملكها (حدد آيداري) الذي صد العدوان وجعل مملكته في قمة الازدهار. وتابع ذلك الملك (حزائيل) الذي استولى على المُلك ودافع عن بلاده في معركة جلعاد (٨٤١ ق. م)[4].

٣/٥ لقد كان عصر حزائيل زاهراً، بلغت دمشق ذروة قمتها ونفوذها، ثم تراجعت في عهد بير حدد الثالث. وفي عهد الملك آشور تغلات بلاصر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ق.م) تم الاستيلاء على الممالك الآرامية وعلى رأسها دمشق التي كانت تحت حكم الملك رصين أو (ريدن) سنة (٧٣٢ ق. م) وتمكن أحد العلماء (١٩) أن يستقرىء قطعاً من الألواح الآشورية التي تتحدث عن هذا الاستيلاء ليحدد أبعاد هذه المملكة، مملكة دمشق، فذكر مضمونها كما يلي: ((أنا ضممت إلى آشور، الأرض الواسعة التي تخص مملكة حزائيل والتي تمتد من مرتفع لبنان قريباً من مدينة جلعاد إلى مدينة بيت ملكا والتي تقع عند حدود بيت عمري. ونصبت عليها

(١) H.Van Der Osten; Tel es Salhie, Lund; C.W.K Gleerup 1956p.37-39.
(٢) G.Dossan; les Archives economiques du Palais de Mari-Syria 1939; 97-113 .
(٣) W. Helek; Dir Agyptische Verwaltung in den Syrishen Besitzungen MDOG 92-1960 6-7 .
(٤) F. Tureau dangin; Arslan Tash; Paris P. Geuthner 1933 pp. 16-61.



التكية السليمانية مشهد جوي ١٩٢٨ (تصوير إيكو شار)

حاكماً وقادة))[1] .

٥/٤ ولكن يبدو أن دمشق عادت إلى الظهور، فلقد ذكرت النصوص أن جلعاد أصبحت آخر حدود دمشق آرام. وبعد عام (٧٣٢ ق. م) تصبح دمشق عاصمة مقاطعة آشورية أطلق عليها (مرزبانه آسورا عربايا).

٥/٥ ولا تزال آثار دمشق الآرامية مخفية تحت الأرض. ولقد استطاع العالم (سوفاجيه) أن يتصور أبعاد هذه المدينة الآرامية التي تقع تحت المدينة الحالية وضمن حدود السور، وكانت شوارعها مشابهة للوضع الراهن. ويعتقد أن معبد حدد الآرامي كان أول معبد يقع في مكان الجامع الأموي الكبير، ويؤكد ذلك العثور عام (١٩٤٦م) على أحجار كبيرة تعود إلى العصر الآرامي، وعلى تمثال بارز من البازلت يمثل أسداً مجنحاً يعتقد أنه يعود إلى العهد الآرامي، وذلك لشبهه بالأسود والأشكال الحيوانية التي تزين السرير العاجي الملكي الخاص بالملك حزائيل ملك دمشق الآرامي، والذي عثر عليه في (أرسلان طاش) قرب عين العرب في شمالي سورية، وكان للمعبد مذبح شهير في إتقانه ودقة صنعه، حاول تقليده الملوك الذين زاروا دمشق.

٦/٥ من المعتقد أن القصر الملكي الآرامي يقع في تل السماكة الذي يرتفع عما حوله بمقدار خمسة عشر متراً. ولقد تحدثت الروايات التاريخية عن هذا القصر حيث اعتصم فيه ملك دمشق ضد غزوات

(١) M.F. L Mallown; Nimrud and its remains- LONDON COLLINS 1966.IP.598.

مدينة دمشق في العهد الروماني حسب سوفاجيه - ايكوشار

الآشوريين، وكان منيعاً تَرِف الزخرفة. ولقد أوردت الوثائق التاريخية وصفاً لبعض التحف الغنية التي كان يحتويها مما غنمه ملك آشور بعد حصاره دمشق عام (٨٠٥ ق. م) وما غنمه فرعون مصر تحوتمس الثالث الذي غزا دمشق[١] .

٧/٥ الآراميون هم من العرب الشماليين، يتكلمون اللغة العربية الشمالية التي تسمى اليوم السريانية، وهي لهجة قديمة عاشت في وقت واحد مع لغتين أخريين واحدة في العراق وهي الكلدانية وأخرى في الساحل وهي الفينيقية. والآراميون هم سكان دمشق الأصليين الذين استقبلوا الفتح الإسلامي بالفرح والدعم تخلصاً من سلطة الروم.

وما زالت أسماء القرى المجاورة لدمشق وأسماء الأنهار آرامية محرفة حتى اليوم.

٦ - دمشق في العصور الكلاسية

١/٦ بعد انتصار الاسكندر المقدوني على دارا الثاني ملك الفرس وامتداد سلطانه على بلاد الشام ومنها دمشق ابتدأ عهد الحضارة الكلاسية منذ عام (٣٣٢ ق. م) وحتى عام (٦٣٠م).

٢/٦ ألف عام تقريباً ودمشق تعيش تحت السيطرة السياسية الإغريقية السلوقية، والرومانية، ثم البيزنطية، ورغم قوة تأثير الثقافة الهلنستية، فإن دمشق وباقي المدن الشامية، لم تفقد شخصيتها القومية الثقافية، بل كان من رجالها قواد وشيوخ وحكماء وشعراء لعبوا دوراً في مراكز الإمبراطورية الرومانية أو في الإمبراطورية البيزنطية. ولم تكن دمشق عاصمة في ذلك الوقت، إلا لمدة محددة (١١٤-٩٥ق.م) في العهد السلوقي، ثم تصبح في العهد الروماني أيام الإمبراطور ديوقلسيان مركزاً لجيوش الرومان، وأصبحت في عهد أدريان من أمهات المدن. وحصلت على لقب ميتروبول أي مدينة رئيسية. وفي أيام الأسرة السورية من عائلة سيفيروس، حصلت على لقب مستعمرة رومانية مما أكسبها بعض الامتيازات[٢] .

٣/٦ كانت دمشق إحدى المدن العشرة (الديكابوليس) الأكثر أهمية في العالم الروماني، ومن آثار دمشق في العهد الروماني، معبد جوبيتر الذي مازالت آثاره واضحة حول الجامع الأموي الكبير، وبعض أبواب دمشق وأجزاء من سورها، وحسب تصور العالم سوفاجيه فان المدينة محاطة بسور مستطيل الشكل طوله ألف وخمس مئة متراً وعرضه سبع مئة وخمسون متراً، تخترقه أبواب سبعة لكل باب اسم بحسب الكواكب السبعة، ولقد أطلق عليها فيما بعد اسم الباب الشرقي وباب كيسان (أو بوابة سان بول) والباب الصغير وباب توما وباب الجنيق وكان في الغرب، وباب الفراديس في الشمال.

٤/٦ يخترق المدينة من الباب الشرقي إلى باب الجابية الغربي طريق مستقيم، وإلى طرفيه أروقة محمولة على أعمدة كورنثيّة

(١) H. Tadmor : The thouthern Border of Aram IEJ;-12;118-1962

(٢) N. Ellisseeff; Dimashk; in Encyclolaedia of Islam pp . 177-191-London

جميلة، وكانت المخازن التجارية موزعة على طول هذا الشارع الذي تم اكتشافه وتحديد أقسامه كما تم اكتشاف قوس النصر في منتصفه.

٥/٦ وفي شرقي المدينة يقع المعبد في مكان الجامع الأموي، وكان من أشهر معابد العالم القديمة، ولقد صمم ونفذ من قبل الدمشقيين، وما زالت أسوار المعبد الخارجية والداخلية وبعض الأروقة واضحة حتى يومنا هذا.

٦/٦ وتقوم ساحة الآغوارا شرقي المسجد فوق حي القيمرية اليوم (ساحة الدوامنة). أما قصر الحاكم فيقع جنوبي المعبد وإلى غربه المسرح، وهي كلها مخفية تحت الأرض يدل عليها الشكل العمراني للمنطقة.

ولقد أنشئت في عهد الرومان، القناطر المائية وتسمى اليوم القنوات، ويطلق على الحي والنهر المار عليها اسم القنوات.

٧/٦ دمشق في العهد البيزنطي

وفي العهد البيزنطي حوّل هيكل معبد جوبيتر إلى كنيسة القديس يوحنا المعمدان وذلك في أواخر القرن الرابع الميلادي، كما نشأت كنيسة المصلبة في حي باب توما، وكنيسة المقسلاط، وكنيسة مريم في باب شرقي حيث تقوم الكنيسة المريمية، التي وصفها ابن جبير، ومن الأديرة دير مرّان في سفح قاسيون ودير سمعان ودير النساء في منطقة الفراديس، وتذكر المصادر وجود قصر هرقل أو قصر شمس الملوك. ووجود قصر جلّق، ذكره البلاذري، ويقع في منتصف الشارع المستقيم. وفي عهد الغساسنة كان في دمشق قصر كبير هو البريص الذي تحدث عنه الشاعر حسان بن ثابت، وكان العرب ينزلون فيه ضيوفاً على أمراء غسان.

٧ - دمشق عاصمة الدولة الأموية

١/٧ استلم الأمويون الخلافة الإسلامية عام ٦٦١ م. وكان عليهم أن يجابهوا عالماً مهزوماً كان العرب قد انتصروا عليه. وأن يتجاوزوا مستواه الحضاري فيقفزوا بسرعة من ظروفهم البدائية التي كانوا عليها في الجزيرة العربية إلى ظروف حضرية راقية. ولقد أثبت العرب من خلال تقدمهم أنهم أمة سريعة التطور والنمو، شديدة الطموح واسعة المقدرة، فلم يستريحوا ويقنعوا بالحياة الرخية التي كانت عليها بلاد الشام وسواد العراق، بل أخذوا يضاهون الواقع بمنجزات أفضل، ثم انطلقوا خارج هذه الحدود التي لم تكن سياستها وإدارتها بالأمر السهل، ومع ذلك استطاع معاوية أن يدير شؤون خلافة امتدت فشملت العراق والجزيرة والشام ومصر، هذه الأمصار التي ما زال العرب اليوم، وبعد أكثر من ألف ومئة سنة يطمحون إلى إعادة وحدتها، فوطد الحكم ووضع له مبادئ راسخة سار عليها من خلفه من قادة الغَرب، حتى إذا جاء عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) بلغت دولة الشام أوج عزها ومجدها في عهده وعهد أبنائه الخلفاء الأربعة، فقد وصلت الدولة الإسلامية في عهد الوليد وهشام أقصى اتساعها، فامتدت من شواطىء الأطلسي وجبال البرنة غرباً، إلى نهر الأندس وتخوم الصين شرقاً (وهو اتساع قل أن تجد له مثيلاً في العصور القديمة ولم تبلغه في العصور الحديثة إلا الإمبراطوريتان

البريطانية والروسية).

٢/٧ ولقد كان على خلفاء بني أمية الذين حكموا هذه الإمبراطورية الواسعة التي تكونت خلال خمسين سنة من الدعوة المحمدية، ومن انطلاق العرب من جزيرتهم، أن يعززوا سلطانهم في بلاد الشام، فأقاموا المنشآت التي تدل على عظمة الحكم المسيطر على هذه الرقعة الواسعة الأرجاء، مثل مسجد قبة الصخرة في بيت المقدس الذي أنشأه عبد الملك بن مروان يحدوه في ذلك رغبة إقامة مسجد ضخم يليق بأهمية الإسلام وعظمة دولة العرب ويضاهي في بهائه وفخامته الكنائس التي كانت قائمة في سورية وفلسطين.

٣/٧ كذلك أراد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥- ٧١٥م) أن يخص المسلمين بمسجد كبير في دمشق وهو الجامع الأموي، الذي أصبح الآبدة الأكثر تعبيراً عن عظمة العرب وروعة الإسلام واتساع سلطانه.

٤/٧ كانت دمشق العاصمة في عهد الأمويين مؤلفة من أحياء وحارات تضم بيوتاً مغلقة يتوسطها فناء فيه حوض ماء ذو نافورة، وفيه أشجار البرتقال والنارنج وأزهار الياسمين والورد، وحول الفناء غرف ينفتح أمامها رواق في المنازل الكبرى.

٥/٧ ويحدثنا المؤرخون عن السقايات الجارية وعدّد منها ابن عساكر عشرين يرجع أكثرها إلى العهد الأموي، ولقد شيدت الحمامات والفنادق. والقيساريات وهي أبنية تضم المهن بحسب اختصاصها.

وقد نظم الأمويون في دمشق طريقة إروائها من نهر بردى، وما زال اسم يزيد بن معاوية



قبر معاوية بن أبي سفيان
في مقبرة باب الصغير

مرتبطاً بأحد الأقنية وهي فرع من فروع بردى السبعة. ولكن مما لاشك فيه أن الخلفاء الأوائل الذين تربعوا على عرش هذه الإمبراطورية الواسعة، كانوا قد حملوا معهم عاداتهم البدوية وحنينهم إلى الصحراء، فكانت أكبر منازلهم وقصورهم تقع بعيداً عن العاصمة، تأخذ أشكالاً بسيطة أو متطورة بحسب الظروف الجغرافية للمنطقة أو الظروف السياسية التي خضع لها الخليفة.

٦/٧ دمشق في عهد الوليد

في عهد الوليد أنشئت المشافي ودار الخيل وكان موقعها قرب قصر الخضراء. ولقد توسعت المدينة فنشأت مراكز سكنية عرفت باسم منازل القبائل، والأرباض، ومن المنازل: الشاغور والميدان وقصر حجاج وعالية وقنوات واللؤلؤة الكبرى، والصغرى، وصنعاء، والنيربان، وبيت لهيا، وبيت أبيات وأرزة ومقرى وحور تعلا والفردوس والسهم

YEZID
TORA
BARADA
BANYAS
QANAWAT
Okaibé
El Kassa'a
Souk Sarouja
Chaghour
Le Tell primitif araméen
Es Boeyda
Midan el Tahtani
Midan el Foqani
EL MIDAN
El Qanawat

LEGENDE

XIIIe SIECLE
XIVe S.
XIXe S.
XXe S.

N

0 400 800 2000m
200 600 1000
Echelle1/20.000

توسع مدينة دمشق

مخطط شبكة الطرق

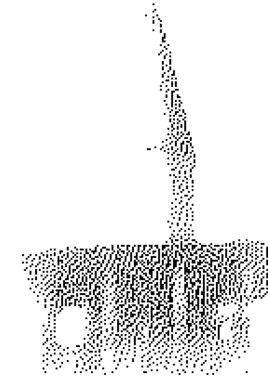
الأعلى والسهم الأدنى، والشرف الأعلى والشرف الأدنى. هذه المناطق التي أصبح بعضها بساتين، لم تلبث أن أصبحت أحياء جديدة معمورة تدخل في أقسام مدينة دمشق الحديثة.

وكان في طرف المدينة ميدانان كبيران الحصى في الجنوب والمرج الأخضر في الغرب.

وأنشىء في دمشق منذ عهد عبد الملك دار للبريد ودار لضرب النقود تسمى دار السكة وثكنات للجيش ودار للإمارة، حول الجامع الكبير.

وثمة دار لعبد العزيز بن مروان وابنه الخليفة عمر، كانت قائمة مكان بناء المدرسة الشميساطية لصق الجدار الشمالي للمسجد الكبير. وقصر لهشام في مكان المدرسة المجاهدية.

وتهفو قلوب الخلفاء

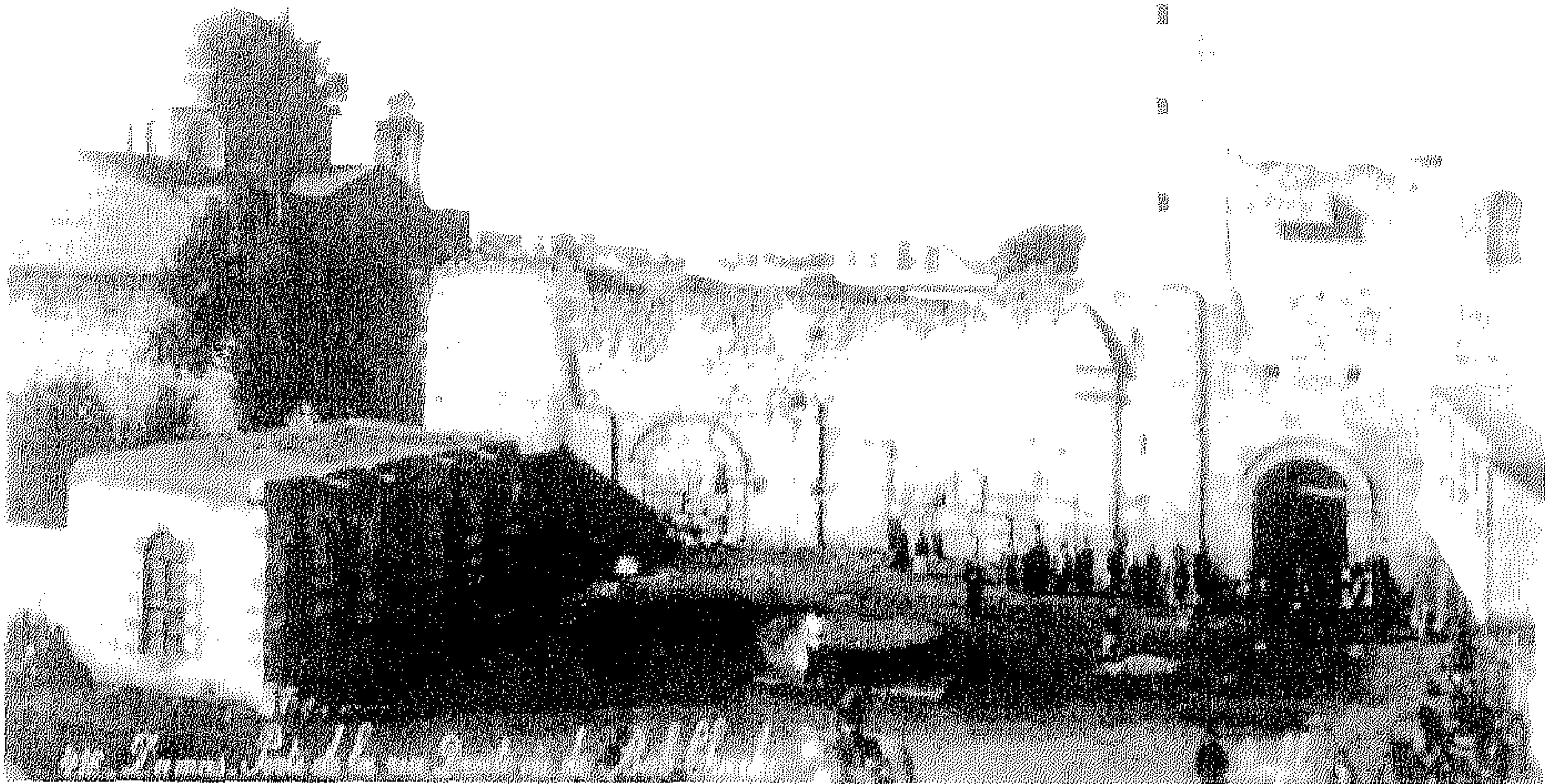


العباسيين أحياناً إلى دمشق. يقول ابن عساكر: ((لم يزل ملوك بني العباس تخف إلى دمشق طلباً للصحة وحب المنظر، أقام بها المأمون وأجرى إليها قناة من نهر منين إلى معسكره بدير مران وبنى القبة في أعلى جبل دير مران)).

٨ - دمشق بعد الأمويين

١/٨ وتفقد دمشق أهميتها في العصر العباسي بعد أن تنقل العاصمة إلى بغداد وتعرضت المدينة للإهمال، بل للدمار والحرائق عام (١٠٦٥ م).

٢/٨ وفي عهد الفاطميين كانت دمشق جنة الدنيا وكان بظاهر دمشق، كما يقول المهلبي البهنسي المتوفى عام (٩٩٠ للميلاد): ((وادي البنفسج تكسيره نحو أربعة أميال ونهر بردى يشقه والوادي كله مملوء بشجر السرو، لا تصل الشمس إلى أكثر أرضه. وأرضه كلها بنفسج متشح بعضه ببعض في نهاية الحسن، وبدمشق عدة من ألوان الورد فمنها أصفر إبريز وأسود



مدخل المدينة من الشرق

وسماقي وورد موجه للورقة لونان من خارجها وداخلها، وليس للزهر على وجه الأرض ببلد أكثر منه بدمشق)).

وفي عهد الفاطميين تظهر بعض المنشآت التي ما تزال آثارها باقية منها محراب جامع فلوس وضريح السيدة فاطمة وضريح السيدة سكينة، وزال نهائياً قصر الولاة الذي أنشيء خارج الأسوار، وكان كحصن للوالي وحاميته هدم بعد أن قضى سكان دمشق على الأمير الفاطمي بدر الجمالي.

٣/٨ وازداد نسيج مدينة دمشق العمراني تكاثفاً، وظهرت الأحياء المستقلة المكتفية بسوقها وجامعها وبابها تغلقها لحماية سكانها. وبقي السور متهدماً فيها إلى عهد نور الدين، حيث تنفست دمشق الصعداء واتجهت إليها عناية السلطة.

لقد كان نور الدين مصلحاً محباً للعمران فأنشأ كثيراً من المنشآت التي ما تزال باقية حتى الآن، مثل البيمارستان والمدرسة والحمام ودار الحديث وأصلح السور والأبراج وفتح باب السلام وباب الفرج، وخارج السور أنشأ قصر شمس الملوك وخانقاه خاتون. وفي عهده ظهرت الصالحية ضاحية مستقلة، أول من سكنها المقادسة المهاجرون ودعاة المذهب الحنبلي. وفيها أنشئت مدارس ما زالت باقية كالجهاركسية والصاحبة والشبلية والركنية والشامية، التي أنشئت في العهد الأيوبي المتمم لعهد نور الدين.

كما ظهرت أرباض أخرى خارج السور كمنطقة حكر السماق (شارع النصر) وأنشت مساجد في الصالحية كجامع الحنابلة والماردانية في السفح، وجامع الجراح في الشاغور والتوبة في العقيبة وباب المصلى في الميدان، وأنشئ في الصالحية بيمارستان القيمري.

٤/٨ وأهم المنشآت الأيوبية، قلعة دمشق التي سنتوسع في الحديث عنها وعدد من المدارس، العادلية الصغرى والعادلية الكبرى، والبادرائية والناصرية والقلبقجية والعزيزية والإقباليتان الحنفية والشافعية، وكان في دمشق مئة حمام وأربعون داراً للوضوء وقيسارية مما تحدث عنه الرحالة في عهد صلاح الدين.

ولقد بلغت دمشق أقصى توسعها في عهد المماليك، إلى أن جاء تيمورلنك وحل بها الخراب الكامل.

٩ - دمشق في العصر المملوكي والعثماني

١/٩ في دمشق قصر السعادة الذي كان أولاً لنور الدين واتخذه المماليك مقراً لأمرائهم، كما ازداد عدد المدارس في عهدهم ومنها دار الحديث التي بناها تنكز والمدرسة الخيضرية والمدرسة الجوهرية كما أنشئت الجوامع ومنها جامع هشام والقلعي. كما اتسعت الضواحي ونمت واتصلت بالأسوار فتتسع الصالحية وينشأ في سفحها محلة الميطور وحمام النحاس والجسر الأبيض وأرزة. وفي شمالي السور تظهر محلة السبع أنابيب والأقصاب والعقيبة وتحت القلعة، وفي الجنوب الشاغور وباب السريجة والشويكة والميدان.

٢/٩ ومن أهم المنشآت، القصر الأبلق الذي أنشأه الملك الظاهر بيبرس، (مكان التكية)

وفي جنوب القصر ظهرت أحياء المنيبع والخلخال. وجامع الأمير تنكز (شارع النصر) وجامع الأمير يلبغا (المرجة) وحوله ساحة مزدحمة بالنشاط التجاري. كانت دمشق في ذلك الوقت من أجمل مدن العالم نضارة ونظافة ومن أكثرها نشاطاً وازدهاراً.

٣/٩ دمشق في العهد العثماني

ولقد اقتدى العثمانيون الأوائل بالمماليك في حب العمران، فأنشأ السلطان سليم التكية لإطعام الفقراء في الصالحية والجامع وفيه ضريح الصوفي محيي الدين بن عربي. كما أنشأ أبنه سليمان القانوني التكية والمدرسة المجاورة لها في مكان القصر الأبلق الظاهري، وفي عام (١٥٧٤م) شيد الوالي درويش باشا الجامع والمكتب والمدفن والسبيل هذه المجموعة المعروفة اليوم بالدرويشية، كما أنشأ هذا الوالي سوقاً وفيه خان وحمام (سوق الحرير والقيشاني)، كما أنشئ مسجد سنان باشا (٩٧٠ هـ /١٥٦٢م) وأنشأ مراد باشا مسجداً وتكية (٩٧٦ هـ/١٥٦٨م).

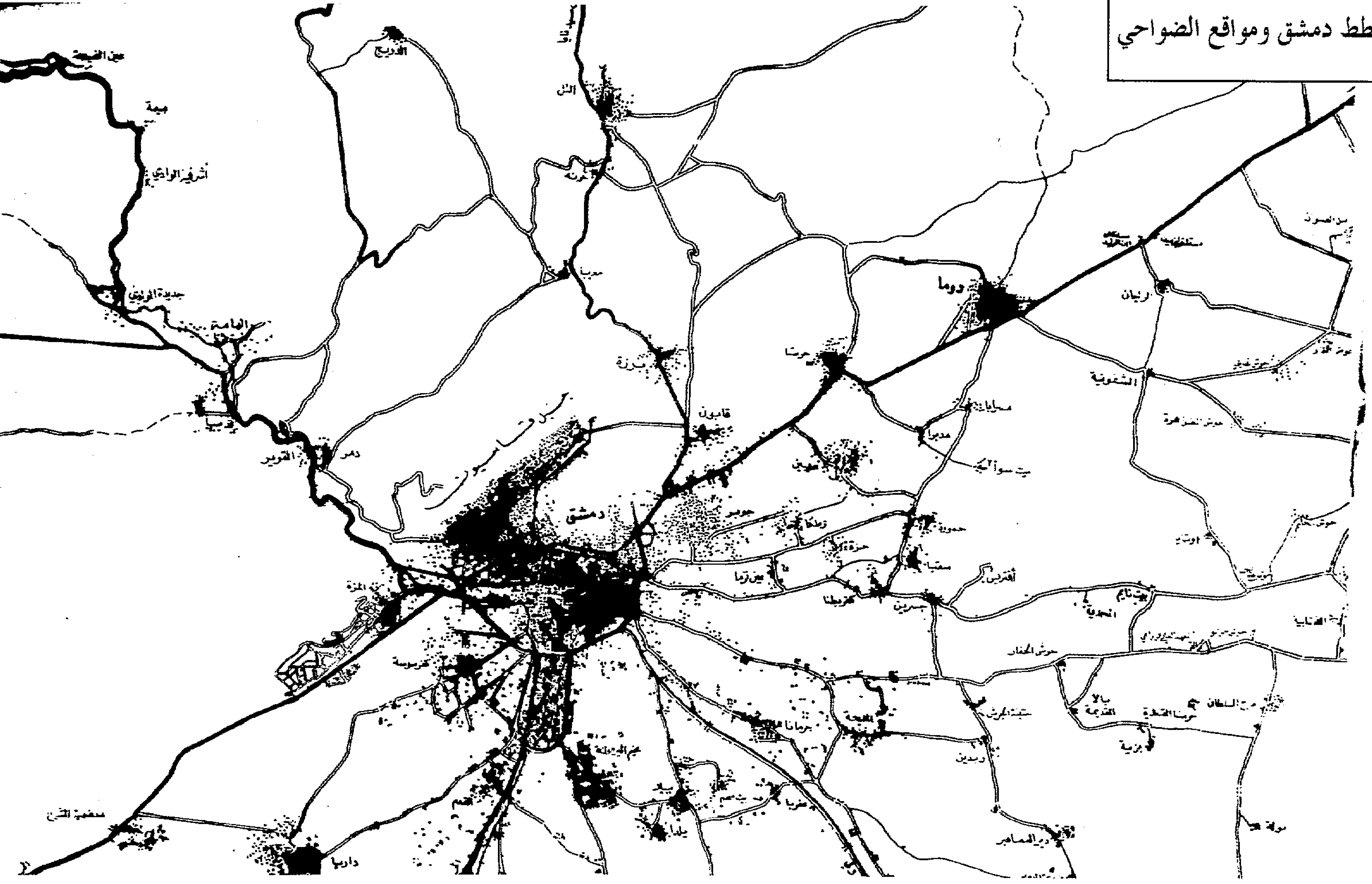
٤/٩ أنشأ الولاة من أسرة العظم كثيراً من المباني التي ما زال بعضها قائماً حتى الآن وبخاصة قصر العظم والخان، والمدرسة، وسوق الحميدية الشهير.

٥/٩ ولعل عهد الوالي ناظم باشا كان من أكثر العهود العثمانية ازدهاراً، فلقد أنشأ في بداية هذا القرن القصر في المهاجرين، المستشفى الوطني ودار المعلمين، والسراي ودار البلدية والشرطة، وجر مياه عين الفيجة إلى دمشق، ومدد خط البرق إلى المدينة المنورة وأقام النصب الضخم في ساحة المرجة، وباشر بإنشاء سكة حديد تربط دمشق ببيروت من الغرب وبالحجاز من الجنوب. وابتدأ في إنارة دمشق بالكهرباء منذ عام (١٩٠٥م) وسيرت الحافلات الكهربائية منذ ذلك الوقت من الجسر الأبيض إلى الميدان. وبنى ناظم باشا حي المهاجرين وسقف أسواق دمشق.

٦/٩ ومنذ ما بعد الاستقلال (١٩١٨م) تبدأ دمشق بالانقسام إلى مدينة قديمة ضمن الأسوار، ومدينة حديثة تزداد التحاماً وانتظاماً خارج الأسوار، ويبلغ التناقض أوجه بين المدينتين في أيامنا هذه.



دمشق تحتفل بالاستقلال والتحرير ١٩٢٠م


مخطط دمشق ومواقع الضواحي
دمشق
دوما
حرستا
القابون
برزة
دمر
الهامة
الديرج
التل
داريا
مسرابا
الشفونية
ريان
جرمانا
كفرسوسة
ببيلا
يلدا
دير الصافير
حرستا
عربين
زملكا
جسرين
عين ترما
كفربطنا
سقبا
حمورية
أفتريس
جوبر
مديرا
دير العصافير
بيت سوا
الحجرية

الفصل الثاني

العوامل الأساسية المكونة لمدينة دمشق

١- المقدمة
٢- العامل الجغرافي
٣- المناخ والمسكن
٤- المياه
٥- المسكن والمواد الإنشائية
٦- الجغرافية وشروط المدينة
٧- العامل التاريخي
٨- العامل الروحي
٩-العامل الحضري
١٠- العامل الاقتصادي الدولي
١١- أهمية آسورا عربايا
١٢- أثر التجارة في تاريخ الشام
١٣- التوسع التجاري
١٤- التبادل والاستقرار
١٥- العامل الثقافي
١٦- العامل السياسي

العوامل الأساسية المكونة لمدينة دمشق

١ - المقدمة

١/١ عندما نتحدث عن المدينة العربية الإسلامية، فإن مجموعة من العناصر تتزاحم متميزة أو متداخلة. لكي تدل على شخصية هذه المدينة. ولا بدّ من تحليل هذه العناصر من خلال المعطيات الروحية والمادية، ومن خلال المعطيات التاريخية والطبيعية.

٢/١ وتتشابه المدن العربية الإسلامية في تحديد عناصر وجودها، وذلك للوحدة الجغرافية والتاريخية والبشرية والعقائدية، القائمة فيما بينها. ويمكن أن نأخذ دمشق القديمة كنموذج لهذه الدراسة، لأنها قطب أساسي من أقطاب البلاد العربية الإسلامية، فهي دمشق الشام التي تقابل اليمن. وما تسمية

(الشام) و(اليمن) إلاّ ما تعنيه كلمة الشمال والجنوب، بالنسبة لأرض الجزيرة التي نشأ عليها العرب عبر التاريخ.

ولعل مارواه ابن عربي، يفيدنا في الدلالة على هذا المعنى:

كذب الشاعر الذي قال قبلي
وبأحجار عقله قد رماني
أيها المنكح الثريا سهيلاً
عمرك الله، كيف يلتقيان
هي شامية إذا استقلت
وسهيل إذا استقلّ يماني

٣/١ وثمة سبب آخر يجعل دمشق خير نموذج لهذه الدراسة أنها تجمع العوامل الأساسية المكونة للمدينة العربية الإسلامية. وهذه العوامل هي: العامل الجغرافي، العامل التاريخي، العامل الديني، العامل الحضرى، العامل الثقافي، العامل الاقتصادي، العامل السياسي.

٢ - العامل الجغرافي

١/٢ تقع مدينة دمشق على (خط عرض ٣٣/٣٣ وخط طول ٣٦/١٧ شرقي غرينتش). واشترك في تحديد وجود مدينة دمشق نهر بردى والغوطة التي تكونت بفعل هذا النهر.

٢/٢ وكان موقع المدينة في البقعة التي توزعت فيها مياه النهر وتشابكت فروعه فيها، تحتضنها رياض وبساتين ومروج الغوطة التي كانت المدى الحيوي اللازم للمدينة، ويحيط بالغوطة من الشمال والغرب جبال جرداء هي جبال قاسيون والمزة، ومن الشرق البادية القاحلة، ومن الجنوب مناطق قاحلة.

٣/٢ أما طبقات المدينة الجيولوجية فإنها تتدرج بشكل منتظم، من أعالي قاسيون وحتى السفح، مبتدئة بالعصر الكريتاسي وفتراته، حتى الباليوجين، ثم يبدو السفح كله من العصر الرابع، ولقد قامت البعثة السوفياتية وقبلها الخبير الفرنسي (دوبرتريه Dubertret)[١] بتقديم خريطة جيولوجية لهذه المدينة نحيل المستزيد إليها.

٤/٢ ويعتقد (فان ليره Van Liere)[٢]، أن ثمة بحيرة كبيرة يصعب تحديد عمرها

(١) Dubertrel: Lhydrologie et apercu hydrologique de la Syrie et du Liban, 1933 .
(٢) Van Liere: The soid associations of basin of Damascus and arrounding 1953.

كانت قد تكونت في أرض المدينة، ومن بقاياها بحيرة العتيبة والهيجانة، هذه البحيرة الكبيرة كونت الطبقات الرسوبية لأرض المدينة، بالإضافة لرواسب العصر الرابع ورواسب نهر بردى المتتابعة، وجعلت هذه الأرض صالحة للزراعة الخصبة.

٥/٢ نظراً لندرة الحجارة وبُعْد المقالع الحجرية نسبياً عن المدينة، فإن العمارة وأكثر المنشآت اعتمدت على مادة الطين لإقامة الجدران والتغطيات، أما الأبنية الحجرية فهي قليلة وإنما استعمل الحجر في البيوتات الفخمة البرجوازية وفي دعم المساكن العادية وخاصة في تقوية الأساسات.

٦/٢ ولقد شقّ نهر بردى مجراه مع فروعه في هذه الأرض، مكونا مصاطب مختلفة الارتفاع عن مستوى النهر السفلي، وموازية له. ويمتد هذا النهر في قطاع طولي مخترقاً المدينة بشكل قوس مقعر وبانحدار متناقض، ترفده مساقط مائية تصل إلى أربعة عشر مسقطاً، بعضها يحمل معه رسوبات وفضلات الأحياء، وينقل النهر معه كثيراً من الرمال والبحص، وما منطقة البحصة إلا مجمّع رمال وحصى هذا النهر في الماضي. بل إن الغوطة نفسها تقوم على مروحة حصوية متدرجة نحو الشرق[1].

٧/٢ أما مناخ دمشق فهو شبيه بمناخ أكثر المدن العربية الإسلامية، وهو مناخ جاف بسبب انفتاحها على الصحراء من الشرق، ووجود جبال لبنان الغربية والشرقية، كسد يمنع رطوبة البحر من التأثير القوي على مناخها. وعلى هذا فإن أمطار دمشق غير منتظمة، ويبقى المعدل السنوي للأمطار هو (٢١٥ مليمتراً) ومدتها ثلاثة أشهر، والصيف فيها قاس جاف، ومتوسط الحرارة خلاله هو (٣٥ درجة)، وتنخفض درجة الحرارة في الشتاء، ومعدلها هو (٧ درجات).

٨/٢ ويبلغ الضغط الجوي في كانون الأول أقصاه (٩٣٤) ميليبار وينخفض تدريجياً حتى يصل في شهر تموز إلى (٨, ٩٢٤) ميليبار.

٩/٢ وتقع دمشق تحت تأثير الانخفاضات الجوية التي تسبب اضطراب الطقس وتقلبه، ويصل ذلك إلى حده الأقصى في شهري شباط وآذار، ويبلغ عدد الانخفاضات كل شهر أربعة انخفاضات جوية.

١٠/٢ وتهب على دمشق رياح خلال جميع أشهر السنة، والرياح الغالبة هي الشمالية الغربية والغربية، وتهب خلال الخريف رياح شرقية صحراوية، وتبلغ سرعة الرياح أقصاها في أشهر الصيف إذ تصل إلى(٦, ١٨كيلومتراً في الساعة)، وتنخفض سرعة الرياح في الشتاء حتى تصل إلى (٧, ٦ كيلومتراً في الساعة).

١١/٢ وتبلغ الرطوبة أقصاها في فصل الشتاء، وتصل إلى (٧٢ ٪)، وتقل في الصيف حيث تصل إلى (٣٣ ٪) وتختلف الرطوبة خلال اليوم الواحد إذ تبلغ نهايتها العظمى في الصباح الباكر، ثم تتناقص في الظهيرة وتعود إلى الارتفاع بعد الغروب.

---

(١) د. صفوح خير: مدينة دمشق، دراسة في جغرافيا المدن، دمشق ١٩٦٩

وتجدر الملاحظة، أنه عندما تبلغ الحرارة حدها الأدنى تبلغ الرطوبة النسبية حدها الأقصى، وهذا مايساعد على تحمل حرارة الصيف المرتفعة.

١٢/٢ والسحب في دمشق قليلة، وهي تبدو متكاثفة في الشتاء، أما في الصيف فإن السماء تبدو صافية دائماً والشمس الساطعة لا تجد ما يحجبها عن المدينة حتى يبلغ عدد ساعات الشمس المحرقة في تموز (٤٠٠ ساعة)، بينما هي (٢٠٠ ساعة) في كانون الثاني.

١٣/٢ يبدو من هذا العرض السريع أن مناخ دمشق قاري متطرف، الفروق الحرارية السنوية فيه واسعة تتجاوز (٢٠)، كما أن الفروق الحرارية اليومية فيها (٢٠) أيضاً[1] وهو مناخ جاف، رياحه عاصفة سريعة تنقل الغبار من المناطق الجبلية القاحلة أو من البادية.

هذا المناخ الذي يتشابه في أكثر المدن العربية الإسلامية، فرض شروطه على تكوّن المدينة ومساكنها وأسواقها بل على تكون المساجد والفنادق والترب، كما فرض شروطه على طابع الزخرفة والتزيين الداخلي(٤).

١٤/٢ لقد تكونت مدينة دمشق، كأي مدينة عربية إسلامية، بصورة عفوية منسجمة مع الضرورات المناخية ومستجيبة لمتطلبات الإنسان الذي يعيش في هذه البيئة الجغرافية، فكانت في ذلك الحيّز المكاني الذي رسم أسلوب حياة الإنسان وتقاليده وشكل تطوره.

واستجابت مدينة دمشق القديمة بصورة تلقائية عن طريق سكانها، لمتطلبات المناخ، فالدروب والأزقة الضيقة الملتوية، التي تحدب عليها المشرفيات والبروزات، مازالت خير وسيلة لتدرأ عن العابرين المشاة حر الصيف القائظ، وبرد الشتاء القارص، ولتحميهم من الرياح والعواصف والغبار، حتى الأسواق فلقد غطيت كلها بقبوات خشبية أو معدنية، فأصبحت واقية شاملة لأهل الأسواق وروادها، كما أنها أعطت السوق طابع الوحدة[2] .

١٥/٢ وإذا ألقينا نظرة على المدينة من عل، فإننا نرى أسطحتها وقد امتدت على ارتفاع واحد تقريباً، فلا يرتفع البيت أكثر من طابقين. وهكذا فإن تيارات الهواء لا تؤثر على حرارة الجو في الدروب والحارات، مما يجعل الفارق الحراري فيها ضعيفاً ويحميها من تقلبات الطقس الخارجي.

٣ - المناخ والمسكن

١/٣ أما المسكن فهو في تكوينه وهندسته شديد الانسجام مع ظروف المناخ، ونعرض هنا بعض مظاهر هذا الانسجام.

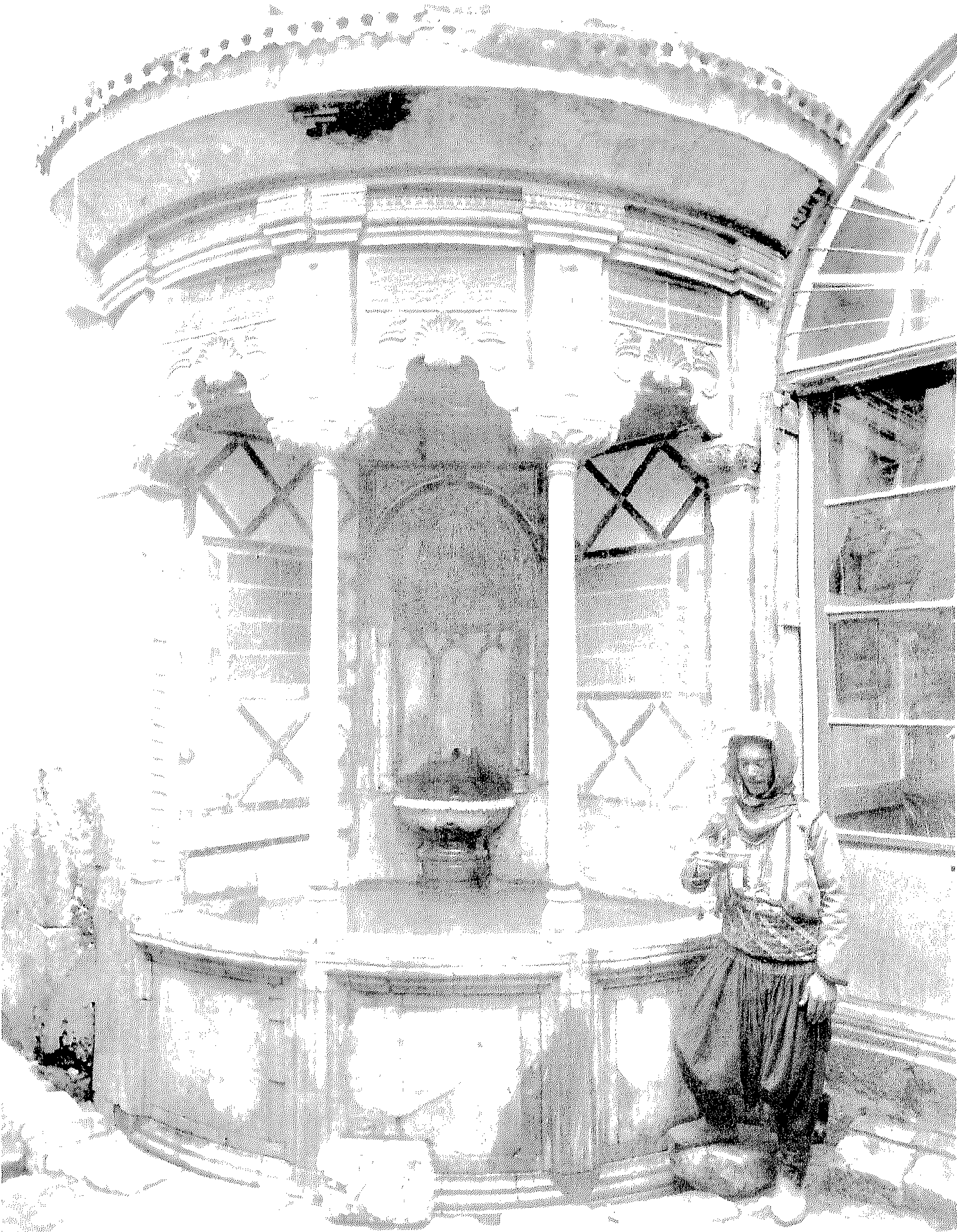
٢/٣ الاتجاه: يمتد المسكن في دمشق بشكل مستطيل من الشمال إلى الجنوب منحرفاً (٢٠ درجة) نحو الغرب، وذلك لكي يستفيد هذا المسكن من أشعة الشمس الجنوبية (أو القبلية) ويتحاشى الرياح الغربية الشمالية والغربية.

٣/٣ التلاحم: تلتصق المساكن ببعضها

---

(١) الأرصاد الجوية : تقارير وردت في كتاب مدينة دمشق للدكتور صفوح خير.

(٢) Y. Ibech: The Islamic City, Economical colloqium Cambridge 1976.



سبيل عثماني كان في سوق البزورية، أزيل وقطعه في متحف التقاليد الشعبية

متداخلة أو تفصلها الأزقة الضيقة والدروب، مما يعطي المدينة وأحياءها طابع التلاحم الذي يساعد على عدم التعرض للرياح والشمس، عدا أنه يعطي المدينة طابع التماسك والوحدة.

٤/٣ الصحن: تنفتح المساكن على فناء داخلي يسمى الصحن، وهو من أهم مميزات عمارة المساكن العربية الإسلامية، التي تجعل هذه العمارة أكثر تكييفاً مع ظروف المناخ. ذلك أن مستوى حرارة الصحن لا تتأثر بتيارات الجو الخارجية، ولذلك فإن الفرق الحراري فيها ضئيل، ولأن الغرف المحيطة بهذا الصحن تنفتح عليه، فإن هذه الغرف تبقى محتفظة أيضاً بحرارتها دون أن تتأثر كثيراً بتقلبات الطقس الخارجية.

وعدا ذلك فإن الصحن يسمح بظلال على امتداد النهار كما أنه يحتفظ بهواء نظيف غير ملوث.

٥/٣ الإيوان: هو قاعة بدون جدار رابع منفتحة كلياً على الصحن يركن إليها أهل البيت ويستقبلون فيها ضيوفهم مستفيدين من اتساع الصحن وأشجاره وبركته ومن هواءه النظيف المعتدل.

٦/٣ ارتفاع السقوف والقباب: يبلغ ارتفاع سقف القاعة الكبرى والإيوان في المسكن الدمشقي ضعف ارتفاع الغرف الأخرى، وهذا الارتفاع يساعد على الاحتفاظ بنقاوة الهواء، وعلى تلطيفه المستمر كما هو الأمر بالنسبة للقباب التي تقام في الأماكن العامة كالمساجد والخانات والتكايا والبيمارستانات.

٤ - المياه والمسكن

١/٤ تحفل المساكن الدمشقية بالبرك (بحرة) والفسقيات (فسقية) وبالسلسبيل (المصب)، وتقوم البركة في منتصف الصحن واسعة يبلغ قطرها (٣-٦ أمتار) أما الفسقية فهي صغيرة قطرها متر وهي إما أن تكون مرتفعة أو منخفضة وتصنع من الرخام المشقف أو من الفسيفساء الرخامي الهندسي ومكانها ضمن القاعة، والسلسبيل لوح مرمري مزين بشقوف رخامية مجزعة قائم على الجدار، يسيل من أعلاه الماء على صفحة هذا اللوح المحاط بإطار وقاعدة مزخرفين.

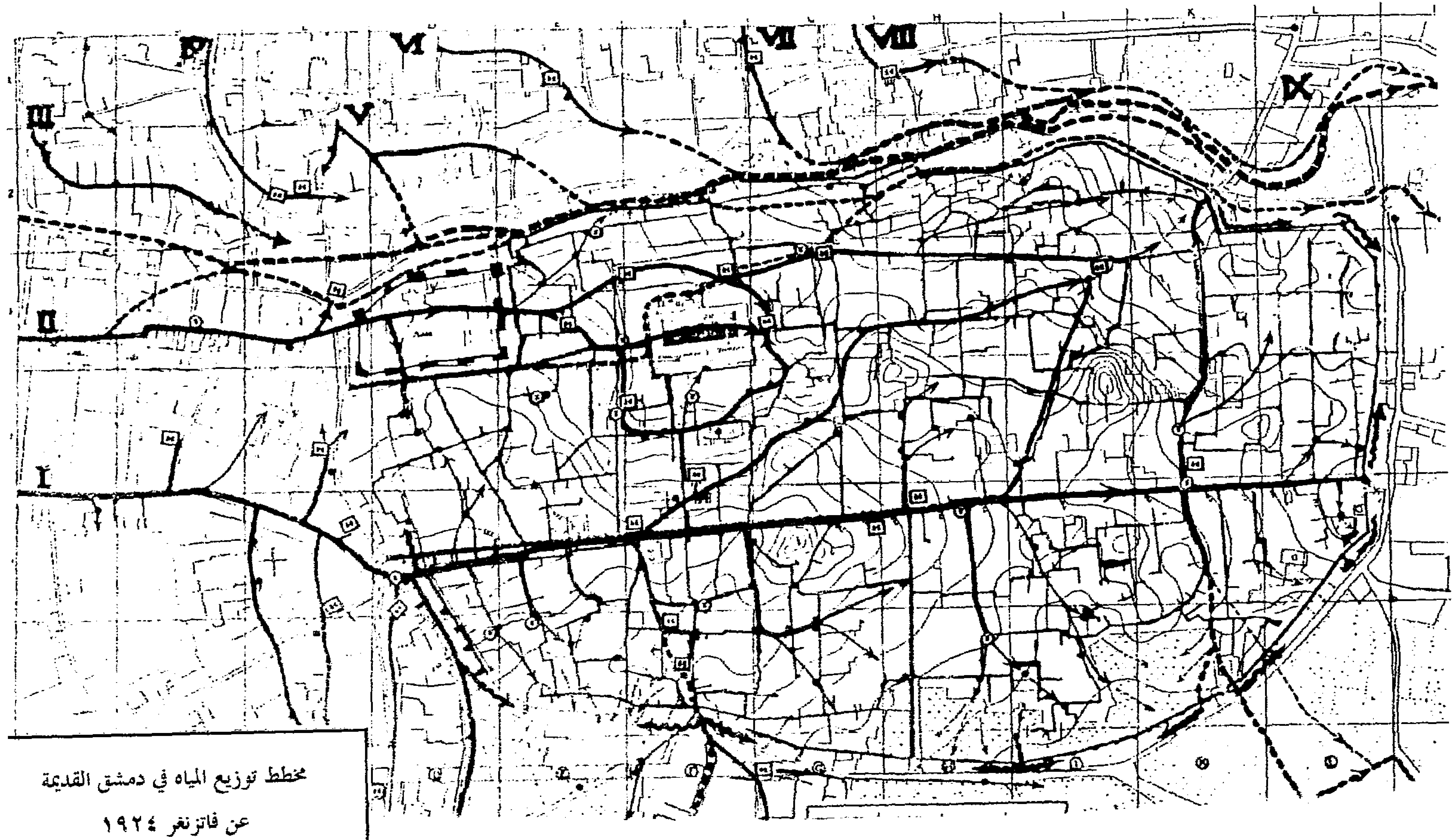
واهتمام المعمار الدمشقي بالمياه محاولة لتلطيف الجو الجاف في داخل البيوت، بل وفي داخل الغرف أيضاً.

٥ - المسكن والمواد الإنشائية

١/٥ أقيمت المساكن والقصور في دمشق



أحد أحياء دمشق خارج الأسوار - بالبحصة البرانية وتبدو البيوت الحديثة ذات النوافذ الكبيرة البارزة



مخطط توزيع المياه في دمشق القديمة

عن فاتزنغر ١٩٢٤

مـن الحجـر ومـن (الآجـر المضـبب بين مداميك البناء بالخشب الملّبن) على حد قول العمري[1] ولقد شرح تومان (Thoumin) طريقة البناء في دمشق شرحاً وافياً[2] وهي في مجملها طريقة لدعم اللبن بأعمدة خشبية أشبه بالإطار، ثم تكسى هذه الجدران بالطين والكلس. أو تبنى الجدران بالطين الدك، أو بالآجر، ويدخل الحجر كمادة إنشائية ضرورية لإقامة المداميك الأولى للجدران ولتغطية بعض الواجهات، ولإقامة إطارات الأبواب والنوافذ الداخلية والخارجية. ولقد أبانت الدراسات أن البناء الطيني هو أكثر انسجاماً مع البيئة القارية من أي مادة أخرى، إذ أن الفرق الحراري في البناء الطيني لا يتجاوز الدرجتين[3] .

٦ - الجغرافية وشرط المدينة

١/٦ إن العامل الجغرافي: قديم وثابت منذ العصر الجيولوجي الرابع على الأقل، وهو يبقى الناظم الأساسي لتطور المدينة عبر التاريخ، فإذا استثنينا الإنسان وخصائصه الروحية والاجتماعية مما سيأتي الحديث عنه، فإن العامل الجغرافي يحدد الشروط اللازمة لتكون المدينة، ويحدد الفرق بين مخطط مدينة قطبية ومدينة استوائية، بل بين مخطط مدينة ساحلية وأخرى جبلية، وثالثة صحراوية، ذلك لأن الأرض وغلافها الجوي هي الحيّز المكاني المادي الذي لابد أن يتفاعل معه الإنسان لتكييف حياته مع شروطه الثابتة.

٢/٦ وعلى هذا فإننا نرى أن مدينة دمشق حملت طابعها العمراني والمعماري منذ القدم، وما زال هذا الطابع قائماً حتى اليوم، ولعل هذه الوحدة الراسخة والمستمرة، هي التي تعطي دمشق هذه الأهمية العالمية من أنها أقدم مدينة في العالم، فهي قديمة لأنها مازالت زاهرة عبر القرون، وهي قديمة لأنها مازالت محافظة على خصائصها عبر التاريخ.

٧ - العامل التاريخي

١/٧ لقد أقام الإنسان في دمشق منذ العصر الحجري القديم، ولقد كشفت حفريات دوكونتانسون في ضواحي دمشق (تل الرماد) عن وجود توضع سكني منذ الألف السابع قبل الميلاد[4] .

٢/٧ واستمرت حياة الإنسان متقدمة في العصر الحجري الحديث، ولقد كانت المدينة قائمة في الجهة الشمالية الشرقية من دمشق القديمة، ليس بعيداً عن باب توما وضمن انحناء نهر بردى عندما يتجه نحو الجنوب الشرقي، ولكن الحياة أصبحت زاهرة في عصر البرونز، وأصبحت دمشق مملكة آرامية ذات سطوة ونفوذ[5]. ولسنا ندري كيف كانت دمشق في نهاية الألف الثاني قبل أن خضعت للمصريين في عهد تحوتمس الثالث، وقد ورد اسمها في وثائق تل العمارنة (دمشقا)، ولكننا نعلم أنها كانت

---

(١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، القاهرة ١٩٢٣ ج١ .

(٢) R. Thoumin: La maison syrienne , paris, 1932.

(٣) عفيف البهنسي : مشكلة المدينة القديمة في البلاد العربية - الحوليات الأثرية السورية مجلد ٢٤ .

(٤) H. de Contenson: Premier pas vers une chronologie absolue a tell Ramad ,A.A.A. Vol-XVI, 1966.

(٥) بشير زهدي : مملكة دمشق الآرامية ، الحوليات الأثرية المجلد ١٩ ، وانظر مقال : J. Hasani : Syria 1949, p.191

موجودة كمدينة خلال الألف الثالث وجميع الدلائل الجغرافية والطبيعية تؤكد ذلك.

٣/٧ ويصف سوفاجيه[1] مدينة دمشق في العهد الآرامي ويضع لها مخططاً تقريبياً، وفيه تبدو هذه المدينة في صورتها الأولى المنسجمة تماماً مع الشروط الجغرافية، وهي بذلك تشكل الأصول الأولى لعمران المدينة ولعمارتها.

ومن الأمور الثابتة أن المدينة كانت محصورة بين المعبد والقصر، ويقع المعبد على الأرجح في مكان الجامع الأموي اليوم، ويؤكد ذلك قانون الاستمرارية (Continueity) الذي يجعل موقعاً ما يحتفظ بوظيفته المعمارية مع تعاقب الحضارات والعقائد. كما يؤكد ذلك العثور على اللوح البازلتي الذي يمثل (أبو الهول) في أساسات الجامع الأموي وقد عثر عليه عام (١٩٤٦م)، وتبين أنه يرجع إلى العهد الآرامي بمقارنته مع ألواح سرير حزائيل ملك دمشق الآرامي.

أما القصر فإن الاعتقاد مازال قائماً بأن موقعه هو تل السماكة[2] وكان قصراً منيفاً غنياً كما ورد في وصف الملك الآشوري (حدد نيراري الثالث).

ولسنا ندري كيف كانت عمارة القصر والمعبد، بيد أن المدينة الآرامية كانت مدينة عفوية Ville Spontannée)ص(كما هو شأن المدن الآرامية السريانية التي مازالت قائمة حتى اليوم في معلولا وجبعدين، بل كما هو شأن مدينة دمشق العربية التي مازالت قائمة حتى الآن كما يرى إيليسييف[3].

٤/٧ إن المبدأ الأساسي للمدينة العفوية هو اندماجها العضوي مع المناخ والطبيعة، فهي نتيجة لمعطيات ثابتة، وليست هي نتيجة لتخطيط عقلي هندسي كما هو في المدينة المبدع(Ville C e)، ففي الحالة الأولى تكون المدينة تابعة لشروط الحياة، أما في الحالة الثانية فتكون المدينة تابعة لأهواء الإنسان، في المدينة العفوية تتطابق حاجات الإنسان مع واقع المدينة المبدعة إذ لابد أن يتأقلم الإنسان مع واقع مفروض، وتبدو المدينة العفوية تابعة لظروف الإنسان، بينما هي في المدينة المبدعة دخيلة على ظروف الإنسان بعوامل تفرضها الوسائل، أو تفرضها السلطة الغريبة أو الطراز المستورد.

٥/٧ ويبدو أن الإنسان في مدينة دمشق القديمة لم يكن يستعمل ضمن المدينة إلا الوسائل الطبيعية في النقل كالجمال والحمير. على الرغم من أنه أول من ابتكر العربة ونقلها إلى مصر في عهد الهكسوس.

وهذه الوسائل لم تكن تتطلب شروطاً خاصة في تصميم الشوارع، على عكس العربة التي استعملت بكثرة في العهود الهلنستية والرومانية، حيث فرضت شروطها على الطرقات في تخطيط المدينة الرومانية التي فرضتها السلطة من جديد على دمشق بعد أن استولى عليها بومبي عام (٦٤ ق. م)، وأصبح المخطط الشطرنجي الذي كان قد ظهر في عهد السلوقيين أولاً في القسم الشرقي من المدينة اليوم غريباً عن

(١) J. Sauvajet : Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas "Revue Etudes Islamiques" 1934.

(٢) ابن جبير : الرحلة (تحقيق الدكتور حسين نصار) القاهرة ١٩٥٥ .

(٣) N. Elisseeff: The Islamic City Phisical lay -out - colloqium Cambridge 1976.

طابع المدينة الآرامي، ثم صار هو المخطط الرسمي للمدينة في عهد الرومان ومازال الشارع المستقيم (Via Recta) قائماً يصل بين باب الجابية وباب شرقي، ولقد وضع سوفاجيه أيضاً مخططاً تصورياً لدمشق في عهد الرومان، ويبدو فيه طابع المدينة المبدعة على أوضح شكل[1] . بل إن الكتل العمرانية أصبحت متشابهة ضمن حدود مساحة (١٠٠/٤٥١ م)، كما أن المدينة ذاتها انحصرت ضمن سور مستطيل (١٥٠٠ م×٧٥٠ م) لايصله بالعالم الخارجي إلا سبعة أبواب.

٦/٧ إن هذه المدينة الغريبة عن الطابع التقليدي للعمران في دمشق بقيت جسماً دخيلاً (أو تشكلاً كاذباً) منفصلاً عفوياً عن المناخ والعادات والإنسان، ولذلك لم يلبث هذا المخطط أن اضمحل، وعادت المدينة العفوية للانتشار في مواقع المدينة الرومانية، بل وبين أطلالها وأعمدتها وفوق آثارها الكثيرة. كما هو قائم حتى اليوم.

واستمرت المدينة تستعيد واقعها العفوي في عهود البيزنطيين الذين احترموا الطابع الشرقي، وإن همّ فرضوا بعض العناصر والأساليب الكلاسية في أسلوب عمارة الأديرة والكنائس. ويأتي العهد الإسلامي لكي تستعيد مدينة دمشق صفاءها وخصائصها بصورة كاملة.

٧/٧ ويتأكد مركز المدينة من جديد، بعد إنشاء الجامع الأموي في عهد الوليد بن عبد الملك، في المكان نفسه الذي أقيم فيه معبد حدد الآرامي ومعبد جوبيتر الروماني وتمتد المدينة باندياح ضمن الأسوار، ويكون للمسجد الجامع دوره الكبير في تكوين دمشق الإسلامية.

٨ - العامل الروحي

١/٨ إذا كانت دمشق أول عاصمة إسلامية بعد المدينة المنورة، فهي بهذا وضعت جميع مقومات المدينة الإسلامية، فان خلفيات هذه المدينة الروحية قد تدخلت تداخلاً ملحوظاً في دعم الطابع الروحي لهذه المدينة.

على أن هذه الخلفيات لم تكن أكثر من نسيج الأساطير، ومع ذلك فإن الناس لم يتبينوا وحتى يومنا هذا الحدود الفاصلة تماماً بين الأسطورة والدين.

٢/٨ وأول قصة من قصص الخلق، هي قصة آدم وحواء اللذين طردا من الجنة، وكذلك أحداث الوجود الأول في موقع دمشق التي لم تكن في نظر العرب وأصحاب الديانات الأولى إلا الجنة الحقيقية، وفيها جرت الأحداث الهامة عندما قتل قابيل أخاه هابيل غيرة وحسداً، لأن الله قبل قربان هابيل من ثمار الأرض ولم يقبل قربان قابيل الراعي. والغوطة هي بيت قابيل وهابيل، وما زال جبل قاسيون يشهد على حسرة هابيل وتفجعه لهذا الحدث بصرخة انطلقت منه في غار لا يزال قائماً يسمى غار الدم، كما أن الصخرة التي علق عليها دم هابيل ما زالت شاهدة رآها الرحالون ومازال الناس يحددون مكانها حتى يومنا هذا.

٣/٨ وفي دمشق مسكن إبراهيم الخليل وأبيه في موقع بيت لهيا الذي مازال قائماً،

(١) J. Sauvaget: Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas "Revue Etudes Islamiques" 1934.

وفي دمشق استقر المسيح وأمه في ربوة ذات قرار ومعين.

وفي ضاحية دمشق نجد المكان الذي ضرب فيه المسيح القديس بولس قائلاً له: شاول، شاول لماذا تضطهدني؟. وفي سور دمشق نافذة هرب منها بولس بعد أن قبض عليه اليهود وسجنوه. وفي دمشق بيت حنانيا الذي عمّد بولس وأنقذه. وفي حقل ليس بعيد عن السور يوجد الحجر الذي قطع عليه رأس القديس يوحنا، وفي ضاحية دمشق، آثار قدم الرسول ص مازالت قائمة.

٤/٨ هذه الخلفيات التصوّرية جعلت من دمشق عاصمة إسلامية روحية ذات عراقة وأصالة جذبت إليها اهتمام المؤمن، ولقد أوردت بعض الكتب خصائص دمشق الروحية نذكر منها كتاب (ترغيب أهل الإسلام بسكنى الشام) لعز الدين بن عبد السلام. وكتاب (قيد الغرام في زيارة القدس والشام) لشهاب الدين المقدسي[١] .

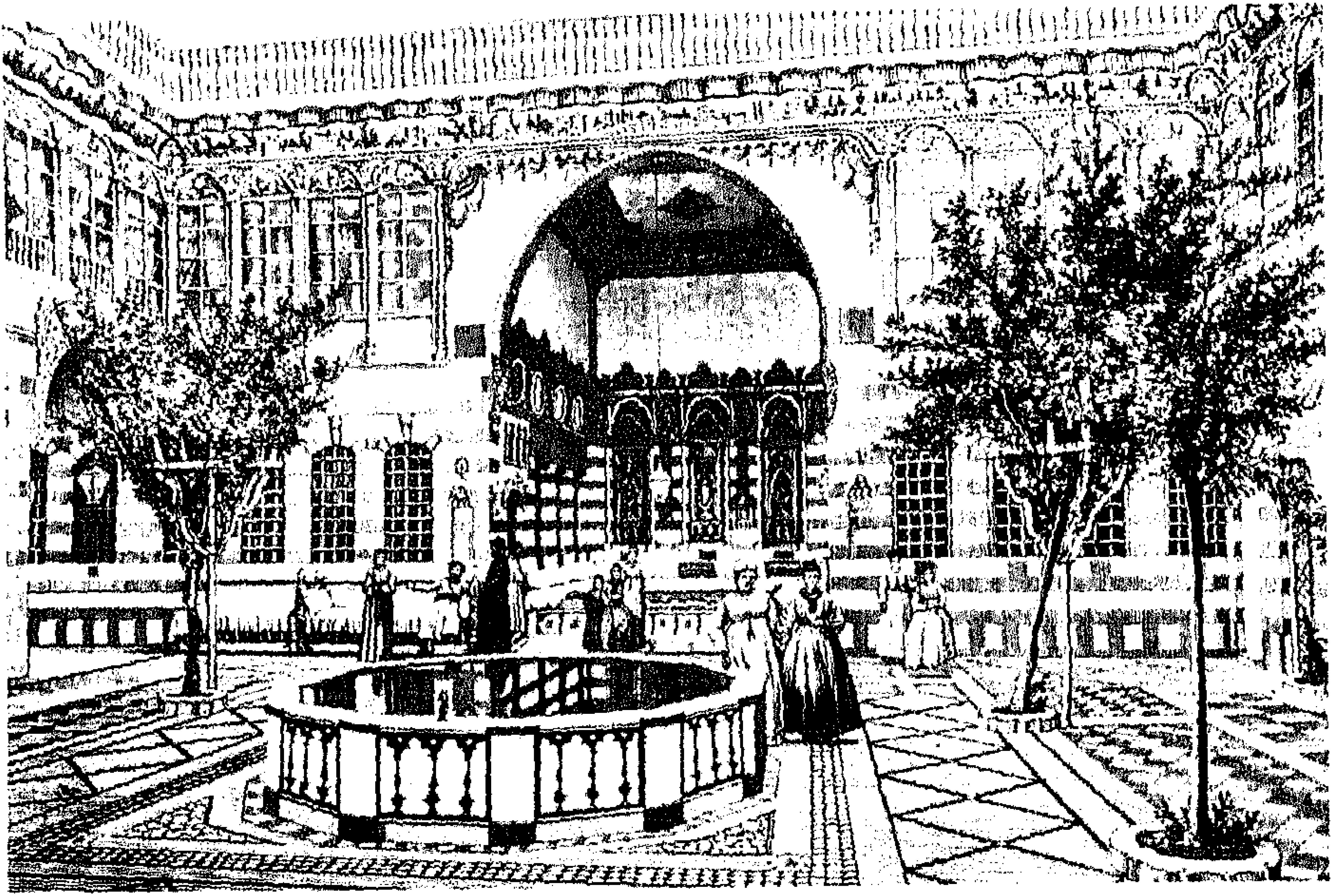
٥/٨ منذ عام (٦٣٦م) انتشر الدين الإسلامي في دمشق انتشاراً سريعاً، ولم يكن ذلك على حساب أصحاب الأديان الأخرى، وهم أهل الذمة أو أهل الكتاب الذين حفظت حقوقهم كاملة منذ عهد عمر وتنفيذاً لتعاليم القرآن والحديث.

ولقد قام الإسلام على مبدأ التوحيد ((لا إله إلا الله)) وعلى أن الله «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»﴿الشورى: ١١/٤٢ وأن محمداً رسول الله وهو من البشر ليس في ناسوته ما هو خارق وغير طبيعي، وإنما قام برسالته التي أوحى إليه الله بها، لكي يرسخ مبادئ التوحيد التي جاء بها إبراهيم الخليل، ولكي ينظم علاقات الناس مع خالقهم ومع بعضهم بعضاً. ولقد أنزل القرآن وفيه آيات تخص (العبادات) وآيات تخص (المعاملات). وهكذا فإن الدين الإسلامي قد وضع دستوراً روحياً ودساتير تشريعية واجتماعية، جعلت من الإسلام سلطة دينية ودنيوية استمرت قائمة حتى القرن العشرين.

وجعل الإسلام المؤمنين (أمة) واحدة، والأمة بهذا المفهوم هي المجموعة البشرية التي تنظمها قواعد الإسلام وشريعته، وهي مجموعة موحدة متضامنة.

٦/٨ لقد انعكست الفكرة الوحدانية على الفكر الإسلامي فبدت في مفهوم وحدة الوجود، التي أخذت شكلها الاجتماعي في تضامن الأمة، وهذا كله بدا في تكّون المدينة الإسلامية التي أخذت طابع التلاحم Compact, وتبدو دمشق القديمة في أجلى مظاهر هذا الطابع، حيث تتعاطف البيوت وتتداخل حدودها وتتعاطف الأحياء لا تفصلها عن بعضها إلا طرقات ودروب ضيّقة تمتد ملتوية كأخدود طبيعي بين كتل البيوت المتراصة. وتبدو الطرقات أشبه بدهاليز لابد منها لتربط هذه البيوت مع بعضها، وما البيت إلا محطة هادئة قارة يعيش فيها الإنسان ضمن نطاق أسرته وهي الخلية الأساسية للمجتمع، يتواجد فيها مع الله، فكأنما البيت المنفتح على صحن واسع، يتجه بجميع غرفه نحو الملأ الأعلى الذي

(١) د. نقولا زيادة : دمشق في عصر المماليك بيروت – نيويورك ١٩٦٦ .



زخرفة البيوت التقليدية رسم بيت دمشقي (رسمه أحد الرحالة ١٨٧٠)

ترمز إليه قبة السماء الصافية. فإذا كانت المدينة متراصة مندمجة تأكيداً لوحدة الأمة، فإن البيت منفتح نحو السماء لتحقيق اتصال الإنسان بخالقه اتصالاً مستمراً. وبمعنى آخر، إذا كان الوجود الخارجي للإنسان موحداً فيما بينه، وهو موحد أيضاً في نطاق المدينة العفوية، فإن الوجود الداخلي للإنسان مرتبط بذكر الله والتسبيح له عن طريق الفسحات الداخلية المفتوحة للفضاء. وعدا ذلك فلقد شدد الإسلام على الأخلاق «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »آل عمران: ١٠٤/٣ كما شدد على التواضع وعدم التباهي «وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً »الإسراء: ٣٧/١٧ وأكد على صفاء النفس والتسليم إلى الله والاتجاه إليه موئلاً ومعبوداً، «فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ »البقرة: ١١٥/٢ .

٧/٨ هذه التعاليم الأساسية وجدت شكلها في المسكن الدمشقي الذي ينغلق في الخارج بشكل متواضع بل ومتقشف، تحاشياً لمعصية الله في المساس بشعور الناس عن طريق الظهور بمظهر المتباهي المتفوق والمتمايز، كما أكد ذلك الرسول الكريم: ((فالناس سواسية كأسنان المشط)) وبيوتهم كذلك، ولكن عالمهم الداخلي هو العالم الحر الذي يتحرك بكل فاعلية لتحقيق راحة النفس الكاملة، عن طريق الخلود لمناجاة الله وعبادته.

٨/٨ ونعود إلى داخل المنزل الدمشقي، إلى الصحن حيث البركة الواسعة في منتصف الصحن، وحيث الأشجار المثمرة كالنارنج والليمون، وحيث الزهور كالياسمين والورد والريحان، ولندقق أيضاً في الخطوط

الأفقية والشاقولية المحيطة بالصحن، والتي تشكلها حدود الطبقات والنوافذ، وإلى الأبواب والأقواس والزخارف الحجرية والخشبية، هذه العناصر الزخرفية التي تحقق جمال العالم الداخلي في المسكن، إنها صورة عن سعي المؤمن إلى تحقيق روعة العالم الداخلي في أعماق نفسه، فالخطوط الأفقية المحيطة بالصحن هي رمز لحلقات الوجود المادي المحيط بالكون أو بالملأ الأعلى، وتتصل الأرض وجميع حلقات الوجود المادي بالسماء عن طريق المركز المتمثل ببركة الماء التي تتدفق من أوسطها نافورة مستمرة الانبثاق[1] .

٩/٨ وهذه الأشجار المثمرة والرياحين، هي الجنة التي تصورها المسلم دائماً كنقيض للصحراء القاحلة.

أما الأقواس، فهي صيغة مصغرة لاتصال المكان بالسماء، فهذا القوس يبتدئ من الأسفل، ثم يعود إلى الأرض وقد رسم شكل الكون الأصغر، وفي حنايا هذه الأقواس أو العقود أو القباب يعيش المؤمن في مسكنه المدني تحت رحمة أجنحة الله الحادبة.

١٠/٨ والحديث عن الزخرفة الحجرية (المشقف) والجصية (الأبلق) والزخرفة الخشبية (العجمي) وعناصرها الهندسية التي تصدر عن شكل هندسي أساسي مثلث أومربع أو مسدس أو مثمن لكي تنطلق متشعبة بحركة نابذة جاذبة، انما هي من العناصر التجريدية التي ترمز إلى معنى الله الواحد الذي تصدر عنه كل القوى وإليه تعود، و «إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ» البروج: ١٣/٨٥ وإليه ترجع الأمور.

أما الزخرفة النباتية فإنها تبدو بأشكالها النباتية المؤولة بعيدة عن أصولها الواقعية، ولكنها بقيت ترمز إلى عناصر الطبيعة، وهي بحركتها المكرورة الرتيبة تحاكي (الذِكْر)، فكأنما المؤمن هنا يتواجد مع الله في ذكر مستمر ((الله حي)) لايكف عنه ولا يتعب منه[2] .

١١/٨ وقليلاً ما نشاهد في البيت الشامي زخارف تشبيهية، فالصور الآدمية والحيوانية تكاد تكون مفقودة، وإذا وجدت صور تشبيهية ما فإنها تمثل مشهد مدينة أو موضوع فاكهة أو وزهور. ذلك أن التقليد بقي مستمراً في دمشق بكراهية التصوير التشبيهي، وذلك لاعتقاد الناس بتحريم الدين لهذا الفن تبعاً لحديث الرسول مع عائشة: ((يعذب المصورون الذين يضاهون بخلق الله)).

١٢/٨ ومع أننا من القائلين بأن الإسلام إنما حرّم تصوير الله، لأن الله غير قابل للشبه والتصوير، وهذا مبدأ أساسي في العقيدة الإسلامية، فإن كراهية التصوير استمرت في دمشق حتى أيامنا هذه. واستعيض عنها بالتصوير المجّرد الذي أطلق عليه اسم الرقش العربي (Arabesque).

١٣/٨ ويتجسد العامل الروحي في تكوين مدينة دمشق وأية مدينة عربية إسلامية بإنشاء المسجد الجامع، حيث يقيم

(١) عفيف البهنسي : العمارة العربية ، الجمالية ، الوحدة ، التنوع - روما ١٩٩١ .

(٢) د. عفيف البهنسي : دراسات نظرية في الفن العربي ، القاهرة ١٩٧٣ .



كنيسة حنانيا، ديماس تحت الأرض لجأ إليه القديس بولس الذي فر من مطاردة اليهود من بوابة دمشق

المؤمنون فيه الصلاة خمس مرات كل يوم، وفيه يجتمع أهل المدينة كلها يوم الجمعة لإقامة صلاة الجمعة والاستماع إلى الخطبة الرسمية (وصف ذلك ابن جبير في رحلته)[1] . ونستطيع اعتبار المسجد نواة تشكيل المدينة العفوية، إذ تتسابق المنشآت العامة والخاصة لتجد لها محلاً أقرب إلى المسجد وذلك لتسهيل متابعة ممارسة الشعائر ولتأكيد الثقافة الدينية في المنشآت العامة. أما المنشآت الدينية الأخرى مثل دار القرآن ودار الحديث، فهي حلقات ثابتة في أبنية خاصة، يؤمها الناس لدراسة القرآن وتفسيره، ومن المنشآت ما يحفظ ذكر بعض الشخصيات الإسلامية، وفي جامع دمشق الكبير نفسه أقيم مشهد الحسين حيث يحوي كما يقال رأس الحسين، عدا عن قبر النبي يحي بن زكريا، ولعل معاوية بن أبي سفيان كان مدفوناً في مكان ما بالجامع، وحول المسجد قبور أخرى كقبر صلاح الدين والملك الظاهر ونور الدين، وتبتدئ الأسواق الرئيسية من حدود الجامع، بل إن الحياة الاقتصادية تنداح من منطقة الجامع وتتكاثف حوله.

١٤/٨ ولأن الحج ركن من أركان الإسلام، كان له دور أيضاً في تكوين المدينة، وخاصة دمشق التي تقع على خط مباشر مع مكة المكرمة في طريق يسمى الطريق العظمى وهو طريق الحج. وكان لموسم الحج احتفال كبير في دمشق واهتمام اقتصادي كبير، ذلك أنه كان

(١) ابن جبير : الرحلة (تحقيق الدكتور حسين نصار) القاهرة ١٩٥٥ .



الرقص المولوي وهو تقليد مأخوذ عن مدينة قونية (تركيا) وكان يمارسه الصوفيون في بستان المولوية حيث أنشئ جامع المولوية

طريق التجارة الحرة مع الأراضي المقدسة، ويبتدئ الموسم من نهاية شعبان وينطلق المحمل من القصر بمراسم متقنة وبرئاسة أمير الحج باتجاه الميدان مجتازاً باب المصلى ثم الميدان الفوقاني إلى باب الله إلى القبيبات، ويعود المحمل وموكب الحج ويجري استقباله بالمراسم نفسها[1].

إن قيام الحج ودوره التجاري الكبير أدى إلى وجود ضاحية معمورة على امتداد طريقه في المناطق التي أوردناها، كما أدى إلى إقامة مجموعة من المساجد والمدارس التي مازالت قائمة كالدرويشية والسبائية والسنانية والصابونية والنقشبندية إلخ... ولقد انعكس انتعاش الحركة التجارية في مواسم الحج على الأسواق التي ازدهرت وانتظمت بتأثير الحج.

٩ - العامل الحضري

١/٩ إن أول عامل في تكوين المدينة هو الاستقرار الحضري، ولهذا الاستقرار شروط لابد من تحققها لاستمرار وجود المدينة. فما هي شروط الاستقرار الحضري المتحققة في مدينة دمشق؟

٢/٩ أول شرط هو الماء، فعندما لاتتوفر في مدينة ما أسباب الزرع وتربية الحيوان، أي عندما لا يتوفر فيها الماء الكافي للري والإرواء فإنها لا تلبث أن تضمحل وتنتهي والأمثلة على ذلك كثيرة.

ودمشق كما ذكرنا تنعم بمصادر كافية من الماء، من الأمطار والسيول ومن الينابيع الصغيرة، ومن نهر بردى والفيجة الذي

(١) البديري الحلاق: حوادث دمشق اليومية تحقيق الدكتور عزة عبد الكريم القاهرة ١٩٥٩ .

يخترقها كالشريان ويغذي بيوتها وبساتينها وحماماتها ويسيّر طواحينها ونواعيرها ثم هو ينقل بقاياها، ويروي غوطتها الواسعة.

٣/٩ وينبع نهر بردى من سهل الزبداني ثم يرفده نبع الفيجة ويصب في بحيرة العتيبة في شرقي الغوطةبعد أن يكون قد سار ما يزيد عن ستين كيلومتراً، ترافقه فروعه وقنواته التي تبدأ بالانشقاق عنه في منطقة مرتفعة عند الربوة تساعد على ري جميع مصاطب المدينة القائمة على ضفتي النهر الأصلي الذي يستمر سائراً في منخفض.

وهكذا يمتد في شمالي المدينة وفي أعلى مصطبة على سفوح قاسيون نهر يزيد وارتفاعه (٧٣٦ م) ونهر تورا (٧١٠ م) ونهر بردى (٧٠٠ م) وفي الجهة الجنوبية من سفوح جبال المزة نهر بانياس (٧٠٢ م) والقنوات (٧٠٥ م) والديراني (٧١٥ م) والمزاوي (٧١٧ م).

٤/٩ ونهر بردى الأصلي الذي يستعيد بعض ما أعطاه إلى فروعه الستة عند مداخل دمشق، هو شريان دمشق القديمة، ومنه يتفرع أولاً نهر العقرباني وذلك قبل دخوله دمشق القديمة في الموقع الذي يسمى اليوم ساحة الشهداء (المرجة سابقاً)، ويسير هذا النهر موازياً بردى نحو الشرق، وبمحاذاة سور المدينة الشمالي ثم يصل إلى باب الفرج بالمناخلية، ثم يمر فيما بين السورين فالعمارة إلى باب السلام ثم إلى باب توما



الناعورة الشهيرة التي تغذي جامع محي الدين بن عربي من نهر يزيد

بمحاذاة السور أيضاً، حتى الشيخ رسلان ويستمر حتى يصل إلى الغوطة الجنوبية.

وينفصل عن بردى فرع آخر بالقرب من باب السلام، يطلق عليه اسم الداعياني الذي لايفيد المدينة كثيراً، شأن فرع آخر اسمه المليحي وكلاهما يروي الغوطة.

على أن نهر بردى وفرع العقرباني يشكل في أحشاء دمشق شبكة مياه واسعة، حتى أصبح كل شبر في مدينة دمشق مسقياً، وقد يكون هذا هو سبب تسمية مدينة دمشق دار ميسق أي الأرض المسقية باللغة الآرامية.

٥/٩ على أن تخطيط أقنية المياه في دمشق شديد التعقيد والتشابك وذلك بسبب انعدام العوارض التضاريسية في أراضي دمشق[١] ومع ذلك فإن المقاسم في دمشق تكاد تكون من أهم الترتيبات العفوية

(١) R. Terrasse: L'irrigation dans la Ghouta de Damas ," Revue Etudes Islamiques" 1929.

التي أوجدت شبكة غطت حاجة المدينة إلى مياه وافرة ومستمرة.

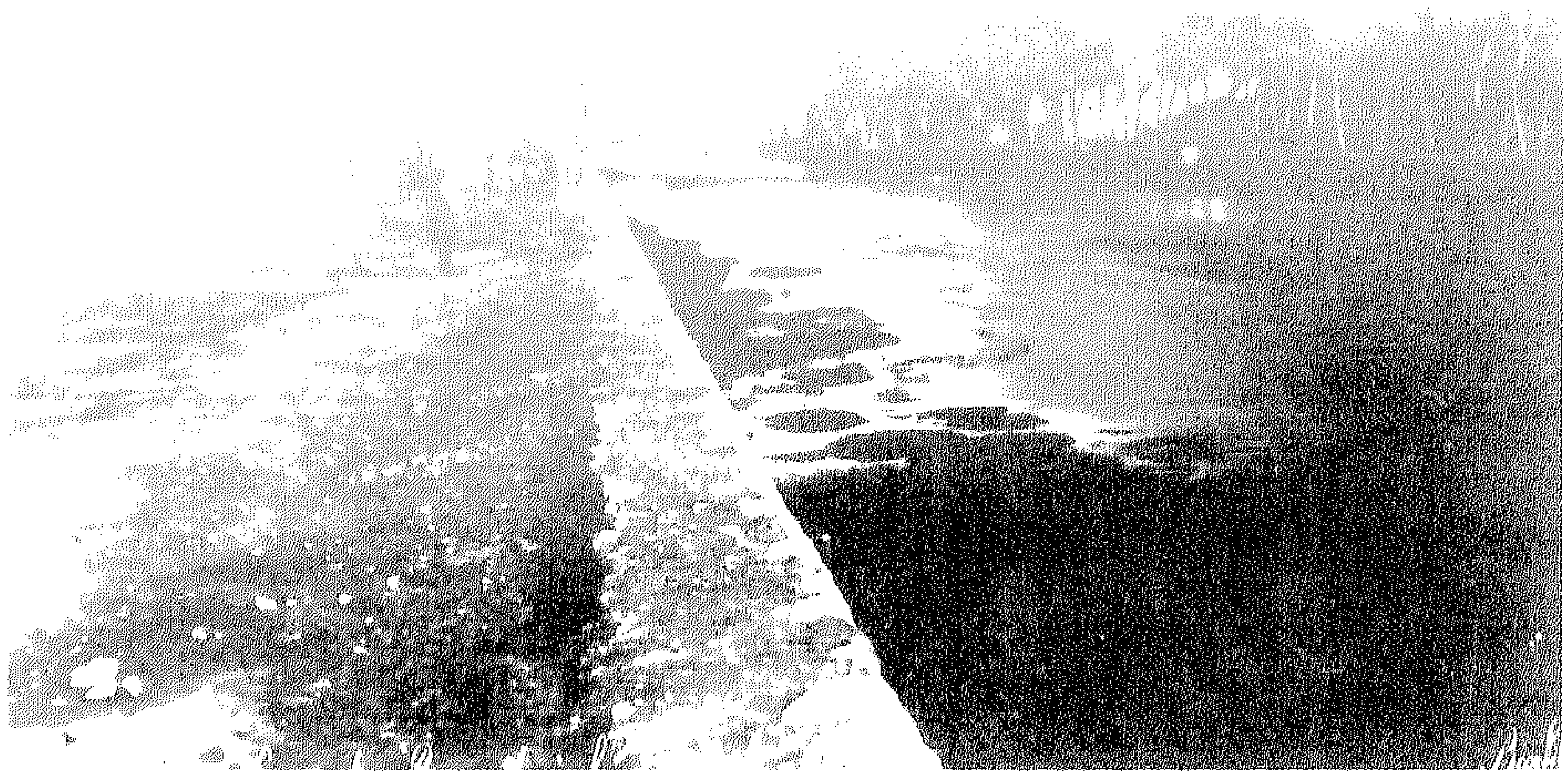
٦/٩ إن توافر الماء وهو الشرط الأساسي للاستقرار الحضري قد أعطى المدينة طابعها العربي المتميز،

ففي منطقة قارية جافة كثيرة الرياح، تلفحها شمس قاسية، لابد من توافر المياه لسد حاجات الناس المعاشية ولمساعدتهم في تخفيف حدة المناخ.

فالمياه التي تتدفق من البركة الكبيرة التي تتوسط الصحن في المسكن الدمشقي، تجد مصغراً لها في الفسقية التي توجد في أرض القاعة الكبرى. كما أن هذه الماء تجد مجراها إلى السلسبيل (المصب) الذي يزين جدار القاعة، وتنساب المياه على صفحته المزخرفة على أروع صورة، وعدا ذلك، فإن المياه في دار الخلاء وفي الحمام تستمر جارية دونما انقطاع. وعدا هذه المياه التي تتسرب من النهر كانت مياه الآبار النظيفة جديرة بالإرواء قبل أن تمتد مياه الفيجة الصافية إلى أطراف المدينة.

وفي الحارات يتسابق الناس كسباً للدعاء والثناء وطلباً للرحمة بعد الوفاة لإنشاء السبل، والسبيل هو مصدر مائي على واجهة معمارية مزخرفة ذات بركة صغيرة أو كبيرة تمتلىء بالماء فيشرب المارة منها ويسقون دوابهم من مخزون حوضها.

٧/٩ وأحيطت دمشق بغوطة واسعة فيها أجمل البساتين وأخصبها تقدم الخضار والفاكهة التي يعيش عليها الدمشقيون وغيرهم، كما تقدم البادية لحوم المواشي وألبانها. ومن الخضار التي اشتهرت بها غوطة دمشق البندورة والبطاطا والكوسا والباذنجان والفول والبصل والثوم والقنبيط، ومن الفواكه المشمش والعنب والتفاح والدراق والبرتقال والبطيخ. ومن أهم حاصلات الألبان السمن والجبن الأبيض والقشدة التي هي من نتاج البدو.



نهر بردى عند دخوله دمشق، الصورة (لبونفيس ١٨٧٠)

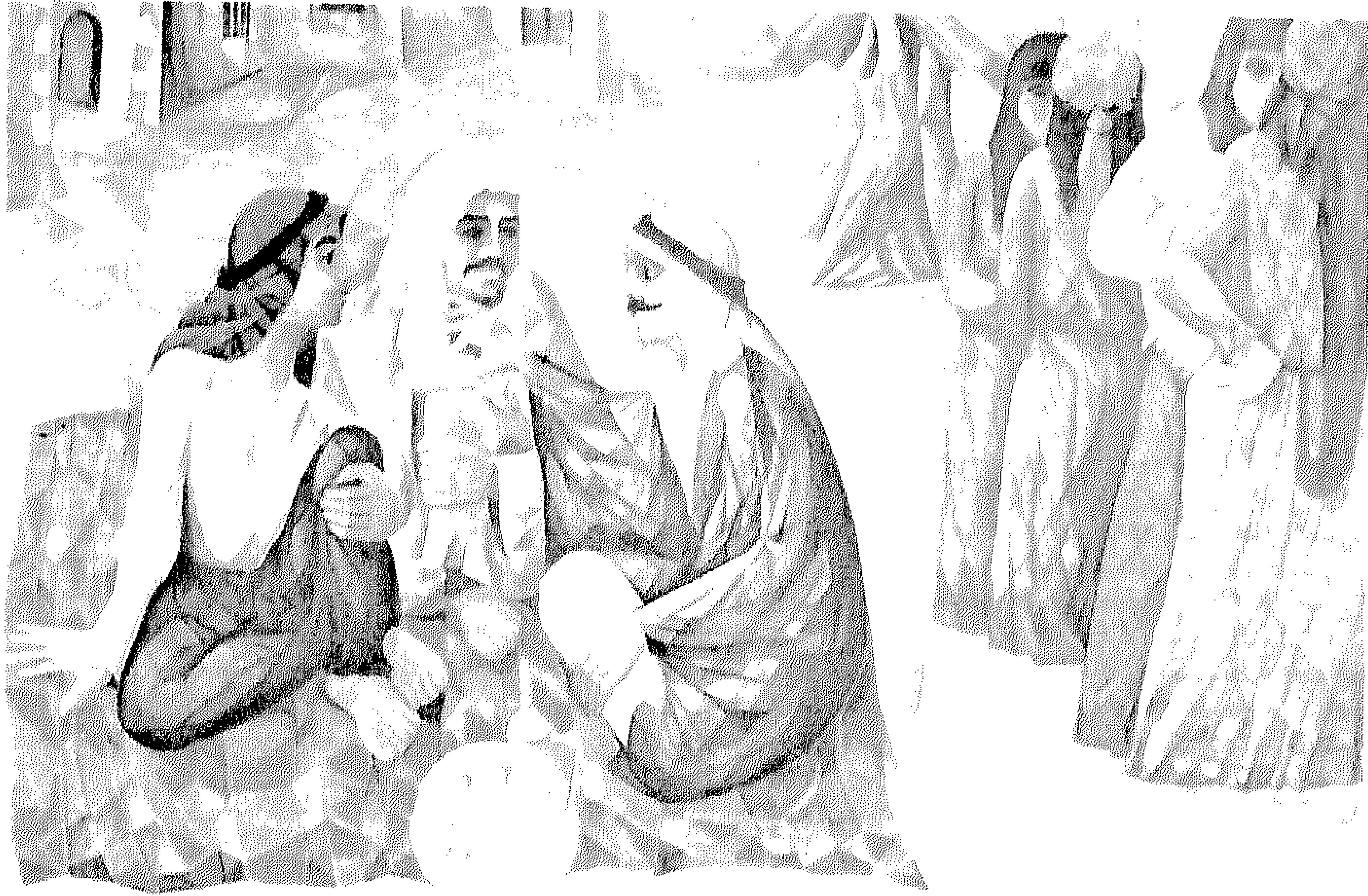
وكان الإنتاج الزراعي والحيواني يرد إلى سوق خاصة تقع في المنطقة المسماة تحت القلعة حيث يوجد دار البطيخ ودار الخضار ولعل سوق الهال أقيم بالمكان نفسه.

٨/٩ الشرط الثاني لاستقرار المدينة واستمرارها هو الأمان. الأمان من عاديات الطبيعة وعوارضها كالبراكين والزلازل والطوفان، وهي أخطار تصيب كثيراً من مناطق العالم، ومع أن إمكانية تحاشي هذه الأخطار لم تعد صعبة، فإن دمشق ليست معرضة لهذه المخاطر الطبيعية فيما عدا الزلازل التي أصابتها في فترات متباعدة من التاريخ مثل زلزال عام (٨٤٦ و١١٥٤م) و(١٢٠٠ و١٣٠٢م) و(١٧٣٧م). ومع ذلك فإن دمشق لاتعتبر من مناطق التحولات الجيولوجية الخطيرة.

والأمان الذي لابد من تحقيقه في كل مدينة هو حماية المدينة من العدوان والغزوات وتحصينها للدفاع عنها في حالات الحرب.

٩/٩ ونستطيع القول إن دمشق كانت دائماً منيعة فلقد أحيطت منذ عهد الرومان بسور مستطيل الشكل يبلغ طوله (١٥٠٠ متر) وعرضه (٧٥٠ متراً) وفيه سبعة أبواب ضخمة. وكانت ثمة منطقة محاذية للسور من الداخل مجردة من البناء ومكرسة للزراعة في حالات الحصار، وفي الزاوية الشمالية الغربية من السوركان القصر

غوطة دمشق
حدود محافظة
حدود منطقة
حدود ناحية
جبل قاسيون
ناحية قدسيا
دمشق
برزة
حرستا
دوما
القابون
عربين
زملكا
جوبر
حمورية
سقبا
كفربطنا
جسرين
المليحة
جرمانا
ببيلا
يلدا
عقربا
القدم
المزة
داريا
معضمية
صحنايا
منطقة قطنا
ناحية الكسوة
المرج
زبدين
حران العواميد
الدوير
الريحان
بيت سوى



الناس في الغوطة ـ للفنان ممدوح قشلان

Castrum الذي أنشىء لممثل الإمبراطور الروماني. وفي العهد الإسلامي تزداد أبعاد السور فيصبح (١٥٠٠/٩٠٠ م) وتتغير مواقع أبوابه ولايبق من أبوابه الرومانية إلا الباب الشرقي الذي مازال قائماً حتى الآن، أما أبوابه الأخرى، باب توما وباب السلام وباب الصغير وباب كيسان فهي أبواب إسلامية، أو جددت في العهود الإسلامية.

١٠/٩ وعدا الباب كانت هناك (الباشورة) وهي دهليز يقع خلف الباب، أما (الأبراج) فمنها أبراج مزدوجة متماثلة تقع على طرفي كل باب أو هي لدعم السوروكانت أشكالها تختلف مع الأيام ومع الإصلاحات المتتابعة، فهي مربعة أو نصف دائرية في القرن الحادي عشر، وفي القرن الثالث عشر ظهرت أبراج ذات قاعدة مربعة وفوقها برج نصف دائري. وتقوم على هذه الأبراج (مرامي) بارزة.

١١/٩ ويزداد تحصين دمشق بإقامة (قلعة) أقيمت في مكان مقر ممثل الإمبراطور وتمتاز هذه القلعة بأنها تقوم على مستوى أرض دمشق، على خلاف قلاع حلب وحمص والقاهرة التي أقيمت على مرتفع من الأرض. وكانت هذه القلعة مقراً لنائب القلعة والجند. وكانت قلعة دمشق تحوي مصنعاً للسلاح ومسجداً وحماماً وبرجاً للحمام ومستوصفاً[١] .

١٢/٩ ولابد من القول إن أي مدينة لكي تتمتع بشروط الاستقرار والاستمرار لايمكن أن تبقى محصورة ضمن نطاق أسوارها، ولابد أن تضطر في ظروف ازدهارها وزيادة سكانها إلى التوسع وإيجاد مدن صغيرة

(١) عبد القادر ريحاوي : قلعة دمشق ، طبع وزارة الدفاع - دمشق ١٩٨٣ .

ملحقة، كما تم في دمشق عند إنشاء الصالحية في القرن الحادي عشر، حيث أنشأ المقادسة المهاجرون بعد سقوط القدس في أيدي الصليبيين، معسكراً فيها أطلق عليه فيما بعد اسم دير الحنابلة، وثمة حي آخر شمالي السور أطلق عليه اسم العقيبة.

عدا الأرباض التي أنشئت في القسم الغربي من المدينة وأولها محلة حكر السماق. ولقد أنشئت في هذه الضواحي والأرباض جوامع خاصة بها وبيمارستانات ومدارس مازال أكثرها باقياً حتى الآن. على أن توسع المدينة وتكون الأرباض المحيطة بها، إذا كان علامة من علامات الاستقرار الذي دفع الناس إلى تجاوز الأسوار والإقامة بعيداً عنها، فإن الأمر لم يكن دائماً قميناً بهذا الاستقرار، بل على العكس، ففي العهود التي كان الناس فيها يشعرون بمخاطر الغزو والحروب الأهلية والنزاعات الإقطاعية، كانوا يلجؤون إلى داخل المدينة ويهملون الضواحي. ويتحدث ابن تغري بردى[1] يصف دمشق في أحد أحوالها المماثلة فيقول: ((فقد بدت المدينة وكأنها مجموعة حارات مستقلة، لكل حياتها الخاصة بها، منفصلة عن جارتها، وكانت كل هذه الحارات كأنها بلدة مستقلة بمسجدها وسقاية الماء فيها وحماماتها وسوقها التي كانت تباع فيها حاجاتها، وكانت بيوت الحارة الواحدة يوصل إليها بطريق واحد له باب يقفل ليلاً)).

١٠ - العامل الاقتصادي الدولي

١/١٠ إن القول بأن دمشق أقدم مدينة في العالم لا يعتمد على الخرافة أو الأسطورة بل يعتمد على الكشوف الأثرية التي تحققت في غوطة دمشق، وإلى اسم دمشق الذي ورد في ألواح إيبلا (تل مرديخ في محافظة إدلب) الموقع الأثري الهام الذي اكتشف في عام (١٩٧٥م) وفيه مكتبة من الألواح الطينية المكتوبة باللغة القديمة وهي أصل اللغة العربية. وكان ذكر دمشق (دامسكي) في هذه الألواح دليلاً على مركزها التجاري.

فلقد كانت إيبلا مركزاً تجارياً هاماً يتبادل السلع مع بلاد بين النهرين (العراق) ومع بلاد الفرس شرقاً ومع آسيا الصغرى وحتى سيناء غرباً.

٢/١٠ ولسنا نعرف الكثير عن دور دمشق في هذه التجارة، إذ إن ألواح إيبلا لم تقرأ كلها، ولكنها ستبقى ذخراً لتوثيق تاريخ حواضر هذه المنطقة وعلاقاتها التجارية.

٣/١٠ كان سكان بلاد الشام من البدو الرعاة، وحينما كانوا يستقرون في حواضر، فإن الدور التجاري الذي يمارسونه كان هو السبب الأول في إنشاء هذه الحواضر واستقرار البدو. ولذلك فإن تغيّر ظروف هذه الحواضر ازدهاراً أو انحطاطاً، إنما يعود لتغيّر الظروف التجارية، كذلك فإن العلاقات القومية إنما تتأكد عندما تصبح العلاقات التجارية مستقرة، وتهتز في كل مرة تختل فيها العلاقات التجارية. كذلك فإن العلاقات الدولية بين دمشق وغيرها من حواضر العالم المجاور، كانت تحكمها العلاقات التجارية ذاتها. وإن السبب الأساسي للمنازعات، هو اختلال السيطرة

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ١٩٤٢ .

على طرق التجارة ومحطتها.

٤/١٠ لقد كانت دمشق مزدهرة عبر التاريخ بفضل شروط الحياة الزراعية الجيدة فيها، وبفضل موقعها التجاري الهام بين بلاد الرافدين والساحل المتوسط وبين الشمال الحثي والآشوري وبين الجنوب المصري أو الخليجي.

و إذا تعرفنا على النشاط التجاري الذي كانت تمارسه ماري على الفرات، أو إيبلا (في إدلب) أو أوغاريت (في اللاذقية) فإن النشاط التجاري في دمشق قبل العصر الآرامي، لم يتضح بعد بما فيه الكفاية، نظراً لقصور الكشوف الأثرية في دمشق المعمورة والتي تصعب على الحفارين الأثريين.

٥/١٠ لقد كانت مملكة دمشق الآرامية الحاضرة الأكثر ازدهاراً بين الممالك الآرامية الأخرى مثل مملكة فدان آرام (حران)، ومملكة شمأل (عاصمتها زنجرلي) وممالك حماة وصوبا (البقاع) وغيرها. وكانت طرق التجارة بينها تشكل شبكة متماسكة، عادت على الممالك الآرامية بالخيرات العميمة. وانتشرت لغة دمشق الآرامية، التي مازالت حتى الآن لغة سكان معلولا وجبعدين، وأصبحت لغة الآشوريين والكلدان وكنعان وسكان سيناء. وتحققت وحدة قومية اقتصادية بين حواضر وشعوب هذه المنطقة مما لا نرى له مثيلاً في تاريخ بلاد الشام.

١١ - أهمية آسورا عربايا

١/١١ عندما جاء الفرس في عام (٥٣٩ ق. م) أصبحت دمشق الحاضرة الأولى في بلد موحد هو سورية العربية، وقد أطلق التسمية دارا ملك الفرس هكذا (آسورا عربايا)[1] .

وكانت هذه المقاطعة (المرزبانة) واسعة تشمل كل مايسمى اليوم بلاد الشام، ويزيد على ذلك مناطق كثيرة تتبع اليوم تركية والعراق ومصر.

لقد كانت مدن آسورا عربايا بمواقعها الحضرية معبراً للقوافل الفارسية، وكانت دمشق بمكانتها التقليدية التجارية، مركز شبكة القوافل التي وصلت إلى اليمن والبحر الأحمر ومصر والخليج.

٢/١١ لقد أسهم تجار دمشق وعلى رأسهم السلطة التي تمارس التجارة، في قيادة وحماية القوافل، وفي تحقيق تبادل السلع مع المدن والقرى وسكان البادية، ممن عرفوا هؤلاء التجار وتأكدوا من جدارتهم وأمانتهم. وكانت سيطرة تجار دمشق على الدروب كاملة، مما دفع بالفرس لكسب صداقتهم. وفي واجهة قصر بيرسيوبوليس، مازالت رسوم نافرة تمثل تجار دمشق ومعهم البضائع المتميزة التي جاؤوا بها من دمشق إلى الملك دارا الثاني. ومن خلالها نستطيع أن نتصور حالة الازدهار التي كانت عليها دمشق الآرامية قبل الفرس وأثناء سيطرتهم، وذلك بسبب استمرار نشاطها التجاري ودورها الفعال في التجارة الدولية آنئذٍ.

٣/١١ ويجب أن نذكر هنا أن لغة دمشق الآرامية طغت في ذلك الوقت على جميع اللغات، بل إنها طغت على اللهجات اليمنية

(١) عفيف البهنسي : الشام الحضارة - دمشق ١٩٨٧ .

التي كانت في بدايتها مفارقة تماماً للهجة الشمال. بل إن الكتابة الآرامية قد أثرت في الكتابات القديمة المسندية الحميرية وأصبحت الأبجدية الشامية أساساً انتشر مع انتشار التجارة إلى جميع أنحاء الجزيرة وإلى جنوبيها، ونحن نعرف اللغة اليمنية القديمة وكتابتها المسنديّة من خلال الرقم المكتشفة في مأرب، ومن خلال اللغة التي ما زالت قائمة في سقطرة حتى اليوم، ولقد وصلت هذه اللغة من خلال المسالك التجارية البحرية إلى مدن ساحلية في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي الخليج العربي.

١٢ - أثر التجارة في تاريخ الشام

١/١٢ لقد كان للتجارة تأثير حضري واضح في تاريخ العرب وفي بلاد الشام خاصة، فالمراكز التي كانت محطات تجارية تتمركز فيها القوافل المارة من الشرق إلى الغرب أو تستريح فيها، أصبحت حواضر استقر فيها الأعراب الذين أصبحوا متمديّنين نتيجة الاستقرار والتبادل الثقافي والتجاري الذي يتم بالضرورة مع رجال القوافل، وجميع المدن التاريخية مثل ماري وإيبلا وإيمار وتدمر، كانت مراكز حضرية نشأت عن قوة التبادل التجاري، ولقد اضمحلت هذه المدن مع زوال المرور التجاري أو تحوله عنها بسبب الحروب المدمرة. ولكن سكان هذه الحواضر ينقلبون بعد هذا التحول إلى حياة البداوة، فيمارسون أعمال الرعي والإرشاد الصحراوي والتبادل الخفيف، أو يمارسون الغزو. وهكذا فإن العامل الاقتصادي كان له دور كبير في تكوين الاستقرار الأمني والحضري، وعند غيابه فإن وسيلة الاستقرار تصبح صعبة فتتولاها القوى الخارجية مثل الفرس والرومان، التي تحالف بعض العرب في الثغور لتحقيق أمن القوافل التابعة لها.

٢/١٢ ويجب أن نضيف فصلاً هاماً تؤديه التبادلات التجارية والمحطات الحضرية لتقوية أواصر الأمة العربية، ويتم ذلك نتيجة انتشار اللهجة العربية التي حلت محل لهجات أخرى مثل الآرامية والآشورية والكنعانية، وجعلت من شعوب هذه المنطقة أمة ذات مصالح مشتركة تتبادل السلع والثقافة والتعاون.

٣/١٢ لقد كان الفرات الطريق التجاري الأكثر رسوخاً، وكانت على ضفافه الحواضر التي تم اكتشاف أكثرها وكانت هذه الحواضر تتصل بحواضر الجنوب عن طريق سواحل الخليج وسواحل البحر الأحمر، كي تصل إلى هضاب نجد التي كانت نقطة استقطاب التبادل التجاري على مر التاريخ.

٤/١٢ إن الميزة التي تمتعت بها دمشق والمناطق الداخلية أنها كانت عبر التاريخ مستقلة تجارياً غير خاضعة لاقتصاد الممالك الكبرى المجاورة، مثل فارس وروما أو بيزنطية، على عكس ما تم للحواضر الواقعة على حدود هذه الممالك مثل تدمر والبتراء. ولكن هذه الثغور ذاتها كانت تتعاطى التجارة الهادئة المستقرة مع المدن الداخلية، وبخاصة دمشق الشام. ولقد تأثرت دمشق ازدهاراً وفقراً في كل مرة كان يطرأ على هذه الثغور تغيير ما.

٥/١٢ ويجب أن نذكر أنه منذ عهد إبراهيم الخليل، كانت المناطق المتوسطة الداخلية أكثر استقراراً، ولقد تعاطى الخليل التجارة إذ قدم من جنوب العراق إلى حران ومنها إلى سورية الوسطى، ساعياً وراء تجارة أكثر ازدهاراً. وكان الإسماعليون وهم أعقاب إسماعيل بن إبراهيم جد العرب، أصحاب قوافل تجارية. ونستطيع القول إن انتشار العرب الأوائل كان بسبب الفعالية التجارية التي كانوا يمارسونها بين المواقع القديمة.

١٣ - التوسع التجاري

١/١٣ بسبب توازن القوى بين آشور ومصر في القرون الأولى قبل الميلاد ظهرت دول تجارية أكثر استقراراً في منطقة بلاد الشام، هي الممالك الآرامية وبلاد فارس شرقاً، وشواطىء شمالي إفريقية غرباً حتى الأندلس. وفي الجنوب، وصلت التجارة إلى اليمن وماقصة بلقيس إلا رمزاً يذكر بهذا التعامل التجاري بين بلاد الشام واليمن ممثلة بدولة سبأ ومعين. وهناك نصوص تبين أن التبادل كان قائماً بين سرجون الثاني ملك آشور، وبين ملك سبأ في القرن الثامن قبل الميلاد، وكانت مادة هذا التبادل الذهب والخيل والجمل وأصناف الطيب. وكانت بلاد الشام الوسيط التجاري الذي يساعد على استقرار هذا التبادل وحمايته من قبائل الأعراب.

٢/١٣ ويقتضي لدعم هذا الاستقرار التجاري الأمني التدخل العسكري الذي قام به الآشوريون بزعامة تفلات بلاسر الرابع (٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م) وسرجون الثاني (٧٢٢



دمشق ـ الأسواق

- ٧٠٥ ق. م) وسنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق. م) وأسرحدون (٦٨١ - ٦٦٩ ق. م) ثم قام ملوك بابل بدور مماثل في عهد نبو نعبد (٥٥٥ - ٥٨٣) ق. م الذين وصل إلى تيماء. ولكن نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦١ ق. م) كان قاسياً على يهود أورشليم، فهدم المدينة وشتت شعبها الصغير المشاكس الذي كان يرهق طريق التجارة.

٣/١٣ ومنذ عام ٥٣٩ ق. م أصبحت مرزبانة آسورا عربايا واسعة النطاق، ولأول مرة تتحقق وحدة سياسية واقتصادية شامية.

وما أن استولى الإسكندر المقدوني على الشرق عام (٣٣٣ ق. م) حتى أصبحت بلاد الشام في العهد السلوقي وعاصمتها أنطاكية، مسرحاً لتجارة واسعة تمتد من الأناضول إلى بلاد الأنباط والحجاز،

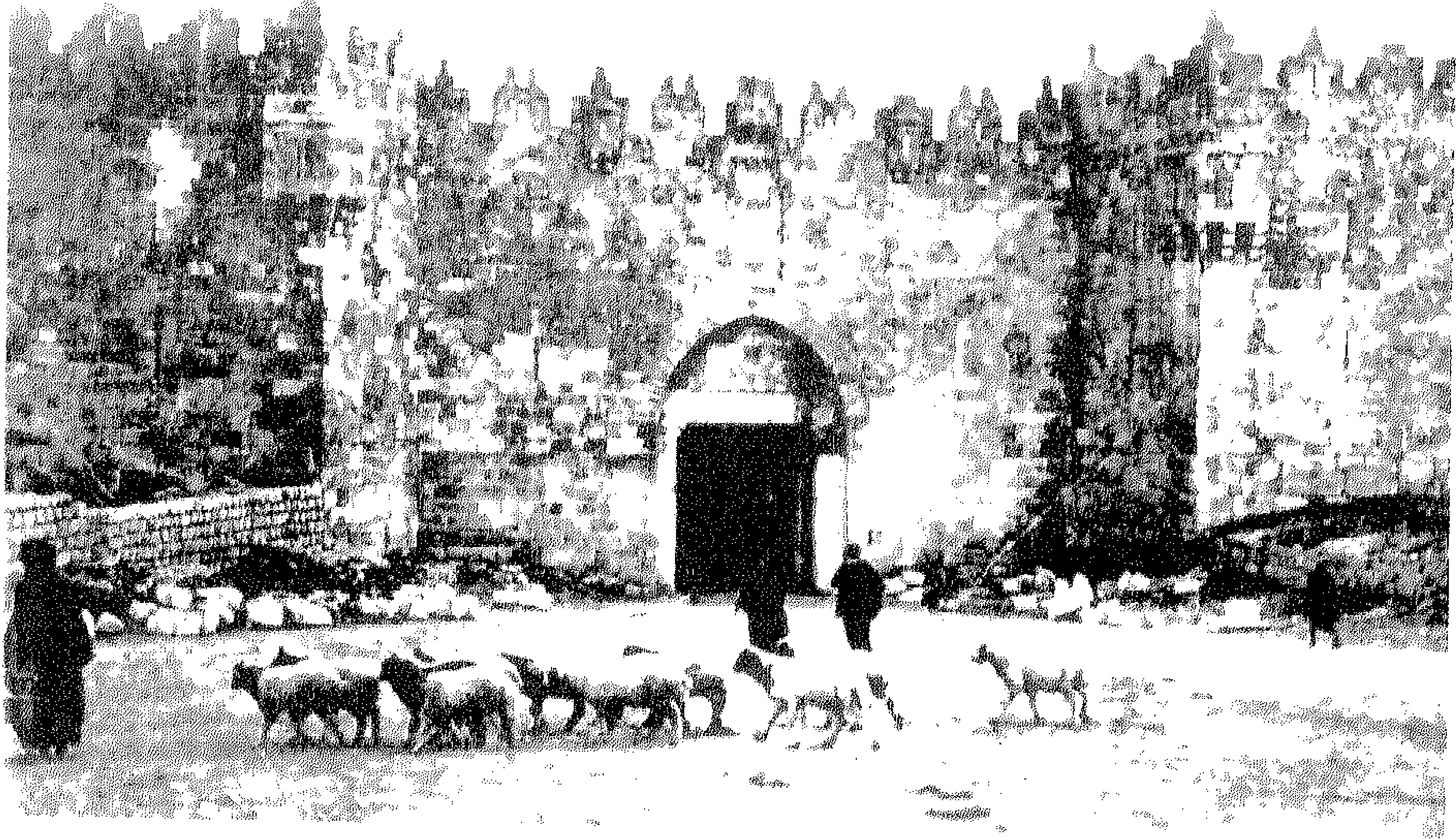
ووصلت في الشرق حتى البحرين التي عرفت باسم (أوال) ولقد برزت البتراء كمركز أساسي للتجارة مع سلع في الحجاز.

٤/١٣ وفي العهد الروماني اللاحق لهذا العهد ومنذ بداية الميلاد، تصبح تدمر المركز الأساسي للتجارة في المشرق، ممثلة للنفوذ الروماني الذي جابه النفوذ الفارسي، ولقد استطاع أذينة ملك تدمر أن يردّ الفرس الساسانيين على أعقابهم، فكانت له مكانة متميزة. وازداد نفوذ العرب وبدؤوا يخططون للاستقلال أي لسيادة مستقلة عن نفوذ الرومان، وتم ذلك في عهد الزباء (ملكة تدمر)، وكان رد الرومان قاسياً أدى إلى تهديم مملكة تدمّر عام (٢٧٣ م)، وإنهاء دورها التجاري. وغاب الاستقرار عن بلاد الشام إذ أفلت زمام الأعراب الذين عاثوا فساداً وقطعوا طرق الاتصال والقوافل، وعندما استمالتهم فارس نزح أكثرهم إلى الحيرة التي كانت محمية فارسية.

٥/١٣ وعندما تأسست دولة غسان في جنوب الشام، تنصروا، وكان للغساسنة دور في تشجيع العلاقات التجارية بين العربية السعيدة والحجاز وبلاد الشام. بينما كان للمناذرة في الحيرة، بالتحالف مع كندة في نجد، في القرنين الرابع والخامس دور مماثل ومزاحم، مما أدى إلى حروب ما زالت تروى، مفعمة بالأساطير والخيال، منها حرب البسوس وحرب داحس والغبراء.

٦/١٣ لكن ازدهار المدن العربية الكبرى مكة والحيرة والشام والعربية السعيدة، كان نتيجة للتعامل التجاري المستمر، مما أدى إلى نشوء وحدة قومية تجلت بوحدة لغة الأعراب، ومن ثم تأكدت سيطرة الكتابة الأبجدية الشامية على الكتابة النبطية والمسندية اليمنية.

٧/١٣ لقد لعبت التجارة في بلاد الشام



بوابة دمشق في أسوار القدس ومنها كان يستقبل الحجيج لزيارة القدس في الطريق إلى مكة

وحتى ظهور الإسلام دوراً أساسياً في تعزيز العلاقات بين الحواضر العربية، مما أدى إلى توحيدها اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً.

وعند ظهور الإسلام كانت هذه الأرض مهيأة لوحدة سياسية ومن ثم لوحدة دينية، فمذهب اليعاقبة عند عرب الشرق ومذهب النساطرة في الشمال والجنوب، كلاهما كانا مقدمة لقبول الإسلام عن رضا وقناعة.

٨/١٣ وليس من الغريب أن تتابع دمشق وبلاد الشام مكانتها التجارية في صدر الإسلام. فالرسول محمد ص كان قد رافق عمه أبا طالب في رحلة تجارية إلى الشام وكان في الثانية عشرة من عمره، وفي الخامسة والعشرين من عمره كان يمارس التجارة باسم زوجته خديجة، وكان لعلاقته بأهل الشام شأن كبير في توضيح فكره وعقيدته التي انتشرت ديناً إسلامياً في أنحاء بعيدة من العالم، وكان الإسلام مصدر حضارة وتقدم إنساني.

هكذا كان العامل التجاري، وقد أبقى دمشق أبداً ملتقى الفعاليات التجارية العالمية لعراقتها الاقتصادية وموقعها الهام.

١٤ - التبادل والاستقرار

١/١٤ والشرط الهام لتحقيق الاستقرار في المدينة هو (التبادل). والمقصود هنا تبادل الأشخاص والخدمات والسلع. ويتم ذلك في مدينة دمشق بواسطة الأسواق والدروب والأزقة.

٢/١٤ أما الأسواق في دمشق فهي ضيقة شبه مستقيمة تقوم على طرفيها الدكاكين المختلفة، ويغطي السوق (سقيفة) من الخشب أو من المعدن.

أما الدرب فهو طريق بين ساحتين، والزقاق منفذ إلى مجموعة مساكن، يبتدئ بباب دفاعي يغلق مساء. وكان الناس أنفسهم يعنون بطرقاتهم ودروبهم ويحبسون من أجلها الأوقاف كما لاحظ ذلك ابن بطوطة في رحلته إلى دمشق[1].

٣/١٤ وتجب الإشارة هنا أن مدينة دمشق القديمة لاتحوي ساحات لاجتماع الناس، بل هو صحن المسجد الذي يستوعب تجمعهم، وثمة مكان (تحت القلعة) وفي الشمال منها كان حقلاً لاجتماع الجنود واستعراضهم من قبل قائدهم وهو واقف على طارمة القلعة. وثمة (ميدان) للخيالة يقع خارج المدينة كميدان الحصى أو المرج الأخضر، إضافة إلى (مصلى) تقام به الاحتفالات الدينية الكبرى.

٤/١٤ أما (الرحبة) فهي ساحة محاطة بالبيوت كرحبة البصل، و(المربع) هو مصلبة واسعة عند تقاطع الطرق كمربع القز.

٥/١٤ على أن السوق هو مجال التبادل التجاري، ويقول في ذلك بعض الرحالة الأوربيين عام (١٣٨٤م)[2]: ((إن ما يصنع في دمشق، من أي نوع كان، كبيراً كان أو صغيراً، هو أكثر مما يصنع في أي مكان آخر في الدنيا)).

وبعد أن يعدد الصناعات المتوافرة في ذلك الوقت يقول: ((يتوارث الناس

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار باريس ١٨٧٤ - ١٨٧٩.

(٢) Frexabaldi Leonarda and others " Visitto the Holy places..in 1384" jerusalem 1948.

الصناعة جيلاً بعد جيل، وتزيد على ذلك أنهم بلغوا الغاية في المهارة الصناعية في فنونهم. وحوانيتهم مرتبة أنيقة نظيفة بحيث أن مشاهدتها كانت باعثاً على السرور)).

وفي دمشق كما هو الأمر في جميع المدن الإسلامية، تتكاثف الأسواق قرب المسجد الجامع مثل سوق العطارين والبزورية والخياطين والقلبقجية والحرير والصاغة وسوق القناديل، كما تتكون أسواق حول القلعة كسوق الخيل وسوق السروجية وسوق التبن وسوق السلاح وسوق الحدادين.

٦/١٤ أما (القيصرية أو القيسارية) فهي سوق مغلقة لتبادل السلع الثمينة كالمصوغات والسجاد والمطرزات والمنسوجات الفاخرة.

٧/١٤ و(السويقة) هي سوق صغيره أما (الموسم) فهو سوق موسمي، ولعل (الباشورة) أصبحت أسواقاً في أيام الحصار. و(الخان) أو (الفندق) هو بناء مغلق ذو فناء وغرف لإقامة التجار في طابقين، مشرفة على الفناء الذي يستوعب الجمال والخيل والبضائع. ومن أشهرها في دمشق خان أسعد باشا وخان الحرير وخان سليمان باشا.

٨/١٤ ولم تكن المبادلات التجارية والعلاقات الاقتصادية دون رقابة وثيقة توطد الأمن والاستقرار للحياة الاقتصادية في المدينة.

ومنذ بداية الإسلام نشأ في المدينة مايسمى بأمين السوق الذي حمل فيما بعد وخاصة في القرن العاشر اسم المحتسب، ووظيفته الأساسية التأكد من الأوزان والمكاييل ومكافحة الغش، ثم أصبحت هذه الوظيفة مرتبطة بالتعاليم الشرعية وحددت لها شروط وواجبات، وأصبح المحتسب من أكبر موظفي الدولة وأوسعهم نفوذاً منذ القرن الحادي عشر، إذ تناولت وظيفته مقاومة التخريب وكشف المتآمرين، وامتدت إلى نطاق الأسواق والشوارع وحفظ حقوق المارة وقمع التزييف وحماية الأطفال من معلميهم والمرضى من الأطباء والكحالين غير المرخص لهم[1].

٩/١٤ وثمة عامل استقرار أساسي في تكوين المدينة هو تأمين التبادلات الخارجية، إذ ليس بإمكان مدينة ما أن تستمر بوجودها إذا كانت منفصلة عن العالم. ودمشق تتصل من الشمال بطريق تجاري مع حلب يصلها بالعراق وآسية الصغرى، ومن الجنوب ثمة طريق رئيسي هو طريق الحج عن طريق درعا، يوازيه طريق آخر يصل إلى بحيرة طبرية ومنها إلى فلسطين ثم مصر، ومن الغرب تتصل ببيروت وصيدا عن طريق الوديان الممتدة بين سلاسل الجبال اللبنانية.

١٠/١٤ وإذا كان المسجد مكان لقاء المؤمنين، ولتقوية الأواصر بينهم، فإن الحمّام هو المكان الذي يجتمع فيه الرجال فينظفون أجسامهم ويستريحون ويسمرون، كما يجتمع فيه النساء ويتواعدن وتكون لهن فرص لاختيار العرائس وتوطيد العلاقات الاجتماعية.

---

(١) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، القاهرة ١٩٤٦ .

ولقد عدد ابن جبير الأندلسي، مئة حمام وأربعين داراً للوضوء، شاهدها في مدينة دمشق عندما زارها أيام صلاح الدين وأصبح عدد الحمامات أيام ابن بطوطة مئتي حمام[1] ، ويتألف الحمام من أربعة أقسام، المشلح والبارد أو البراني والوسطاني والجواني أو الحار، ثم القميم أو بيت النار. ويتألف كل قسم وخاصة الجواني من مقاصير مغطاة كلها بقباب ذات عيون زجاجية تساعد على دخول النور[2].

١٥ - العامل الثقافي

١/١٥ لقد كان رسول الله (أول معلم في الإسلام أرسله الله إلى عباده، وفي القرآن «كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» ﴿البقرة: ١٥١/٢.

وكانت أول مؤسسة تعليمية هي المسجد، فالقرآن هو الكتاب الأول الذي أصبح موضوع الدراسة والبحث والتفسير في المسجد، بل أصبح القرآن مصدر علوم أخرى، علم الكلام وعلم الفقه وعلم التجويد وعلم القراءات ثم علوم الحساب واللغة.

وبعد أن توسعت الدولة الإسلامية، واختلط العرب بغيرهم من الشعوب فضعفت لغتهم من جهة وتوسعت معارفهم العلمية من جهة ثانية، فظهرت فئة من الناس، وهم العلماء والفقهاء والقرّاء والحفّاظ والمؤدبون الذين تولوا زمام التعليم في المسجد أولاً، ثم في المدرسة والكتاب حيث يجتمع طلاب العلم في حلقة دراسية وتقدم العلوم عن طريق الشرح والجدال والحفظ.

٢/١٥ ويصف ابن بطوطة، حلقات التعليم في المسجد الكبير بدمشق وصفاً وافياً فيقول: ((ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرؤون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرؤون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساء. وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم. وهم لايكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى، وإنما يقرؤون القرآن تلقيناً، ومعلم الخط غير معلم القرآن، ويعلمهم بكتب الأشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جاء خطه، لأن المعلم للخط لايعلم غيره)).

وأول من ترأس حلقات علم الكلام، الحسن البصري في جامع البصرة، أما الفقه فلقد ظهر له أئمة مجتهدون من أهمهم الإمام مالك بن أنس والإمام أبو حنيفة والإمام أحمد بن حنبل والإمام الشافعي الذين أغنوا الفقه الإسلامي باجتهادات بارعة اتبعها المسلمون، وكانت لهم مذاهب أربعة متميزة في فقه الدين.

٣/١٥ وفي علم اللغة كان الخليل وسيبويه والجاحظ وغيرهم من أعلام اللغة وأربابها حجة المعلمين والدارسين.

ولعل الكتّاب كان أول معهد دراسي

---

(١) د. ليلى صباغ: المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، دمشق ١٩٧٣.

M.Ecochard les bains de Damas, Beyrouth 1940

مستقل عن الجامع يشرف عليه شيخ فريد، وكان مخصصاً للدراسة البدائية، ولابد أن نذكر بيوت العلماء الخاصة ودكاكين الوراقين التي كانت موئلاً أيضاً للدارسين المتعمقين بالإضافة إلى المسجد الذي استمر حتى يومنا هذا منبراً لجميع مستويات التعليم.

٤/١٥ على أن ثمة مؤسستين تعليميتين هامتين كان لهما دور أساسي في تكوين الخلفية الثقافية للمدينة العربية الإسلامية وخاصة دمشق هما دار الحكمة ودار العلم وهما مؤسستان أكاديميتان لتدريس العلوم العربية الاختصاصية. وكانتا أشبه بالمعاهد العليا وكانتا تحويان مكتبة من المخطوطات كثير منها منقول عن الفارسية والسنسكريتية أو اليونانية.

ومن أقدم دور الحكمة الدار التي أنشأها المأمون في بغداد، وكانت أول دار للعلم هي التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي في القاهرة، وظهرت المدرسة لأول مرة في القرن الخامس الهجري في نيسابور في عهد ألب أرسلان السلجوقي، ثم انتشرت في عهد ملكشاه وقد أنشأ وزيره نظام الملك أكبر مدرسة في العالم العربي الإسلامي وهي النظامية في بغداد (١٠٦٧م) وهي في الواقع أشبه بالجامعة اليوم، كانت تدرس فيها جميع العلوم وخاصة علوم الدين على المذاهب السنية الأربعة.

٥/١٥ ومن المدارس التي كانت تعلم القرآن في دمشق الخيضرية والجزرية والدلامية والرشائية والسنجارية والصابونية والوجيّهية[1]. ومن أضخم المدارس التي مازالت قائمة حتى اليوم المدرسة السليمانية التابعة للتكية السليمانية والتي أقيمت كالتكية والجامع على أنقاض القصر الأبلق المملوكي، وتتألف هذه المدرسة من مجموعة من الغرف المقببة ذات أروقة تحيط صحناً واسعاً تتوسطه بركة كبيرة وفي الجهة الجنوبية مصلى مخصص للطلاب، ولهذه المدرسة باب رئيسي من الجهة الشمالية وأربعة أبواب فرعية صغيرة.

٦/١٥ وازدهرت الحركة التعليمية في عهد نور الدين بن زنكي، ومن أقدم المدارس مدفن نور الدين نفسه حيث كان مدرسة ذات طراز سلجوقي كما يبدو واضحاً من عمارتها القائمة حتى يومنا هذا.

ولقد عدد النعيمي عدداً يقرب من مئة مدرسة كانت موجودة في دمشق في مطلع القرن العاشر أكثرها لتدريس المذهبين الشافعي والحنفي، وبعضها لتدريس المذهبين الحنبلي والمالكي نذكر منها المدرسة العادلية التي أنشأها الملك العادل والتي ماتزال حتى اليوم وهي مجمع اللغة العربية والمدرسة الظاهرية والمدرسة الجقمقية والجوهرية.

٧/١٥ وإضافة لدور القرآن والمدارس كانت هناك منشآت خاصة لتلقين أصول الطرق الصوفية ولممارسة شعائرها كالجيلانية والرفاعية والقادرية والمولوية والشاذلية. ويطلق على هذه المنشآت اسم الخانقاه أو الرباط والزاوية، وعدد النعيمي منها تسعاً وعشرين خانقاه وواحداً وعشرين

(١) عبد القادر النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، دمشق ١٩٤٨ – ١٩٥١ .

رباطاً وستاً وعشرين زاوية. ومن أقدم الخوانق خانقاه الطواويس وخانقاه خاتون وكان ابن جبير قد شاهد كثيراً من الخوانق والرباطات.

٨/١٥ والواقع أن الصوفية انتشرت بقوة على يد ابن الفارض وابن عربي (المدفون في دمشق ١٢٤٠). ولكن الغزالي (الذي اعتزل الحياة في جامع دمشق) كان قد أورد باعتدال أسباب تصوفه في كتابه (المنقذ من الضلال) فهو يقول: ((وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى. وأن رأس ذلك كله، قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى. وأن ذلك لايتم إلا بالأعراض عن الحياة والمال، والهرب من الشواغل والعلائق)).

ولقد قاوم ابن تيمية حركة التصوف ودعا إلى الإصلاح فسجن في قلعة دمشق وفيها مات.

وبناء المدرسة قد يكون بسيطاً مؤلفاً من قبة ملحقة بمسجد أو بمدفن، أو قد يكون بناؤه مستقلاً مؤلفاً من إيوان وصحن وعدد من الغرف، أومن أربعة أواوين متقابلة يدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة.

٩/١٥ ولابد هنا من إبراز أهمية البيمارستان، وهو المشفى الذي يلجأ إليه المرضى، وكان الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي في دمشق، أول من أوجد هذا النوع من المؤسسات لمعالجة المرضى والبرص والعرج والعمى كما يقول الطبري.

وكانت هذه المؤسسات ذات وظيفة صحية إنسانية وتعليمية بوقت معاً، ذلك أن البيمارستان شأنه شأن المشايخ الجامعية، يقوم الأطباء المشرفون فيه على تعليم الطب والصيدلة إضافة إلى معالجة المرضى، كما كان الأمر في البيمارستان النوري الذي أشرف على التعليم فيه ابن النفيس، والبيمارستان القيمري والبيمارستان الصغير.

وعدا هذه البيمارستانات كانت هناك مدارس لتعليم الطب ذكرها النعيمي[1] مثل الدخوارية التي بناها مهذب الدين دخوار (٦٢١ هـ / ١٢٢٣ م)وكانت تقع قبلي الجامع الأموي، والدنيسرية التي أشرف عليها الطبيب عماد الدين الدنيسري (٦٨٦ هـ / ١٢٨٦ م) واللبودية النجمية أنشأها نجم الدين اللبودي (٦٧٠ هـ / ١٢٧٠ م).

وجميع هذه المؤسسات التعليمية كانت بإشراف الدولة المباشر أو غير المباشر، ولكن الأفراد والمحسنين كانوا ينفقون عليها عن طريق الأوقاف التي تنوعت حتى شملت أموراً كثيرة.

١٠/١٥ إن هذه المؤسسات التعليمية إنما هي مظهر من مظاهر التقيد بالواجبات الدينية، فلقد أمر الله باستعمال العقل والحكمة «أَفَلا تَعْقِلُونَ» ﴿البقرة: ٤٤/٢ ومواطن كثيرة، «أَفَلا تَذَكَّرُونَ» (يونس: ٣/١٠)ومواطن كثيرة. وجعل القرآن هدى «إِنَّ هَذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» ﴿الإسراء: ٩/١٧، وفي الحديث: ((تعلموا من المهد إلى اللحد))...

(١) عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، دمشق ١٩٤٨ – ١٩٥١.

لذلك كان العلم والتعليم فرضاً على المسلمين، بل هو فرض عين لا يمكن الإنابة فيه كفرض الكفاية الذي يسقط عن الآخرين إذا قام به البعض. وهكذا فإن المؤسسات التعليمية هي مؤسسات دينية أيضاً، وهي بهذه الصفة موضع رعاية الخليفة والسلطان الذي جعل العلم والتعليم تحت سلطة شيخ الإسلام والفقهاء[1] .

١٦ - العامل السياسي

١/١٦ إذا كانت دمشق مملكة في عهد الآراميين فقد أصبحت ميتروبولاً أي مدينة رئيسية ثم مستعمرة رومانية أيام الرومان، وهي نفسها التي أصبحت عاصمة الأمويين، وفيها كان مقر الخليفة وديوان الحكم وقائد الجند وصاحب بيت المال، وإليها كان يرجع الولاة في جميع أنحاء البلاد التي امتدت من مشارف الصين وحتى الأندلس.

ونحن نعلم من الأخبار المدونة أن أول قصر أنشئ في الإسلام كان قصر معاوية (الخضراء) الذي أقامه عام (٦٥٦ م) في جنوبي الجامع الكبير، أقامه من الطين أولاً ثم نقضه ثم أقامه من الحجارة كما روى ابن عساكر[2] ، ولقد اشترى عبد الملك بن مروان هذا البيت وأقام فيه. كما أقام في دار الخيّال لاستقبال الموفدين والرسل.

ثم أنشأ الوليد بن عبد الملك عام (٧١٥ م) المسجد الكبير الذي استمر بناؤه عشر سنوات فكان مسجداً على مستوى الدولة العربية الإسلامية الكبيرة التي كانت دمشق أول عاصمة لها.

٢/١٦ ومع ذلك فإن دمشق لم تضم قصور الأمويين على الرغم من كونها عامرة ذات تقاليد وخصائص قمينة بجعلها مقراً ناجحاً للخلفاء. بل لقد أقيمت قصور الخلفاء في الأردن والبادية والبقاع، مثل قصير عمره وقصر أسيس وعنجر التي أنشأها الوليد، أو في بادية الشام كقصور الرصافة والحير التي أنشأها هشام[3]. ويرجع ذلك إلى أسباب خاصة بالأمويين، منها عدم إلفتهم للحياة المدنية، ورغبتهم التقرب من قبائل البادية، وسعيهم للهدوء والراحة وحرصهم على تعليم أولادهم اللسان العربي الأصيل بعيداً عن الرطانة والهجنة كما يقول ابن عبد ربه.

٣/١٦ ولابد من القول أنه من الأمور التي أعاقت استقرار المدينة، الأوبئة والأمراض التي سرت فأهلكت الناس ودفعتهم إلى الانتشار. وبقيت دمشق محافظة على صورتها القديمة ولكنها كانت موئلاً لآل البيت والفقهاء والشعراء في ذلك العصر.

وفي العصر العباسي انتقلت عاصمة الحكم إلى الكوفة ثم إلى بغداد وأصبحت دمشق مدينة مهملة نظراً لكراهية العباسيين الشديدة للأمويين ورغبتهم الانتقام الدائم من أتباعهم.

٤/١٦ وعندما ولي أحمد بن طولون مصر والشام جعل حكمه وراثياً، ثم جاء الإخشيديون ولم تكن الأحوال السياسية إلا اضطراباً مستمراً، وحتى إذا استلم الفاطميون زمام الحكم على مصر والشام

---

(١) H. Nashabi : The Islamic City , Educational Institutions-colloqium Cambridge 1976 .

(٢) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، مخطوط محفوظ في المكتبة الظاهرية بدمشق ويجري تحقيقه ونشره تباعاً ، ولقد صدر منه القسم الأول من المجلدة الثانية تحقيق المنجد ، والمجلدة العاشرة تحقيق دهمان ، ومجلدات أخرى.

(٣) عفيف البهنسي : القصور الشامية وزخارفها في العصر الأموي – الحوليات الأثرية السورية ، مجلد ٢٥ .

(٩٦٨- ٩٧٥ م) فإن دمشق التي أعلنت مقاومتها للسلطة التي تختلف في مذهبها مع مذهب الناس فيها، وصلت إلى حضيض تدهورها، ويذكر ابن الجوزي ذلك بالأمثلة والأرقام. ٥/١٦ وفي عهد السلاجقة والأتابكة (١٠٧٥- ١١٧٤ م) تتجلى علاقة السكان الجيدة مع السلطة التي دعمت مذهب أهل السنة. وينصرف الناس للمشاركة في مقارعة الصليبيين في حملتهم الأولى والثانية وفك الحصار عن مدينتهم عام ١١٤٩م.

وفي عهد نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي تستعيد دمشق أهميتها بعد زوال الخطر الصليبي وتحرير الأرض، وتقام في دمشق المدارس ودور العلم وتنشط فيها التجارة وتنشأ الأسواق. ولقد وصف ابن جبير هذا الحال في رحلته.

وما أن توفي صلاح الدين ١١٩٣ م حتى قام الملك العادل بعده وجعل ولده الأشرف موسى والمعظم عيسى ولاة له في دمشق، ولكن النزاع الذي احتدم بين أمراء الأسرة الأيوبية أعاد لدمشق وضعها المتأزم، إلى أن قام أحد المماليك بانقلاب في دمشق وتم مثل ذلك في مصر، وعندما قهر بايبرس وقطز سلطان مصر المملوكي التتار في عين جالوت، أصبحت دمشق تابعة لمصر، ولكنها حظيت هذه المرة بمكانة لائقة جعلتها أقدر على الاستقرار وكانت في الواقع العاصمة الثانية لدولة المماليك كما يقول العمري(١)، بل كان للسلطان مقر في دمشق ينزل فيه في قلعتها وفيها سرير ملك خاص به.

٦/١٦ وكان الوالي أو نائب السلطان ينفّذ تعاليم السلطان ويمثله ويشرف على الحكم كما يشرف على صاحب الشرطة والجند، ولكن منصب قاضي القضاة الذي يشرف على العدل بحكم الشريعة، ومنصب نائب القلعة كانا مستقلين عن سلطة الوالي مرتبطين بالسلطان مباشرة(٢). وكان استقلال السلطه هذا يضمن للسلطان عدم التألب عليه، ولكنه أدى إلى عدم استقرار الحكم، فلقد توالى على السلطة في دمشق اثنان وستون والياً من المماليك مات أكثرهم قتلاً(٢).

٧/١٦ ولكن دمشق في هذه الفترة كانت قد أصبحت مقراً لكثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين، من أمثال ابن تيمية وابن كثير والمقدسي والعمري وابن الشاطر الفلكي وابن عبد الهادي والصفدي والنعيمي. ويعتبر هذا العصر هو العصر الذهبي في حياة دمشق الفكرية.

٨/١٦ وينتقل الحكم إلى العثمانيين عام (١٥١٦ م) وتتأكد السيطرة التركية وتصبح دمشق أشبه بالمستعمرة لايربطها بالعاصمة إلا الولاء الديني. ويستقل أهل دمشق بحياتهم بعيداً عن السياسة وإن كانوا من ضحاياها، وينصرفون إلى التجارة والصناعة التي ازدهرت بسبب موقع دمشق التجاري وإقبال التجار الغربيين إليها، ثم لأنها أصبحت مركزاً لتجمع قوافل الحج من مختلف أنحاء البلاد العثمانية، وكان الحجاج يتبادلون البضائع من أسواقها مستفيدين من الإعفاء من المكوس الذي كان قائماً بسبب الحج(٣).

(١) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القاهرة ١٩٢٣ ج١.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى القاهرة ١٩٢٣.
(٣) ابن طولون: إعلام الورى فيمن ولي من الأتراك على دمشق الكبرى، دمشق ١٩٤٩، تحقيق محمد دهمان.

الفصل الثالث

دمشق القديمة

من خلال مشاهدات الرحالة والجغرافيين

١- وصف المهلبي لدمشق قبل ألف عام

٢- دمشق من خلال ابن جبير

٣- وصف جامع دمشق

٤- وصف الربوة

٥- قبور الأنبياء والصحابة

٦- دور الشفاء والتعليم

٧- أخلاق الدمشقيين وآدابهم

٨- رغبته بدمشق، ودعوته المغاربة للإقامة فيها

٩- وصف دمشق من خلال رحلة ابن بطوطة الطنجي

١٠- ملاحظات لابن بطوطة لم يذكرها ابن جبير

دمشق القديمة من خلال مشاهدات الرحالة والجغرافيين

١ - وصف المهلبي لدمشق قبل ألف عام

١/١ إن أقدم من وصف دمشق، هو الحسن بن أحمد المهلبي البهنسي (ت٣٨٠ هـ/٩٩٠ م) الذي ألف كتاباً جغرافياً أهداه للخليفة الفاطمي العزيز بالله وفي هذا الكتاب[١] قال المهلبي: وأما دمشق فإنها مدينة عادية أزلية. وهي مدينة الشام العظمى، وقصبة الجند. وهي من الإقليم الرابع. وعرضها ثلاث وثلاثون درجة.

قالوا: وهي إرم ذات العماد[٢] . وهي من أحسن البلاد وأجلّها موقعاً، سهلية جبلية، وفي شمالها جبل عظيم ممتد مسيرة أربعة أيام[٣] . وكانت مدينة اليونانية ودار ملكهم[٤] . وقيل إنه وجد في ركن من أركان البيت[٥] الذي كان فيها للعبادة – ثم صار مسجد الجامع – مكتوباً باليونانية، ((بنى هذا البيت دامشقيوس على اسم الإله إزيس.؟؟))[٦] .

قالوا: ودامشقيوس اسم الملك الذي بناها، وإزيس تفسيره بالعربية المشتري.

وقال قوم: بناها جيرون بن عاد، والصابئة[٧] تزعم أن البيت الذي كان بها هو أحد البيوت السبعة المبنية على أسماء الكواكب، وأنه بيت المشتري فيرون حجه والسعي إليه.

قالوا: وبني والمشتري راجع. فأقام أربعة آلاف وخمس مئة سنة.

قالوا وغلب عليه عبّاد الأصنام من اليونانية لما تركوا دين آبائهم. فأقام في أيديهم ألف سنة.

قالوا: ثم تنصرت اليونانية فصيروا البيت كنيسة. فأقام بذلك خمس مئة سنة.

قالوا: ثم جاء الإسلام فبني مسجداً منذ ثلاث مئة سنة.

٣/١ قال: وطول الغوطة ثلاثون ميلاً، وعرضها خمسة عشر ميلاً. ولاتكاد الشمس أن تصل إلى أرضها لكثرة الشجر، والمياه تتخرق في جميع هذه الغوطة فإنها مقسومة للضياع متوزعة للشرب.

قالوا: واسم الجبل المذكور في شمالي دمشق القسيون (كذا)

---

(١) المهلبي (الحسن بن أحمد ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠هـ) ، المسالك والممالك ، حقق قسماً منه صلاح الدين المنجد ، نشر مجلة معهد المحفوظات ١٩٥٨ / مايو.

(٢) إرم ذات العماد ، وهي دمشق في العهد الآرامي ، وكان معبد الآراميين في موقع الجامع الأموي ، يعبد فيه الإله حدد إله المطر والصاعقة والخصب ، وذات العماد كنية دمشق ، فلقد كانت بعد زلزال أصاب المعبد الروماني ، غابة من الأعمدة في الإسلام.

(٣) هو جبل قاسيون في شمالي دمشق.

(٤) المقصود أنها كانت حاضرة في العهد اليوناني والروماني .

(٥) والمقصود المعبد الروماني .

(٦) ليس من المحقق وجود مثل هذه الكتابة ، واسم دمشق لايعود إلى اسم دامشقيوس الذي لا يعرف تاريخياً .

(٧) المقصود بالصابئةهنا عباد الأوثان والآراميين.

قالوا: وفي هذا الجبل المغارة التي قتل فيها قابيلُ هابيلَ [1] .

قالوا وبها استتر إبراهيم عليه السلام من النمرود.

٤/١ قال: ونزل المسلمون على دمشق لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة أربع عشرة للهجرة،

بعد أن فتحت غوطتها كلها عنوة. فنزل أبو عبيدة بن الجراح على باب الجابية، ونزل خالد بن الوليد على باب شرقي، ونزل يزيد بن أبي سفيان على باب كيسان ونزل شرحبيل بن حسنة على باب الفراديس، ونزل عمرو بن العاص على باب توما وحصرها المسلمون مدة، ثم فتحها أبو عبيدة من ناحية باب الجابية. فلما أحس من فيها بالغلبة مالوا إلى خالد بن الوليد فصالحوه من ناحية الباب الشرقي، وفتحوا له فدخل، فالتقى بأبي عبيدة في المدينة. فاختلفا في فتحها هل هو عنوة أو صلح، وكتبا في ذلك إلى عمر، فأمضاها على الصلح. وبنى المسلمون الجامع إلى جانب كنيسة يوحنا[2] .

٥/١ فلما تملك معاوية بن أبي سفيان أراد أن يزيد الكنيسة في المسجد فمنعه النصارى عن ذلك، فأمسك عن طلبها.

ثم لما تملك عبد الملك أراد أن يفعل ذلك، وبذل فيه مالاً كثيراً، فمنعه النصارى منه فلما تملك الوليد ابن عبد الملك جمعهم وأرغبهم، وبذل لهم مالاً عظيماً، فأبوا. عليه فقال لهم: إنكم إن أجبتموني إلى ما أريده وإلا خربت الكنيسة فقال له بعضهم: إن من خرّب كنيسة جن.

فأحفظه ذلك، فنهض في ثوب خز أصفر فوضع المعول بيده فنقضها وزادها في أرض المسجد، وبناه بنية، ليس على وجه الأرض مثلها وأسرف فيها.

٦/١ بعد ظهور السلطان نور الدين محمود بن زنكي ابتدأت دمشق تستعيد مكانتها، وكانت قلعة دمشق التي ابتدأ السلاجقة بإنشائها هي من أهم المعالم وأصبحت مقر السلطة الحاكمة. وقام نور الدين بتزيين أسوار دمشق وبناء بعض أبراجها وفتح أبواباً جديدة. ثم ظهرت أرباض هي امتداد للمدينة؛ منها الصالحية التي سكنها المقادسة بعد سقوط القدس بيد الصليبيين سنة (١٠٩٨ م)، ومنها حي العقيبة شمالي السور، ومنها حكر السماق في غربي السور، ثم قام الملك العادل ببناء قلعة دمشق على أنقاض القلعة السلجوقية

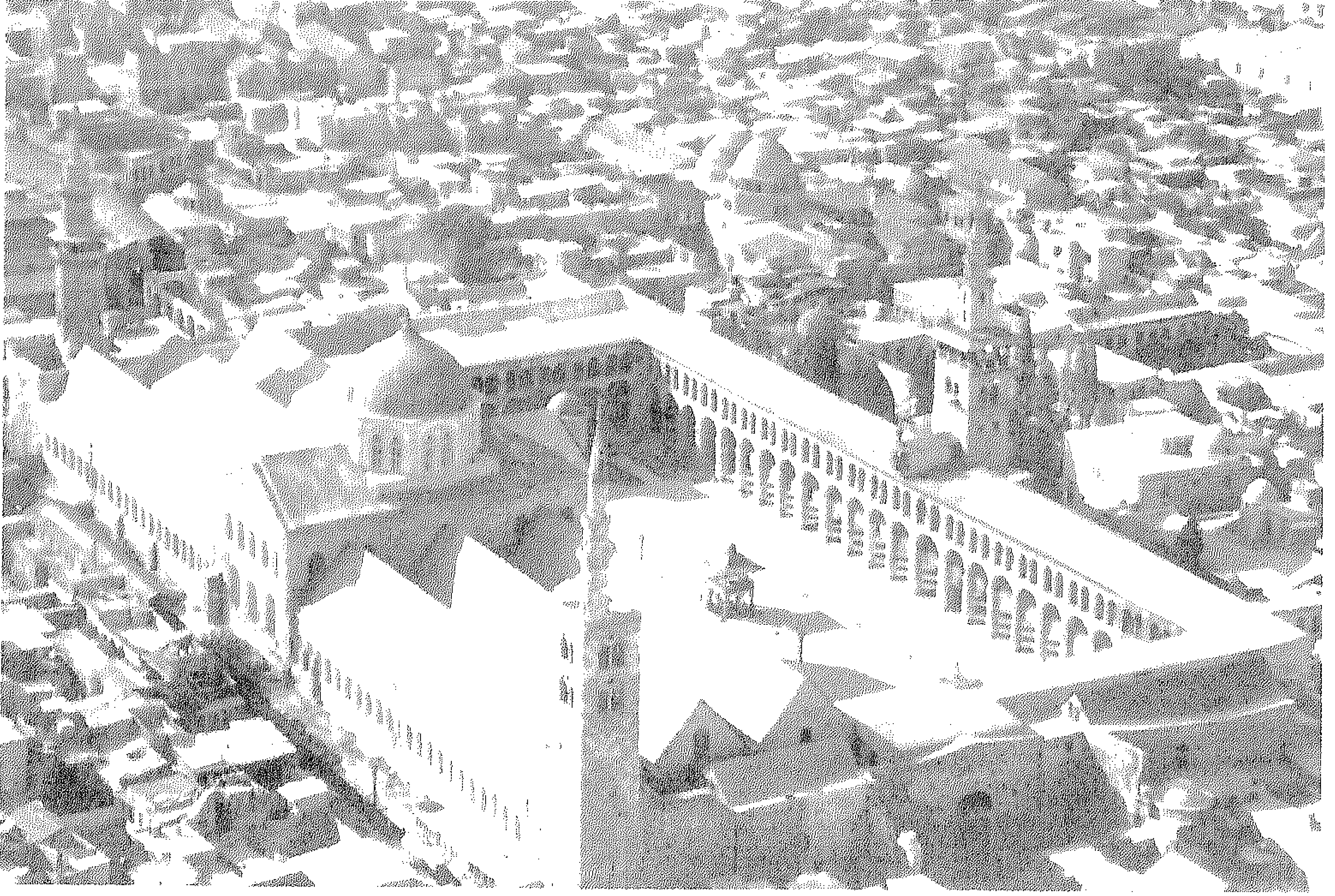
٢ - دمشق من خلال ابن جبير

١/٢ في سنة (٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م) زار دمشق الرحالة البلنسي الشاطبي، ابن جبير محمد بن أحمد الكناني (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م)، وذكر في كتابه (الرحلة)[3] انطباعاته عن هذه المدينة وعن مسجدها وسكانها، وكان شديد الإعجاب بدمشق حتى أنه دعا المغاربة للإقامة فيها، ويبدأ ابن جبير الحديث عن دمشق

(١) مازالت ثمة مغارة ومدفن في توابع الجبل من جهة الغرب ، مشرف على وادي بردى يسمى قبر هابيل .

(٢) الكنيسة كانت تشغل هيكل المعبد الروماني (الناووس) والجامع المذكور كان مؤقتاً ذكره أركولف ، انظر كتابنا الجامع الأموي.

(٣) ابن جبير : محمد بن أحمد الكناني (ت٦١٤ / ١٢١٧ م) في كتابه الرحلة ، طبعة بيروت .



الجامع الأموي قلب المدينة

بوصفها فيقول:

٢/٢ ((هي جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه، صلى الله عليهما، منها إلى ربوة ذات قرار ومعين، ظلّ ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم: هلموا إلى معرّس للحسن ومقيل. قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمّاء، فتكاد تناديك بها الصلاب: «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ» ﴿ص: ٤٢/٣٨. قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيّها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر، ولله صدق القائلين عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لاشك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها)).

٣/٢ والمسجد الجامع مائل إلى الجهة الشمالية من البلد، والأرباض به مطيفة إلا من جهة الشرق مع مايتصل بها من القبلة

يسيراً. والأرباض كبار والبلد ليس بمفرط الكبر وهو مائل للطول. وسككه ضيقة مظلمة. وبناؤه طين وقصب، طبقات بعضها فوق بعض، ولذلك مايسرع الحريق إليه. وهو كله ثلاث طبقات، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً، وحسنه كله خارج لا داخل.

٤/٢ وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم، تعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها. وهي حفيلة البناء، تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الأفكار وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهي بأيدي الروم، ولااعتراض عليهم فيها.

٥/٢ ثم يعدد أبواب دمشق

لهذه البلدة ثمانية أبواب: باب شرقي، وهو شرقي، وفيه منارة بيضاء يقال إن عيسى، عليه السلام ينزل فيها، لما جاء في الأثر أنه ينزل بالمنارة البيضاء شرقي دمشق.

ويلي هذا الباب باب توما وهو أيضاً في حيز الشرق. ثم باب السلامة. ثم باب الفراديس، وهو شمالي. ثم باب الفرج. ثم باب النصر، وهو غربي ثم باب الجابية كذلك، ثم باب الصغير، وهو بين الغرب والقبلة.

٦/٢ ومن وصفه لقلعة دمشق وحماماتها وأسواقها بقول:

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية من البلد، وهي بإزاء باب الفرج من أبواب البلد وبها جامع السلطان يُجَمَّع فيه. وعلى مقربة منها، خارج البلد في جهة الغرب، ميدانان كأنهما مبسوطان خزّاً لشدة خضرتهما، وعليهما حَلَق، والنهر بينهما وغيضة عظيمة من الحور متصلة بهما، وهما من أبدع المناظر. يخرج السلطان إليهما ويلعب فيهما بالصوالجة ويسابق بين الخيل فيهما، ولا مجال للعين كمجالها فيهما. وفي كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية والمسابقة بالصوالجة.

٧/٢ وبهذه البلدة أيضاً قرب مئة حمام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها. وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب، لأن المرافق بها كثيرة. وفي الذي ذكرناه من ذلك كفاية، والله يبقيها دار إسلام بمنّه.

وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وضعاً، ولاسيما قيساريّاتها. وهي مرتفعات كأنها الفناديق مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور، وكل قيساريّة منفردة بضبتها وأغلاقها الجديدة. ولها أيضاً سوق يعرف بالسوق الكبير يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي. وفيه بيت صغير جداً قد اتّخذ مصلّى، وفي قبلته حجر يقال: إن إبراهيم، صلى الله عليه وسلم، كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع.

٨/٢ وأشد ما يلفت نظر ابن جبير هو نظام السقايات العامة التي تقدم الماء للناس في الجامع وخارجه

ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع



حـرم الجامـع الأمـوي

سقايات، في كل جانب سقاية كل واحدة منها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت الخلانيّة والماء يجري في كل بيت منها. وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل تصب فيه عدة أنابيب منتظمة بطوله. وإحدى هذه السقايات في دهليز باب جيرون، وهي أكبرها، وفيها من البيوت ما ينيف على الثلاثين، وفيها زائداً على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران، يكادان يمسكان لسعتهما عرض الدار المحتوية على هذه السقاية، والواحد بعيد من الآخر، ودور كل واحد منهما نحو الأربعين شبراً، والماء نابع فيهما. والثانية في دهليز باب الناطفيين بإزاء المعلمين. والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد. والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة. وهذه أيضاً من المرافق العظيمة للغرباء وسواهم. والبلد كله سقايات. قلما تخلو سكة من سككه أوسوق من أسواقه من سقاية. والمرافق به أكثر من أن توصف، والله يبقيه دار إسلام بقدرته.

٣ - وصف جامع دمشق

١/٣ يقول ابن جبير: هو من أشهر جوامع الإسلام حسناً وإتقان بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنميق وتزيين. وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه، ومن عجيب شأنه أنه لاتنسج به العنكبوت ولاتدخله، ولاتلم به الطير المعروفة بالخطاف. انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك، رحمه الله، ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بإشخاص اثني عشر ألفاً من الصناع من بلاده، وتقدم إليه

بالوعيد في ذلك مما هو مذكور في كتب التاريخ. فشرع في بنائه، وبلغت الغايات في التأنق فيه، وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء، وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة، قد مثلت أشجاراً، وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص، ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وصف كل واصف، فجاء يغشي العيون وميضاً وبصيصاً.

وكان هذا الجامع المبارك، ظاهراً وباطناً منزلاً كله بالفصوص المذهبة، مزخرفاً بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة، فأدركه الحريق مرتين، فتهدم وجدد، وذهب أكثر رخامه، فاستحال رونقه، فأسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها؟. يتقيد ذهباً كله. وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفها سويريات مفتولات فتل الأسورة كأنها مخروطة، لم ير شيء أجمل منها، وبعضها حمر كأنها مرجان. فشأن قبلة هذا الجامع المبارك مع مايتصل من قبابه الثلاث وإشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه، واتصال شعاع الشمس بها، وانعكاسه إلى كل لون منها، حتى ترتمي الأبصار منه أشعة ملونة، يتصل ذلك بجداره القبلي كله عظيم لايلحق وصفه ولاتبلغ العبارة بعض ما يتصوره الخاطر منه، والله يعمره بشهادة الإسلام وكلمته بمنّه.

٢/٣ وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان، رضي الله عنه. وهو المصحف الذي وجه به إلى الشام. وتفتح الخزانة كل يوم إثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه.

٣/٣ وله أربعة أبواب: باب قبلي، ويعرف بباب الزيادة، وله دهليز كبير متسع، وله أعمدة عظام، وفيه حوانيت للخرزيين وسواهم، وله مرأى رائع، ومنه يفضي إلى دار الخيل. وعن يسار الخارج منه سماط الصّفّارين، وهي كانت دار معاوية رضي الله عنه، وتعرف بالخضراء. وباب شرقي، وهو أعظم الأبواب، ويعرف بباب جيرون. وباب غربي ويعرف بباب البريد. وباب شمالي ويعرف بباب الناطفيين.

٤/٣ ويقف ابن جبير أمام ساعة كانت عند باب جيرون فيصفها قائلاً:

وعن يمين الخارج من باب جيرون، في جدار البلاط الذي أمامه، غرفة، ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار، ودبرت تدبيراً هندسياً، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر فمي بازين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر، تحت كل واحد منهما. أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب، والثاني تحت آخرها. والطاستان مثقوبتان، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، وتبصر البازين يمدان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاستين ويقذفانهما بسرعة، بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دويّ وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين

بلوح من الصفر، لايزال كذلك عندكل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضي الساعات، ثم تعود إلى حالها الأول. ولها بالليل تدبير آخر، وذلك أن في القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة، وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة، مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة. وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عمّ الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها، فلاحت للأبصار دائرة محمرّة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها، وقد وكّل بها في الغرفة متفقّد لحالها، دُرّب بشأنها وانتقالها، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى موضعها. وهي التي يسمّيها الناس المنجانة.

٤ - وصف الربوة

١/٤ ويتحدث ابن جبير عن الأرباض والبلدات المجاورة، فيذكر الربوة والنيرب فيقول: وبآخر هذا الجبل المذكور، في آخر البسيط البستاني الغربي من هذا البلد، الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى: مأوى المسيح وأمه، صلوات الله عليهما. وهي من أبدع مناظر الدنيا حسناً وجمالاً وإشراقاً وإتقان بناء واحتفال تشييد وشرف وضع، هي كالقصر المشيد، ويصعد إليها على أدراج. والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها، وهي كالبيت الصغير. وبإزائها بيت يقال: إنه مصلى الخضر، صلى الله عليه وسلم فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين، ولاسيما المأوى المبارك. ولها شوارع دائرة، وفيها سقاية لم ير أحسن منها، قد سيق إليها الماء من علو، وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار متّصل بحوض من رخام يقع الماء فيه، لم ير أحسن من منظره. وخلف ذلك مطاهر يجري الماء في كل بيت منها ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان.

٢/٤ وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومقْسِم مائه، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار. يأخذكل نهر طريقه، وأكبر هذه الأنهار نهر يعرف بثورا، وهو يشق تحت الربوة، وقد نقر له في الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له متسرب واسع كالغار وربما انغمس الجسور من سُبّاح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة في النهر، واندفع تحت الماء حتى يشق متسربه تحت الربوة ويخرج أسفلها، وهي مخاطرة كبيرة.

٣/٤ ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد، ولا إشراف كإشرافها حسناً وجمالاً واتساع مسرح للأبصار. وتحتها تلك الأنهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى، فتحار الأبصار في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاع انصبابها. وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها أعظم من أن يحيط به وصف واصف في غلو مدحه. وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير.

وللربوة المباركة أوقاف كثيرة من بساتين وأرض بيضاء ورباع. وهي معينة



صورة جوية لطريق بيروت عبر وادي الربوة وجبل قاسيون ١٩٢٨ وفي الصورة يبدو قصر الأمير عبد القادر الجزائري (كان الطريق إلى جبل لبنان جبلياً قبل أن ينتقل إلى خانق الربوة) (إيكو شار)

التقسيم لوظائفها: فمنها ما هو معين باسم النفقة الأُدُم للبائتين فيها من الزوار، ومنها ماهو معين للأكسية برسم التغطية بالليل، ومنها ما هو للطعام، إلى تقاسيم تستوفي جميع مؤنها، ومؤن الأمين الراتب فيها برسم الإمامة، والمؤذن الملتزم خدمتها، ولهم على ذلك كله مرتب معلوم في كل شهر. وهي خطة من أعظم الخطط.

٤/٤ ويتصل بها أسفل منها، بمقربة من المسافة، قرية كبيرة تعرف بالنيرب، قد غطتها البساتين، فلا يظهر منها إلا ما سما بناؤه. وبها جامع لم ير أحسن منه مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون، فيخيل لناظره أنه ديباج مبسوط. وفيه سقاية ماء رائقة الحسن، ومطهرة لها عشرة أبواب، يجري الماء فيها ويطيف بها وفوقها لجهة القبلة قرية كبيرة، هي من أحسن القرى، تعرف بالمزّة وبها جامع كبير وسقاية معينة، وبقرية النيرب حمّام، وأكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات.

٥/٤ وفي الجهة الشرقية من البلد، عن يمين الطريق إلى مولد إبراهيم، عليه السلام، قرية تعرف ببيت لاهية، يريدون الآلهة، وكانت فيها كنيسة الآن مسجد مبارك. وكان آزر أبو إبراهيم ينحت فيها



نهر بردى عند دخوله دمشق وبعد تفرعه (بونفيس)

الآلهة ويصورها فيجيء الخليل إبراهيم صلوات الله عليه وعلى نبينا الكريم، فيكسرها. وهي اليوم مسجد يجتمع فيه أهل القرية، وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة، منتظم كله خواتيم وأشكالاً بديعة يخيل لمبصرها أنها فرش متقنة مزخرفة، وهو من المشاهد الكريمة.

٥ - قبور الأنبياء والصحابة

١/٥ ويعتبر ابن جبير دمشق مدينة مقدسة لما فيها من مدافن الأنبياء والصحابة في مقبرة الباب الصغير ((مدفن الشهداء)) فيقول:

و بالجبانة التي بغربي البلد من قبور أهل البيت، كثير رضي الله عنهم، منها قبران عليهما مسجد يقال أنهما من ولد الحسن والحسين، رضي الله عنهما، ومسجد آخر فيه قبر يقال إنه لسكينة بنت الحسين، رضي الله عنهما أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت ((وبغربي البلد جبّانة كبيرة تعرف بقبور الشهداء، فيها كثير من الصحابة والتّابعين الأئمة الصالحين، رضي الله عنهم، فالمشهور بها من قبور الصحابة، رضي الله عنهم، قبر أبي الدّرداء، وقبر زوجته أم الدّرداء، رضي الله عنهما. وموضع مبارك فيه تاريخ قديم مكتوب عليه: في هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة، رضي الله عنهم، منهم فضالة بن عبيد، وسهل بن الحنظليّة، من الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحت الشجرة، وخال أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه وقبره مسنم في الموضع المذكور.

٢/٥ ((وقرأت في فضائل دمشق: أن أم المؤمنين أم حبيبة أخت معاوية رضي الله عنهما، مدفونة بدمشق. وقبر واثلة بن الأسقع من أهل الصّفّة. وفي الجهة التي تلي هذا الموضع المبارك تاريخ فيه مكتوب: هذا قبر أوس بن أوس الثّقفي. وحول هذا الموضع المذكور، على مقربة منه، قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي رأس القبر المبارك تاريخ باسمه، رضي الله عنه والدعاء في هذا الموضع المبارك مستجاب، قد جرب ذلك كثير من الأولياء وأهل الخير المتبركين بزيارتهم إلى قبور كثيرة من الصحابة وسواهم من الصالحين ممن قد ذهب اسمه وغبر ذكره. ومشاهد كثيرة لأهل البيت رضي الله عنهم، رجالاً ونساء، وقد احتفل الشيعة في البناء عليهم، ولها الأوقاف الواسعة)).

٣/٥ وفي باب ذكر المشاهد المكرمة، وآثاره المعظمة يتحدث ابن جبير عن المشاهد في الجامع الكبير فيقول:

((فأولها مشهد رأس يحيى بن زكريا عليه السلام وهو مدفون بالجامع المكرم في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية، رضي الله عنهم، وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة

وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف، كأنه القدح الكبير، لايدرى أمن زجاج عراقي أم صوري هو أم من غير ذلك. ومولد إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم، وهو بسفح جبل قاسيون عند قرية تعرف ببرزة، وهي من أجمل القرى. وهذا الجبل مشهور بالبركة في القديم لأنه مصعد الأنبياء، صلوات الله عليهم، ومطلعهم. وهو في الجهة الشمالية من البلد وعلى مقدار فرسخ. وهذا المولد المبارك غار مستطيل ضيّق، وقد بني عليه مسجد كبير مرتفع مقسم على مساجد كثيرة كالغرف المطلة، وعليه صومعة عالية. ومن ذلك الغار رأى صلى الله عليه وسلم، الكوكب ثم القمر ثم الشمس، حسبما ذكره الله تعالى في كتابه عزّ وجلّ، وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج إليه، وهذا كله ذكره الحافظ محدث الشام أبو القاسم ابن هبة الله ابن عساكر الدمشقي في تاريخه في أخبار دمشق، وهو ينيف على مئة مجلد. وذكر أيضاً أن بين باب الفراديس، وهو أحد أبواب البلد، وفي الجهة الشمالية من الجامع المبارك على مقربة منه إلى جبل قاسيون، مدفن سبعين ألف نبي، وقيل: سبعون ألف شهيد، وأن الأنبياء المدفونين به سبع مئة نبي، والله أعلم.

٤/٥ وخارج هذا البلد الجبانة العتيقة. وهي مدفن الأنبياء والصالحين. وبركتها شهيرة. وفي طرفها مما يلي البساتين وهدة من الأرض متصلة بالجبانة، ذكر أنها مدفن سبعين نبياً، وعصمها الله ونزهها من أن يدفن فيها أحد، والقبور محيطة بها هي لا تخلو من الماء حتى عادت قرارة له، كل ذلك تنزيه من الله تعالى لها.

٥/٥ وبجبل قاسيون أيضاً لجهة الغرب على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك، مغارة تعرف بمغارة الدم، لأن فوقها في الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل ابني آدم، صلى الله عليه وسلم، يتصل من نحو نصف الجبل إلى المغارة. وقد أبقى الله منه في الجبل آثاراً حمراً في الحجارة تحك فتستحيل، وهي كالطريق في الجبل، وتنقطع

عند المغارة، وليس يوجد في النصف الأعلى من المغارة آثاراً تشبهها، فكان يقال: إنها لون حجارة الجبل، وإنما هي من الموضع الذي جر منه القاتل لأخيه حيث قتله حتى انتهى إلى مغارة، وهي من آيات الله تعالى، وآياته لاتحصى.

٦/٥ وقرأنا في تاريخ ابن المعلّى الأسدي أن تلك المغارة صلّى فيها إبراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب، عليهم وعلى نبينا الكريم أفضل الصلاة والسلام. وعليها مسجد قد أتقن بناؤه، وتصعد إليه على أدراج، وهو كالغرفة المستديرة، وحولها أعواد مشربجة مطيفة بها، وبه بيوت ومرافق للسكنى. وهو يفتح كل يوم خميس.

والسرج من الشمع والفتائل تتقد في المغارة، وهي متسعة. وفي أعلى الجبل كهف منسوب لآدم، عليه السلام، وعليه بناء، وهو موضع مبارك. وتحته في حضيض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجوع، ذكر أن سبعين نبياً ماتوا فيها جوعاً، وكان عندهم رغيف فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ويدور عليهم من يد إلى يد حتى لحقتهم المنية، صلوات الله عليهم. وعلى هذه المغارة أيضاً مسجد مبني، وأبصرنا فيه السرج تقد نهاراً.

٧/٥ ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه. وكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها، وهذه أيضاً من المفاخر المخلدة... ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عزّ وجلّ.

٨/٥ ومن أحفل هذه المشاهد منسوب لعليّ بن أبي طالب، كرم الله وجهه قد بني عليه مسجد حفيل رائق البناء، وبازائه بستان كله نارنج، والماء يطرد فيه من سقاية معينة، والمسجد كله ستور معلّقة في جوانبه صغار وكبار. وفي المحراب حجر عظيم وقد شقّ بنصفين والتحم بينهما ولم يبن النصف عن النصف بالكلية، يزعم الشيعة أنه انشق لعلي كرم الله وجهه، إما بضربة بسيفه أو بأمر من الأمور الإلهية على يديه. ولم يذكر عن علي كرم الله وجهه، أنه كان يسير في النوم، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم إذ لاتصح لهم جهة اليقظة. وهذا الحجر أوجب بنيان هذا المشهد.

٩/٥ ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو بقرية تعرف بالمنيحة شرقي البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه. وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء، والقبر في وسطه، وعند رأسه مكتوب: هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٠/٥ ومن مشاهد أهل البيت، رضي الله عنهم: مشهد أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، ويقال لها زينب الصغرى، وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي صلى الله عليه وسلم، لشبهها بابنته أم كلثوم، رضي الله عنها والله أعلم بذلك. ومشهدها الكريم بقرية قبلي البلد تعرف براوية على مقدار فرسخ، وعليه مسجد كبير، وخارجه مساكن، وله أوقاف وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم، مشينا إليه وبتنا به وتبركنا برؤيته،

نفعنا الله بذلك.

١١/٥ ومن المشاهد أيضاً قبر بجامع النيرب، في بيت بالجهة الشرقية منه يقال إنه لأم مريم، رضي الله عنها. وبقرية دارية قبر أبي مسلم الخولاني، رضي الله عنه، وعليه قبة هي علامة القبر وبها أيضاً قبر أبي سليمان الداراني، رضي الله عنه. وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال، وهي لجهة الغرب منه.

١٢/٥ المشاهد الكريمة التي لم نعاينها ووصفت لنا: قبر شيث ونوح، وهما بالبقاع، وهي على يومين من البلد. وحدثنا من ذرع قبر شيث فألفى فيه أربعين باعاً، وفي قبر نوح ثلاثين. وبإزاء قبر نوح قبر ابنة له. وعلى هذه القبور بناء، ولها أوقاف كثيرة، ولها قيم يلتزمها.

١٣/٥ ومن المشاهد المباركة أيضاً بالجبانة الغربية وبمقربة من باب الجابية، قبر أويس القرني، رضي الله عنه. وقبور خلفاء بني أمية، رحمهم الله، يقال: إنها بإزاء باب الصغير بمقربة من الجبانة المذكورة، وعليها اليوم بناء يسكن فيه.

والمشاهد المباركة في هذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد. وإنما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم. ومن المشاهد الشهيرة أيضاً مسجد الأقدام، وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلي القبلة على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى بلاد الحجاز والساحل وديار مصر.

٦ - دور الشفاء والتعليم

١/٦ ويلفت نظره وسائل حماية الصحة العامة ودور البيمارستان ودور التعليم، فيقول:

((وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة، وبها مارستانان قديم وحديث[1] ، والحديث أحفلهما وأكبرهما، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية عليأسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم ويتفقدون المرضى. ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم. والمارستان الآخر على هذا الرسم. لكن الاحتفال في الجديد أكثر.

وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم. وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج، وهم في سلاسل موثقون، نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر.

٢/٦ وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام، والمدارس كذلك. ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين، رحمه الله وبها قبره، نوره الله. وهي قصر من القصور الأنيقة. ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم

٧ - أخلاق الدمشقيين وعاداتهم وآدابهم

١/٧ ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد المستحسنة، المرجو لهم فيها من الله عزّ وجلّ قبول، أنهم في كل سنة يتوخون الوقوف يوم عرفة بجوامعهم إثر صلاة العصر، يقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم،

(١) هي البيمارستان العتيق أو الدقاقي والثاني هو بيمارستان نور الدين الحديث ٥٤٩هـ/ ١١٥٤ م.



آداب الدمشقيين ولباسهم ومرحهم في الغوطة (رسم أحد الرحالة)

داعين إلى ربهم التماساً لبركة الساعة التي يقف فيها وفد الله عزّ وجلّ وحجيج بيته الحرام بعرفات. فلا يزالون واقفين داعين متضرعين إلى الله عزّ وجلّ، وبحجاج بيته الحرام متوسلين، إلى أن يسقط قرص الشمس ويقدروا نَفْر الحاج فينفصلوا باكين على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات، وداعين إلى الله عزّوجلّ في أن يوصلهم إليها ولا يخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك.

٢/٧ ومن عظيم أمرهم تعظيمهم للحاج، على قرب مسافة الحج منهم، وتيسير ذلك لهم، واستطاعتهم لسبيله. فهم يتحمسون بهم عند صدورهم، ويتهافتون عليهم تبركاً بهم. ومن أغرب ما حدثناه من ذلك: أن الحاج الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام الذي هو عام ثمانين، خرج الناس لتلقيهم: الجم الغفير نساء ورجالاً، يصافحونهم ويتمسحون بهم. وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها، وأخرجوا إليهم الأطعمة. فأخبرني من أبصر كثيراً من النساء يتلقين الحاج ويناولنهم الخبز، فإذا عض الحاج فيه اختطفنه من أيديهم وتبادرن لأكله تبركاً بأكل الحاج له، ودفعن له عوضاً منه دراهم، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة.

٣/٧ ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة، وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقراء يقرؤون القرآن بأصوات شجية، وتلاحين مبكية، تكاد تنخلع لها النفوس شجواً وحناناً، يرفعون أصواتهم بها، فتتلقاها الآذان بأدمع الأجفان. وجنائزهم يصلى عليها في

الجامع قبال المقصورة، فلابد لكل جنازة من الجامع، فإذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة، ودخلوا إلى موضع الصلاة عليها، إلا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته، فإن الحالة المميزة له في ذلك أن يدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه. وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن بإزاء باب البريد، فيصلون أفراداً أفراداً، ويجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرؤونها، ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم، ويحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة إلى (الدين)[1] ، فتسمع ماشئت من صدر الدين أو شمسه أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو محييه أو زكيه أو نجيبه، إلى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة. وتتبعها، ولاسيما في الفقهاء، بما شئت أيضاً من سيد العلماء وجمال الأئمة وحجة الإسلام وفخر الشريعة وشرف الملة ومفتي الفريقين، إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية.

فيصعد كل واحد منهم إلى الشريعة ساحباً أذياله من الكبر، ثانياً عطفه وقذاله. فإذا استكملوا وفرغوا من القراءة وانتهى المجلس بهم منتهاه قام وعاظهم واحداً واحداً بحسب رتبهم في المعرفة فوعظ وذكر ونبه على خدع الدنيا وحذر، والمنشد في المعنى ماحضر من الأشعار، ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى ثم قعد، وتلاه آخر على مثل طريقته إلى أن يفرغوا ويتفرقوا. فربما كان مجلساً نافعاً لمن يحضره من الذكرى.

٤/٧ وعن آداب الحديث والسلوك، يقول ابن جبير:

((ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتهويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة. وإذا لقي أحد منهم آخر مسلماً يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة، كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطياً. والجدّ عندهم عنقاء مغرب. وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض، وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائمهم تهوي بينهم هوياً. وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنّا عهدناه لقينات النساء، وعند استعراض رقيق الإماء، فيا عجباً لهؤلاء الرجال، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال، لقد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه، واستعملوا تكفير الذميّ المنهيّ في الشرع عنه! لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل. فيا للعجب منهم، إذا تعاملوا بهذه المعاملة وانتهوا إلى هذه الغاية في الألفاظ بينهم، فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم؟! لقد تساوت الأذناب عندهم والرؤوس، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس. فسبحان خالق الخلق أطواراً، لاشريك له، ولا معبود سواه.

٥/٧ ومن عجب حال الصغير عندهم

(١) يبدي ابن جبير ملاحظة حول التكني بالدين مثل ، صدر الدين وشمس الدين ..

والكبير، بجميع هذه الجهات كلها، أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العتاة مهانة واستكانة، كأنهم قد سيموا تعنيفاً، وأوثقوا تكتيفاً، وهم يعتقدون تلك الهيئة لهم تمييزاً لهم في ذوي الخصوصية وتشريفاً، ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطاً في الأعضاء، وراحة من الإعياء.

والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبراً، أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى من النساء، والرجل أيضاً بأصدقائه. فأمّا أهل التّمييز فيمشون إلى البساتين، ولهم فيها قصور ومواضع طيبة. وأمّا سائر الناس فإلى الميدان الأخضر. وهو محوط، فرشه أخضر، صيفاً وشتاءً، من نبت فيه، وفيه الماء الجاري.

قد تَخِذوا هذه المشية بينهم سَنناً، وكل منهم زيّن له سوء عمله فرآه حسناً، أستغفر الله منهم، فإن لهم من آداب المصافحة عوائد تجدد لهم الإيمان، وتستوهب لهم من الله الغفران، لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في المصافحة، فهم يستعملونها إثر الصلوات، ولاسيما إثر صلاة الصبح وصلاة العصر.

٦/٧ وأهل دمشق أحسن الناس خُلُقاً وخَلْقاً وزِيّاً، وأميَلهم إلى اللهو واللعب. ولهم في كل يوم سبت الاشتغال باللهو واللعب. وفي هذا اليوم لايبقى للسيّد على المملوك حجر، ولا الوالد على الولد، ولاالزوج على الزوجة، ولا للأستاذ على التلميذ. فإذا كان أول النهار يطلب كل واحدٍ من هؤلاء نفقة يومه، فيجتمع المملوك بإخوانه من المماليك، والصبيُّ بأترابه من الصبيان، والزوجة بأخواتها.

٨ - رغبته في دمشق ودعوته المغاربة للإقامة فيها

١/٨ وفي آخر حديثه عن دمشق ومحاسنها وطبيعة مكانها واحتفائهم بالغريب وبخاصة المغاربة، ينادي ابن جبير قومه من المغاربة ويحفزهم على الإقامة في دمشق.

ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء، ولاسيما لحفاظ كتاب الله تعالى، والمنتمين للطلب. فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً. وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتّساع أوجد. فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة. فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمّة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويف، فذلك مَن لايتوجه هذا الخطاب عليه، وإنما المخاطَب كل ذي همّة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنّم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد وتقرع سن الندم على زمن التضييع، والله يوفق ويرشد، لا إله سواه، قد نصحت إن ألفيت سامعاً، وناديت إن أسمعت مجيباً، «وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ»



مدرسة نور الدين وفيها مدفنه، وتلاحظ القبة المقرنصة ذات الطابع السلجوقي الذي ظهر في العراق وآسيا الصغرى

﴿الإسراء: ١٧/ ٩٧، جلَّت قدرته، وتعالى جَدُّه. ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقيَّة كلها إلامبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء، ولاسيما أهل باديتها، فإنك تجد من بدارٍ إلى برّ الضيف، عجباً، كفى بذلك شرفاً لها. وربّما يعرض أحدهم كِسْرَتَه على فقير فيتوقّف عن قبولها، فيبكي الرجل ويقول: لو علم الله في خيراً لأكل الفقير طعامي. لهم في ذلك سرّ شريف.

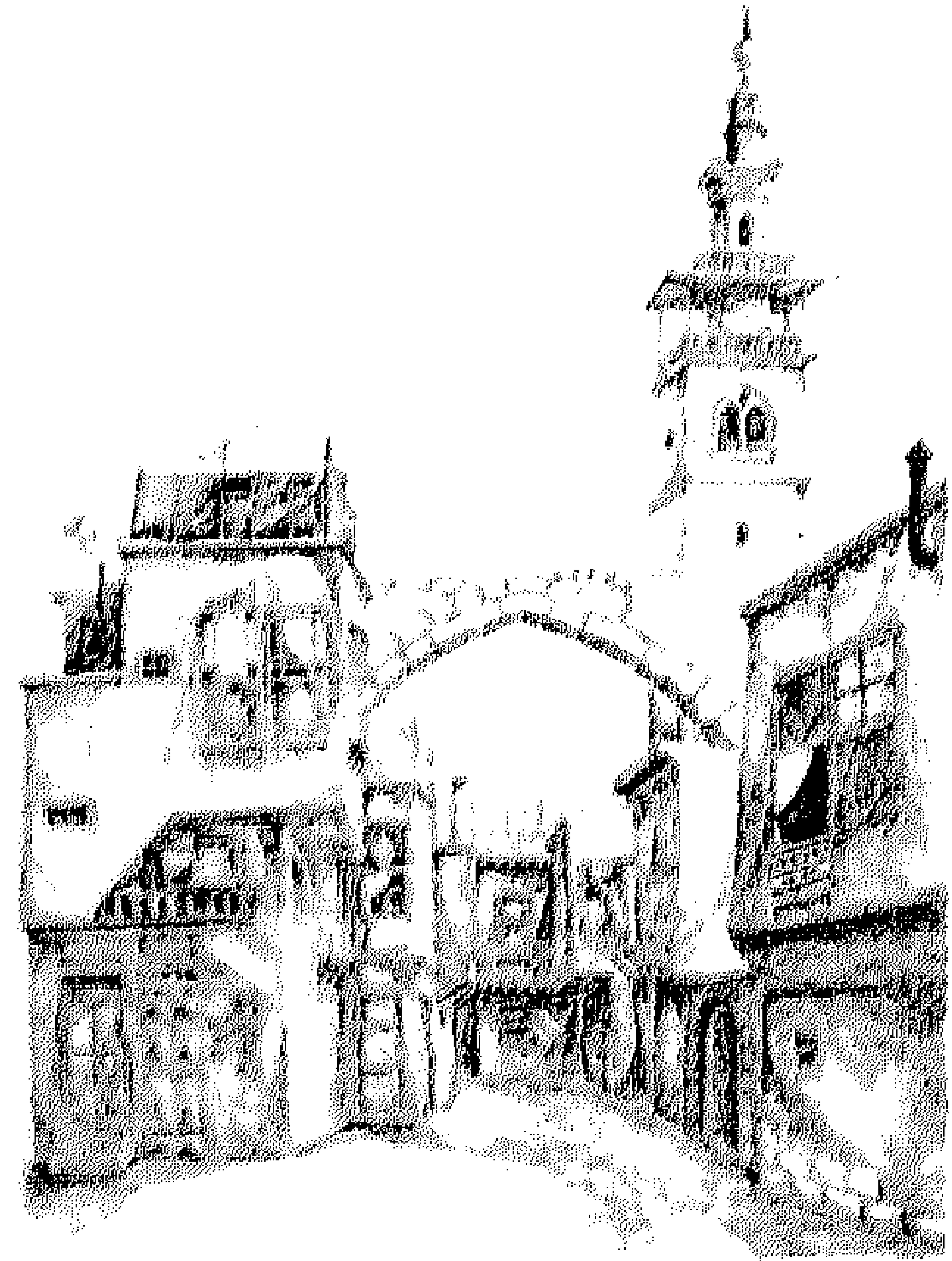
٩ - وصف دمشق شعراً من خلال رحلة ابن بطوطة الطنجي

١/٩ قام ابن بطوطة (ت-٧٧٠هـ/١٣٦٨م) برحلة واسعة في العالم ومرَّ بدمشق سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م) حاملاً ولاشك كثيراً من انطباعاته عنها من خلال ما قرأه في رحلة ابن جبير، ونقتطف هنا ما يزيد عنها أو يختلف، يقول ابن بطوطة:

٢/٩ ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين[1] إلى مدينة دمشق الشام. فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابيشيّة. ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً، وتتقدمها جمالاً، وكل وصف وإن طال فهو قاصرٌ عن محاسنها، ولا أبدع مما قاله أبو الحسين بن جبير رحمه الله تعالى في ذكرها قال:

٣/٩ قال ابن جُزَيّ: وقد نظم بعض شعرائها في هذا المعنى فقال:

إن تكن جنة الخلود بأرض
فدمشق ولاتكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها
قد أبدت هواءها وهواها



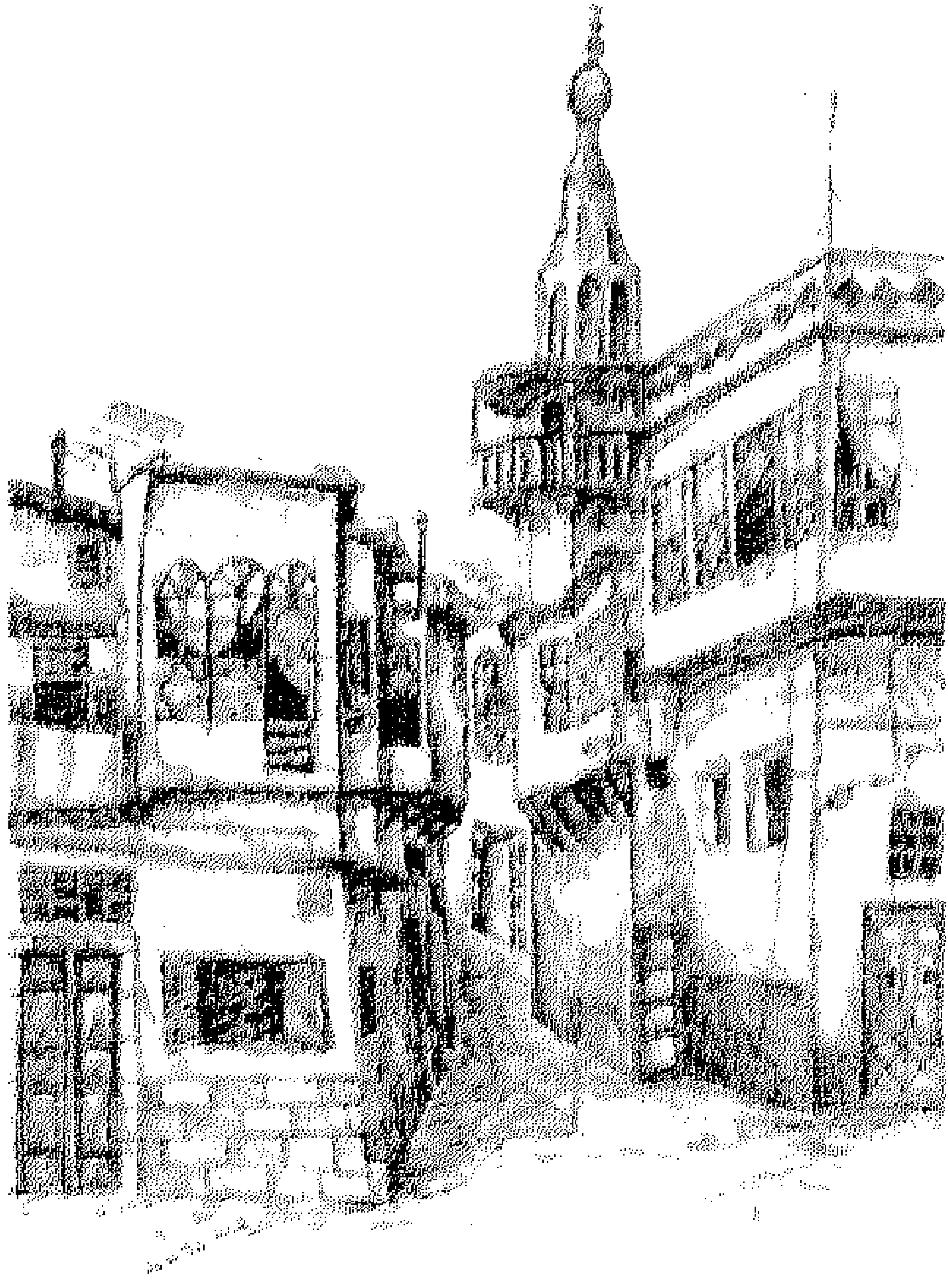
حي من دمشق ـ رسم

بلدٌ طيبٌ وربٌ غفور

فاغتنمها عشيّةً وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرّحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي آشي نزيل تونس - ونقل نص كلام ابن جبير - ثم قال: ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد، وتوّق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد. هذا وإن لم تكن له بها إقامة، فيعرب عنها بحقيقة وعلامة، ولاوصف ذهبيات أصيلها، وقد حان من الشمس غروبها، ولا أزمان جفولها المنوّعات، ولاأوقات سرورها المنبهات، وقد اختصر من قال: ألفيتها كما تصف الألسن، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين.

٩/٤ قال ابن جزيّ: والذي قالته الشعراء في وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرةً.



حي من دمشق ـ رسم

وكان والدي رحمه الله كثيراً ما ينشد في وصفها هذه الأبيات وهي لشرف الدين بن عُنَين رحمه الله تعالى:

دمشق بنا شوقٌ إليها مبرّحٌ

وإن لجّ واشٍ أو ألحّ عذولُ

بلادٌ بها الحصباءُ درٌّ وتُربُها

عبيرٌ وأنفاسُ الشمال شمول

تسلسلَ فيها ماؤها وهو مُطْلَقٌ

وصحّ نسيمُ الروضِ وهو عليلُ

وهذا من النمط العالي من الشعر. وقال فيها عرقلةُ الدمشقيّ الكلبيّ:

الشامُ شامةُ وجنَةِ الدنيا كما

إنسان مُقْلَتِها الغضيضةِ جلّقٌ

مِن آسِها لك جنةٌ لا تنقضي

ومن الشقيق جهنمٌ لاتُحْرِقُ

٩/٥ وقال أيضاً فيها:

أما دمشق فجنّات مُعَجّلَةٌ
للطالبين بها الولدان والحورُ
ما صاح فيها على أوتاره قمرٌ
إلا يغنيه قمريٌّ وشحرورُ
يا حبذا ودروع الماء تنسجها
أنامل الريح إلا أنها زُورُ
و له فيها أشعار كثيرة سوى ذلك.

٦/٩ وقال فيها أبو الوحش سبع بن خلف الأسدي:

سقى دمشق الله غيثاً محسناً
من مستهلّ ديمةٍ دهاقها
مدينة ليس يضاهي حسنها
في سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زَوْرَاءُ العراق أنها
منها ولا تُعْزَى إلى عراقها
فأرضُها مثلُ السماءِ بهجةً
وزهرها كالزهر في إشراقها
نسيم روضها متى ماقد سرى
فكَّ أخا الهموم من وثاقها
قد رتع الربيع في ربوعها
وسيقت الدنيا إلى أسواقها
لاتسأم العيون والأنوف من
رؤيتها يوماً ولا استنشاقها

٧/٩ ومما يناسب هذا، للقاضي عبد الرحيم البيساني فيها من قصيدة، وقد نسبت أيضاً لابن المنيّر:

يابرق هل لك في احتمال تحية
عَذُبَتْ فصارت مثل مائِكَ سَلْسَلا
باكرْ دمشقَ بمشقِ أقلامِ الحيا
زهر الرياض مرصعاً ومكلّلا
وأجرُرْ بجيْرونٍ ذيولك واختصص
مغنى تأزّرَ بالعلى وتسربلا
حيث الحيا الربعي محلول الحيا
والوابل الربعيُّ مفريّ الكلا

٨/٩ وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى سعيد العنسي الغرناطي المدعو نور الدين:

دمشقُ منزلنا حيث النعيم بدا
مكملاً، وهو في الآفاق مختصَرُ
القضب راقصةٌ والطيرُ صادحةٌ
والزهر مرتفعُ والماءُ منحدرُ
وقد تجلّتْ من اللذات أوجهها
لكنها بظلال الدوح تستتر
وكلُّ وادٍ به موسى يفجّره
وكلُّ روضٍ على حافاته الخضر

٩/٩ وقال أيضاً فيها:

خَيِّم بجلّق بين الكأسِ والوترِ
في جنّة هي مِلءُ السمع والبصرِ
ومتّع الطّرْفَ في مرأى محاسنها
وروّضِ الفكرَ بين الروضِ والنهرِ
وانظر إلى ذهبيات الأصيل بها
واسمع إلى نغمات الطير في الشجر
وقل لمن لام في لذّاته بشراً
دعني فإنك عندي من سوى البشرِ

١٠/٩ وقال فيها أيضاً:

أما دمشق فجنّةٌ
ينسى بها الوطنَ الغريب
لله أيام السُّبو
ترِ بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى
إلامحباً أو حبيبْ
في موطن غنّى الحمامُ
به على رقْصِ القضيبْ
و غدت أزاهر روضه
تختال في فرحٍ وطيبْ

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً، إنما يخرجون إلى المتنزهات، وشطوط الأنهار، ودوحات الأشجار، بين البساتين النضيرة، والمياه الجارية فيكونون بها يومهم إلى الليل.

١٠ - ملاحظات لابن بطوطة لم يذكرها ابن جبير

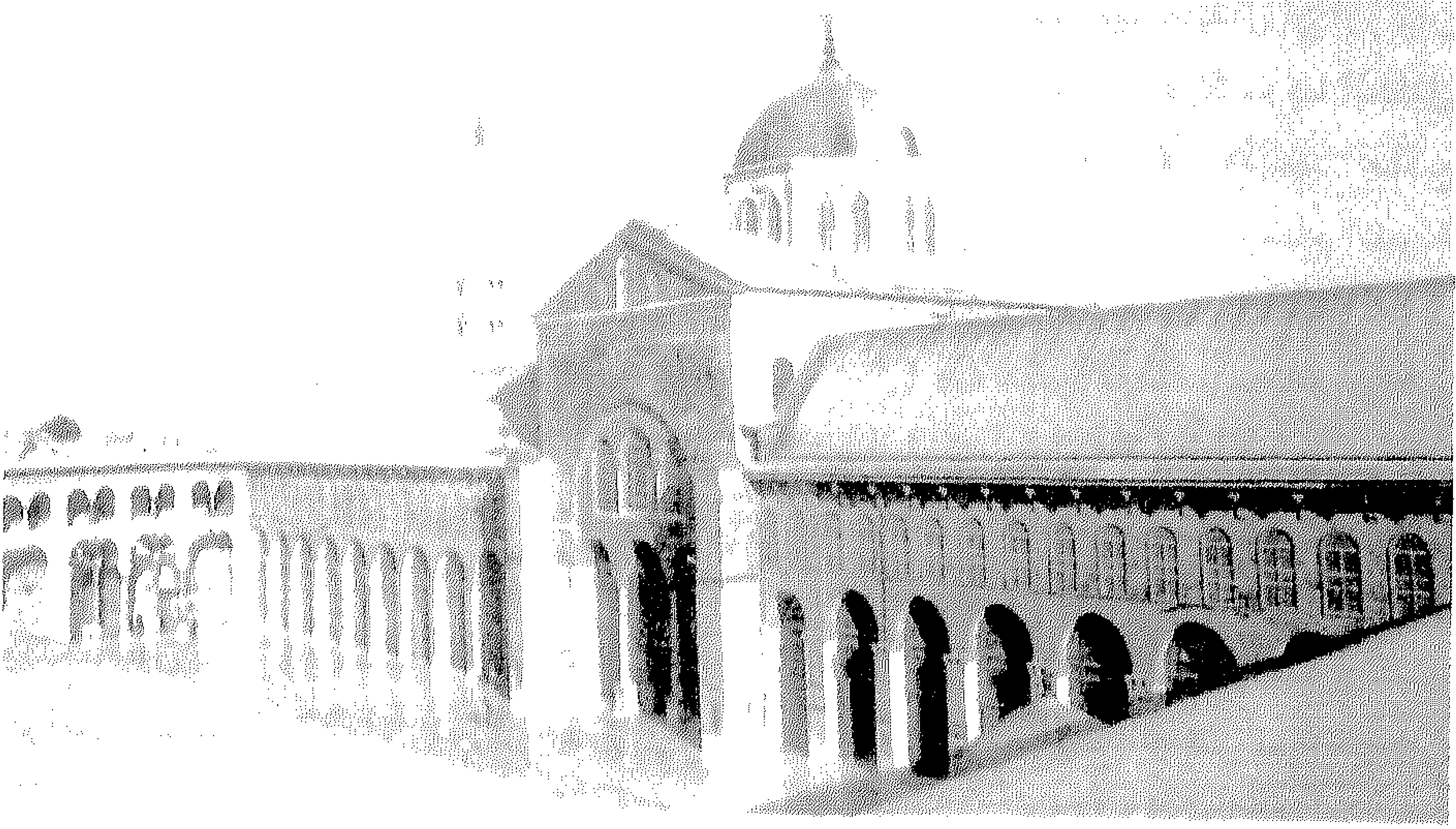
١/١٠ ولهذا المسجد (يعني الأموي) حلقات للتدريس في فنون العلم. والمحدثون يقرؤون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرؤون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساءً، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله، يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم وهم لايكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى، وإنما يقرؤون القرآن تلقيناً، ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها، فينصرف الصبيُّ من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جاد خطه لأنه المعلم للخط لايعلم غيره ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركاح الشافعي، ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر ابن الصايغ من المشتهرين بالفضل والصلاح.

٢/١٠ أعظم قرى دمشق بها جامع كبير عجيب وسقاية معينة. وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والأسواق، وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم.

وفي شرقي البلد قرية تعرف ببيت لهيا، وكانت فيها كنيسة يقال إن آزر كان ينحت فيها الأصنام فيكسرها الخليل عليه السلام، وهي الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام وأزين التئام.

٣/١٠ وفي ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوايدهم يقول ابن بطوطة:

والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها. فمنها أوقاف على العاجزين عند الحج، يعطى لمن يحج عن الرجل منها كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتي لاقدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل، يعطون منها ما يأكلون، ويلبسون ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه، يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير ويردد ابن بطوطة، ما ورد على لسان ابن جبير فيقول: مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت واجتمع الناس فقال له بعضهم: اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها وذهب الرجل معه إليه، فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن.



الجامع الأموي ـ قبة النسر ـ والمئذنة الشرقية

وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا.

الفصل الرابع

تكون المناطق والأحياء

١- دمشق - جولة في التاريخ

٢- المنطقة الأولى - دمشق القديمة

٣- المنطقة الثانية - الميدان والجنوب

٤- المنطقة الثالثة أو المنطقة الشمالية الشرقية

٥- المنطقة الرابعة

٦- المنطقة الخامسة : الصالحية والأكراد

تكون المناطق والأحياء

١ - دمشق وجولة في التاريخ

١/١ دمشق مدينة قديمة، بل هي أقدم مدينة في العالم وجدت ومازالت معروفة حتى الآن [١]. ولقد كانت المدينة موجودة منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ورد ذكرها في ألواح إيبلا (تل مرديخ) [٢] كما ورد اسمها في رسائل تل العمارنة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وأصبحت مملكة آرامية في ذلك الوقت، ويلفظ اسمها في ألواح إيبلا (دامسكي) وفي رسائل تل العمارنة والتوراة والوثائق الآشورية (دمشقا) وأطلق الإغريق والرومان عليها اسم داماس وداماسكوس، وتتفق هذه التسمية مع ما ورد في ألواح إيبلا ذلك أن التسمية هي داماس وكي نسبة.

٢/١ ومازالت الآثار الآرامية محفوظة تحت سطح الأرض أما الآثار الكلاسية فإن أكثرها أصبح مكشوفاً واضحاً، وقد بقي من الآثار الإسلامية مايكفي للدلالة على أهمية هذه المدينة عبر التاريخ الإسلامي.

إن غرضنا هو التعريف بهذه المدينة، من خلال أحيائها وأسواقها، فنحن كثيراً ما نمر بها دون أن نعرف خلفيتها التاريخية، ودون أن نعرف معاني أسمائها.

وهكذا فإننا سنقوم بزيارات منظمة لهذه المدينة، وسنفرد لكل تسمية ترد شرحاً، معتمدين في ذلك على المراجع التي أثبتناها في نهاية البحث.

ولتنظيم زيارة مدينة دمشق لابد من تقسيم هذه الزيارة في خمس جولات، كل جولة تختص بمنطقة.

٢ - المنطقة الأولى: دمشق القديمة

١/٢ كانت دمشق القديمة قبل الإسلام محاطة بسور منيع، وبعد السور كانت الغوطة وقد بقيت أجزاء منها حتى اليوم.

والغوطة لفظاً من الغيط وهو الوادي المتسع، أو البستان المزدهر، والغوطة بساتين تحيط دمشق من جميع جوانبها، وتدخل في ذلك الصالحية قبل اجتياح العمران لها.

٢/٢ وقبل أن ندخل المدينة القديمة لابد أن نذكر شيئاً عن سور المدينة وأبوابها.

أنشأ السور الرومان أولاً، وكان مستطيلاً أبعاده (١٥٠٠م × ٧٥٠ م) ويضم أرضاً مساحتها (١٠٥ هكتاراً). ثم تغيرت جوانبه مع اتساع المدينة عدا الجانب الشمالي الذي يحده نهر بردى.

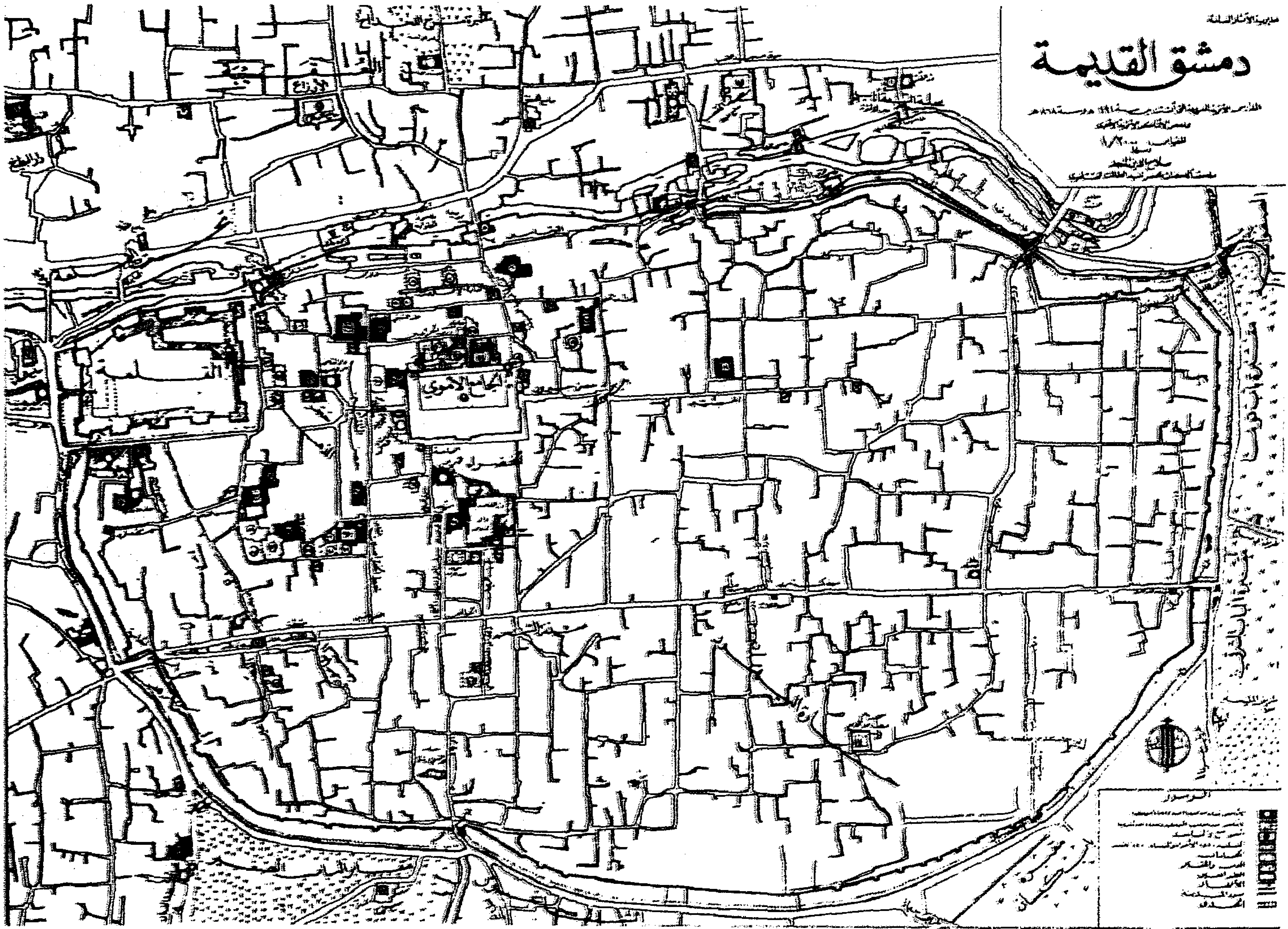
وكان لهذا السور سبعة أبواب، ثلاثة في الشمال واثنان في الجنوب وواحد في الشرق وآخر في الغرب. وتهدمت أجزاء من السور عام (١٣٢ هـ /٧٤٩ م) بفعل العباسيين وخاصة عبد الله بن علي العباسي، وأخذ السور بالانهيار.

وفي عهد نور الدين (٥٤٩ هـ / ١١٥٣ م) أعيد تحصين السور بإشراف الكمال الشهرزوري القاضي وقدر له عام (٦١٨ هـ)

---

(١) انظر قائمة المراجع وفيها كتب قيمة وحديثة في دمشق ..

(٢) ورد اسم دمشق (دامسكي) في ألواح إيبلا التي ترجع إلى عام (٢٤٠٠ق.م)، وهو أقدم تاريخ عرفت فيه دمشق حتى الآن .


دمشق القديمة

٢٠٠ ألف دينار لإصلاحه، وفتحت فيه منذ عهد نور الدين أبواب لم تكن موجودة. وخاصة باب الفرج وباب النصر وباب السلام، أما الأبواب الأخرى فذات أصل روماني. كما أنشئت أبراج دائرية وتغير شكل السور وأصبح أقرب إلى الدائرة. ومنذ عهد العثمانيين أهمل السور وتهدمت أكثر أبوابه وجرى تجاوز على أكثر أنحائه. وتجري الآن عمليات ترميم واسعة في سور المدينة[1].

٣/٢ ومن أبراج السور الباقية برج نور الدين وهو مربع القاعدة ثم يستدير، ويقع هذا البرج جنوب باب الجابية في خان السنانية. وبرج الملك الصالح أيوب المستطيل ويقع شرقي باب توما، وبرج مستدير بشكل نصف دائري ويقع شرقي السور.

وأبواب المدينة القديمة هي: الباب الشرقي في الشرق وهو روماني الأصل، والباب الكبير (الجابية) في الغرب وباب الصغير، وباب السلام وباب الفرج وهي إسلامية وتقع في الشمال، وفي الجنوب باب كيسان ولقد زال باب النصر عام (١٨٦٣م) عند إنشاء سوق الحميدية وكان في موقع سوق الأروام.

٤/٢ وإذا دخلنا المدينة القديمة من الشرق فإننا نعبر: الباب الشرقي: وهو من أهم الأبواب التي أنشئت في العهد الروماني (عهد سبيتم سيفير وكارا كالا) وهو مؤلف من ثلاث فتحات. وقد دخل منه خالد بن الوليد وعبد الله بن علي العباسي ونور الدين بن زنكي. وجدده الملك الناصر شرف الدين عيسى ابن الملك العادل (٦٢٥ / ١٢٢٧ م). ثم قام قلاوون فأصلحه وجدده عام (٧٣٤ / ١٣٣٣ م).

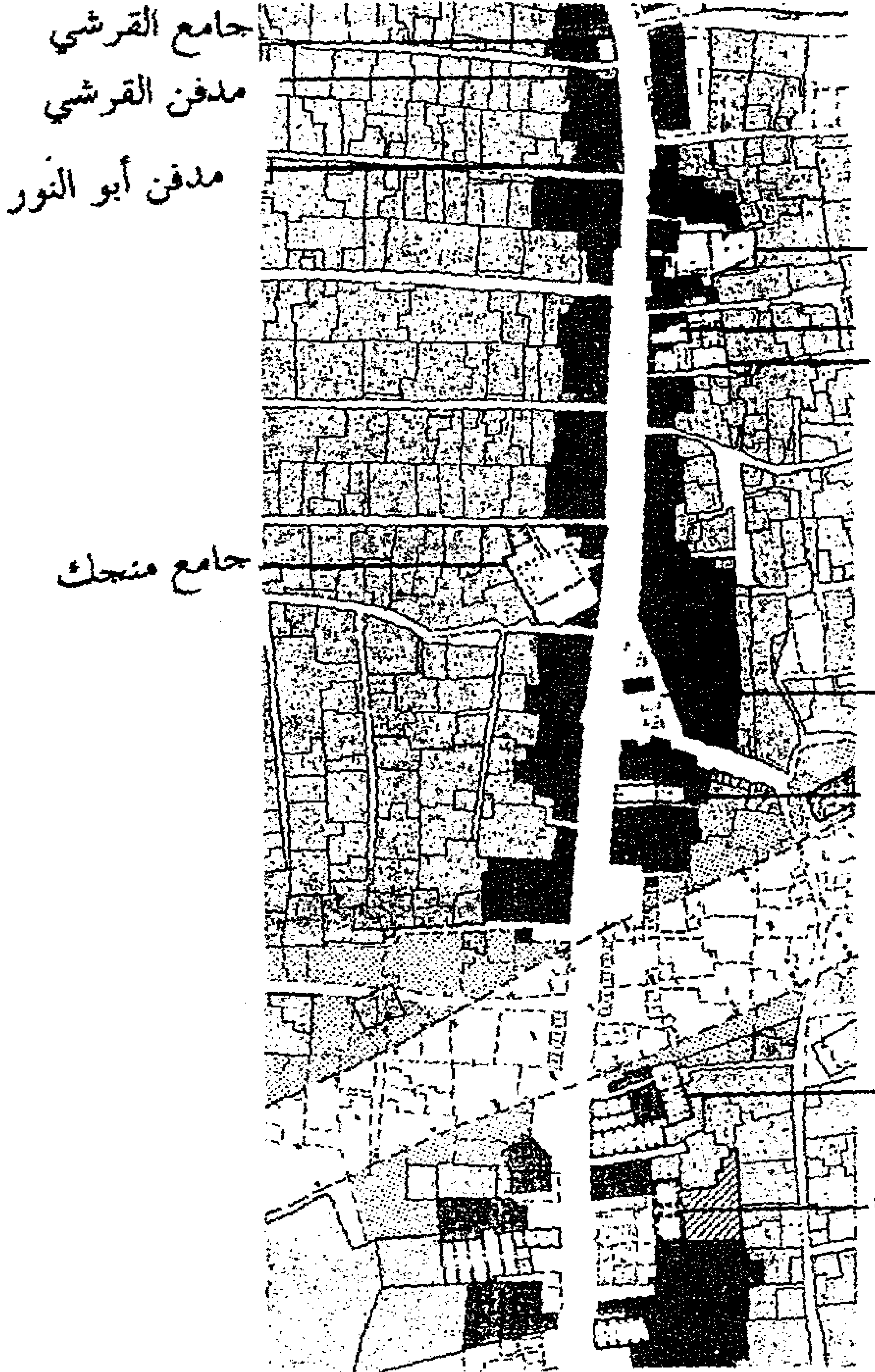
وإذا تابعنا السير غرباً باتجاه الشارع الطويل لاعترضنا درب الحجر وهو منطقة باب توما اليوم.

٥/٢ وباب توما: وهي حي معروف حمل اسم الباب الروماني القديم باب توما وينتسب إلى أحد عظماء الروم واسمه توما[2] . وفي هذا الحي محلة تسمى النيبطون نسبة إلى الأنباط الذين قطنوها قبل الرومان. وفيه كنيسة القديس حنانيا وآثارها رومانية بيزنطية.

٦/٢ ونتابع السير في الشارع الطويل الذي يبلغ (١٥٠٠ متر) وهو الطريق المستقيم الروماني الذي يصل الباب الشرقي بالباب الغربي وهو باب الجابية، ولقد كشفت آثار هذا الشارع وما زالت بلاطاته موجودة مع قواعد الأعمدة الجانبية[3]، كما كشفت الحفريات عن قوس روماني أعيد ترميمه وهو ماثل اليوم، ولقد نظم السوق وأنشىء إلى جانبه الدكاكين مدحت باشا عام (١٨٧٨م)وحمل اسم سوق مدحت باشا، وكان اسمه سوق جقمق. وقبل أن نصل إلى القوس نكون قد تركنا إلى الجنوب باب كيسان ويقع خلف كنيسة القديس بولس من جهة الجنوب الغربي وينتسب إلى كيسان مولى معاوية كما يقول ابن عساكر، وقد سده نور الدين وفتح باب الفرج، ثم جدد فتحه أيام المماليك (٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ م). وفي عام

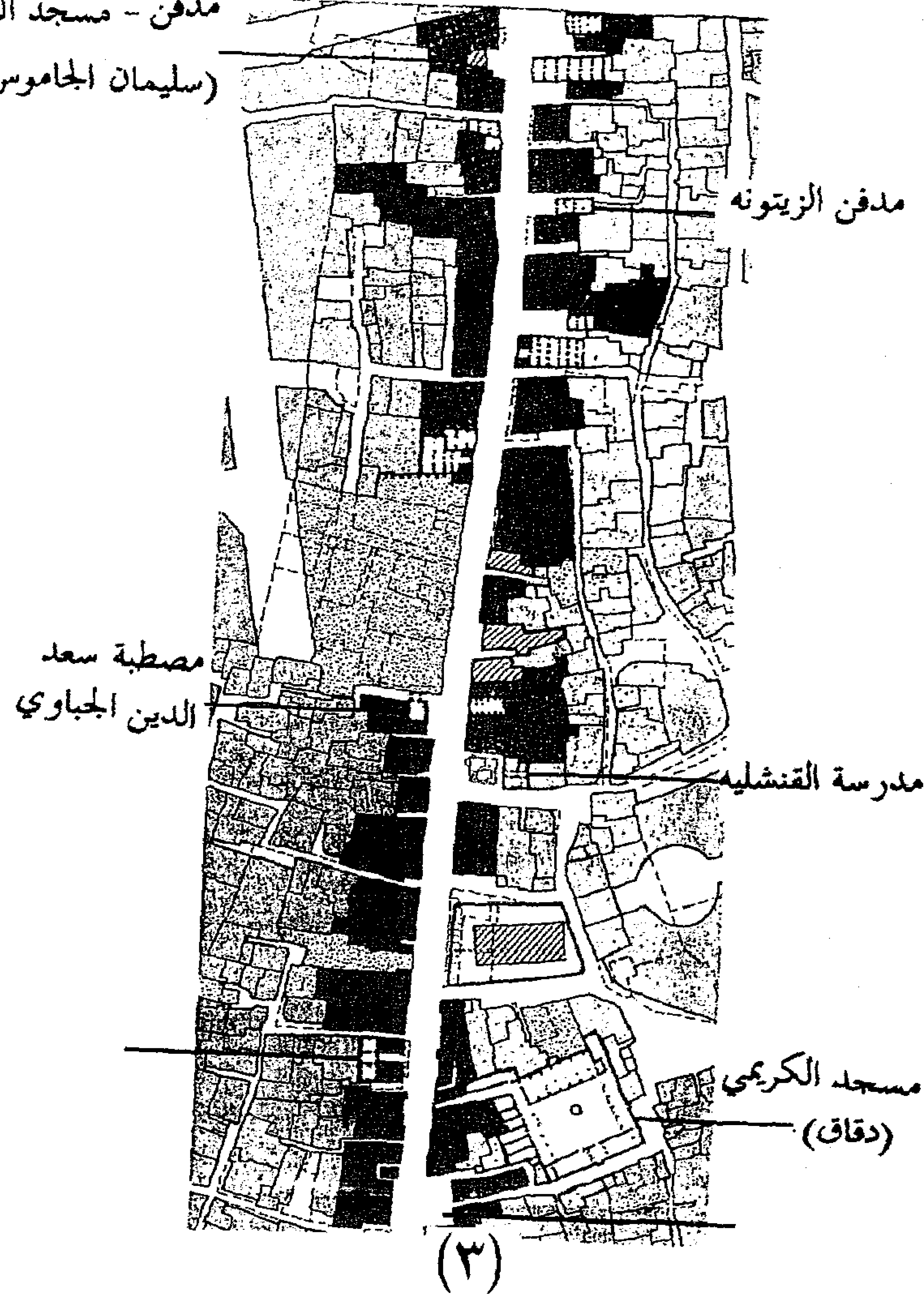
(١) منذ عام ١٩٧٤ وحتى نهاية ١٩٧٧ تم ترميم القسم المحصن بين الباب الشرقي وباب كيسان وذلك بإشراف السيد نسيب الحافظ
(٢) انظر القلائد الجوهرية ص ٥٦ .
(٣) تم كشف هذا الشارع إلى مسافة ستين متراً بالاتجاه الغربي ، ثم قامت أمانة العاصمة بردم الشارع عام ١٩٧٦ .

جنوبي باب المصلى





عن دراسة المعهد الفرنسي بدمشق Le Median



مدفن - مسجد النويري
(سليمان الجاموس)
مدفن الزيتونه
مصطبة سعد
الدين الجباوي
مدرسة القنشليه
مسجد الكريمي
(دقاق)

(٣)



جامع المزي
Derniere
مدفن بوابة الله
0
50
100
200 m

(٤)

(١٩٣٥م) أقام الفرنسيون عند مدخله كنيسة واتخذوا من الباب الأصلي مدخلاً لبعض الكنيسة فاختفى عن الأنظار.

٧/٢ ثم نمر بحارة اليهود أو حي الأمين وإلى الشمال حي الخراب والقيمرية، وهو حي كبير في دمشق يقع شرقي باب جيرون في المنطقة التي كانت تسمى الحريميين وكان فيها المدرسة القيمرية الجوانية التي أنشأها الأمير ناصر الدين القيمري المتوفى سنة (٦٦٥ هـ / ١٢٧٦ م)، والذي سلم الشام للملك الناصر. واهتم بالساعات التي أقامها على واجهة المدرسة. ومن هذه المدرسة تسمية الحي، ويعتقد سوفاجيه أن الساحة الرومانية (الآغورا) كانت تقع في هذا الحي[١] .

٨/٢ وباب السلام: اسم منطقة منسوبة لباب السلام، وهو من أجمل الأبواب الإسلامية، بناه نور الدين وجدده الملك الصالح أيوب عام (٦٤١هـ). وسمي باب السلام لأن وراءه كثير من الأشجار والأنهار التي تحميه.

٩/٢ ونتابع الطريق حتى نصل أطراف الشاغور جنوباً وهو حي قديم أنشئ في العصر الفاطمي ويقابله في الشمال سوق البزورية. ثم سوق الخياطين الذي أنشأه شمسي باشا عام (١٥٥٣ م) تحت اسم خان الجوخية. كما أقام درويش باشا سوق الحرير وبنى فيه خاناً وحماماً. وبين السوقين يقع جامع وقبر نور الدين بن زنكي (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) وقد تم ترميمه سنة (١٩٧٥م) وبعده منطقة الحريقة وهي منطقة سيدي عامود.

ويقابله إلى الجنوب الخضيرية، واسمها الحقيقي الخيضرية نسبة إلى القطب الخيضري (أبو الخير محمد بن محمد عبد الله بن خيضر الخيضري الدمشقي) صاحب دار القرآن الخيضرية بدمشق (٨٢١ - ٨٩٤ هـ) ودفن في القاهرة[٢] .

١٠/٢ حتى نصل إلى باب الجابية وهي منطقة وسوق يقع ظاهر باب الجابية في سويقة كانت باشورة الباب الكبير أيام نور الدين. وباب الجابية أحد أبواب دمشق ملاصق لقبر الست جابية وينتسب إلى قرية الجابية[٣] ، وكان هذا الباب مؤلفاً من ثلاث فتحات.

والباشورة: هي سويقة في باشورة الباب الصغير كان لها باب هدم أيام العثمانيين، ويسمى المسجد الذي بجانب الباب، مسجد الباشورة[٤] .

١١/٢ ثم إذا عدنا إلى المدينة القديمة من باب النصر الذي أزيل عام (١٨٦٣م) وكان موقعه في مدخل سوق الحميدية، فإننا نجابه أجمل أسواق الشرق (سوق الحميدية) وهو مؤلف من قسمين، الغربي أنشئ في عهد السلطان عبد الحميد الأول وعرف بالسوق الجديد في عهد الوالي محمد باشا العظم.

---

(١) انظر : J. sauvaget , le plan antiaque de DAMAS-SYRIA XXVI 1949 .

(٢) تاريخ ابن عساكر ص ١٨٦ .

(٣) في معجم البلدان يقول ياقوت : الجابية من أعمال دمشق ، ناحية الجولان ، إذا وقف الإنسان في قرية الصنمين واستقبل الشمال ، ظهرت له ، وتظهر من قرية نوى أيضاً .

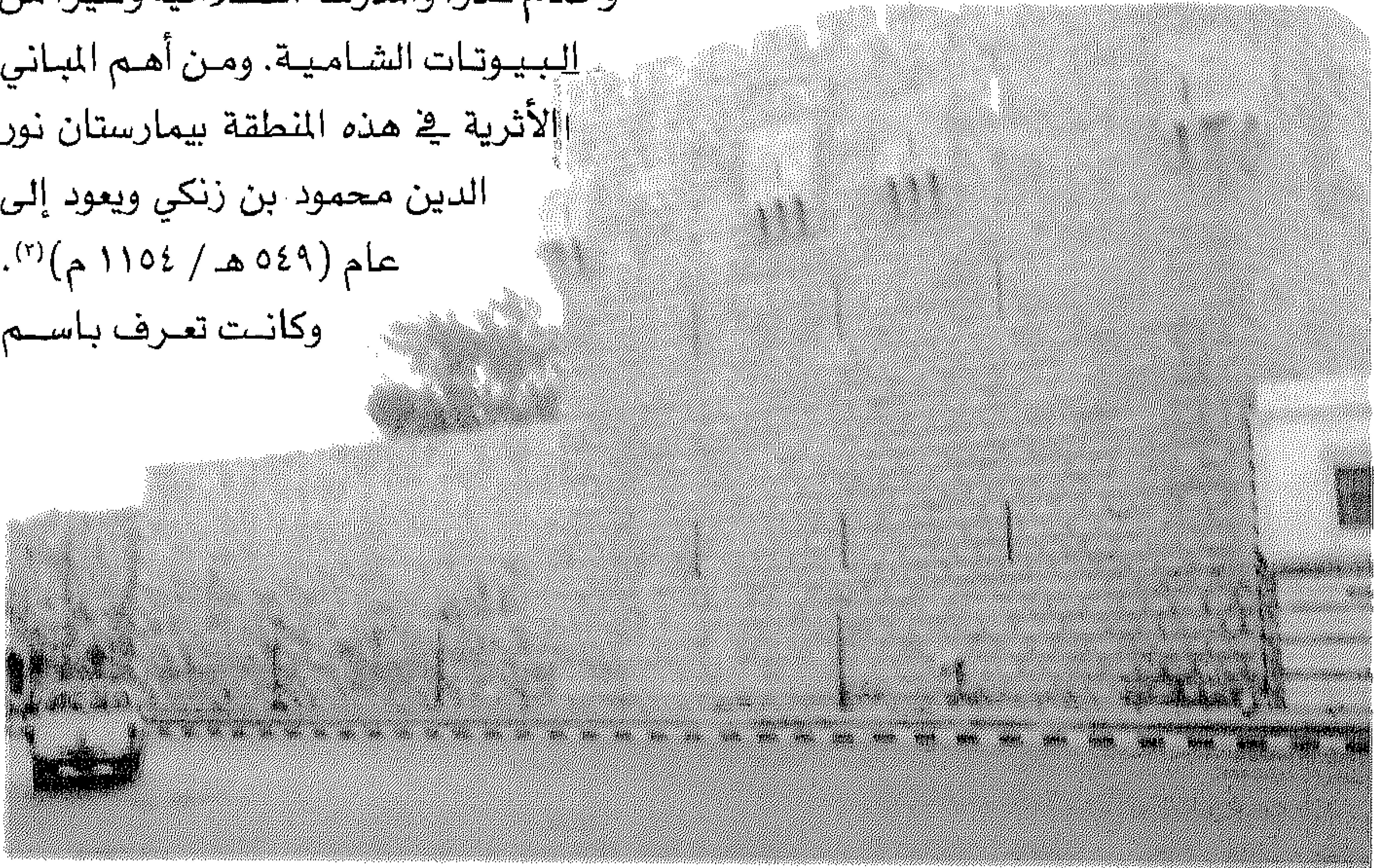
(٤) تاريخ ابن عساكر : القسم الأول ص ١٨٧ .

والقسم الشرقي من العصرونية إلى باب البريد أنشئ في عهد عبد الحميد الثاني وبأمر الوالي راشد ناشد باشا، وأطلق منذئذ على كامل السوق اسم الحميدية.

١٢/٢ وإلى يسار الداخل إلى السوق تقع القلعة: ففي الزاوية الشمالية الغربية من سور دمشق الروماني كان قد أقيم قصير Castrum, وبعد فتح العرب منحت هذه الدار إلى أبي الدرداء، ثم أخذها الضحاك بن قيس، وعوّض أبا الدرداء بدلها بدار ملاصقة للجامع الأموي مكان المدرسة الصادرية اليوم.

ثم أصبحت قلعة أول من أنشأها أتز بن أوق الخوارزمي حاكم دمشق سنة (٤٦٩ هـ / ١٠٧٥ م) وذلك بعد أن احترقت الخضراء والجامع الأموي، وتلاحقت فيها الزيادات في عهد الملك العادل أخي صلاح الدين، ثم إنه هدمها وجعل لها اثني عشر برجاً ووزعت على أبنائه وأمرائه، فعمرت من أموالهم على هيئتها الحاضرة. وتبلغ مساحتها (٣٣٠٠٠ م٢). شرع في بنائها في شوال (٦٩٠ هـ / ١٢٩٠ م) فبنيت بها الأدر السلطانية والطارمة والقبة الزرقاء، وتولى ذلك الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، وبالغ في تحسينها فكانت جملة ما عمل في سقوفها أربعة آلاف مثقال ذهب[1].

١٣/٢ وإلى يمين الداخل إلى سوق الحميدية من الجنوب تقع منطقة الحريقة، وكانت تسمى سيدي عامود، وهي منطقة أحرقها الفرنسيون عام (١٩٢٥م) للقضاء على بيوت الثوار فيها واحترق معها دار السعادة والمدرسة القجماسية والعذرائية وحمام عذرا والمدرسة الصلاحية وكثيراً من البيوتات الشامية. ومن أهم المباني الأثرية في هذه المنطقة بيمارستان نور الدين محمود بن زنكي ويعود إلى عام (٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م)[2]. وكانت تعرف باسم



إعادة بناء برج قلعة دمشق ج.غ

(١) انظر ابن طولون – الشمعة المضيئة – ود.الريحاوي ، قلعة دمشق .

(٢) مسجل أثرياً تحت رقم ١٧ ، وأجريت فيه ترميمات ١٩٧٧ ، وأصبح مقراً لمتحف الطب والعلوم عند العرب.

(سيدي عامود) لوجود مقام أحد الأولياء وإلى جانبه عمود.

١٤/٢ أما سوق الأروام فقد كان سوقاً موازياً لسوق الحميدية من الجنوب، وسمي بذلك نسبة للأتراك الذين أطلق عليهم في عهد المماليك اسم الأروام لأنهم قطنوا القسطنطينية عاصمة الروم. ومازالت آثار من هذا السوق قائمة إلى يومنا هذا.

١٥/٢ وإذا اجتزنا النصف الأول من سوق الحميدية، نرى إلى اليسار العصرونية، وهي سوق يقع شرقي القلعة وغربي الجامع واسم المحلة السابق حجر الذهب، وكان فيها المدرسة العصرونية ومنها أخذت التسمية. أنشأ المدرسة قاضي القضاة شرف الدين ابن أبي عصرون ودفن في المدرسة ذاتها عام (٥٨٥ هـ / ١١٥٨ م).

وكان محباً للحياة عاش ٩٣ عاماً وكان شاعراً، ومنه قوله:

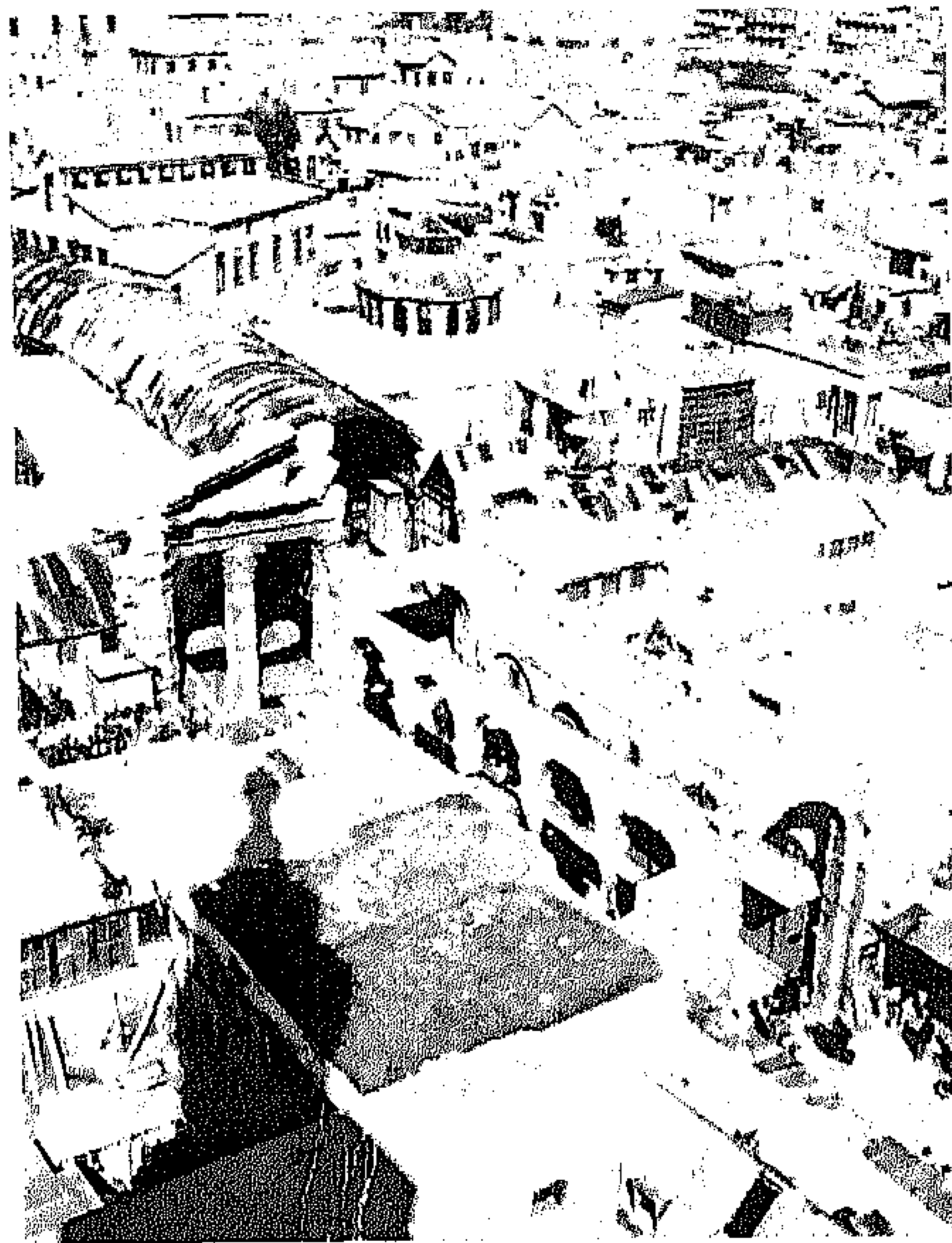
أومل أن أحيا وفي كل ساعة
تمر بي الموتى تهز نعوشها
وما أنا إلا منهم غير أن لي
بقايا ليال في الزمان أعيشها

١٦/٢ وشمالاً يقع باب الفرج وهو باب المناخلية اليوم وخارجه كانت مصطبة الخضر وباب البريد وبين السورين لوقوعها بين السور القديم والسور الجديد. ثم المسكية حيث أطلال معبد جوبيتر وبعض المنشآت الإسلامية أقيم عليها دكاكين للوراقين والمكتبات ومحلات لبيع المسك والعطور إلى جانبها ولهذا أطلق عليها اسم المسكية. ولقد أزيلت هذه المنشآت سنة (١٩٨٣ م).

١٧/٢ ثم الجامع الأموي الكبير: أنشأه الوليد بن عبد الملك سنة (٨٧ هـ / ٧٠٥ م) وحتى (٩٦هـ/ ٧١٥ م) وأكمله أخوه سليمان[1].

كان معبد جوبيتر في عهد الرومان ومازالت جدرانه الخارجية قائمة حتى اليوم في الناحية القبلية باب قديم كما أن آثار أسواره الخارجية (التيمينوس) مازال أكثرها واضحاً درسها كريزويل[2].

واستعمل هيكل المعبد كنيسة في صحن الجامع اليوم، واضيفت أروقة ومنشآت بين جداري المعبد، مازالت آثارها باقية حتى اليوم في المسكية التي كانت قصر



منطقة الجامع الأموي كانت مركز المدينة القديمة

(١) انظر القلائد الجوهرية ص٥٦ .
(٢) انظر : Crewell; Early muslem archirtectictur-oxford 1941.
وانظر كتابنا الجامع الأموي فيه تحقيق هوية الجامع

الحكم الأموي.

وعندما فتح المسلمون دمشق، دخل خالد من الباب الشرقي بالسيف ودخل أبو عبيدة من باب الجابية بالأمان. واستمر المسلمون والمسيحيون يصلون في المكان نفسه حتى عهد الوليد، الذي قرر أن يبني مسجداً كبيراً يتناسب مع أهمية الإسلام ديناً ودولة امتدت في عهده إلى الأندلس غرباً وإلى الصين شرقاً.

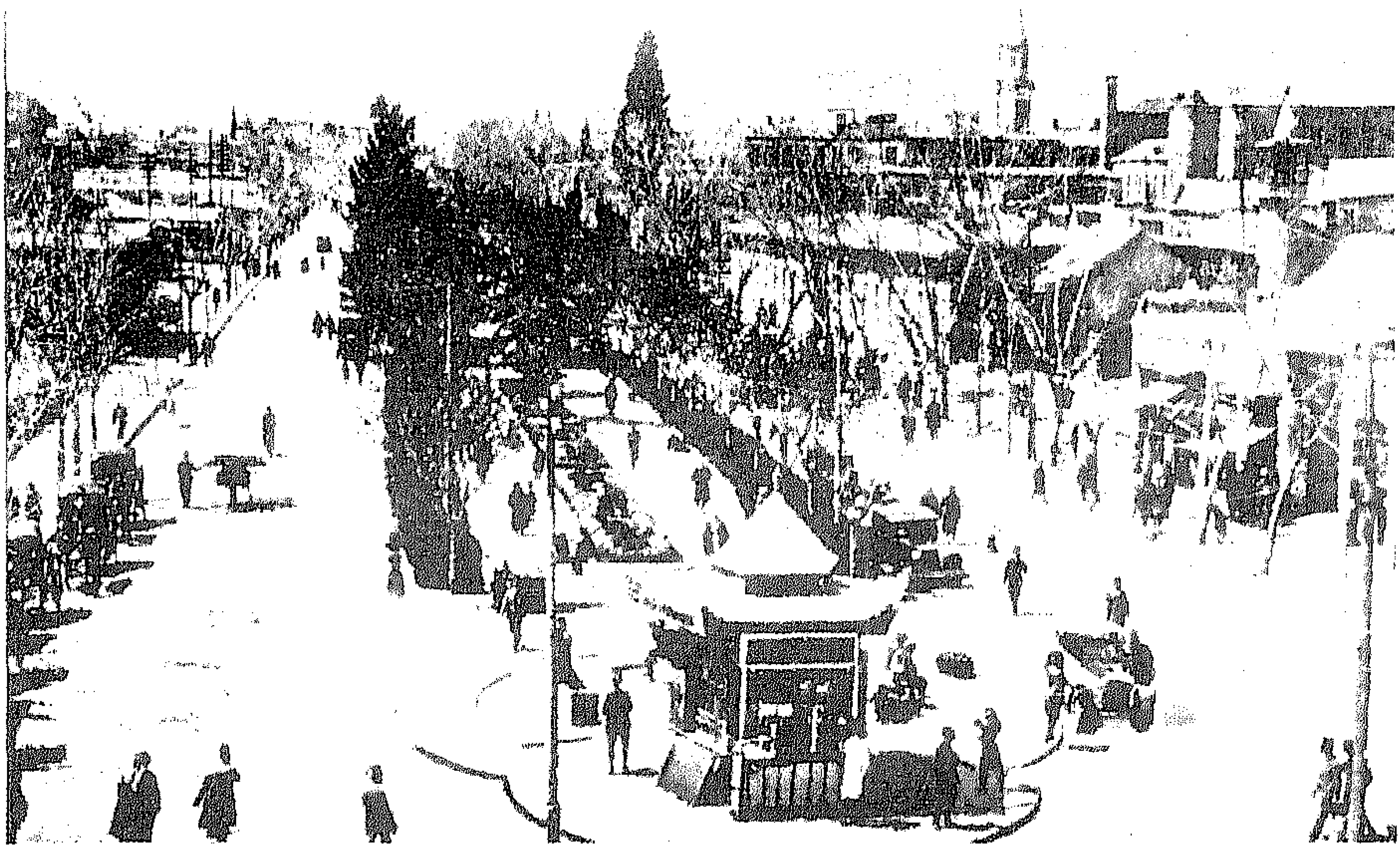
واتفق الوليد مع المسيحيين على هدم الهيكل مقابل عدة كنائس سمح لهم بها، منها كنيسة تعرف بحمام القاسم بحذاء دارأم البنين في الفراديس، وكنيسة حميد بن درة وكنيسة بجانب سوق الجبن وكنيسة المصلبة وكنيسة مريم.

ثم عوضهم عمر بن عبد العزيز بجميع كنائس الغوطة التي كانت قد أخذت منهم سنة (٨٦ هـ / ٧٠٤م).

١٨/٢ هدم هيكل المعبد ولم يبق إلا بعض الجدران الرومانية، وأقام الوليد الحوامل المقنطرة وقبة النسر وغطى الحرم بالخشب والرصاص، وحلى المسجد بالفسيفساء والرخام ولقد كلف بناء المسجد (١٤٤) قنطاراً دمشقياً من الذهب المصري.

ولقد بنى الوليد كل ماكان داخل حيطان المسجد وزاد في سمكها، ولما بنى القبة وقعت، فتصدى أحد البنائين لذلك، فحفر موضع الأركان حتى بلغ الماء ثم بناها حتى إذا وصلت الأركان مستوى الأرض غطاها بالحصير ومضى، حتى إذا استقرت الأركان وقد هبطت قليلاً عاد فأكمل بناءها، ويقال إنه غطى الأساس بجزوع الكرم.

ولقد أكمل بناء الجامع سليمان بن عبد الملك وأقام لنفسه مقصورة فيه سنة(٩٧ هـ/٧١٥م)



شارع النصر في عام ١٩٣٨



محطـة الحجـاز

وفي عام (١٧٢ هـ / ٧٨٧ م) أنشأ أمير دمشق العباسي الفضل بن صالح بن علي قبة المال في صحن الجامع من الجهة الغربية.

وفي سنة (٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م) في عهد الملك العادل بلط صحن الجامع، ولقد تعرض المسجد لحريق ضخم عام (٤٦١ هـ) أتى عليه ثم أعيد ترميمه مرات عديدة آخرها الترميم الذي ابتدأ منذ عام (١٩١٠م) بعد حريق أتى عليه في نهاية القرن الماضي.

٣ - المنطقة الثانية : الميدان والجنوب

١/٣ بعد أن أنهينا جولتنا السريعة في دمشق القديمة فإنا سندخل المنطقة الثانية والمؤلفة من محلة الميدان والأحياء الجنوبية، فإذا خرجنا من سوق الحميدية فإن شارع النصر الممتد حتى محطة الحجاز هو الحد الشمالي للمنطقة الثانية هذه. ولابأس أن نسير في هذا الشارع الذي سمي باسم النصر نسبة إلى باب النصر الذي كان ينفتح في سور المدينة عند مدخل سوق الحميدية، وكان جمال باشا قد أعاد تنظيم هذا الشارع فحمل اسمه منذ عام (١٩١٢م).

٢/٣ وأول شارع النصر إلى الشمال منطقة السنجقدار وهي سوق احترق عام (١٩٢٨م) بتأثير نار خرجت من دار للسينما تحت دائرة الأوقاف، فاحترقت جميع الجهة الواقعة قبلي جامع يلبغا بعد النهر بما في ذلك مدرسة التغري ورمش وهي مدرسة على هيئة القاعات مثل الجقمقية والشاذبكية.

ثم منطقة حكر السماق التي نظمها الأمير تنكز المملوكي وأقام فيها جامعاً في مطلع القرن الرابع عشر وبنى أمامه حماماً وسويقة، أما في الجنوب فإننا نرى أولاً قصر العدل حيث كانت المشيرية التي أزيلت

المباني التاريخية في طريق الميدان





نهائياً عام (١٩٤٩م) وكانت القسم الداخلي المتبقي من السرايا القديمة.

٣/٣ وبعده حي القنوات نسبة إلى القنوات الرومانية التي فيه والتي أنشئ عليها وحولها بيوت الأتراك الثراة والموظفين في السرايا منذ منتصف القرن التاسع عشر. ثم شارع خالد بن الوليد الذي افتتح عام (١٩١٠م) وكان جادة تسمى جادة الرشادية نسبة إلى رشاد باشا.

٤/٣ وعندما ننتهي إلى محطة الحجاز، فإننا ننحرف شمالاً لكي نهبط شارع سعد الله الجابري والممتد حتى نهر بردى، وكان هذا الشارع جادة اسمها السليمانية نسبة إلى سليمان شفيق باشا.

وبعد محطة الحجاز يقع حي الحلبوني وكان في عهد المماليك يسمى الخلخال وهو من أرقى الأحياء.

وإذا أردنا أن نتوسع في زيارة المنطقة الجنوبية، كان علينا أن نسلك شارع خالد بن الوليد حتى المجتهد. حتى نطل على ساحة الأشمر في الميدان السلطاني.

وثمة طريق آخر إلى الميدان وهو الطريق القديم وسنحاول السير فيه لأهميته التاريخية، فهو الطريق العظمى الممتدة من باب الجابية وينتهي عند بوابة الله وهو طريق الحج.

٥/٣ وعلينا الرجوع مرة أخرى إلى مدخل سوق الحميدية لكي نتجه جنوباً إلى الميدان. وهكذا سنمر أولاً بمنطقة الدرويشية وفيها مجموعة الأبنية التي أنشأها درويش باشا عام (١٥٧٤ م) وهي مؤلفة من الجامع والمكتب والمدفن والسبيل، وكان اسم هذه



الأبنية التجارية في منطقة الحريقة، وقد اقتحمت أسوار المدينة من جهة الغرب بعد حريق (سيدي عامود)

المنطقة قبل ذلك الأخصاصية لصناعة الأقفاص والأخصاص.

٦/٣ ثم نمر من باب الجابية الذي تحدثنا عنه، وبعدها يقع قصر حجاج وهو حي يقع في منطقة قصر كان قد أنشأه الحجاج بن عبد الملك ولم يعد له أثر. وجادة قبر عاتكة وهي منطقة تحمل اسمها نسبة إلى قصر عاتكة بنت يزيد بن معاوية الذي لم يعد موجوداً[1] . والسويقة وهي ضاحية أنشئت في عهد المماليك، وكانت حافلة بالخانات لنزول القوافل القادمة والذاهبة إلى عكا وصور ومصر.

٧/٣ ثم نصل إلى باب الصغير وهو باب المدينة الجنوبي، وسمي كذلك لأنه أصغر أبواب دمشق، ولقد جدده الأيوبيون في عهد (عيسى بن الملك العادل) ومنه دخل تيمورلنك، وكان أمامه باشورة ومسجد. ويطلق على هذا الباب اسم باب الشاغور أيضاً. وعلى مقربة منه تقع أكبر مقبرة في دمشق تدعى مقبرة باب الصغير أو (قبور الشهداء) مدفون فيها كما يذكر (ابن بطوطة) معاوية بن أبي سفيان، عبد الملك بن مروان، بلال الحبشي، أبو الدرداء وأم الدرداء، السيدة سكينة بنت الحسين بن علي عليه السلام، ابن تيمية، وأم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين.

ويقول (الهروي) إنه فيه ثلاثة قبور لزوجات النبي، وقبور كعب الأحبار، واثلة بن الأسقع، سهل بن حنظلة.

وفي تربة واحدة دفن من آل البيت: أم



مقبرة باب الصغير وفيها قبور بعض الصحابة والشهداء من آل البيت

(١) انظر :محمد كرد علي ، غوطة دمشق ص ٢٥٧ .



جامع سنان باشا وساحة باب الجابية ـ للفنان ممدوح قشلان

الحسن ابنة حمزة بن جعفر الطيار، علي بن عبد الله العباسي وأخوه سليمان، وزوجته أم الحسن ابنة جعفر بن الحسن بن علي، وخديجة ابنة زين العابدين.

٨/٣ ثم نصل إلى باب المصلى وهو منطقة في الميدان عرفت بهذا الاسم نسبة إلى جامع مصلى العيدين الذي مازال قائماً حتى الآن، وكان يزيد بن الوليد، أول من صلى فيه. ثم أنشأه الملك العادل سنة (٦٠٦ هـ / ١٢٠٨ م) بإشراف الوزير صفي الدين بن شكر ولقد خصص لصلاة العيدين وفتحت له أبواب من كل جانب، وبني له منبر كبير بجانب المحراب الحجري الجميل، وتقع هذه المنطقة في ميدان الحصى، ويطلق عليها (عبيدان الحصن)[1].

٩/٣ والميدان الفوقاني كان سابقاً قرية القبيبات ولاتزال حارة اسمها القبيبات، وسميت كذلك لأن سقوف هذه القرية كانت قباب مثل قرى شمالي سورية، وأهلها من قرية السخنة ومازالوا يدعون بالسخانة، وفيها جامع الكريمي وكان يسمى جامع القبيبات واسمه اليوم جامع الدُّقاق.

وبعدها قبة الحاج وهي قبة كان الحجيج يلتقي هناك حيث تكتب حجة التسليم ثم يمضي أمير الحج إلى تكية أحمد باشا، وتقع هذه القبة في القدم، ولعلها أنشئت مكان قبة يلبغا التي أقيمت في عهد (يلبغا أو قبله) في موقع القدم وأطلق عليها اسم قبة النصر وهي تقع عند بوابة الله التي تسمى أيضاً باب مصر.

(١) انظر :إعلام الورى ، تعليق الأستاذ دهمان ص ١٠٥ .



محراب جامع الأقصاب (ق١٤) في منطقة شارع الملك فيصل ويسمى اليوم جامع السادات

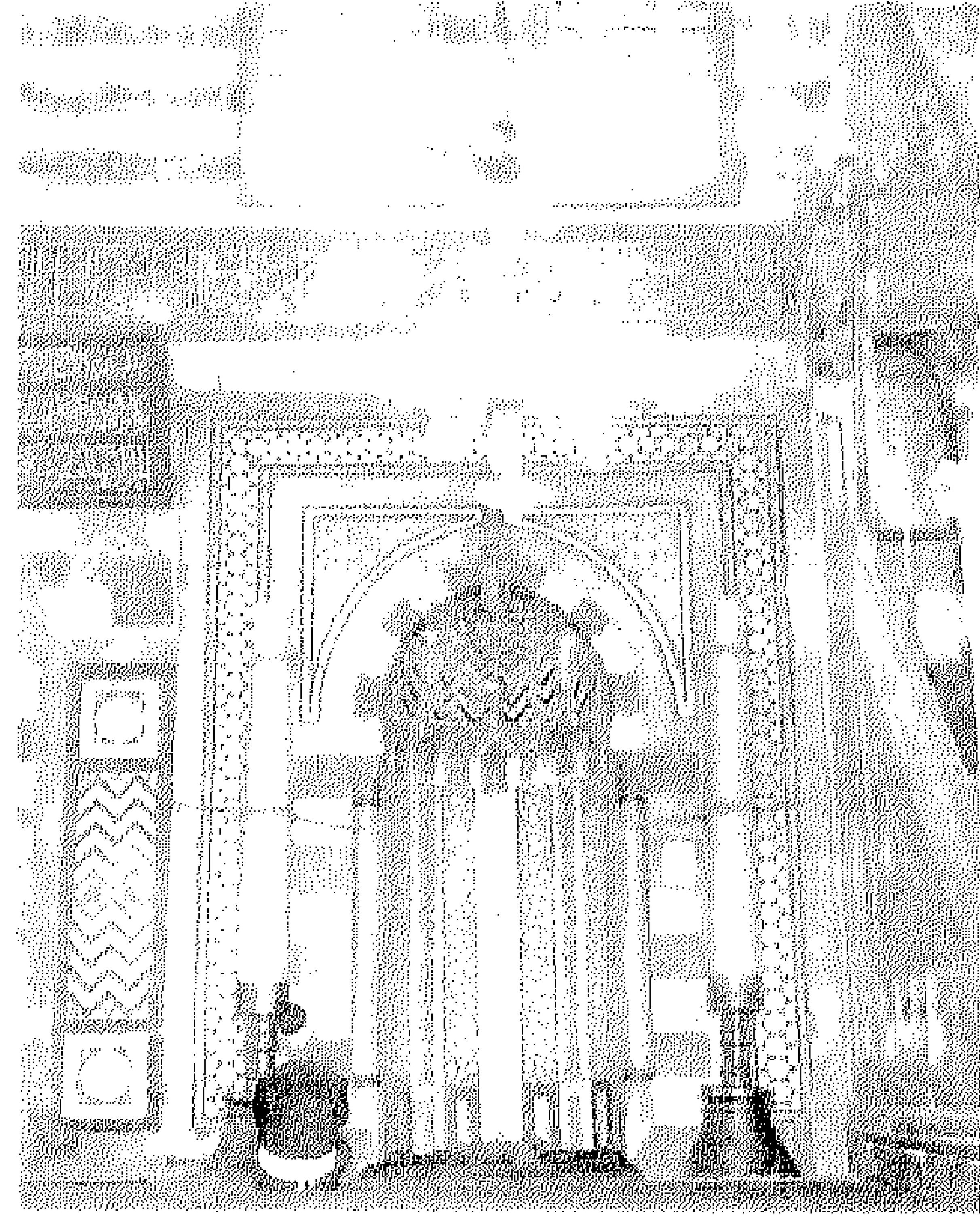
٤ - المنطقة الثالثة: أو المنطقة الشمالية الشرقية

١/٤ يفصلها عن أجزاء المدينة سور المدينة الشمالي وشارع الثورة، وإذا سرنا باتجاه السور ابتداء من شارع الثورة، فإننا نجد أنفسنا في شارع الملك فيصل وكان سابقاً شارع الحلوانيين.

أما في بدايته فكانت منطقة تحت القلعة حيث سوق البطيخ وسوق الخضار وسوق الخيل الذي حل محله سوق الهال وسوق التبن.

٢/٤ وإلى الشمال من هذه المنطقة تقوم منطقة العقيبة وهي ضاحية أنشئت في عهد الفاطميين وتقع في شمالي دمشق، والكلمة تصغير العقبة، ولقد سميت كذلك لوقوعها على المنحدر الذي يحد وادي النهر من ناحية الشمال.

وفيها أقام الإمام الأوزاعي، وفيها جامع التوبة الذي سمي كذلك لأنه كان خاناً للرذيلة وتاب أهله.



محراب جامع السنانية

ثم نرى مرج الدحداح الذي أصبح مقبرة.

٣/٤ وإذا تابعنا السير في شارع الملك فيصل فإنا نصل إلى باب الفراديس أو باب العمارة، والعمارة حي قديم في دمشق وأصل تسميته بعمارة الأخنائي التي كانت خارج باب الفراديس (القرن ١٤) واستمرت التسمية (العمارة) فقط على المنطقة حتى اليوم.

ثم نتابع الطريق حتى مسجد الأقصاب حيث نلتقي بسوق عائد إلى الغرب هو سوق ساروجا أو سويقة صاروجة، أنشأها الأمير صارم الدين صاروجا المظفري عام (٧٤٠هـ) وتوفي عام (٧٤٣ هـ / ١٣٤٤ م) وكان أميراً في صفد ثم في دمشق وكان من أنصار الأمير تنكز.

ولقد شق شارع حديث مواز لسوق ساروجا هو شارع بغداد، أنشئ هذا الشارع عام (١٩٢٥م) لتسهيل وصول القوات الفرنسية من الغوطة إلى المستشفى العسكري، وللتخلص من البساتين التي كان يأوي إليها الثوار، وأطلق عليه اسم بغداد لأنه بداية طريق السيارات الصحراوي الذي يصل دمشق ببغداد.

٥ - المنطقة الرابعة

١/٥ تقع ضمن مثلث قائم الزاوية، ضلعاه شارع الثورة وشارع شكري القوتلي، ووتره شارع المهدي بن بركة.

٢/٥ وإذا اتجهنا غرباً من بداية شارع الثورة قرب القلعة، فإننا نصل إلى ساحة الشهداء، وسميت كذلك لأن فيها استشهد أبطال الثورة السورية على يد السفاح جمال باشا. وكانت جزءاً من المرج الأخضر، ولذلك يطلق عليها أيضاً اسم (المرجة)

واسمها السابق قبل إعمارها (الجزيرة) أو (بين النهرين) وذلك لأن بردى يتفرع عنه العقرباني فيشكلان جزيرة خضراء كانت مقصداً للناس أيام الجمع والراحة.

ولقد غطي النهر في نهاية القرن الماضي (١٨٦٦م). وفي عام (١٩٦٢م) غطي القسم الشرقي من الساحة حتى التكية السليمانية.

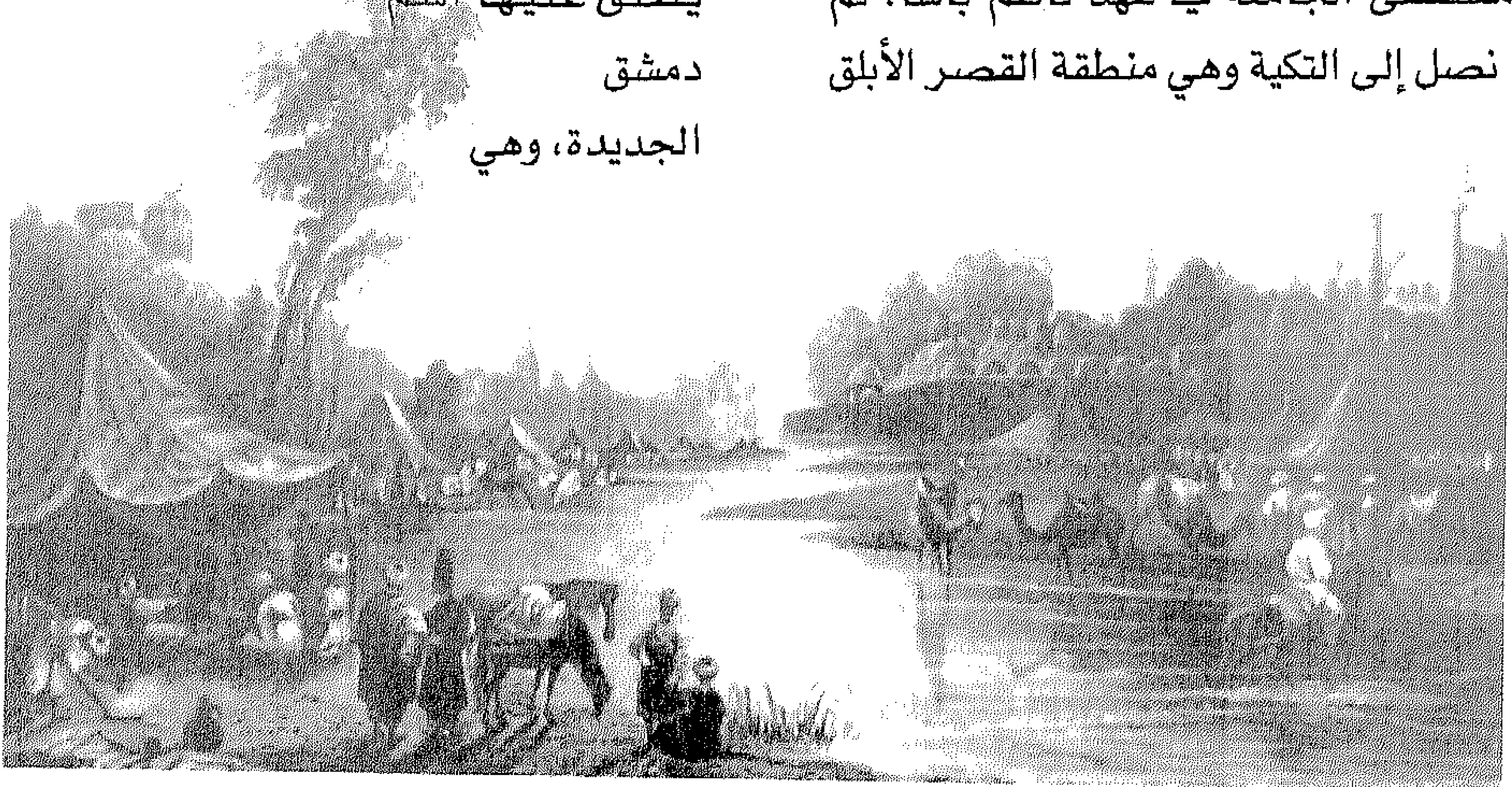
ولقد أصبحت المرجة ساحة منذ بداية هذا القرن وأقيم فيها نصب يمثل مسجد السراي (يلدز) في إستانبول أقيم من البرونز بمناسبة مد الأسلاك البرقية ومد سكك الحديد.

٣/٥ وإذا تابعنا السير بمحاذاة نهر بردى وهو نهر قديم كان يسمى نهر قرقر وله فروع سبعة هي يزيد وثورا وبردى وبانياس وقنوات والمزة، فإنا نمر بين منطقة الشرف الأعلى الممتدة إلى الشمال ونصل حتى بوابة الصالحية (ساحة النوري)، ونسير في الشرف الأدنى حتى محطة الحجاز ومقابر الصوفية أو الصوفانية، التي أنشئ عليها مستشفى الجامعة في عهد ناظم باشا، ثم نصل إلى التكية وهي منطقة القصر الأبلق الذي كان قد أنشأه الملك الظاهر بيبرس.

وبعدها المرج الأخضر أو ميدان ابن أتابك (يعني نور الدين زنكي) ولقد أقيم عليه المتحف والمعرض، وفوقه المنيبع وهي محلة شهيرة من العصر المملوكي، أنشئت عليها الثكنة الحميدية. ويقابلها شمالاً النيرب حيث يقام فندق مريديان ونادي الضباط ووزارة الدفاع.

٤/٥ وبعد ساحة الأمويين وفي طريقنا إلى الربوة في منطقة بارك تشرين اليوم، يقع بستان الدهشة وبستان المادنة والدواسة وفوقها النيرب الأعلى، وهي منطقة واسعة تمتد من ساحة المعرّي وحتى الربوة، ويحدها شمالاً نهر يزيد. ويقال في الربوة مدفن مريم أم عيسى عليه السلام، والربوة هي مأوى المسيح وأمه «وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ» ﴿المؤمنون: ٢٣/٥٠.

ويقابل هذه المنطقة من الجنوب المزة، وهي قرية من عهد الآراميين، وتقع غربي دمشق وأصبحت اليوم من أحياء المدينة الكبيرة يطلق عليها اسم دمشق الجديدة، وهي



الدمشقيون والسيران حول بردى ١٨٧٠ (رسم أحد الرحالة)



ساحة الأمويين ومكتبة الأسد الوطنية

قديمة أقام فيها قبائل يمانية من كلب فسميت مزة كلب، وكانت لأسامة بن يزيد إقطاع فيها باعه ابنه الحسن إلى بني كلب.

٥/٥ وإذا اتجهنا من ساحة الأمويين التي تقع في منطقة النيرب الأدنى وفي بداية بستان الدهشة نحو الشرق عبر شارع المهدي بن بركة، فإنا سنجتاز شارع الجلاء (أبو رمانة) الذي يفصل النيرب الأدنى عن الشرف الأعلى.

وأبو رمانة تسمية جاءت عن ولي كان مدفوناً في أعلى الشارع في بستان يقع فوق نهر تورا أو قرب يزيد. وهذا الولي، إنسان عادي كان معلم كتاتيب اشتهر بالتقى والصلاح، وكان القبر مظللاً بشجرة رمان أطلق عليه اسم سيدي أبو رمانة، وحمل الشارع عند افتتاحه عام (١٩٤٥م) هذا الاسم ثم عدل باسم شارع الجلاء.

٦/٥ ثم نصل إلى قرية أرزة حيث أقيم حي الشهداء، وفيه مقام شهيدين لانعرف هويتهما أو لثلاثة شهداء من الصحابة[١]، ثم أقيم مسجد الشهداء عام (١٩٠٨م)[٢] وحوله حي جميل مازال قائماً حتى الآن. أما عرنوس، فينسب إلى ضريح إنسان صالح كان اسمه عرنوس.

وإذا سرنا في طريق الصالحية وهو الطريق الرئيسي الذي يصل دمشق بالصالحية، وابتداء من ساحة الثوري أو يوسف العظمة، فإننا سنجتاز مناطق كانت تسمى باسم البساتين فيها، مثل حارة شرف، والمزرعة والرئيس، حتى نصل إلى الجسر الأبيض، وكان جسراً صغيراً يقع على نهر تورا ويوصل إلى الصالحية وأطلق

(١) انظر ابن طولون : القلائد الجوهرية ص ١٨ .

(٢) استمر الشيخ شفيق البهنسي بإمامته حتى ١٩٥٠ م .

عليه اسم جسر نورا أو الجسر الأبيض.

٧/٥ ثم نصل إلى العفيف: والعفيف حي ينسب إلى الشيخ محمد العفيفي، وفيه حمام العفيف الذي يرجع إلى قبل القرن الرابع عشر، ولقد أزيل.

٦ - المنطقة الخامسة: الصالحية والأكراد

١/٦ الصالحية هي ضاحية تقع في سفح قاسيون، وأطلق عليها هذا الاسم لإقامة الصالحين من بني قدامه فيها، ثم هي نسبة إلى أبي صالح الحنبلي.

وقصة ذلك أن الشيخ أحمد بن محمد قدامة الجد الأعلى لآل قدامه أو آل المقدسي، نزح مع المقادسة عند احتلال الصليبين عام (١٠٩٨ م) لمدينة القدس. فأقام الشيخ أحمد مع أهله أولاً في جامع أبي صالح الحنبلي (اليوم قبر الشيخ صالح) ويقع بظاهر الباب الشرقي، ثم انتقل إلى قرية اسمها الدير تقع في الجبل، فبنى فيها مدرسة اسمها مدرسة الدير ومنها عشر غرف صغيرة أقاموا فيها، ومازالت تلك المنطقة تعرف بحارة الدير، وهي أول ما أنشئ في الصالحية، وكان ذلك في عهد نور الدين.

٢/٦ هذه هي الصالحية وإذا أردنا أن نجول في هذه المنطقة، فمن الأفضل أن نبتدىء من الغرب من أعلى الربوة، من المنشار، إلى منطقة دير مران حيث أقام المأمون عام (٢٩٦ هـ / ٨٣٠ م) وفوقه قبة السيار التي أنشأها الأمير سيار الشجاعي، ولن نسير مع نهر تورا بل سنلقي نظرة على مساره، واسم هذا النهر الأصلي نهر ثورىَ وهو أحد فروع بردى ينشق عنه بين الربوة ودمر، ويروي سفوح قاسيون وبساتينها. ومنها من الغرب إلى الشرق بستان المادنة وبستان الدهشة الكبيرة (البارك الجديد) وبستان النيرب الأدنى ويقع في شارع بيروت وعليه أنشئ فندق شيراتون وقسم كبير من شارع المهدي بن بركة والأحياء المحيطة به، وقرية أرزة (حي الشهداء والمزرعة اليوم) وبستان المحمديات (حي الرئيس) والمقري (وزارة التربية) وبيت أبيات (الملعب العسكري) والجنينة الباعونية، وبستان حور تعلا. وعليه من الجسور الجسر الأبيض الذي أصبح ساحة، وجسر الإياسة ويقع على شارع المالكي.

٣/٦ ولسوف نسير في المهاجرين شرقاً مع شارع ناظم باشا الموازي لنهر يزيد والذي أنشئ في عهد هذا الوالي المصلح، الذي أنشأ الثكنة الحميدية والسرايا والقصر في المهاجرين، والمستشفى الوطني، وجر الماء من عين الفيجة.

والمهاجرين منطقة تقع في سفح جبل قاسيون من الجهة الغربية واسمها القديم (تحت الردادين).

وأطلق عليها اسم المهاجرين منذ بداية هذا القرن، عندما هاجر سكان كريت من المسلمين بعد المحنة التي أصابتهم من اليونان، ولقد أسكنهم الوالي ناظم باشا هذه المنطقة، وكانت ملكاً لآل المؤيد العظم، وكانت قبلاً ملكاً إقطاعياً لبهاء بك في عهد الوالي حمدي باشا[1].

(١) انظر: القلائد الجوهرية لابن طولون ١/٢٥-٢٦، وتعليق الأستاذ دهمان ص٢-٣.

ولاختراق هذا الحي، فإننا نبتدئ من ساحة خورشيد، وسميت كذلك نسبة لمالك القصر الجمهوري الحالي خورشيد وهبي المصري الذي اشتراه من ناظم باشا قبل إنجازه. مروراً بالمصطبة، التي أعدت لاستعراض الجند عند زيارة الإمبراطور غليوم الثاني لدمشق عام (١٨٦٩م) وكان ولي عهد بروسيا، وقبل أن نصل إلى العفيف نرى في أعلى المهاجرين حي السلامية ويدعى السلمية وينسب الحي إلى التربة السلامية ويقع قرب جامع الأفرم، وفيها دفن حمزة بن موسى، عز الدين أبو يعلى المعروف بابن شيخ السلامية.

٦/٤ ومن العفيف نمضي شرقاً إلى حارة أو حي المدارس والتي كانت تحوي عدداً من المدارس حتى اعتبرت المنطقة أشبه بالمدينة الجامعية، ولقد بقي عدد منها، مثل اليغمورية والكجكرية والمرشدية والأتابكية والجهاركسية والعمرية ومدرسة الصاحبة وهي أقدم مدرسة. وقبر عبد الغني النابلسي، وشمالي هذه الحارة تقع حارة الحلالات والجبل.

ثم نصل إلى منطقة الشيخ محيي الدين وفيها جامع محيي الدين بن عربي. الذي أنشئ بأمر السلطان سليم الأول، وكان شديد الإعجاب بآراء وطريقة الصوفي محيي الدين بن عربي وطريقته وأشرف على البناء معلم السلطان، شهاب الدين بن العطار.

٦/٥ ومنطقة الشركسية التي سكنها في أواخر القرن الماضي الشراكسة وهم حامية أرسلها السلطان العثماني لتوطيد الأمن في السهوب السورية، واستقروا شمالي جامع الشيخ محيي الدين وعرف الحي باسمهم.

ولكن وجود المدرسة الجهاركسية كان سبباً أقوى لتسمية هذا الحي محرفاً بالشركسية.

وإذا تابعنا السير فإننا نصل إلى منطقة ركن الدين حيث المدرسة الركنية والجامع، التي أنشأها ركن الدين بن منكورس غلام فلك الدين أخي الملك العادل.

٦/٦ ثم نتابع الطريق في شارع ابن النفيس الجديد في منطقة الميطور التي يحدها شمالاً نهر يزيد، ولقد انتشر شماله



مشهد دمشق ١٨٧٠ وحولها الغوطة وبعض الجوامع (رسم أحد الرحالة)



مشهد من مدينة دمشق القديمة (بونفيس ١٨٧٠)

حي الأكراد الذي اختاره الأكراد القادمون من كردستان الذين رافقوا نور الدين وصلاح الدين لخوض غمار الحرب الصليبية، فاختاروا منطقة جرداء تقع شرقي الصالحية لعدم توافر منطقة كافية لسكنهم في المدينة، كما ابتعدوا عن المناطق الزراعية لأنهم لم يكونوا ملاكاً ولا مزارعين، واختاروا منطقة جبلية منسجمة مع طبيعة حياتهم، وهكذا استمر هذا الحي منفصلاً عن المدينة في طريقة تكونه. وفي أسفله جسر النحاس ويقع شرقي الركنية في الصالحية (وكانت تسمى حارة الجبل) وينسب إلى عماد الدين ابن النحاس الذي بنى عام (٦٥٤ هـ / ١٢٥٥ م) مسجداً[1]. وفي أعلاه مغارة الأربعين وتقع شمال شرقي دمشق، سميت كذلك لأن رجلاً رأى فيها أربعين رجلاً يصلون، ثم خرج لحاجة وعاد فلم يجد أحداً.

٧/٦ حتى نصل إلى برزة وبعدها كانت المصطبة في القابون: أقيمت في سهل القابون بين القابون وبرزة وكان الملوك والنواب والعظماء من القواد ينزلون فيها إذا قدموا من جهة حلب، ثم تخرج جيوش دمشق لملاقاتهم بها ويدخلون دمشق بموكب حافل. ويقول البدري (ت ٨٩٤ هـ):

((وهي قدر فدان يصعد إليها في نيف وعشرين درجة من جهاتها الأربع، وفيها قصر حسن البناء، ينزل به الملوك والسلاطين عند توجههم إلى الأسفار)). ويضيف دهمان ((بقي شيء من آثارها

(١) انظر: النعيمي ٢-٤٤١.

إلى سنة (١٣٥٠ هـ) وقد شاهدتها وهي تعلو عن الأرض نحو متر، وقد أخذ الفلاحون في هدمها وتسويتها بالأرض وأصبحت اليوم أرضاً زراعية))[1].

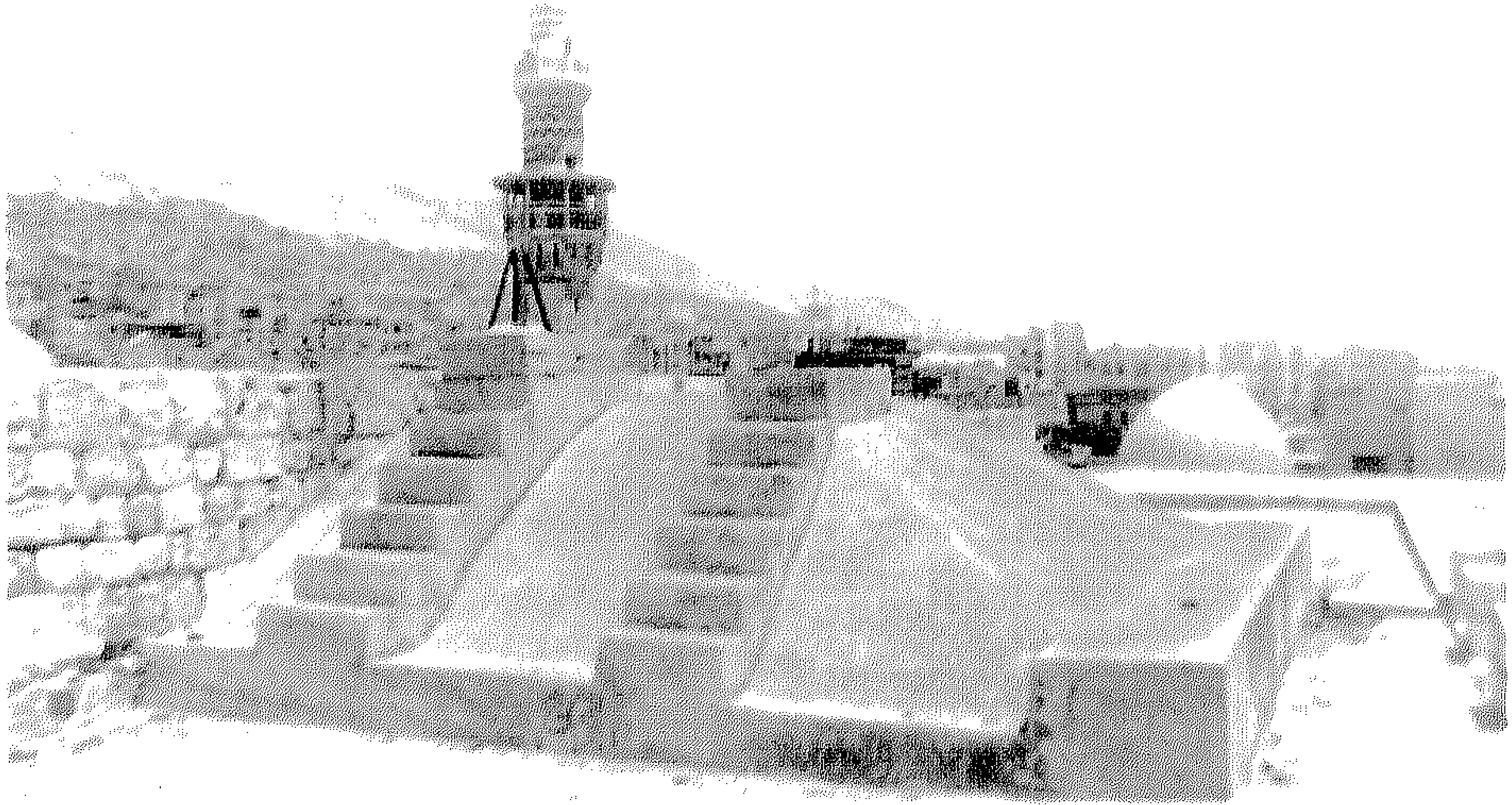
٨/٦ وعلى بعد (١٧ كم) شرقي دمشق تقع ضاحية عذرا أو عدرا وهي قرية شرقي دمشق (١٧كم) وأصبحت منطقة صناعية كان يحيط بها مرج راهط أو مرج عذراء حيث كانت المعركة بين الضحاك بن قيس وبين مروان بن الحكم وانتصر مروان ودعم حكمه.

٩/٦ وتحتها القُصير، منطقة على مسافة (١٦ كم) شرقي دمشق كان فيها قصر صغير ثم أنشئ خان كبير للقوافل يقال له خان القصر، وفي أواخر العهد العثماني أصبح الخان مستودعاً للأسلحة العسكرية، وفي سنة (١٩٣١م) تحول إلى مشفى للأمراض العقلية (مستشفى ابن سينا).

أما قبة العصافير، فهي قبة تذكارية أقيمت في عهد الملك المنصور أبي بكر حفيد قلاوون(٢١) بمناسبة مسكه لأمير دمشق تنكز والقضاء عليه عام (٧٤٠هـ في ذي الحجة / ١٣٣٩م). وهي تقع على بعد (٢٧ كم) شرقي دمشق قبل ثنية العقاب.

١٠/٦ وتقع منطقة الصالحية والأكراد على سفح جبل قاسيون، وهو جبل قديم ويقع شمالي دمشق وارتفاع قمته (١٥٠٠ م)، والتسمية جاءت من القسوة، لأنه قسا على الكفار فلم يقدروا أن يتخذوا منه الأصنام (المروج / ١٨) أو لأنه لم تنبت فيه الأشجار والأشجار فيه قليلة. ولكن يقال إنه كان حافلاً بالأرز والنخيل فقد كان فيه (١٢ ألف) نخلة، قطعها تيمورلنك.

ومعروف فيه مغارة الدم، ومغارة الجوع، ومسجد الكهف، وهو منزل الزهاد والعلماء ومغارة الأربعين. وفي أعلى



جامع الشيخ محي الدين بن عربي ـ أنشأه السلطان سليم الثاني وفيه أقدم مئذنة عثمانية في دمشق

(١) إعلام الورى، الحاشية ص ٤٤.



مدخل جامع الشيخ محي الدين

قاسيون قبة النصر أو النسر كما يسميها العوام وتقع في ذروة قاسيون وهي (قبة النصر على سوار) التي أنشأها نائب دمشق برقوق تذكاراً بعد أن ساهم في القضاء على (شاه سوار) الذي استعان بالسلطان محمد الفاتح لمحاربة سلطان القاهرة مطالباً بالإمارة على كيليكيا ومركزها أبلستان. وشاه سوار هو من الأسرة الدلغادرية وسلالتها أسرة الغادري المعروفة في حلب.

ولقد تهدمت هذه الآثار نهائياً من قبل جيوش الحلفاء في عام (١٩٤١م) لكي لاتصبح علاماً للعدو. وفي أعلى بعض ذرواته قبة السيار وفي سفحه في حي الميطور مدفن طالوت كما يقال.

١١/٦ وأنشئ في سفحه حي الصالحية والمهاجرين. ويروي بساتين سفوحه نهر يزيد وهو أحد فروع بردى في أعلى مصطبة على سفح قاسيون، وكما يقول ابن عبد الهادي: إنه كان ساقية قدر ذراع، تسقي أرضاً لبني بقيلة من أهالي القابون وأنها صارت تزيد، وقال أيضاً، إن نسبته إلى يزيد بن معاوية وأنه صالح أهل الغوطة على زيادته ونسب إليه (المروج / ٢٧)، ويروي هذا النهر منطقة الدواسة والنيرب الأعلى وهي أحياء ممتدة من شارع نهرو حتى المالكي وإلى أعلى المعري، والسهم الأعلى وهي منطقة العفيف والصالحية وبستان بصارو (ركن الدين) والميطور (أسفل الأكراد) وحتى برزة.

ثم نهر تورى الذي يروي أحياءه السفلى.



المدرسة الأشرفية في الصالحية

الفصل الخامس

تكون مركز مدينة دمشق

١- المرجة أو ساحة الشهداء

٢- المنشآت الهامة في ساحة المرجة

٣- الساحة عقدة المواصلات

٤- تكون مركز المدينة

٥- المساجد حول الساحة

٦- الساحة موئل الغرباء

٧- الدور السياسي للساحة

٨- الساحة قلب المدينة

تكوّن مركز مدينة دمشق

١ - المرجة أو ساحة الشهداء

١/١ إن مركز مدينة دمشق الحالي يسمى ساحة الشهداء، وهو يتوسط المجال بين دمشق القديمة القابعة خلف أسوارها، وبين دمشق الحديثة التي تنامت مع بداية القرن العشرين، وكانت الأحياء الجديدة التي تكونت خارج الأسوار، منذ العهد المملوكي (١٢٥٩ - ١٥١٦ م) قد شكلت أرباضاً مستقلة نذكر منها الصالحية في الشمال والميدان في الجنوب وأنشئت أحياء قريبة حول جامعي تنكز ويلبغا.

وقبل أن نتحدث عن هذا المركز الذي استمر من (١٨٩٥ إلى ١٩٥٠م)، لابد أن نقول كلمة عن مركز دمشق القديمة ضمن الأسوار. هذه المدينة العريقة التي تعتبر من أقدم مدن العالم.

٢/١ مركز دمشق في العهود الآرامية (١٠٠٠ ق. م) وبعدها ثم في العهود الإغريقية الرومانية البيزنطية بعد (٣٣٠ ق. م)، كان في المنطقة التي يقوم عليها الجامع الأموي الكبير، وثمة مخطط وضعه سوفاجية[1] يبين موقع المعبد الروماني والآغورا والمسرح. ومازالت آثار معبد جوبيتر واضحة حتى اليوم ومن المؤكد أن هيكله استعمل كنيسة[2]، وعندما فتح المسلمون دمشق سنة (٦٣٥ م) استغلوا أطراف المعبد، وفي عام (٧٠٥ م) أمر الوليد بن عبد الملك أن يعاد بناء منطقة الأطلال لإقامة مسجد كبير، مستغلاً أحجار الهيكل وجدران المعبد وأسوار المجال المحيط (البيريبول).

٣/١ فكان الجامع الأموي الذي اعتبر أكمل أبدة إسلامية. ولم يكن مجرد مسجد، بل كان قطب ورمز المدينة التي تحولت من الوثنية إلى الإسلام وأصبح مقر الحكم. فمنذ عهد معاوية، كان قد أنشئ في الجهة القبلية قصر الخضراء الذي استمر مقراً للخليفة، وامتدت المنشآت منه حول الجامع من جهته الغربية، مستغلة ما تبقى من منشآت المجال المحيط لكي تضم دواوين الحكم، بيت المال والقضاء والبريد والرسائل، ثم أنشئت حولها المدارس والمشافي ثم محلات العطارين والوراقين. وتزايدت هذه الفعاليات في مركز دمشق القديمة على الرغم من انتقال السلطة إلى بغداد بعد انتهاء الحكم الأموي بدمشق.واستمرت هذه المنطقة مركزاً للمدينة القديمة حتى يومنا هذا.

(١) J. Sauvajet : Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas "Revue Etudes Islamiques" 1934.

(٢) انظر كتابنا : الجامع الأموي الكبير، دار طلاس - دمشق ١٩٨٣

٤/١ لم يطرأ على دمشق تحولات كبيرة كتلك التي تمت منذ إصلاحات إبراهيم باشا بعد عام (١٨٣٢م)، فلقد فتح الأبواب للاتصال بالعالم الغربي فتزايدت العلاقات مع الأجانب وتفتح الناس على منجزات الغرب وحياتهم وتقاليدهم التي نشرها المهاجرون وتبناها بعض المواطنين. وعلى الرغم من انحسار سلطة إبراهيم باشا (١٨٤٠م)، فإن العثمانين تابعوا ولو متأخرين تحديث الحياة في دمشق.

فكان مدحت باشا أبو الدستور (١٨٧٨م) وناظم باشا المصلح الكبير (١٨٩٥م) قد واكبوا بإخلاص حركة التقدم التي تطلع إليها الدمشقيون. وإذا أردنا أن نحصر حديثنا على مركز مدينة دمشق الجديد، فلأننا نعتقد أن هذا المركز يمثل بوضوح التحول الاجتماعي والمدني لهذه المدينة، وكانت المنشآت التي أحدثت فيه، بوظائفها وطراز عمارتها، تحدد بعد هذا التحول وطبيعته.

٥/١ لم تكن هذه المنطقة في بداية القرن الماضي ذات أهمية، بل كانت مرجاً يقع بين نهر بردى وفرعه العقرباني، ولذلك أطلق عليها اسم بين النهرين أو اسم المرجة وكان سكان دمشق يلجؤون إلى هذه المنطقة للترويح عن النفس، وكان جند القلعة يمارسون فيها بعض التمارين. فلقد كانت الساحة على مسافة مئة متر شرقي القلعة.

٢ - المنشآت الهامة في ساحة المرجة

١/٢ لقد كان والي دمشق كنج يوسف باشا أول من تنبه لأهمية هذا الميدان، فأنشأ فيه قصراً سنة (١٨٠٧ م) تاركاً مقر المشيرية، ومتحدياً قصر الوالي أسعد باشا (١٧٥٠م) في دمشق القديمة. وكان القصر يقع إلى جهة الجنوب بينما كان جامع يلبغا المملوكي (١٣٤٧ م) يقع إلى جهة الشمال.

و في عام (١٨٦٦م) تمت تغطية النهر في عهد الوالي محمد راشد باشا، وهكذا أصبحت المنطقة ميداناً فسيحاً سهلت فيه حركة القوافل والنقل، فتمركزت فيه بعض الفعاليات الموقتة، مما دفع الوالي حسين ناظم باشا سنة (١٨٩٥م) إلى بناء دار البلدية التي كرست هذه الساحة مركزاً جديداً للمدينة،



وفيها تزاحمت وسائط النقل من عربات خيل ودواب. وأطلق على الساحة اسم الميدان الكبير.

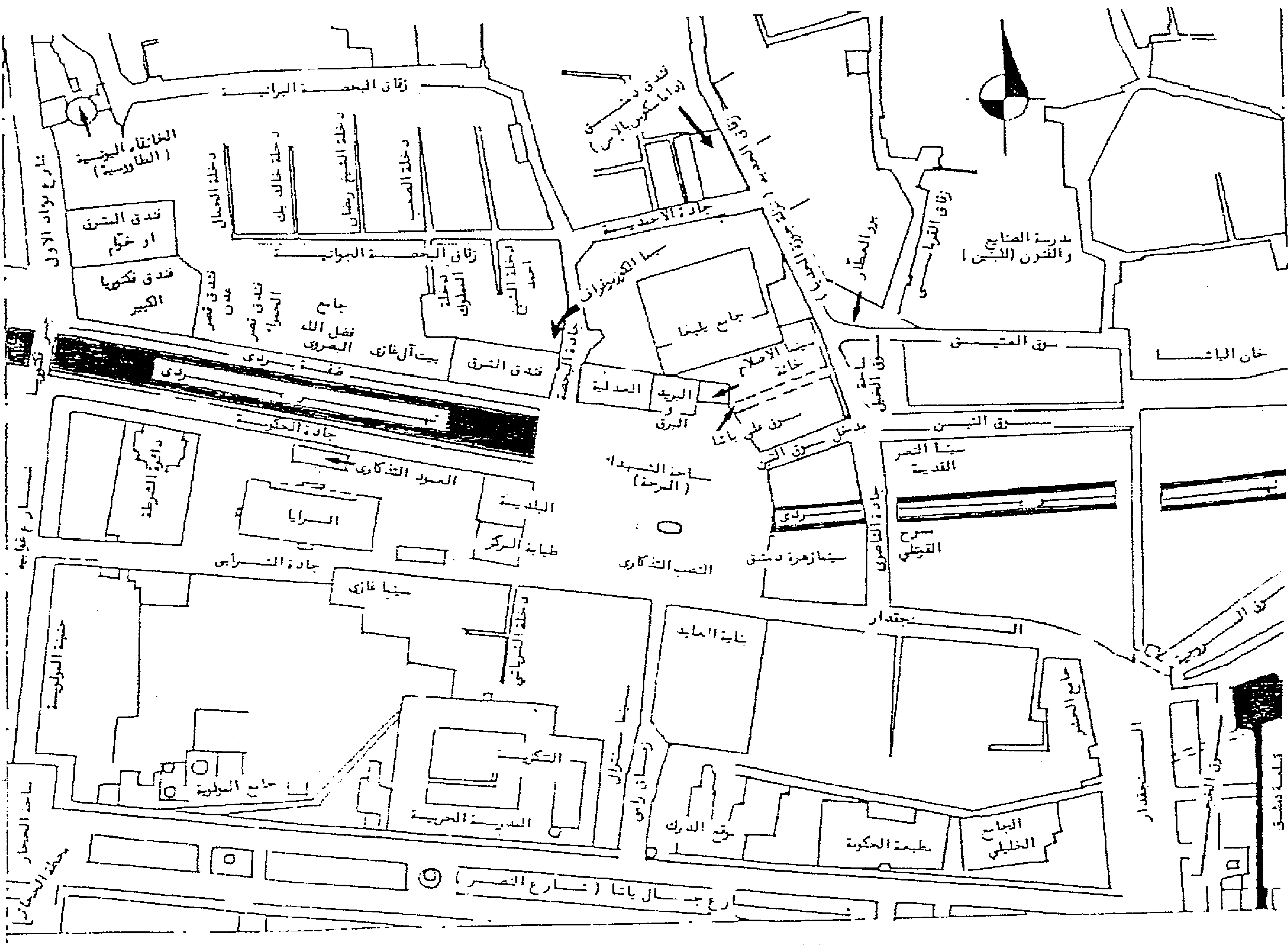
٢/٢ ومن المؤكد أن بنائين آخرين سبقا بناء دار البلدية أنشئا أمام جامع يلبغا، هما بناء دار البرق والبريد ودار العدلية إضافة إلى بناء السجن في الطرف المقابل[1] ، وكانت بمجموعها نواة مركز المدينة الذي اتصل بأحياء أخرى بواسطة شوارع وطرق، من أهمها جادة السنجقدار من الشرق يوازيها مدخل سوق التبن وسوق علي باشا، وإلى الجنوب زقاق رامي وإلى الغرب جادة الشرابي وضفتا بردى، ومن الشمال زقاق البحصة البرانية المؤدي إلى حي سوق ساروجا (١٣٤٢هـ) وكانت تقطنه الطبقة الرفيعة من العثمانيين. وأطلق عليها اسم إستانبول الصغيرة.

٣/٢ في عام (١٩٠٠م) فكر السلطان عبد الحميد وبتأثير من الألمان، بإنشاء خط حديدي يمتد من المدينة المنورة إلى دمشق الشام ويصل إلى إستانبول، ومنها إلى أوربا. وكان الوالي ناظم باشا في دمشق قد استقبل أمر السلطان بلهفة، فقام بالإشراف على بناء الخط من الأموال التي خصصت لذلك ومقدارها (٢٨٣) ألف ليرة ذهبية ونصف، واستطاع الوالي أن يقتصد بالإنفاق، إذ كلف الجنود بأعمال البناء فقام بتنفيذ منشآت هامة مستعيناً بالمهندسين والفنيين الألمان والنمساويين الذين قدموا إلى دمشق لتنفيذ المشروع، نذكر منهم مايسنر باشا ودارندا(D'Aranda) الذي أصبح المسؤول الفني عن أعمال البناء، وزاد عدد الفنيين الألمان عن نصف الفنيين العرب وبخاصة المصريين.

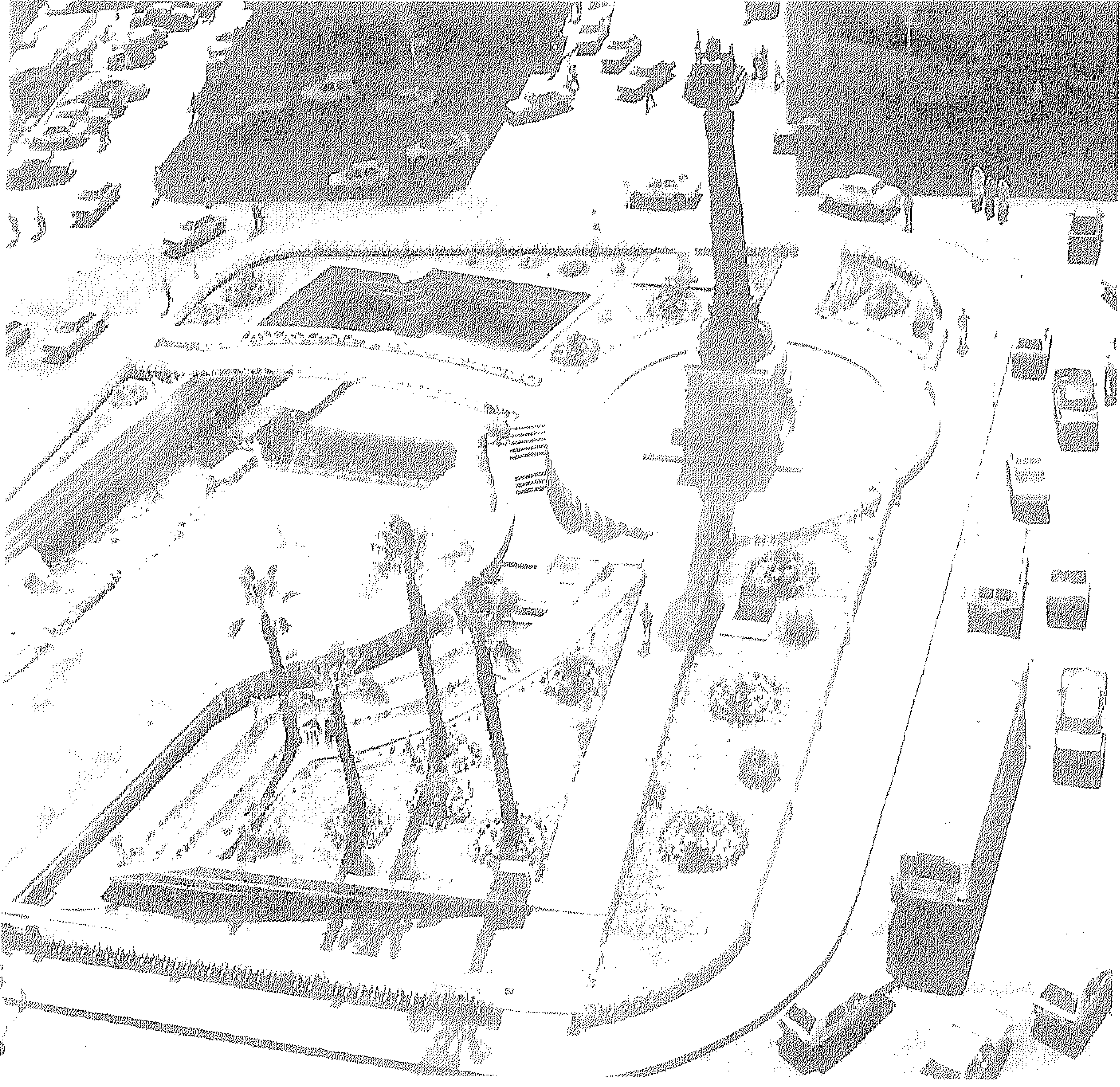
٤/٢ وكان أضخم بناء أنشأه هذا الوالي خلف دار البلدية هو بناء الحكومة (السرايا ١٩٠٠ م) الذي أصبح مقراً للولاة مكان قصر كنج يوسف باشا، ثم صارت مقراً للحكومة العربية في العهد الفيصلي (١٩٢٠ م) وبعده، واستمرت مقراً لرئاسة الوزراء وجميع الوزراء إلى أن خصصت لوزارة الداخلية.

٥/٢ لقد كان طراز بناء السرايا مطابقاً لطراز دار البلدية، وهو الطراز الكلاسيكي المحدث، أي الذي كان قد انتشر في فرنسا وهو طراز مطور ومبّسط عن الروماني القديم، وهذا دليل على أن الفنيين الأجانب قد نقلوا إلى دمشق الطراز المعماري الذي كان سائداً في بلادهم، والمختلف تماماً عن الطراز الذي عرفته دمشق في بناء قصر العظم وقصر السعادة وقصر كنج. لقد امتد هذا الطراز إلى بناء دائرة الشرطة وطبابة المركز المحاذية لدار البلدية، وبينهما كان كشك عثماني الطراز لبيع الطوابع المالية والتبغ وغيرها. واستكمل الميدان الكبير صفته كمركز للمدينة عندما أنشئت أبنية في منطقة السجن القديم إلى الجنوب الغربي

(١) قتيبة الشهابي : دمشق، تاريخ وصور ، ط٢ ، ١٩٩٥ ، دمشق - مؤسسة النوري .



مخطط المباني حول المرجة ـ عن د. قتيبة الشهابي



ساحة المرجة عقدة المواصلات

من الميدان، كما نهضت عند مدخل سوق علي باشا من الغرب، منشآت تجارية وخان أي فندق ومسارح.

٦/٢ وعندما أقيم النصب التذكاري البرونزي في وسط الميدان الكبير في عام (١٩٠٧م) كان ذلك تأكيداً لأهمية هذا الميدان ومركزيته. وهذا النصب مؤلف من عمود ضخم تعلوه قاعدة عليها مجسم جامع يلدز الخاص بالسلطان عبد الحميد، وتلتف حول العمود أسلاك رمزاً للاتصال البرقي بين المدينة المنورة ودمشق دعماً لعمليات النقل بقطارات خط الحجاز[١].

٣ - الساحة عقدة المواصلات

١/٣ وفي العام ذاته وقد انتشرت الكهرباء في المدينة، امتدت سكك الحديد لمسير حافلات الترام الكهربائي، وكانت هذه الساحة مركز تجمع الحافلات القادمة من المهاجرين والشيخ شمالاً ومن

(١) الصحيح إن هذا العمود التذكاري أقيم بمناسبة إنشاء الخط الحديدي، بدلالة ما كان مكتوباً عليه، وما زال في حيفا عمود مماثل صغير يشير إلى هذه المناسبة.

الميدان جنوباً ومن القصاع ومن دوما شرقاً. وتدور هذه الحافلات حول الساحة عائدة إلى مصادرها. كذلك ابتدأت السيارات إلى جانب العربات بنقل الركاب، وكانت هذه الساحة موقفاً لناقلات الركاب الضخمة (نيرن والرافدين وعبر الصحراء) التي تنقل الركاب إلى بغداد وإلى بيروت، وقد أنشئت مكاتب السفر حول هذه الساحة.

٢/٣ وصل مركز مدينة دمشق وكان يسمى ساحة المرجة أوجه بعد أن أنشئ بناء العابد الضخم الذي نفذه المهندس دارندا وهو إسباني الجنسية، ولقد استمر بناؤه من (١٩٠٨ إلى ١٩١٠م)، وطرازه ألماني وقد حليت واجهاته بجبهات فوق النوافذ تذكر بالأسلوب الروماني. كان عزة باشا العابد أمين السر الثاني، صديقاً حميماً للسلطان عبد الحميد الثاني، وقد استطاع أن يشتري موقع بنائه هذا من الوالي ناظم باشا إذا كان من أملاك الولاية منذ أن كان قصراً للوالي كنج يوسف باشا. وكان الغرض من بنائه أن يكون فندقاً رفيع المستوى يستجيب إلى الحاجات السياحية والزيارات الرسمية.

ولكن ظروف الحرب العالمية الأولى جعلته مقراً للقوات العثمانية، وبعد الحرب شغل هذا البناء الضخم بمكاتب خاصة ودوائر عامة وأصبحت دكاكينه محلات تجارية متنوعة ومطاعم.

٤ - تكوّن مركز المدينة

١/٤ هكذا تحولت هذه المنطقة من مجرد مرج أخضر يعبث فيه جند القلعة ويمضي به السامرون أوقات النزهة بين نهرين بشكلان جزيرة، إلى مركز المدينة التي خرجت من أسوارها وانطلقت تتحلق منشآتها الجديدة حول هذه الساحة، التي تلاقت فيها فعاليات مختلفة متزايدة، وكانت هذه الساحة نقطة تقاطع الاتصال بين دمشق القديمة والأقسام الحديثة، وبين الأحياء الجديدة، والأرباض والأحياء السابقة، مثل سوق الخيل وسوق التبن (تحت القلعة) وسوق ساروجا في الشمال وحكر السماق في الجنوب.

٢/٤ وهكذا أصبحت الساحة عقدة المواصلات الأساسية والمركزية، فعدا عن وسائل النقل البدائية كالدواب والجمال كانت العربة التي تجرها الخيول، ثم ظهرت حافلات الترام التي ربطت هذه الساحة مع أطراف المدينة بسكك حديدية تسير عليها وأسلاك كهربائية تستمد منها الطاقة المحركة. وكانت شركة بلجيكية قد منحت سنة (١٩٠٤م) امتياز جر الكهرباء وتسيير الترام وفق نظام أوروبي دقيق. وفي شباط (١٩٠٧م) رأت هذه الساحة أول حافلة ترام، كتلة من الحديد تهدر على سكتها حاملة في جوفها عشرات الركاب بأجر بخس، وتسير بسرعة تفوق كثيراً سرعة العربة.

وكانت الطاقة الكهربائية تتولد في محطة في تكية بردى بعد عين الفيجة، بواسطة عنفات تدار بمحروقات الديزل في محطة القابون ثم محطة الهامة.

٣/٤ وبعد الترام ظهرت السيارة منذ

عام (١٩١٨م)، وتزايد عددها لكي تخدم النقل بالأجرة، وكانت الساحة المكان الأول والوحيد لوقوف هذه السيارات ولانطلاقها. كذلك ظهرت في العشرينيات الحافلات الضخمة التي تديرها وتسيّرها شركات أجنبية مثل (نيرن) أو وطنية مثل (أنكرلي)، وكما ذكرنا فلقد حلت هذه الحافلات محل عربات (الديليجانس) التي كانت تنقل الركاب إلى خارج دمشق، بل وصلت هذه الحافلات الضخمة إلى جميع المحافظات وإلى بغداد وبيروت. بينما كان القطار ينقل الركاب أيضاً من محطة الحجاز القريبة من مركز المدينة إلى درعا والزرقاء ثم عمان ومعان ثم تبوك ومدائن صالح ثم المدينة. أو إلى بيروت عبر الرياق.

٤/٤ إن تطور الأساليب الإدارية وازدياد الخدمات وظهور القضاء العادي مستقلاً عن القضاء الشرعي، وتنظيم البريد حسب الأساليب الدولية، واستعمال التلغراف للاتصالات اللاسلكية البعيدة، دفع إلى إحداث دوائر مختصة، تجمعت كلها في مركز المدينة المحدث.

وكانت دار البلدية تنظم جباية الرسوم وتقدم الخدمات البلدية اليومية من نظافة الشوارع والحارات وترطيبها برش المياه، إلى تنظيم الحدائق وريها، ثم مراقبة مخالفات رخص البناء واحترام الأملاك العامة.

وإلى جانب دار البلدية كانت دائرة الصحة لتنظيم الخدمات الطبية والوقائية وصرف الأدوية. وإلى الشمال كانت دار العدلية لممارسة القضاء المدني والجزائي وإيقاف المخالفين والمتهمين، وإلى جانبها دار البريد والبرق لجمع الرسائل من صناديقها ونقلها إلى مقاصدها ولتنظيم الاتصال البرقي. ومنذ أن أنشئت السرايا تجلت هيبة الدولة وتشعبت مسؤولياتها التي وزعت على أقسام هذا البناء الضخم. وكان بناء الشرطة والأمن توطيداً لفعاليات صيانة الأمن ومتابعة المجرمين وتنظيم المرور وإدارة مخافر الشرطة في الأحياء، ولقد استوعب نزل العابد دائرة النيابة العامة والتحقيق والتنفيذ ودوائر النفوس والطبابة الشرعية.

٥ - المساجد حول الساحة

١/٥ واستفاد مركز المدينة الجديد من الأبنية القديمة كالمساجد، جامع تنكز وجامع يلبغا تستوعب مركزياً المصلين المقيمين في مباني هذه الساحة والعاملين في الدوائر والمكاتب المحيطة بها. ولم يكن جامع تنكز (١٣١٤ م) وجامع فضل الله البصروي (١٨٢٤م) الواقع على ضفة بردى بعيدين عن سكان الساحة أيضاً، وإليهما كانوا يلجؤون لأداء الصلاة والراحة. ولابد من ذكر بناء مدرسة معاوية وكان اسمها أولاً الرشدية العسكرية خلف بناء العدلية وبمحاذاة جامع يلبغا.

لقد تم تعبيد ساحة المرجة سنة (١٩٢٨ - ١٩٣١م) وتم رصف أطرافها مما أسهم في زيادة المحلات التجارية التي تتعامل مع شركات أجنبية. وكان أكثر أصحاب هذه المحلات من الأجانب أو من المهاجرين، نذكر منهم صيدلية الضباعي

ومحل أنجيلو اليوناني ومحل توتونجي ومتجركرشة ومحل MAG ومحل ABC لبيع الطرائف واللعب، ومركز شركة نيرن للنقل الخارجي، عدا مكاتب الطوابق العليا التي يشغلها المحامون والأطباء ووكلاء الشركات.

٦ - الساحة موئل الغرباء

١/٦ لقد أصبحت الساحة مقصد الغرباء الأول يأتون إليها لملاحقة قضاياهم الصحية أو العدلية، أو البلدية، وكان ثمة فندق يقع في منطقة جوزة الحدباء قرب جامع يلبغا، وهو أول فندق بمعناه العصري أنشئ عام (١٨٥٠م)، يساعد على إيواء الغرباء والمسافرين العابرين، وكان إلى جانب دائرة البريد خان لإيواء الفلاحين والقرويين مع دوابهم حل مكانه فندق علي باشا. ثم أنشئ فندق الشرق عند مدخل البحصة، لم يلبث أن أنشئ مكانه فندق ضخم هو فندق أمية سنة (١٩٢٧م) ومازال حتى اليوم. وامتدت بمحاذاته فنادق أخرى مثل فندق قصر الحمراء وفندق قصر عدن، علماً أن الفندق الأكثر أهمية والذي سبق تكوّن الساحة كان فندق فكتوريا الكبير (١٨٨٠ - ١٨٩٠م) ولقد أزيل في الخمسينيات، وفيه أقام كبار الغرباء مثل جمال باشا والجنرال اللنبي والوزير بلفور.

٢/٦ وكما ذكرنا فإن هذه الساحة أصبحت تمثل قلب المدينة وكان الناس من دمشقيين وغرباء يمضون فيها جل وقتهم إلا إذا أعوزتهم الأسواق، فإن سوق الحميدية القريب من الساحة ملاذهم.

وهكذا أقيمت حولها المقاهي والمسارح ودور السينما، نذكر منها مقهى علي باشا عند مدخل سوق علي باشا، ومقهى الكمال شمالي البلدية، ومقهى الورد. ومن المسارح كان مسرح زهرة دمشق ومسرح النصر ومسرح القوتلي. وأصبح المسرحان الأولان داراً للسينما إلى جانب سينما الإصلاح خانه (فردوس الشام ١٩٢١م) وسينما كوزموغراف (١٩٢٢م)، وسينما غازي. ولقد قدم أول فيلم في سينما زهرة دمشق سنة (١٩١٢م) ثم حملت هذه السينما اسم (سينما باتيه). وإرضاء لجنود الاحتلال أنشئت منذ (١٩٢٢م) الملاهي على امتداد بردى إلى الغرب، مثل مشرب فريدي وكازينو ومقهى أولمبيا ومقهى الطاحونة الحمراء، ومحل النيشان للتسلية بالبنادق والتسديد.

٧ - الدور السياسي للساحة

١/٧ إن أهم دور انتقل إلى هذه الساحة كان الدور السياسي، فبعد أن كانت السياسة تصنع في زوايا القصر المظلمة، أصبحت العلنية شعاراً فرضته ظروف التحرر من ربقة النير العثماني أو ظروف النضال ضد المحتل الفرنسي. ولقد كانت دمشق مركزاً فاعلاً من مراكز الثورة العربية التي قادها الحسين بن علي وابنه فيصل، وعندما استفحل النضال وأصبح يهدد وحدة السلطنة، كلف جمال باشا بقمع الثورة، فقام في السادس من أيار عام (١٩١٦م) بشنق عدد من كبار الثوار أنصار الحركة الوطنية التحررية في الساحة، منهم الشيخ الزهراوي وشفيق

المؤيد وسليم الجزائري وعبد الكريم الخليل. وعلقت في أماكن أخرى مشانق مئات من الثوار. ولقد أطلق اسم ساحة الشهداء على هذه الساحة حتى اليوم.

وعندما أعلن استقلال سورية عن السلطنة، تمَّ إعلان ذلك في الثامن من آذار سنة (١٩٢٠م) من شرفة البلدية، وتم تنصيب الملك فيصل على سورية وأعلنت أول وزارة وطنية برئاسة علي رضا الركابي[1].

٢/٧ ولم يمض زمن حتى دخل الفرنسيون دمشق بعد موقعة ميسلون (١٩٢٠م)، وفي هذه الساحة كانت تصطف الآليات الحربية الفرنسية لعرض قوة الجيش المحتل، وفيها كانت تعرض جثث الشهداء من ثوار دمشق (١٩٢٥ - ١٩٢٧م)، وفيها كانت تعلق مشانق السياسين والثوار لنشر الرعب والإرهاب.

٣/٧ وكتأكيد على اعتبار هذه الساحة مركزاً للمدينة، أقيم في وسطها النصب البرونزي التذكاري (١٩٠٧م) لتخليد ذكرى تحقيق الاتصال البرقي والخط الحجازي بين المدينة ودمشق ومنها إلى إستانبول، وقد صنع هذا العمود التذكاري الفنان الإيطالي دارونكو وجعل في قمته تكويناً مصغراً لجامع السلطان الذي أقامه السلطان عبد الحميد الثاني في قصره (يلدز) في إستانبول. وفي قاعدة العمود أربع لوحات تؤرخ إقامته ولقد طمست هذه الكتابات بفعل الاتحاديين الذين ثاروا على السلطان.

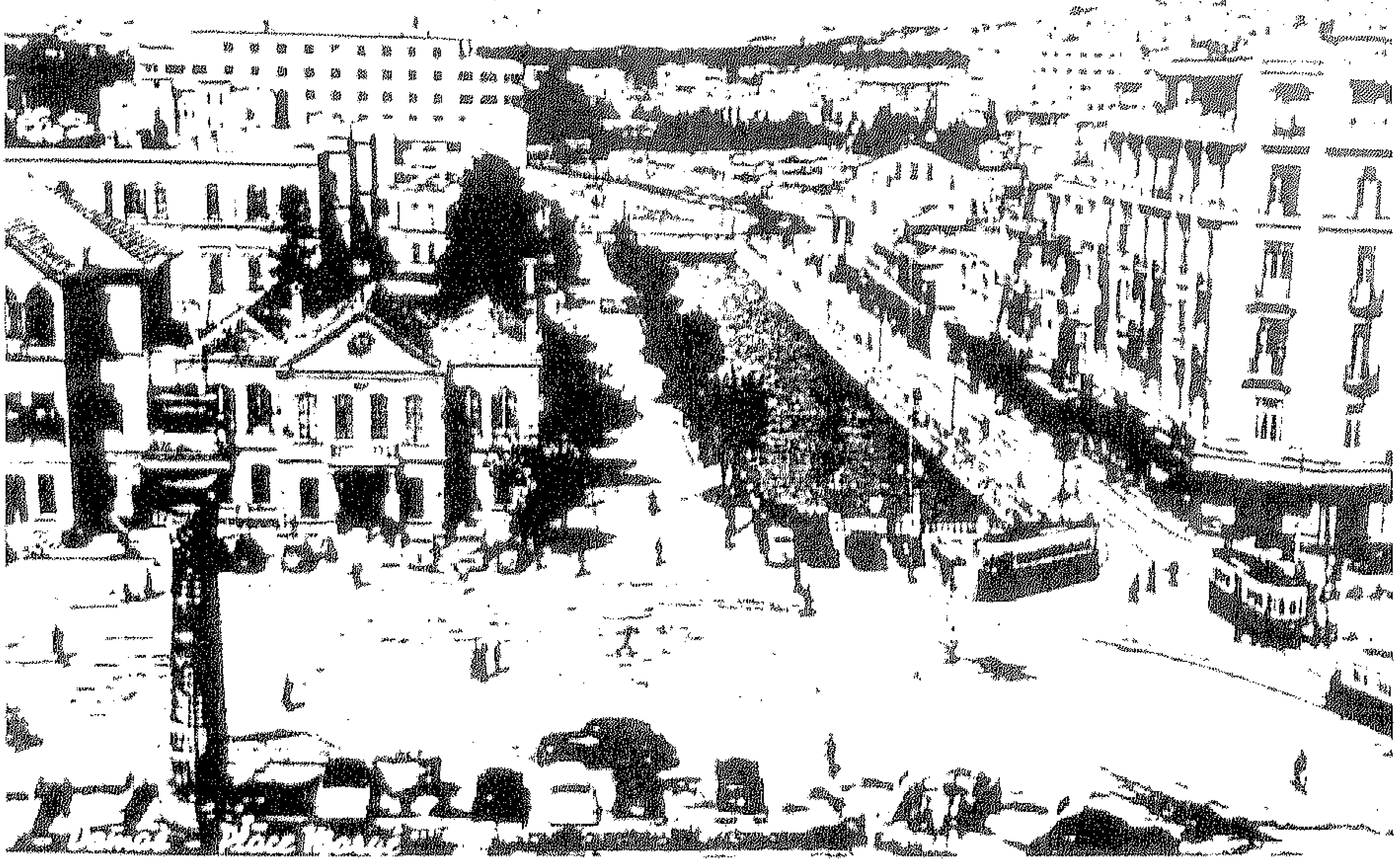
وأمام السرايا أقيم في عام (١٩٠٠م) عمود آخر عليه نقش السلطان عبد الحميد الثاني بشكل طغراء، وكتابة تذكارية تدل على مرور خمس وعشرين سنة على جلوس هذا السلطان. ويعلو هذا العمود تشكيل ما، ومازال يبدو مبتوراً ناقصاً.

٨ - الساحة قلب المدينة

١/٨ استمرت هذه الساحة مركزاً لمدينة دمشق تجمعت فيه كبريات المنشآت التي تخدم المدينة كلها إدارياً واقتصادياً وسياحياً، ففيها كانت دوائر الحكومة والعدل والبريد والبلدية والصحة، وغير ذلك مما استوعبه بناء العابد، وفيها كانت الفنادق الكبرى والمقاهي والملاهي والمسارح ودور السينما، وفيها المحلات الضخمة التي تعرض مستوردات أجنبية لاتوجد خارج هذه الساحة، لقد كانت هذه الساحة منذ عام (١٨٩٥م) وحتى بداية الخمسينيات، أي خلال نصف قرن من الزمن، قلب المدينة النابض.

٢/٨ وخلال سنوات قليلة زالت مركزية هذه الساحة، ولم يبق فيها إلا النصب التذكاري الذي يعتبر رمز دمشق، وبقيت الساحة يذكّر بمجدها بناء العابد، وزالت معالم سوق علي باشا وماكان في مقدمته من مقاه وفندق، وزالت الملاهي ودور السينما كلها، كما زالت أبنية البريد والبرق ودار العدلية ودار البلدية، وجميع

(١) يوسف الحكيم : سورية والعهد الفيصلي ، بيروت ١٩٨٠ .



مبنى قصر البلدية

الأبنية والمحلات التجارية التي كانت في الجهة الجنوبية. كذلك أزيلت الفنادق والملاهي التي كانت قائمة قبالة السرايا، وأزيل أيضاً فندق فكتوريا الضخم. وحلت محل هذه الأبنية المزالة بنايات مرتفعة حجرية شغل أكثرها بمكاتب المحامين، وحتى بناء العابد، فلقد أصبح مكاتب ودوائر بينما شغلت محلاته التجارية باعة الحلويات الشامية، ونهضت مكان البلدية والصيدلية بناية شاهقة يقابلها إلى الشرق بناية أخرى، ومازالت أرض العدلية والبريد وخلفها أرض مدرسة معاوية وجامع يلبغا، خلاء تنتظر تنفيذ مشروع معماري تجاري يحوي مسجداً بديلاً عن جامع يلبغا التاريخي.

٣/٨ لقد توزعت الدوائر والفنادق في أطراف المدينة الحديثة وأصبحت رئاسة الدولة متمثلة برئيس مجلس الوزراء في بناء مستقل خلف المصرف المركزي، واستقلت الوزارات عنها، وأصبح لكل وزارة مبنى خاص، وقد ازداد عدد الوزارات إلى خمسة أضعاف العدد الذي كانت السرايا تستوعبه، وظهرت هيئات ومديريات عامة ودوائر جديدة تناثرت أماكنها في أرجاء المدينة. كذلك ابتعدت الفنادق عن المركز وأخذت تبحث عن أمكنة واسعة بعيداً عن كثافة الحركة وزحمة المواصلات.

٤/٨ وفي مطلع الستينيات تمت تغطية نهر بردى أمام السرايا مما ساعد على امتداد الساحة غرباً. وألغيت حافلات الترام وأزيلت السكك، ولم تعد ساحة الشهداء المحطة النهائية والمنطلق للاتصال بأنحاء دمشق البعيدة، وحل

محل الترام الحافلات السيارات (الباص) وتعددت محطاته بحسب خطوط مساره.

وهكذا وفجأة تقريباً أزالت معاول التنظيم جميع ملامح مركز المدينة وجميع مؤسساته وفعالياته المركزية، ولم تعد ساحة الشهداء إلانقطة مركزية يعلوها ذلك النصب التذكاري الذي تحتار الدوائر الفنية اليوم كيف تستطيع تنظيم الحدائق المحيطة به بما يتناسب مع شكل الساحة.

٥/٨ ساحة الشهداء التي استمرت مركز المدينة خلال نصف قرن لم تعد كذلك اليوم. وعادت دمشق القديمة ضمن الأسوار، بأسواقها وقلعتها وجامعها الأموي الكبير، مركزاً كبيراً للمدينة يمثل القلب التاريخي ويستقطب الحركة الاقتصادية والسياحية، ومازال الناس في أطراف المدينة الواسعة يعتبرون أنفسهم خارج حدود قلب المدينة، التي يطلقون عليها اسم الشام، كأن هذا الاسم لخص وجسد مركز بلاد الشام كلها التي كانت تشمل سورية ولبنان وفلسطين والأردن قبل تجزئتها بقرارات مؤتمر سان ريمو (١٩١٧م).

٦/٨ ومع ذلك فلقد توسع حجم مركز المدينة، فبعد أن كان في الماضي محصوراً ضمن منطقة جامع بني أمية الكبير، أصبح اليوم يشمل المدينة القديمة كلها على امتداد أسواقها وخاناتها ومساجدها. ولكن هذا المركز الواسع المضمخ بعبق التاريخ والحضارة، والغني بمنشآته الرائعة، يحتاج عناية خاصة تحفظ هذا التراث وتجعل من مركز دمشق الكبيرة جوهرة تاريخية تحافظ على معالمها وعلى حيويتها بعيداً عن المخاطر الآلية والتشويه والإهمال، ولابد من متابعة عمليات الترميم العلمي التي ابتدأناها خلال الثمانينيات، لكي تستمر دمشق القديمة مركزاً متألقاً في المستقبل أيضاً، مهما توسعت المدينة وابتعدت عن طابعها الأصيل. على أن دمشق القديمة التي مازالت مركزاً ثابتاً لاتخضع لشروط مراكز المدن في العالم وبخاصة في ربطها بشبكة الطرق المحيطة بها، وعلى الرغم من أن مخطط المدينة التنظيمي الذي عمل به منذ (١٩٦٧م) قد رسم في أعماق المدينة القديمة شوارع وطرقاً تربطها بالشبكة المحيطة، فإننا رفضنا بإلحاح تنفيذ ذلك حرمة لنسيج هذه المدينة التاريخية. وكان لابد بالمقابل من إلغاء أوتخفيف حركة الآليات في المدينة القديمة إلى أقصى حد.

٧/٨ إن أهمية وميزة مدينة دمشق القديمة، أنها مركز فعلي ثابت، لايمكن تحريفه أو نقضه كما تم لساحة الشهداء التي توسعنا بالحديث عنها. وإن هذا المركز فرض نفسه على المخططين، فلم يكن يخضع لشروطهم وليس هو نتيجة لمشاريعهم، شأنه في ذلك شأن المدن القديمة في مراكش وفاس، مما لانراه مع الأسف في باقي المدن العربية التي زالت فيها معالم المدينة القديمة وزالت معها المركزية التاريخية لهذه المدن التي توسعت جداً في العصر الحديث.

الفصل السادس

تكون الجامع الأموي الكبير

١- أصل الجامع قبل تكونه الإسلامي
٢- أصالة الجامع الأموي
٣- الخضراء قصر معاوية
٤- قصر الخلافة في دمشق
٥- كسوة الجامع الرخامية
٦- الكسوة الفسيفسائية
٧- الكسوة الجصية
٨- الكسوة الخزفية
٩- تنظيم منطقة الجامع الأموي

تكوّن الجامع الأموي الكبير

١- أصل الجامع قبل تكونه الإسلامي

١/١ جامع بني أمية في دمشق هو أكمل وأقدم آبدة إسلامية ما زالت محافظة على أصولها منذ عهد مُنْشِئِها الوليد بن عبد الملك الخليفة المصلح الذي حكم من (٨٦-٩٧هـ/٧٠٥-٧١٥م)، وخلال حكمه كان منصرفاً إلى الإعمار والإنشاء، وكان بناء الجامع من أكثر الأمور أهمية عنده، ولقد استعان في عمارته بالمعماريين والمزخرفين من أهل الشام، ممن كان لهم الفضل في بناء كثير من المباني في دمشق ولعل منهم من مضى إلى المدينة المنورة في أيام الوالي عمر بن عبد العزيز، وبأمر من الوليد لإعادة بناء مسجد الرسول على طراز الجامع الكبير بدمشق[١].

لقد أُقيم المسجد الجامع بدمشق بشكل مؤقت، بعد فتح بلاد الشام، في الجهة الشرقية الجنوبية من أطلال المعبد الروماني الذي أنشئ في القرن الأول الميلادي، وأنشئ في جدار هذا المعبد أول محراب في الإسلام مازال قائماً صلى فيه الصحابة مع خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح، القائدين اللذين فتحا الشام، الأول عنوة، والثاني صلحاً، وأعطى لسكان البلاد عهدة بالحفاظ على ممتلكاتهم ومعابدهم ومساكنهم.

٢/١ وفي عهد معاوية بن أبي سفيان، والياً ثم أول خليفة أموي، كان يصلي في هذا المسجد المؤقت، يدخل إليه من الباب القبلي، وما يزال قائماً في جدار القبلة.

وكان معاوية قد أنشأ لنفسه قصر الخضراء المتاخم لهذا الجدار، وقد أنشأ معاوية في المسجد سدة خاصة به، هي أول سدة في الإسلام.

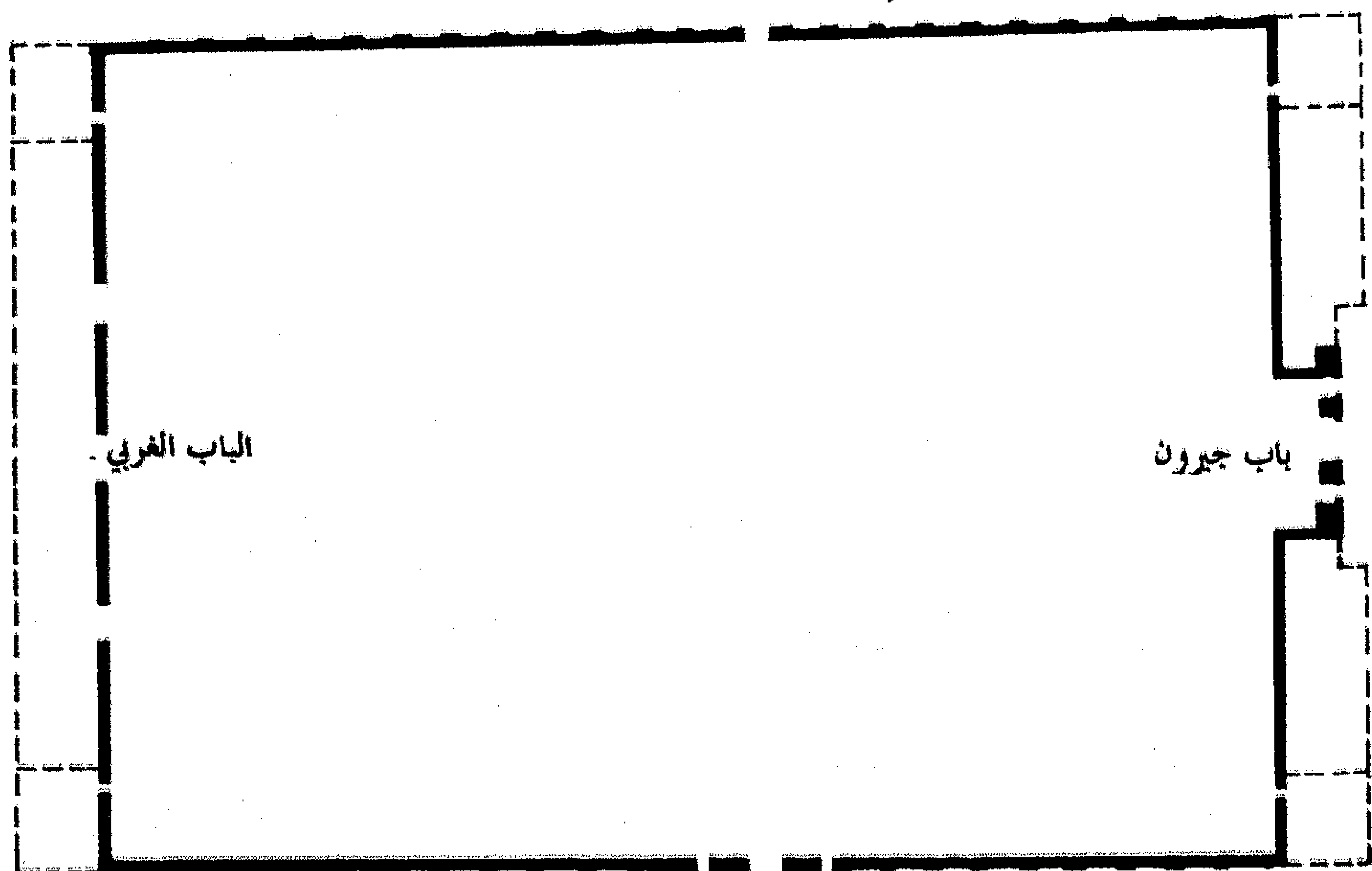
إثر زلزال عنيف أتى على المعبد ولم يبق منه قائماً إلا الهيكل (ناوس) ويقع في منتصف فناء واسع محاط بجدار مرتفع تخترقه أربعة أبواب من الجهات الأربعة، وكانت كلها أطلال. ويحيطها سور آخر معمد.

ولقد استعمل المسيحيون من سكان دمشق هذا الهيكل كنيسة، وكانوا يدخلون من الباب ذاته الذي أصبح يدخل منه المسلمون إلى مسجدهم في الشرق.

٣/١ ولم يكن من السهل أن يبقى المسلمون في عاصمتهم التي أصبحت تحكم أوسع إمبراطورية، وأن يكون مسجدهم مؤقتاً في دمشق وفي القدس. فقام عبد الملك بن مروان بإنشاء مسجد قبة الصخرة، وباشر بإنشاء المسجد الأقصى في المكان الذي صلى فيه عمر بن الخطاب عندما جاء إلى القدس وقدم لسكانها العهدة العمرية. ولقد أكمل الوليد بناء المسجد الأقصى، وباشر ببناء الجامع الكبير بدمشق، بعد أن

(١) انظر كتابنا: الجامع الأموي الكبير، دار طلاس، دمشق ١٩٨٨. وفيه تحقيق أثري لهوية الجامع الإسلامية.

مخطط المعبد الروماني (جوبيتير)

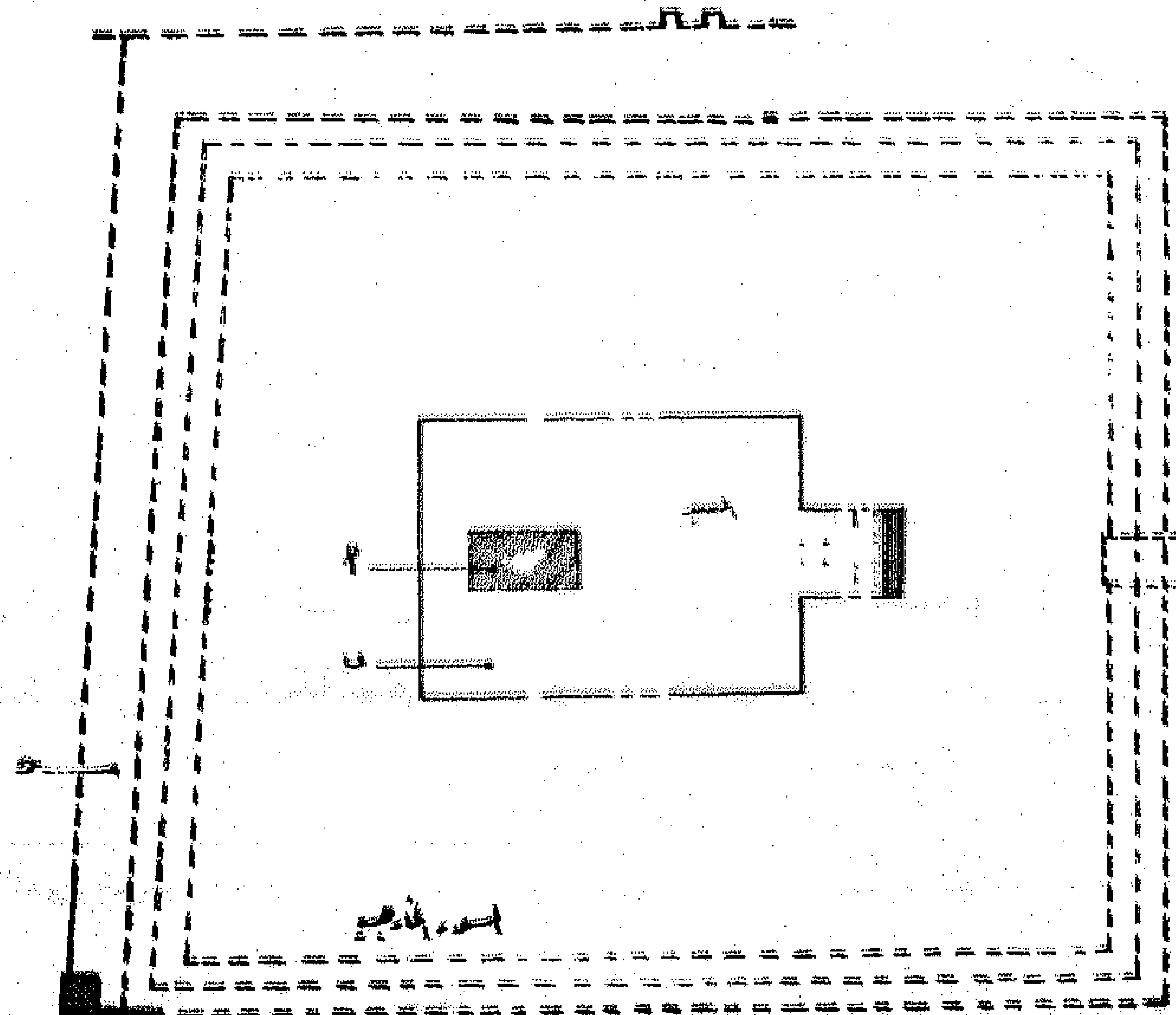


حدود المعبد قبل الزيادات الإسلامية

أ- الهيكل Cella

ب- حدود الحرم Temenos

جـ- الأروقة المحيطية Periboli



المعبد والسور الخارجي في العهد الروماني



الجامع الأموي - مشهد جوي - ١٩٢٨ (بعدسة إيكوشار)

اتفق مع أصحاب الكنيسة -الهيكل على أن يقدم لهم بديلها، وهكذا استطاع البناؤون الإفادة من كميات هائلة من حجارة المعبد المتراكمة، ومن أعمدته وتيجانه لإقامة جامع ضخم، يعتمد على التخطيط الذي وضعه الرسول (عند بنائه لمسجده الأول في المدينة المنورة، وكان هذا المخطط يقوم على تقسيم المسجد إلى بيت الصلاة المسقوف، وإلى فناء مفتوح.

لقد استبقى الوليد الجزء السفلي من جدار القبلة وأعاد بناء الجدران الخارجية والأبواب، وأنشأ حرم المسجد مسقوفاً مع القبة. وأنشأ أروقة تحيط صحن الجامع. وأقام في أركان الجامع الأربعة صومعة ضخمة، (كذلك فعل في المدينة) ولكن زلزالاً لاحقاً أتى على المنارتين الشماليتين، فاستعيض عنها بمنارة في وسط الجدار الشمالي، وأصبح للمسجد ثلاث منارات اثنتان في طرفي الجدار الجنوبي، وواحدة في منتصف الجدار الشمالي وتسمى مئذنة العروس.

إن هذه المآذن المربعة هي أصل المآذن التي انتقلت إلى شمالي إفريقية والأندلس، نرى تأثيرها واضحاً على مآذن القيروان والكتبية وحسان وإشبيلية[1].

٤/١ ولم تكن هذه المنارات أو الصوامع موجودة في العهد الروماني، يؤكد ذلك الشبه الكامل الذي نراه بين هذا المعبد

(١) انظر كتابنا : الجامع الأموي الكبير ، دار طلاس ، دمشق ١٩٨٨ . وفيه تحقيق أثري لهوية الجامع الإسلامية.

ومعبد زفس المسمى ((حصن سليمان)) قرب الساحل السوري.

كذلك لم تكن قائمة تلك الصالات الأربعة الرحبة، التي تسمى (المشاهد) والتي أصبحت جزءاً من مقر الحكم الأموي مع أجزاء أخرى غربي وجنوبي الجامع مازالت آثارها قائمة، وكانت مخصصة للبريد وبيت المال والرسائل. ويتحدث المؤرخون عن استقبال الخليفة لموسىَ بن النصير وطارق بن زياد وقد عادا من الأندلس، وخلفهما ملوك الغوط والوندال هذا الاستقبال الذي تمّ في القاعة الغربية، وفي منشآت كانت قائمة في منطقة الغرب التي تسمى اليوم المسكية.

تبلغ مساحة المسجد كله (١٥٧×٩٧م). وتبلغ مساحة الحرم (١٣٦×٣٧م) أما مساحة الصحن فهي (١٢٢,٥×٥٠م) وينفتح في الصحن ثلاثة أبواب، باب البريد من الغرب وباب جيرون من الشرق وباب الكلاسة من الشمال. وباب الزيادة من الجنوب وينفتح من الحرم.



أساس الصومعة الغربية وفوقها مئذنة قايتباي

٥/١ أما الصحن فإنه محاط من جوانبه الثلاثة بأروقة شامخة ارتفاعها (١٥,٣٥م)، ومن جهة الجنوب تنفتح أبواب الحرم التي أصبحت مغلقة بأبواب خشبية تعلوها قمريات زجاجية ملونة مع كتابات.

وتنهض الأروقة على صفٍ من القناطر المتراكبة، قنطرتان صغيرتان فوق كل قنطرة كبيرة، وتحملها عضادات مربعة ضخمة وأعمدة، عمودان بين كل عضادتين في الجانبين ويبلغ عددها مجتمعة (٤٧) عضادة وعموداً. وهي تشكل واجهات الأروقة وواجهة الحرم المؤلفة من جبهة ثلاثية ذات نافذة مفتوحة على طرفيها نافذتان دائريتان، وتحت الجبهة واجهة مربعة في وسطها قوس كبير ضمنه ثلاث نوافذ، وترتكز هذه الواجهة على ثلاث قناطر محمولة على عمودين في الوسط، وركنين في الجانبين وتدعم هذه الواجهة من الطرفين دعامتان مربعتان ضخمتان. وعلى طرفي هذه الواجهة تمتد القناطر المتراكبة تسع قناطر إلى اليمين ومثلها إلى اليسار شرقاً. ومن الرواق الشمالي تنفتح على الصحن (٢٤ قنطرة) ومن الرواقين الشرقي والجنوبي تسع قناطر.

٦/١ أما حرم المسجد فهو مؤلف من قناطر مشابهة عددها (٢٤ قنطرة) تمتد عرضانياً موازية للجدار القبلي، يقطعها في الوسط جناح متوسط يمتد من باب الجبهة الرئيسي وحتى المحراب. ويغطي هذا الجناح المتوسط سقف سنمي في وسطه تنهض قبة النسر المؤلفة من قبة نصف



واجهة الحرم

كروية من الخشب المصفّح، ومن رقبة ثمانية تنفتح فيها (١٦ نافذة)، وترتفع القبة عن أرض الجامع (٤٥م) وهي بقطر (١٦متراً).

وفي حرم الجامع أربعة محاريب، المحراب الأصلي في منتصف الجدار القبلي. وهذه المحاريب مخصصة للمذاهب الأربعة. وفي أعلى جدار القبلة، تنفتح على امتداده نوافذ ذات زجاج ملون. عددها (٤٤ نافذة) مع ستة نوافذ في الوسط.

ويقوم إلى جانب المحراب الكبير منبر حجري رائع. إن جميع الزخارف الرخامية المنقوشة في المحراب والمنبر وفي المحاريب الأخرى هي آيات فنية، صنعها المبدعون الدمشقيون الذين نقلوا فنونهم إلى أنحاء كثيرة من البلاد العربية والإسلامية.

٧/١ ولقد زينت جدران الحرم بالفسيفساء والرخام، ومازالت أقسام كثيرة من الفسيفساء الأموي قائمة في الحرم من الشمال على الرغم من النكبات الكثيرة التي أصابت المسجد. ولقد وصف ابن عساكر موضوع فسيفساء الجدار الجنوبي على شكل كرمة ذهبية.

وكانت الأروقة وعضاداتها وقناطرها مكسوة كلها بالفسيفساء الزجاجي الملون، ومازالت أقسام كثيرة باقية في واجهة الحرم وفي الأروقة، ولقد أعيد بعض ما سقط منها، وبخاصة قبة الخزنة، التي استعادت زخرفتها الفسيفسائية مؤخراً، وهذه القبة هي غرفة مثمنة تعلوها قبة محمولة على ثمانية أعمدة، كانت تحفظ فيها أموال المسلمين، ثم أصبحت لحفظ المخطوطات الثمينة. ولقد أنشئت هذه القبة في العهد العباسي (١٦٤هـ / ٧٨٠ م) وثمة قبة أخرى هي قبة زين العابدين أو الساعات ما زالت قائمة، ولقد أعيد مؤخراً (١٩٩٥م) بناء قبة الوضوء العثمانية (١١٨٤هـ / ١٧٦٩م) التي كانت في منتصف صحن الجامع تحمي بركة ماء للوضوء.

٨/١ ويبدو الجامع مهيمناً على مدينة دمشق القديمة بهامته المتجلية بقبة النسر، وبمآذنه الثلاثة التي أقيمت في وقت لاحق فوق الصوامع الأموية التي كانت مجرد بدن بدون منارة عليه، كما هو الأمر في الصوامع المغربية. والمئذنة الشمالية هي الأقدم ولقد أضيف إليها منارة في عهد صلاح الدين، ثم في عهد العثمانيين. والشرقية أنشئت في عهد الأيوبيين ثم العثمانيين، والغربية أنشأها السلطان المملوكي قايتباي.

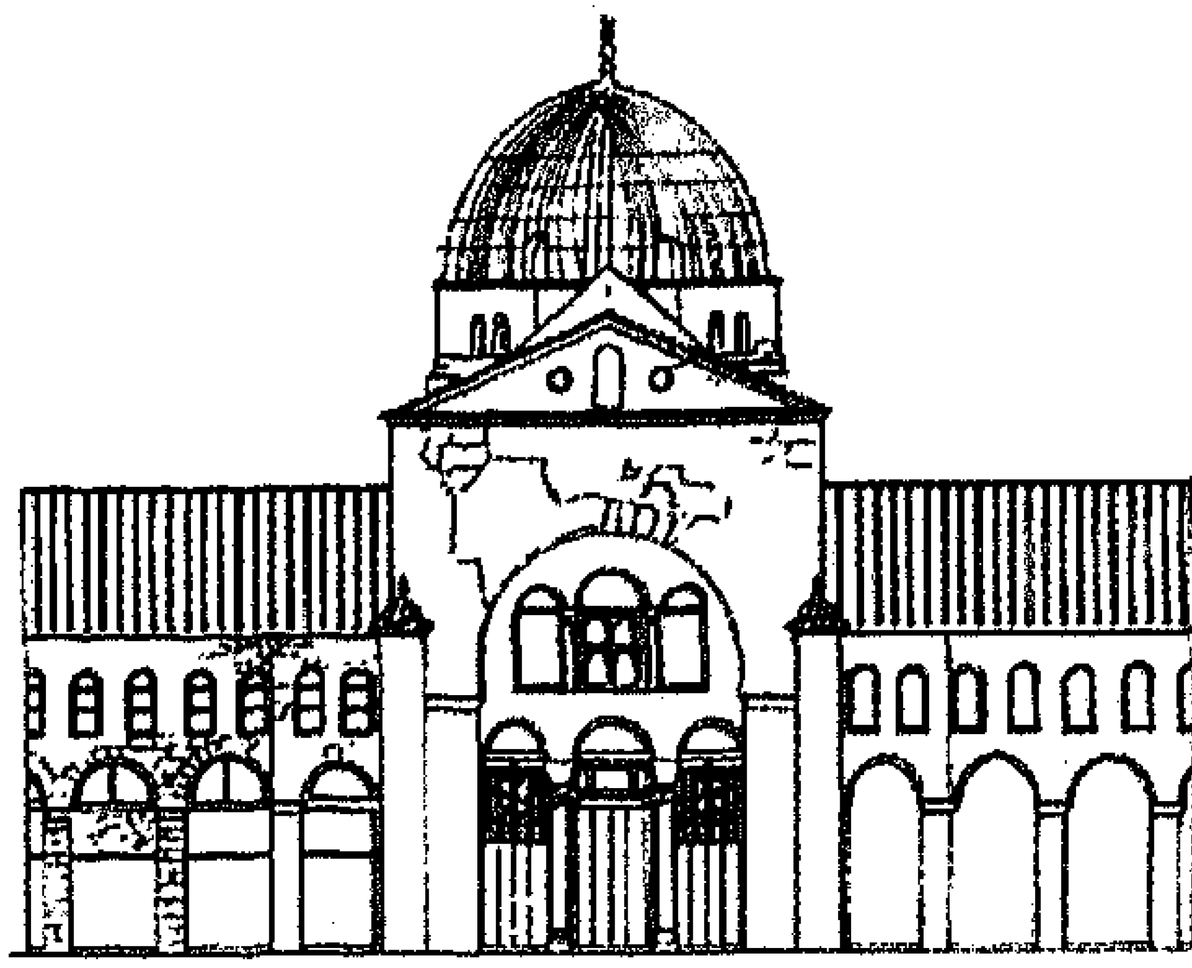
٢- أصالة الجامع الأموي

١/٢ ثمة اختلاف في الرأي من علماء الآثار من أمثال ديكي ودوسو، وهرزفيلد، وكريزويل، في تحديد هوية الجامع الأموي الكبير في دمشق، ولكي نصل إلى اليقين كان لابد من طرح المسائل التالية:

هل استعمل المعبد الروماني كله كنيسة مسيحية، وماهي أوصاف كنيسة يوحنا الدمشقي؟ أين كان يصلي المسلمون قبل الوليد بن عبد الملك؟ كيف كان البناء قبل الوليد؟ ماهي أوصاف المسجد الذي أنشأه الوليد؟

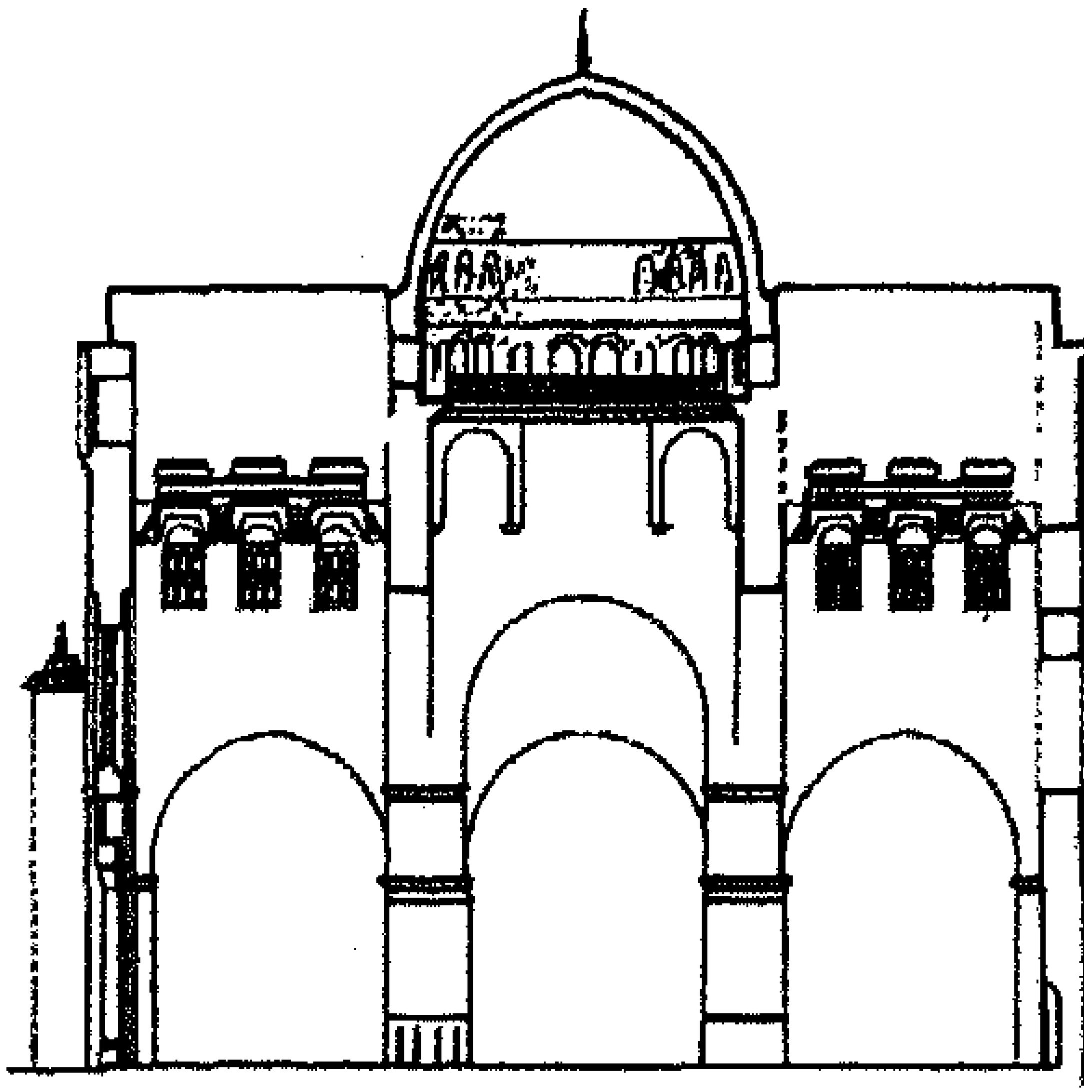
٢/٢ النقطة الأولى، أصبحت جلية بعد أن اتفق أكثر العلماء وبخاصة كريزويل،

على أن الكنيسة شغلت الهيكل (ناوس) الذي بقي من المعبد الروماني بعد الزلزال. وهذا يعني أن المعبد كله لم يستخدم كنيسة، ولايمنع أن يكون المسيحيون قد نقشوا عبارات لاتينية دينية على مدخل المعبد المتهدم. فلقد قام بمثل ذلك المسلمون على مدخل الحرم الخارجي من جهة الشرق. (منطقة جيرون).



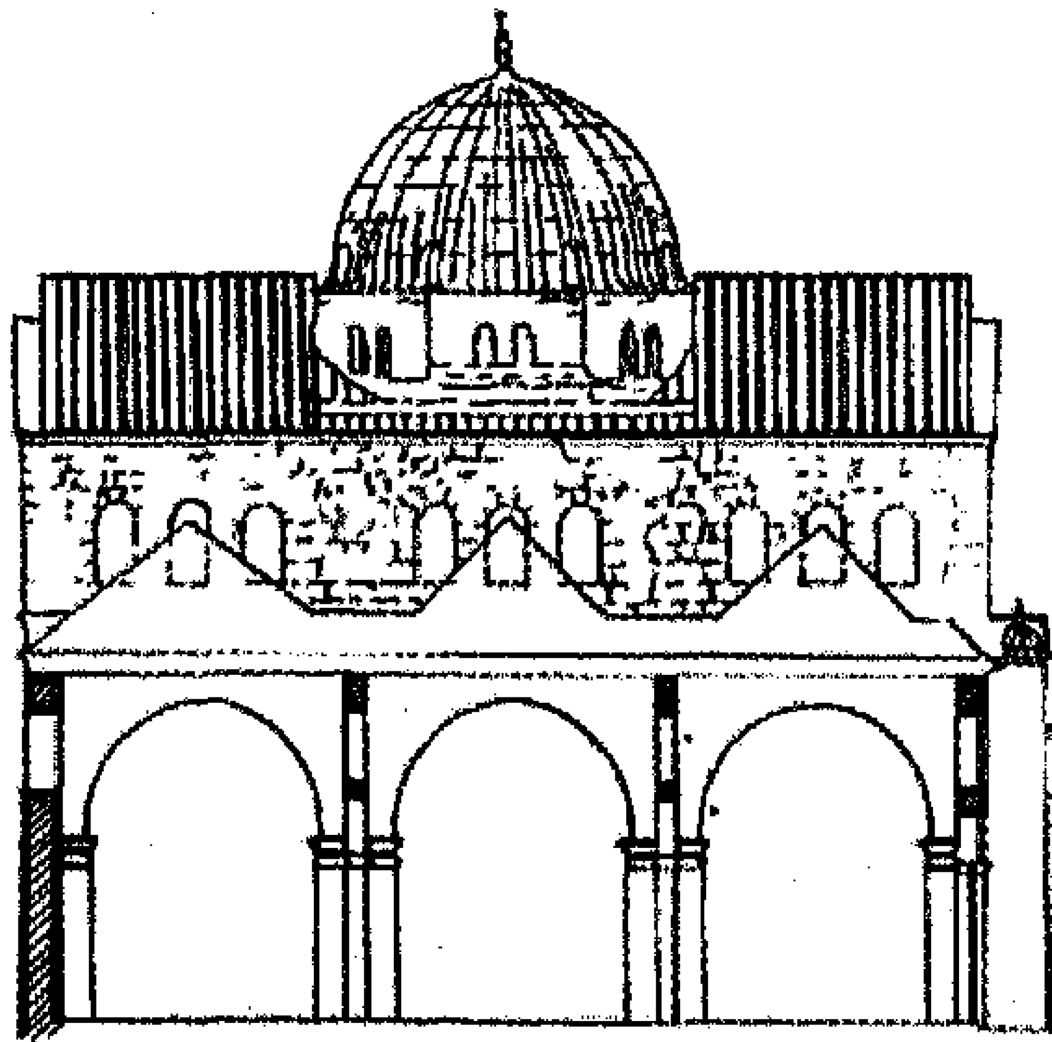
قسم من واجهة الحرم

النقطة الثانية، لقد تبين من المصادر الإسلامية أن الصحابة بعد فتح دمشق كانوا يصلون في زاوية المعبد الشرقية الجنوبية، ولقد اتجهوا نحو الكعبة وحددوا على جدار المعبد شكل أول محراب في الإسلام، ومازال هذا المحراب يعرف بمحراب الصحابة. واستمر الأمر كذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان، عندما كان والياً ثم بعد أن أصبح خليفة، وكان معاوية يدخل من قصره ذي القبة الخضراء المتاخم للجدار الجنوبي، من الباب الروماني نفسه الذي كان المسيحيون يدخلون منه إلى كنيستهم في هيكل المعبد الواقع في الجهة الغربية من الصحن، ولعلهم رمموه قبل استعماله. ولكن المسلمين لم يفعلوا ذلك في زاوية المعبد ولعلهم أقاموا سقيفة أو جداراً، كما فعل المؤمنون في كنيسة قسطنطين في القدس قبل بناء المسجد الأقصى. واستمرت عبادة المسلمين في هذا المكان حتى عهد الوليد تحدث عنها الرحالة أركولف..



1:500 مقطع المصلية من الداخل

مقطع من الداخل



مقطع عرضاني للحرم

٣/٢ والنقطة الثالثة وهي الهامة: كيف كان حال البناء قبل الوليد؟

أوضحت دراسة العالم الألماني كلنغل

للمعبد الوثني الذي يسمى اليوم حصن سليمان (محافظة طرطوس) والذي يعود إلى عام (٢٥٠م) وكان مكرساً للإله بعل، إله المطر والخصب، قد أوضحت إلى حدٍ بعيد الشبه القائم بين هذا المعبد وبين معبد جوبيتر في دمشق حيث أقيم على أنقاضه الجامع الأموي الكبير. فالبناء مؤلف من حرم داخلي يسمى تيمينوس له أربعة أبواب من جهاته الأربع وليس في أركانه أبراج، وفي وسطه من جهة الغرب الهيكل (ناوس). إن هذا النظام هو السائد في المعابد الرومانية.

وبمقارنة حصن سليمان مع معبد جوبيتر في دمشق يبدو الشبه واضحاً، كما تبدو الزيادات والتعديلات الأساسية التي قام بها المسلمون واضحة أيضاً.

يقول العلموي (٩٣٩هـ/١٥٣٠م) إن الوليد بن عبد الملك قد بنى كل ما كان داخل حيطان المسجد.

وهذا يعني أن الوليد أنشأ حرم المسجد وقبته العالية واستفاد من الجدران الأخرى فأصلحها أو أكملها أو جدد بعضها. ولكن أي جدران هي، الداخلية التي تشرف اليوم على صحن الجامع أم الجدران الخارجية.

لقد تفحص علماء الآثار الجدران الخارجية، فتأكدوا أنها لاحقة تاريخياً لبناء الجدران الداخلية، فيما عدا جزء من الجدار الجنوبي القبلي الذي مازال حتى اليوم يحتفظ بمعالمه الرومانية وبخاصة قسمه السفلي مع بابه ذي الفتحات الثلاثية.

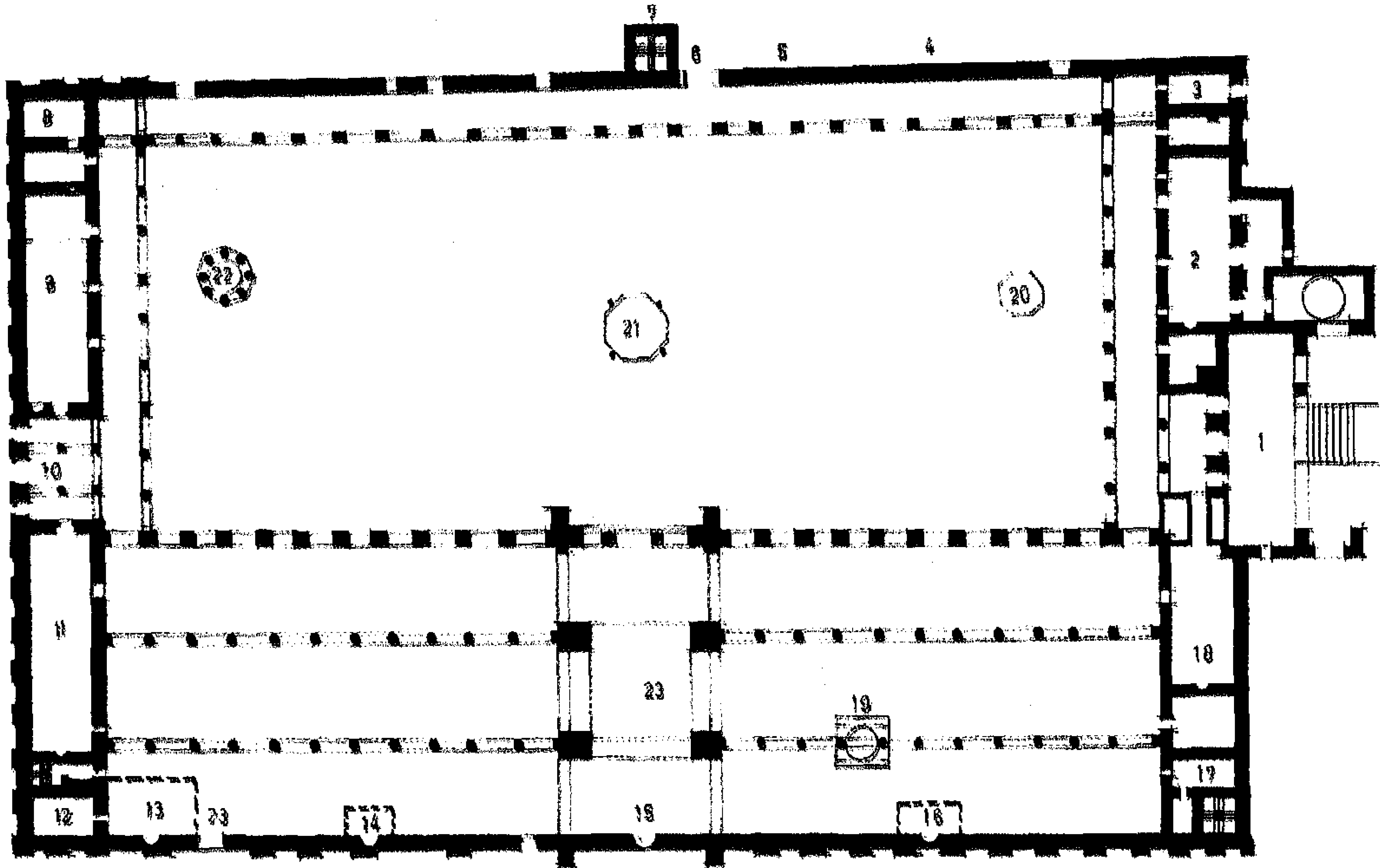
يقول فاتزنغر. من الواضح أن الجدار الخارجي للجامع يخضع لنظامين معماريين متباينين، إذ أن دعائم الجدار الجنوبي الروماني أقل ارتفاعاً، وتنتهي في أعلاها بوسادة بسيطة. أما الجداران الشرقي والغربي، فإنهما من نظام مختلف غريب عن تقاليد العمارة الرومانية، فالدعائم فيه عالية متوّجة بتاج كأسي مربع، يحمل عتباً محلّى في أعلاه بأسنان ضمن إفريز ما زالت بقاياه واضحة. ولقد سبقه في هذا الرأي العالم ديكي الذي أكد إن البابين الشرقي والغربي قد أُضيفا إلى جدار السور[1].

ويرى فاتزنغر أن معالجة هذين البابين وأقواسهما تتفق مع التشكيل المعماري المختصر والهادئ للدعائم الجدارية الشرقية والغربية وليس الجنوبية.

ولايخفى على أي ملاحظ، أن رصف حجارة الجدار الروماني الجنوبي مختلف جداً عن رصف حجارة الجدارين، الشرقي والغربي، اللذين أُنشئا ولاشك أيام الوليد إضافة للجدار الداخلي الذي رمم وبينهما كان لابد من الاستفادة من الحيّز، لإقامة الأبراج الأربعة (المآذن) والمشاهد (الصالات الأربع).

ولابد من التذكير أنه ليس من تقاليد العمارة الرومانية إقامة أبراج أو صالات مشابهة. هذه الأبراج هي الصوامع التي أُنشئت كمآذن، ولقد أمر الوليد عامله في المدينة، وكان عمر بن عبد العزيز، أن يعيد بناء مسجد الرسول (وأن ينشئ في أركانه الأربعة مآذن، وهكذا كان الأمر، على غرار

(١) انظر كتاب الآثار الإسلامية في دمشق : ترجمة قاسم طوير دمشق ١٩٨٥ .



أقسام ومواقع الجامع

١- باب جيرون - ٢- مشهد الحسين -٣- قاعدة المئذنة ش ش -٤- قبر الملك الكامل -٥- السميساطية -٦- باب العمارة -٧- مئذنة العروس -٨- قاعدة المئذنة ش غ -٩- مشهد عثمان -١٠- باب البريد -١١- مشهد عمر -١٢- قاعدة المئذنة ج غ -١٣- محراب الحنابلة -١٤- محراب الحنفية -١٥- محراب الخطيب -١٦- محراب المالكية -١٧- قاعدة المئذنة ج ش -١٨- مشهد أبي بكر -١٩- مقام النبي يحيى -٢٠- قبة الساعات -٢١- قبة البركة -٢٢- قبة الخزنة -٢٣ باب الزيادة

جامع دمشق.

٤/٢ لقد كانت هذه المآذن المربعة هي الأولى في الإسلام، وانتقلت إلى الجزيرة، ثم أصبحنا نراها في جامع سيدي عقبة بالقيروان وفي جامع قرطبة، ثم في جامع إشبيلية ومراكش والرباط.

ويبدو أن بناء المصعد إلى أعلى هذه المآذن كان إما محورياً أو كان جانبياً داخلياً، أو كان سلماً يدور حول غرف محورية متوضعة فوق بعضها في قطب المئذنة.

ولم تكن مآذن دمشق مرتفعة، ولم يكن لها غرفة مؤذن عليا في البداية، لعدم وجود قطب لها. بل كان لها شرفة مربعة محاطة بشراشيف، تماماً كما هو الأمر حتى اليوم في مآذن الجزيرة العربية.

على أن هذه المآذن كانت ضخمة منسجمة مع ضخامة المسجد. ولقد أُصيبت المئذنتان الشماليتان بزلزال أتى عليهما مباشرة بعد إنشائهما، واستبدلتا بمئذنة في الوسط هي مئذنة العروس. التي أُعيد إنشاؤها سنة (٥٥٥ هـ/١١٦٠م) ثم أُصيبت بحريق بعد أعوام سنة (٦٧٣ هـ/١١٧٤م)، فرممها الأيوبيون ثم أضاف إليها العثمانيون القسم العلوي.

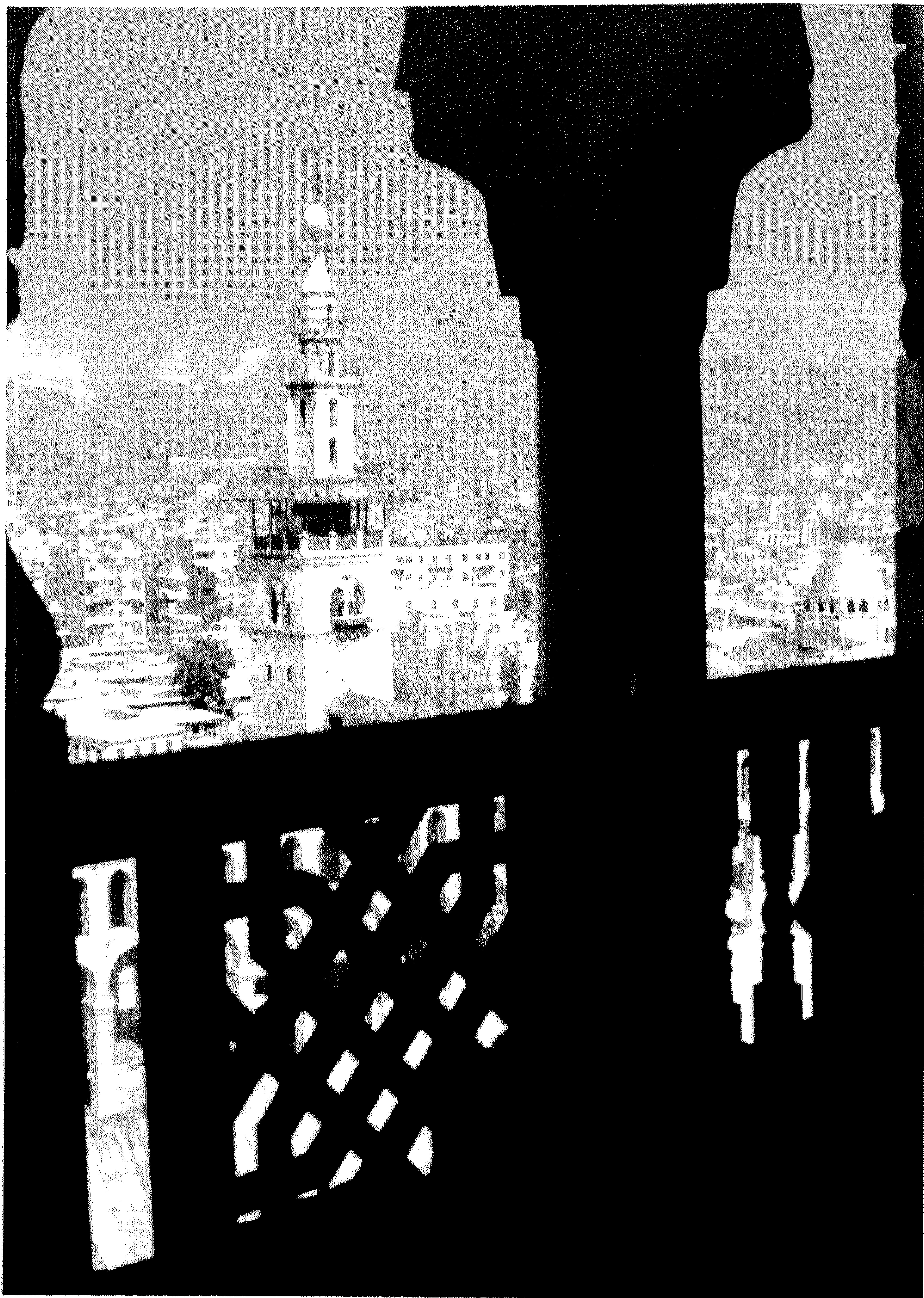
وفي عام (٦٤٥ هـ/١٢٤٧م)، تهدمت الإضافة التي أنشأها السلاجقة بفعل حريق أتى على المئذنة الجنوبية الشرقية، ورممها الأيوبيون ثم تهدمت مرات متتابعة بعد عام (٧٤٠هـ/١٣٤٠م)، واتهم المسيحيون بذلك وألزموا بإعادة بنائها وهكذا أطلق عليها اسم منارة عيسى. ثم أضيفت إليها زيادة في عهد العثمانيين. بعدأن تهدمت بفعل زلزال (١٧٥٩م). وفي عام (٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م) أحرق تيمورلنك دمشق والجامع الكبير وانهارت المئذنة الجنوبية الغربية وكانت مربعة أموية، ثم رممت. وتنهار ثانية سنة (٨٨٥هـ/١٤٧٩م) بفعل حريق كبير وكان انهيارها داخلياً أتى على جزء من الحرم. ولقد أنشأ المماليك فوق المئذنة القديمة في عهد السلطان قايتباي سنة (٨٩٤ هـ/١٤٨٨م) المئذنة التي مازالت قائمة حتى اليوم والتي تحمل الملامح المملوكية القاهرية.

لقد كان الخطأ جسيماً عندما أنشئت فوق الصوامع الإسلامية الأموية، مآذن ذات طراز مختلف وبقياس غير منسجم مع الصومعة والطراز الشامل للجامع، ولم يكن سهلاً تصحيح هذا الخطأ بعد ذلك.

ونحن نعلم أن المسلمين عندما غادروا اشبيلية تركوا فيها جامعها الكبير ذا الصومعة الضخمة، ولم يغيّر المسيحيون من تناسب ووحدة هذه الصومعة عندما أضافوا قمتها والجيرالدا في أعلاها. في حين أن التعديلات التي طرأت على الصومعتين الأمويتين بدمشق قد شوهت كثيراً مشهد المسجد وأساءت إلى أصالته وضيعت معالم الصوامع القديمة.

٣- الخضراء قصر معاوية

١/٣ أنشأ قصر الخضراء معاوية، وكان يعيش فيه والياً ثم استمر مقره عندما أصبح الخليفة الأول من الأمويين، أي أنه سكن هذا القصر أربعين سنة، واستمر زاهراً حتى التهمته



مئذنة العروس في الجامع الأموي الكبير

النار في عهد الفاطميين،

وعند التنقيب عن القصر بإشرافنا ثم العثور على بعض آثاره وحدوده، تبين أن هذا القصر الذي عرف بقبته الخضراء كان قد أنشئ أولاً من الطين ثم أعيد بناؤه بالحجر، يؤكد ذلك ما وجه إلى البناء الأول من نقد ذكره المؤرخون. ولقد وصف المؤرخون هذا القصر وصفاً مثيراً، ولعل ميسون زوجة معاوية ضاقت بحياة الترف فيه فحنّت إلى حياة المضارب والخيام فقالت قصيدتها المعروفة ومطلعها:

لبيتٌ تخفق الأرواح فيه
أحَبُّ إليَّ من قصرٍ منيفِ
ولبس عباءةٍ وتقرُّ عيني
أحبُّ إليَّ من لبسِ الشُّفوفِ

٢/٣ يقع قصر الخضراء قرب الجامع الأموي الكبير من جهة الجنوب وهي الجهة القبلية في الجامع، ومازالت المنطقة هناك تعرف بالخضراء حتى اليوم، والقصر كان متاخماً لجدار الجامع، بل إن الخليفة كان يدخل مباشرة إلى الجامع من قصره خلال بوابة ما زالت قائمة حتى اليوم.

هكذا فإن قصر الخضراء كان مسكناً للخليفة، ولكن الدواوين انتشرت حول المسجد من جهة الغرب وشغلت الأروقة التي كانت تحيط المعبد الروماني القديم، بل لقد أُنشئت أروقة أخرى مازالت قائمة عند مدخل الجامع الكبير، إن بيت المال وديوان البريد وغيرها كانت تشغل هذه الأروقة، أما مقر حكم الخليفة فكان في القاعة أو القاعتين الواقعتين في الجهة الغربية من الجامع.

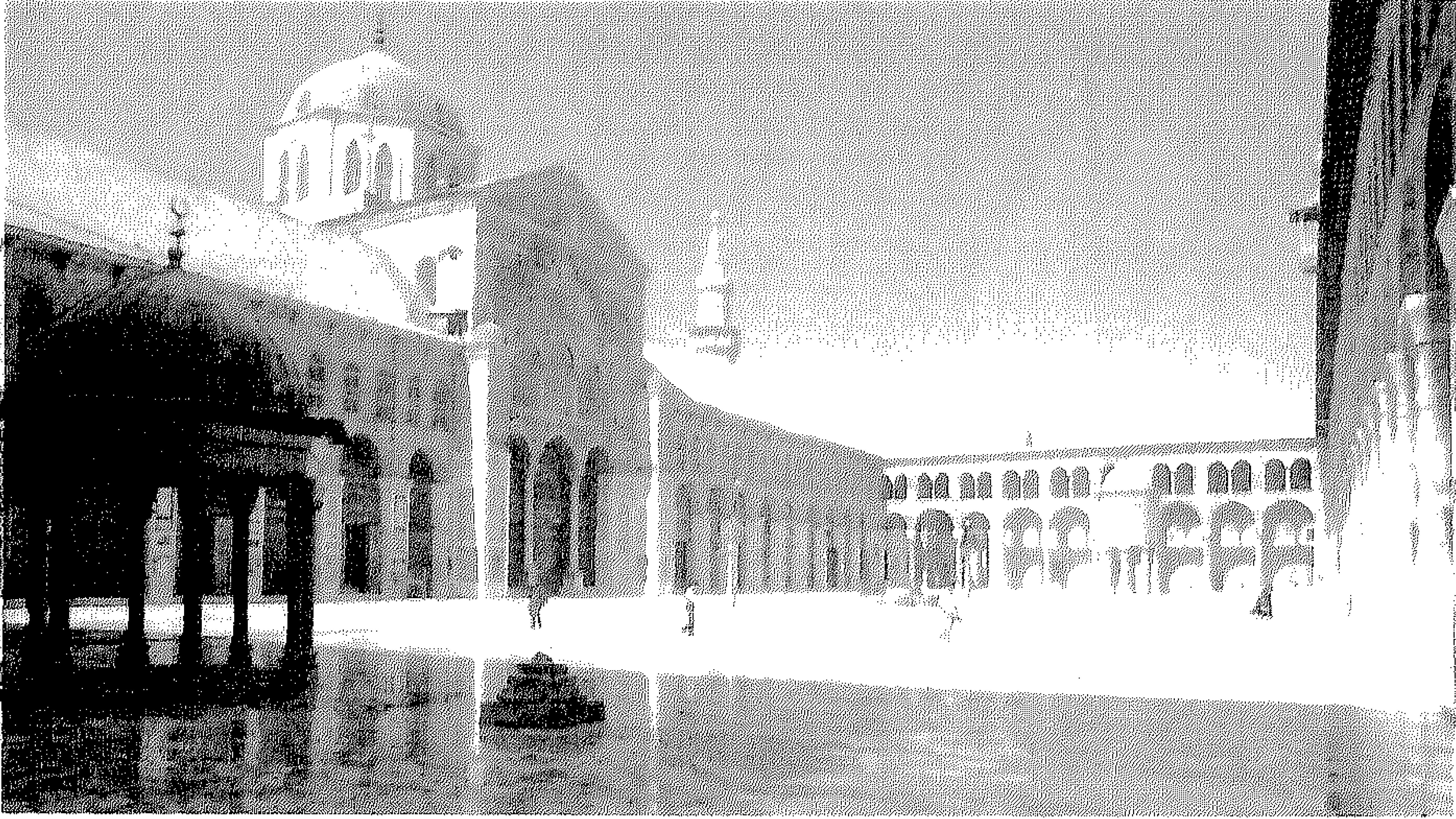
٣/٣ ومازالت المنطقة التي كان القصر قائماً فيها تسمى الخضراء حتى اليوم وثمة رواية تاريخية ذكرها ابن عساكر في تاريخه عن دمشق[1] ، يقول فيها:

إن معاوية بنى عمارته بالطوب، فلما فرغ منها، قدم عليه رسول ملك الروم، فنظر إليها فقال معاوية: كيف ترى هذا البنيان. قال: ((أما أعلاه فللعصافير، وأما أسفله فللنار قال: فنقضها معاوية وبناها من الحجارة)). وأصبحت قصر الحكم الأموي الأول. ولقد تبين لنا أن معاوية استفاد من الأحجار المتراكمة في ذلك المكان.

ويذكر ابن خلدون في مقدمته أن معاوية هو أول من اتخذ سرير الملك. مستمداً مما وصفه صاحب الأغاني الذي ذكر((أنه في هذا القصر كرسي الخلافة وهو مربع الجوانب تستره الوسائد المطرزة الفخمة)) مما لم تألفه العرب، حتى إن عمر بن الخطاب كتب إليه مستنكراً وقال له: أقيصرية يامعاوية. وقد أخذ على معاوية. أيضاً أنه أحدث في الجامع الكبير مقصورة هي الأولى في بناء الجوامع، وجعلها مقاماً للصلاة خاصاً به.

٤/٣ لقد بقي قصر الخضراء قائماً يستعمله الخلفاء الأمويون، فلقد اشترى عبد الملك بن مروان هذا القصر من خالد بن يزيد بن معاوية، وجعله دار الإمارة كما يروي ابن عساكر، وكان الثمن أربعين ألف دينار وأربع ضياع وأربعة أجناد من الشام. ثم جعله العباسيون داراً للشرطة وضرب

(١) انظر ابن عساكر (سنة ٥٧١ هـ) المجلد ١،٢ تحقيق صلاح المنجد ، المجمع العلمي ، دمشق ١٩٥١ م.



الجامع الأموي الكبير ـ الصحن

النقود ولعله رمم فيما بعد، إذ إن المؤرخين يتحدثون عن حريقه في أيام الفاطميين عندما احترق الجامع الأموي في ذلك الوقت. ويقول ابن كثير ((وبادت الخضراء فصارت كوماً من تراب بعدما كانت في غاية الإحكام والإتقان وطيب الغناء ونزهة المجلس وحسن النظر)).

٤- قصر الخلافة في دمشق

١/٤ عندما فتح العرب المسلمون دمشق سنة (١٦هـ/٦٣٦م) بقيادة خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح كانت دمشق مدينة من المدن الكبرى التي كانت تحت حكم البيزنطيين، وكان سكانها من أصول عرب الشمال الذين دانوا بالمسيحية أو استمروا على وثنيتهم التي كانوا عليها في ظل أجدادهم الآراميين الذين آمنوا بالإله حدد إله الخصب والمطر، وأقاموا له معبداً كان يقع في مركز المدينة، حيث أقيم في العصر الإسلامي المسجد الجامع الكبير. وعندما استولى الرومان على دمشق أقاموا فيها معبد جوبيتر الدمشقي، وهذا المعبد مؤلف من (هيكل) مرفوع على أعمدة رومانية وسقفه جملون مرتفع، حوله سور ينفتح على الخارج من خلال بوابتين، واحدة من الشرق وأخرى من الغرب، وثمة باب ضخم ثلاثي الفتحات مازال قائماً حتى اليوم من جهة الجنوب، محتفظاً بزخارفه الرومانية القديمة مع جزء من السور الجنوبي القديم.

ويحيط هذا السور المحيط سور آخر أوسع أبعاداً، يحدد المنطقة الحرام للمعبد. ولكن هذا السور المحيط يحوي من داخله مقاصير كبيرة، كانت تستخدم لأغراض مختلفة، بعضها وثني وأكثرها للخدمات



حرم الجامع الأموي الكبير

العامة، ولقد تعرف الأثريون على الشكل الحقيقي للمعبد الداخلي بعد أن تمت دراسة معبد مماثل في منطقة حصن سليمان قرب الساحل السوري. مازال قائماً واضحاً.

٢/٤ وإثر هزة أرضية، هُدم معبد جوبيتر الدمشقي، وأصبحت جدران المعبد أنقاضاً، ما عدا قسم من جداره الجنوبي الذي يحوي الباب الثلاثي الفتحات كما تحدثنا. ولقد حافظ الهيكل على شكله على الرغم من بعض مالحقه من خراب، كذلك السور الخارجي، فلقد بقي سالماً منه القسم الشمالي الغربي.

وفي العهد البيزنطي الذي تلا العهد الروماني منذ عام (٣١٠م). أُعيد استعمال الهيكل بعد ترميمه، لكي يصبح أقدم كنيسة في بلاد الشام، هكذا كان شأن البيزنطيين، فإنهم استعملوا جميع البازيليكات الرومانية لكي توظف كنائس للعبادة، وقلما أضافوا إليها منشآت أخرى، فقد كان أغلبها بحالة سليمة.

٣/٤ ولقد استقبل السكان في دمشق وحمص خاصة، العرب المسلمين استقبال الأخ لأخيه، على الرغم أن الديانة المسيحية التي رعتها الكنيسة البيزنطية كانت شائعة بينهم. وتوطدت أواصر التعاون والمحبة بين سكان دمشق وبين الفاتحين من عرب الجنوب، فأصبح منهم من تولى شؤون جباية الخراج، أو كان نديماً أو طبيباً خاصاً للخليفة.

وعندما ولى الخليفة عمر بن الخطاب معاوية بن أبي سفيان على دمشق، كانت

هذه المدينة، في بداية عهدها بالحكم الجديد. ولقد استطاع معاوية بحنكته ومرونته أن يقرب السكان إليه، وأن يستعين بهم في تكوين سلطة عربية وطيدة.

٤/٤ لم يكن لمعاوية خيار في تغيير شكل الحكم، فلقد وجد نفسه أمام حضارة متقدمة تتمثل في منشآت ضخمة وفي ثقافة متطورة، ولقد استفاد جيداً بمكتسبات هذه المدينة الحضارية، ولكنه مع ذلك لم يستطع تجاوز المصالح الخاصة بالسكان الأصليين، ولم يستعمل المنشآت التي كانت لهم، فأبقى على الهيكل الروماني المرمم والذي كان يستعمل كنيسة للمسيحيين، وأخذ يصلي في الزاوية الجنوبية الشرقية من السور الداخلي المتهدم، وكان مهجوراً منذ عهد الرومان، ولعله رمم هذا القسم فجعله مسجداً، تماماً كما فعل في القدس وقد ضمت إليه بعد وفاة أخيه يزيد، فلقد أنشأ مسجد عمر في قسم مهجور من كنيسة قديمة ثم أقيم مكانه المسجد الأقصى.

لسنا ندري شكل هذين المسجدين، ولكننا نجزم أنهما كانا أشبه برواقين بسيطين، أعيد في إنشائهما استعمال بعض الأحجار المتناثرة من أنقاض المعبد الروماني القديم. كما يقول الرحالة أركولف

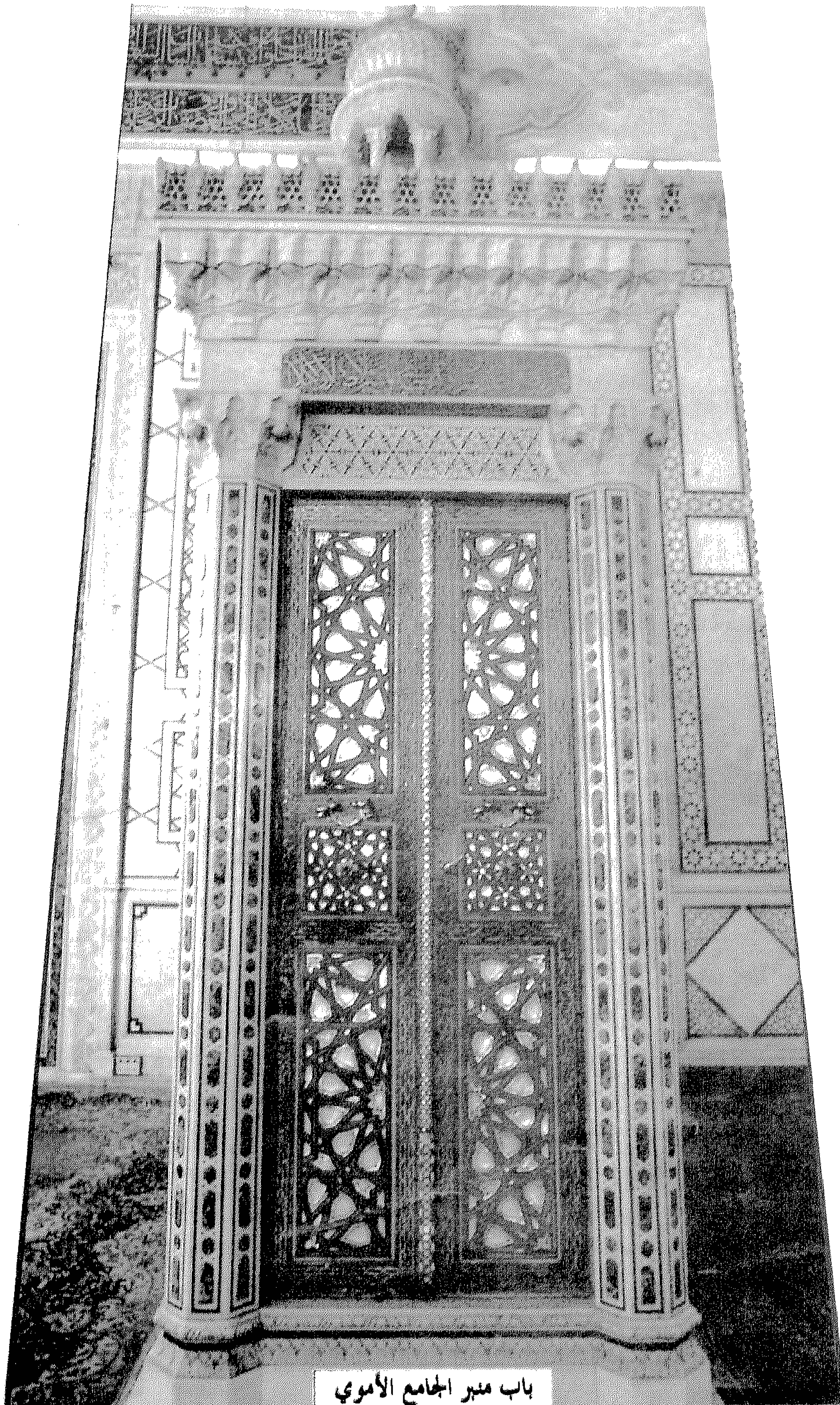
٥/٤ لقد كانت دمشق تزهو بآثار الماضي المتمثلة بأنقاض المعبد الروماني وسوره الخارجي، وكانت أطلال هذا المعبد والسور تبدو ماثلة شاخصة تشبه في ذلك آثار مدينة تدمر أو بعلبك، حتى أصبح يطلق عليها اسم (ذات العماد) وبعض المفسرين يعتقد أن ما ورد في الآية الكريمة ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (الفجر: ٨٩/٧-٨) هي دمشق الآرامية في زمن الفتح العربي الإسلامي.

ومع أن ثمة قصر قديم (كاستريوم) كان قائماً في الجهة الشمالية الغربية من أسوار دمشق، أنشأه الرومان واستعمله الحكام في العهد البيزنطي، فإن معاوية بن أبي سفيان، ومنذ أن كان والياً، فضّل إنشاء مسكن بسيط محاذٍ للمسجد، ليكون مقراً له ومركزاً لإدارة الدولة وممارسة القضاء بين الناس..

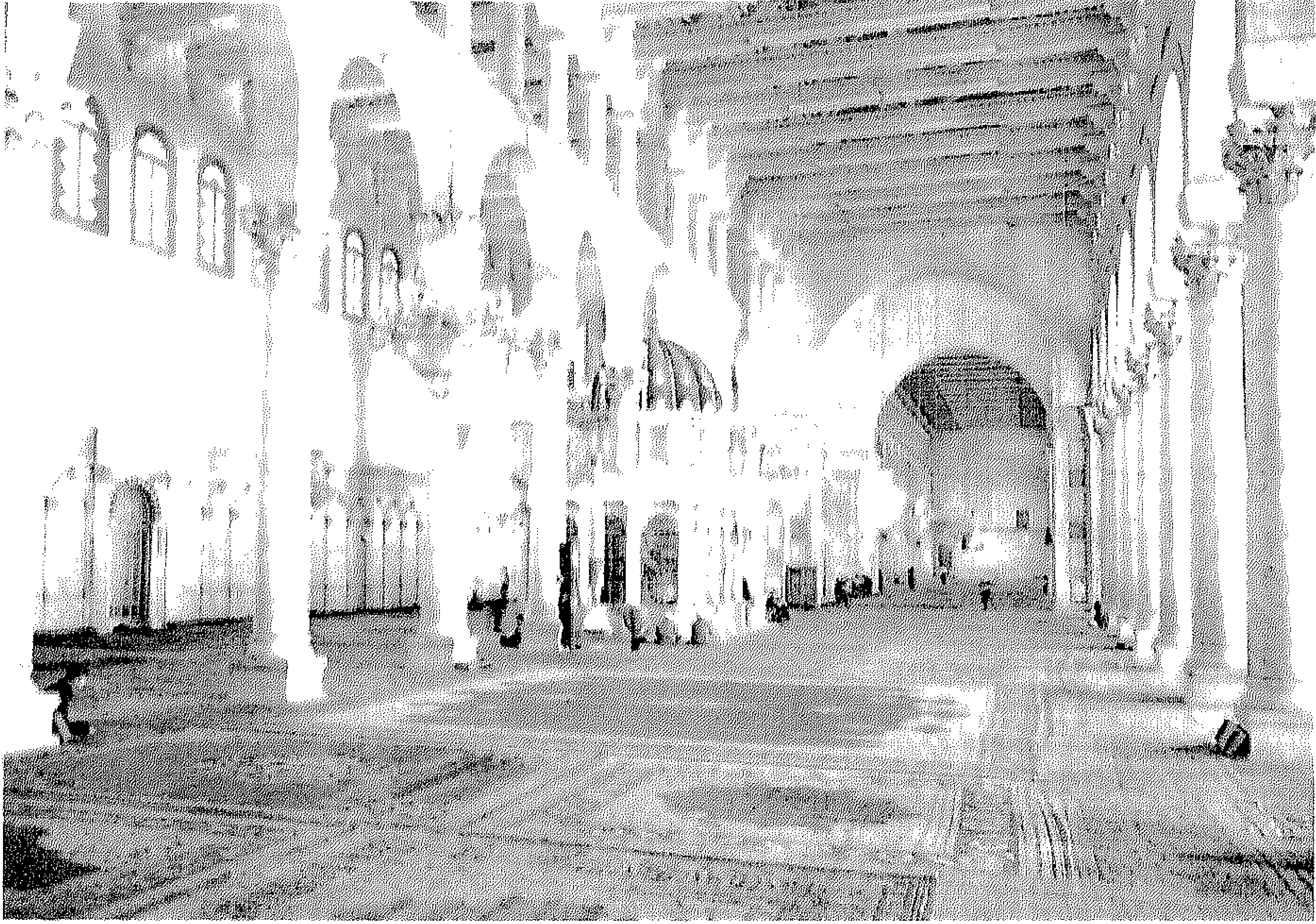
٦/٤ لقد أقام بيته هذا، على غرار بيت الرسول الذي أنشأه محاذياً لمسجده في المدينة المنورة، ولانعرف أبعاد هذا البيت، ولكنه ولاشك كان أولاً بسيطاً أنشئ من الطين، ولعله وبعد أن تولى معاوية الخلافة، قام بتقوية هذا البيت فأنشأه من الحجر، مستعملاً الأحجار القديمة التي كانت متناثرة حول الجامع، وأنشأ لبيته هذا قبة لونت باللون الأخضر، وهكذا أطلق على هذا القصر لقب الخضراء نسبة لقبته.

وكان القصر يتصل بالجامع الذي كان يصلي فيه المسلمون في عهدمعاوية، من خلال الباب الثلاثي الذي حمل اسم باب الخضراء. واستمر كذلك حتى أنشئ الجامع الأموي الكبير في عهد الوليد، فأصبح مقراً منفصلاً عن دواوين الحكم.

٧/٤ ومع أننا نعرف أن معاوية أحدث ما يشبه الديوان للخراج والشرطة، ولكن مفهوم الديوان أخذ بُعده الكامل في عهد عبد الملك بن مروان وأولاده من الخلفاء.. إذ توسعت رقعة الإمبراطورية



باب منبر الجامع الأموي



حرم الجامع الكبير

العربية فوصلت إلى نهر الأندس شرقاً وإلى جبال البرنة غرباً وإلى ما وراء النهر شمالاً، فكان لابد من الدواوين وبخاصة ديوان البريد وديوان الشرط وديوان الخراج.

ولقد عدد المؤرخون أسماء من ولّي الدواوين، ونستطيع أن نذكر أمثلة على ذلك، فإن ولاة الدواوين في عهد هشام بن عبد الملك، كانوا من أهل دمشق أو من الموالي، منهم عقبة بن عبد الأعلى القلاعي للشرطة وأسامة بن زيد للخراج والجند والربيع بن شابور للخاتم وعبد الله بن عمرو للخزائن وبيوت المال، وثمة ولاة آخرون للصلاة ولرسائل العمال، وللحرس وللخاتم الصغير والخاصة. وكان لابد لهذه الدواوين من مقر يجمعها لكي تشكل ما يسمى بقصر الحكم والخلافة. فأين أصبح هذا القصر وكيف كانت عمارته؟

إن السور الخارجي الواسع والذي تبلغ أبعاده (٣٨٠×٣١٠م) كان يضم مجالاً واسعاً يقع بين السورين. وفي هذا المجال كان الناس يتحركون للاتصال بالدواوين، التي استقرت في الأروقة التي كانت سوقاً في عهد الرومان يمتد مئة وعشرين متراً. ويبدو أن صفاً آخر من الأروقة أُنشئ خارج السور الخارجي من الجهة الغربية والشمالية تشهد عليه الأروقة التي مازالت قائمة في مدخل الجامع الأموي وشماليه، وأن مادة الإنشاء كانت الأعمدة والأحجار التي كانت أكواماً حول الجامع. كما تشهد على المخازن القديمة الآثار التي نراها في منطقة باب البريد غرباً

وباب جيرون شرقاً.

إن تسمية بعض المناطق التي كانت تقام عليها الأروقة باسم بين السورين والبريد أو الصاغة حتى يومنا هذا، واستعمالها إلى وقت قريب لأغراض متفقة مع التسمية يؤكد وظائفها الديوانية القديمة، بل إن بعضها استخدم لكي يكون مشفى أو مركزاً عاماً أو مدرسة كما تمَّ في عهد الوليد بن عبد الملك.

٨/٤ على أن الصالات الكبرى التي كان يستقبل فيها الخليفة الوفود والرعية لم تكن في قصر الخضراء الذي استمر بيتاً خاصاً للخليفة، ولم تكن في الأروقة التي استعملت للدواوين، بل كانت في المشاهد التابعة للجامع الأموي الكبير. فمنذ أن أنشأ الوليد هذا الجامع، وسّع حدوده من الجانبين لكي ينشئ أربع مآذن ضخمة تتصل من الشرق والغرب بمشهدين، أي صالتين ضخمتين على جانبي المدخل الشرقي والمدخل الغربي، وفي هذه الصالات كان الخليفة يقيم ديوانه العام. وفي هذه الصالات استقبل الخليفة الوليد ومعه سليمان بن عبد الملك (قبل وفاة أخيه الوليد مباشرة واستلامه سدة الخلافة) جحافل الأسرى وقوافل المكاسب الحربية، يقودهم موسى بن نصير وطارق بن زياد وقد عادوا بعد فتح الأندلس، وكان من الأسرى أفراد الأسرة المالكة القوطية. ويسهب المقرّي في وصف هذا المشهد الرائع الذي يدل على انتصار تاريخي من انتصارات العرب على الغرب.

إن هذه الصالات التي تسمى اليوم



ما تبقى من الفسيفساء في الحرم



الفسيفساء في صحن الجامع

المشاهد، مازال أحدها يستعمل حتى اليوم لاستقبال الوفود المحتفية بالأعياد الدينية التي يحضرها رئيس الجمهورية وكبار المسؤولين. ومازالت قائمة آثار الأروقة التي كانت تأوي دواوين الدولة عندما كانت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية الموحدة والممتدة من الصين إلى المحيط الأطلسي.

٥- كسوة الجامع الأموي

١/٥ لاشك أن المسجد الكبير في دمشق، كان منذ بداية إنشائه في زمن الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥م)، مكسواً من داخله بالرخام والفسيفساء. وعند إنشائه أعاد الوليد استعمال أحجار المعبد الروماني المتناثرة على الأرض، أو التي نتجت عن هدم هيكل المعبد الذي كان مستعملاً كنيسة في عهد البيزنطيين. ولكن عماله وجدوا ضرورة تغطية جدرانه الحجرية وعضاداته الحاملة، بالرخام في القسم الأسفل وبالفسيفساء في الأقسام العلوية.

ويصف الجاحظ (ت ٨٦٨ م) في كتابه (الحيوان)[١]، مدى اعتزاز أهل دمشق بجامعهم، وقول الدمشقيين: ((ما تأملنا قط تأليف مسجدنا، وتركيب محرابنا، وقبة مصلانا، إلا أثار لنا التأمل، واستخرج لنا التفرس بين غرائب حسن لم نعرفها، وعجائب صنعة لم نقف عليها، وماندري أجواهر مقطعاته أكرم في الجواهر، أم تنفيذ أجزائه في تنفيذ الأجزاء)).

ولقد أنفق الوليد على بناء المسجد وزخرفته مالاً كثيراً ولمّا تولّى الخلافة عمر بن عبد العزيز وكان متقشفاً والبلاد بحاجة مالية، قال: ((إني أرى في مسجد دمشق أموالاً أُنفقت في غير حقها، فأنا مستدرك ما استدركتُ منها ورادّها إلى بيت المال)). ولكن رسل الروم وقد زاروا المسجد، سمع الخليفة قولهم: إنا كنا معشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل، فلما رأينا ما بنوا علِمْنا أن لهم مدة سيبلغونها.)). فقال عمر لأهل دمشق: أرى مسجدكم هذا غيظاً على الكفار[٢]، ويتحدث ابن حوقل (ت ٩٧٧م)[٣] عن كسوة الجامع فيقول: ((فلما كان في أيام الوليد بن عبد الملك، عمّره فجعل أرضه رخاماً مفروشاً، وجعل وجه جدرانه رخاماً مجزعاً، وأساطينه رخاماً موشى، ومعاقد رؤوس أساطينه ذهباً، ومحرابه مذهب الجملة مرصعاً بالجوهر، ودوَّر السقف كله ذهباً مكتوباً عليه كما يطوف بترابيع جدار المسجد)).

ويؤكد المقدسي[٤] (ت ٩٨٨م) هذا الوصف فيقول: ((ثمّ بلّط جميعه بالرخام الأبيض، وحيطانه إلى قامتين بالرخام المجزع، ثمّ إلى السقف بالفسيفساء الملونة والمذهبة، صور أشجار وأمصار، وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة، وقلّ شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثّل على تلك الحيطان، وطُلِيَت

---

(١) الحيوان ج١ ص ٢٩ .

(٢) ابن الفقيه الهمذاني، كتاب البلدان ليدن ، ١٣٠٢ هـ ،ص١٠٤ .

(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك ، ليدن ، ص ١١٤ .

(٤) المقدسي أبو عبد الله ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٥٦ .



محراب الإمام

رؤوس الأعمدة بالذهب)).

ويكرر ابن جبير (ت ١١٦٩م) وصف الرخام والفسيفساء، ويُقَيِّم حجمه بقيمة تكاليفه فيُروى عن ابن المعلّى الأسدي أن تكاليف بنائه بلغت ((مئة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومئتا ألف دينار))[1].

ثم يعلن أسفه على ماآل إليه الجامع، فيقول: وكان هذا الجامع المبارك، ظاهراً وباطناً منزلاً كله بالفصوص المذهبة، مزخرفاً بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة، فأدركه الحريق مرتين، فتهدم وجُدِّد، وذهب أكثر رخامه، فاستحال رونقه. وأسلم مافيه اليوم، قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها، ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسناً وغرابة صنعة. يتّقِد ذهباً كله. وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره، تحفها سويرات مفتولات فتل الإسورة كأنها مخروطة، لم يُرَ شيء أجمل منها، وبعضها حُمُرٌ كأنها مرجان)).

٢/٥ وفي الواقع فإن حريق سنة (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) الذي أتى على المئذنة الشرقية، ثم حصار هولاكو سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) كان السبب في ضعف الجدران والعضادات، مما دعا إلى إزالة كسوة بعضها لتقويتها وإعادة الكسوة الرخامية بدءاً من عام (١٣٢٦م- وحتى عام ١٣٣٠م).

حرائق المسجد

لم يكن هذا الحريق هو الوحيد، فلقد تتالت على الجامع المصائب بتأثير الحرائق والزلازل، فلقد أُصيب المسجد بحرائق وزلازل متعددة، وكان أخطر حريق في سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) وجاء نتيجة اقتتال داخلي أصاب أحد البيوت المجاورة للمسجد أولاً، وانتقلت النيران إلى المسجد فالتهمته. ولقد وصف العماد الكاتب هذا الحريق بقوله:

((وفي النصف من شعبان هذه السنة احترق جامع دمشق، ففجع الإسلام بمصابه، وصلّت النار في محرابه، واشتعل رأس القبة شيباً بما شبّت، وكاد يحترق عليه قلب بيت الله الحرام، فكأنّ الحجيم استجارت به فتمسكت بذيله)) إلخ.

ولقد احترق المسجد كله، وجُمِعَت فصوص الفسيفساء في أحد المشاهد، ثم أخرجها القاضي الشهرزوي في عهد السلطان نور الدين. وتتالت الحرائق على المسجد في سنة (٥٥٢هـ/١١٥٦م) وسنة (٦٤٥ هـ/١٢٤٧م)، وحريق سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٨م) الكبير الذي أتى على جزء كبير من دمشق ومسجدها، وحريق سنة (٨٨٤هـ/١٤٧٨م)، ثم آخر حريق سنة (١٣١١هـ/١٨٩٣م). عدا الزلازل القاسية التي أُصيب بها المسجد وبخاصة زلزال سنة (٧٠٢ هـ/١٣٠٢م) الذي دفع تنكز إلى عمليات الترميم الشاملة وبخاصة عمليات إعادة كسوة الجدران بالرخام[2].

---

(١) ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني، ت ١٢١٧م) في كتابه (الرحلة).

(١) انظر كتابنا: الجامع الأموي، دار طلاس، دمشق ١٩٨٨، ص ٧٦ وما بعدها.

ويصف الكمال الغزي زلزال سنة (١١٧٣ هـ/١٧٥٩م)؛ ((فتهدمت رؤوس غالب مآذن دمشق ودور كثيرة وجوامع وأماكن لاتحصى)) وبعد ٢٦ يوماً ((صارت زلزلة عظيمة أعظم من الأولى بدرجات.. أُسقطت بقية المآذن وأرمت قبة الجامع الأموي الكبيرة والرواق الشمالي جميعه والعواميد تكسرت والحائط الشرقي سقط إلى الأرض، والمنارة الشرقية هدمت ثلث الحرم)).

وفي عهد الوالي عثمان باشا تمّ ترميم المنائر وتحسين الجامع سنة (١١٧٣هـ/١٧٧٩م).

الكسوة الرخامية الأموية

٣/٥يذكر عبد الباسط العلموي في كتابه مختصر تنبيه الطالب(١١) نقلاً عن عبد القادر النُّعَيمي(١٢)، أن عمليات الترخيم في الجامع الكبير قد تمت أيام الأمويين من قبل اثني عشر ألف عامل مرخّم وهو ينتقد هذا الرقم المبالغ به، ولكنه لايقلل من كميات الرخام التي غطت جدران المسجد في الحرم وأروقة الصحن. ولقد تبين أن هذه الكميات الرخامية كانت على أشكال وألوان.

ويذكر العلموي نقلاً عن أحمد الخطيب، أن تثبيت ألواح الرخام تمّ بتذويب الرصاص، ومازالت ثقوب تثبيت الرصاص واضحة على جدران الصحن. وبعد حريق سنة (١٢٤٧م) ذاب الرصاص مما أدى إلى سقوط ألواح الرخام.

أما الأقسام العلوية من الجدران فإنها منقورة نقراً لتثبيت الفسيفساء الزجاجية عليها.

٤/٥ نستنتج مما ورد أن عمليات الترخيم الأموية كانت شاملة في المسجد؛ في الحرم والصحن على ارتفاع يقل عن خمسة أمتار وأنها كانت متنوعة.

أما الكسوة الرخامية المملوكية، فلقد اختلفت عن أنواع وأشكال الترخيم الأول ولم تكن كاملة، بل ثمة عمليات ترخيم في القسم الغربي تمت بعد عام (١٤٨٠م) وبعد عام (١٥٩١م)، ولكن ترخيم المحراب الرئيسي تمّ مع المحافظة على التشكيل القديم، واستمر محافظاً على ملامحه بعد إعادة إنشائه بعد حريق (١٨٩٣م) مما نراه اليوم، فإنه يحمّل ذكريات زخارف المحراب القديم الأصلي.

ومنذ عام (١٩٨٨م) تجري عمليات ترميم واسعة في الجامع الأموي، ولقد تمّ في عام (١٩٩٦م) ترخيم جدران أروقة الصحن والمشاهد بأسلوب مختلف عن الترخيمين السابقين ولكنها تمتاز بإضافة فراغ بين الجدران الحجرية وبين ألواح الرخام يربط بينهما روابط معدنية. ولقدسبق أن تحقق تصوير الجدران فوتوغرامترياً للتوثيق والبحث، قبل تغليفها الرخامي.

بعد موقعة عين جالوت وهزيمة جيوش هولاكو، تظهر دولة المماليك وعلى رأسها الملك الظاهر بيبرس الذيي عَيَّن على دمشق نائباً هو سنجر الحلبي، وتعاقب عدد من النُّوَّاب لفترات قصيرة إلى أن توفي الملك الظاهر سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٠م) في قصره الأبلق ودفن في دار العقيقي

(المدرسة الظاهرية) وفيها دفن ابنه السعيد من بعده.

ويجب أن نقف قليلاً لكي نراقب ما تمَّ من تعديلات هامة قبيل زيارة العمري للمسجد ووصفه، مما لم يذكره ابن جبير لعدم وجوده في زمن زيارته.

إن أبرز هذه التعديلات تمَّت بدءاً من عام (٧٢٧هـ/١٣٢٦م) أي في عهد السلطان الناصر ناصر الدين ونائبه تنكز الذي حكم من عام (١٣١٣ إلى عام ١٣٤٠م)، ففي عام (٧٢٨هـ/١٣٢٨م) وحتى عام (٧٣٠هـ/١٣٣٠م) تمّت كسوة الجدار الشرقي للحرم بالرخام وكسوة الجدار الشمالي، وإزالة كسوة الجدار الجنوبي لتجديد الجدار عند باب الزيادة، وإقامة محراب الحنفية. وأبرز ماتمّ هو هدم حجارة الصومعة الجنوبية للمرة الثانية وامتلاؤها بالحجارة، وذلك قبل إنشاء مئذنة قايتباي ثم تمت كسوة مرمرية في الجانب الشرقي ولتصبح معادلة لجمال الجانب الغربي.

وفي عام (٧٣٦ هـ/١٣٣٥م)، يقوم تنكز بهدم حوانيت سوق النحاسين، وبالكشف عن الباب الروماني في الجدار الجنوبي، ثم أنشئت دكاكين الخراطين، وأزلناها عام (١٩٨٥م).

نستطيع القول إذن إن الجامع الأموي وصل في عهد الأمير تنكز إلى أوج جماله بعد الترميمات الجدية فيه والتحسينات الرخامية التي لم تكن مطابقة تماماً للترخيم الأموي. ويتحدث عبد الباسط العلموي مفصلاً عن سير عمليات الترخيم المملوكية. وعن أنواع الرخام وأشكاله.. فعدا عن العروق الطبيعية في ألواح الرخام الأبيض، فإن بعض الألواح مزخرفة عن طريق الحفر الغائر أو البارز بأسلوب يحاكي الواقع والطبيعة، مما يتفق مع عناصر الزخرفة الموجودة على أغلفة المخطوطات.

وبعد زلزال سنة (١١٧٣هـ/١٧٥٩م) الذي أتى على نصف الجامع، سقطت الرخاميات وانتُزع ما تبقى منها واستُعيض عنها في الحرم وواجهته في الصحن برخاميات وخزفيات في عهد الوالي عثمان باشا سنة (١١٧٣هـ/١٧٧٩م)، ولم يبق من هذه الرخاميات بعد حريق ١٨٩٣م إلا ألواح بسيطة.

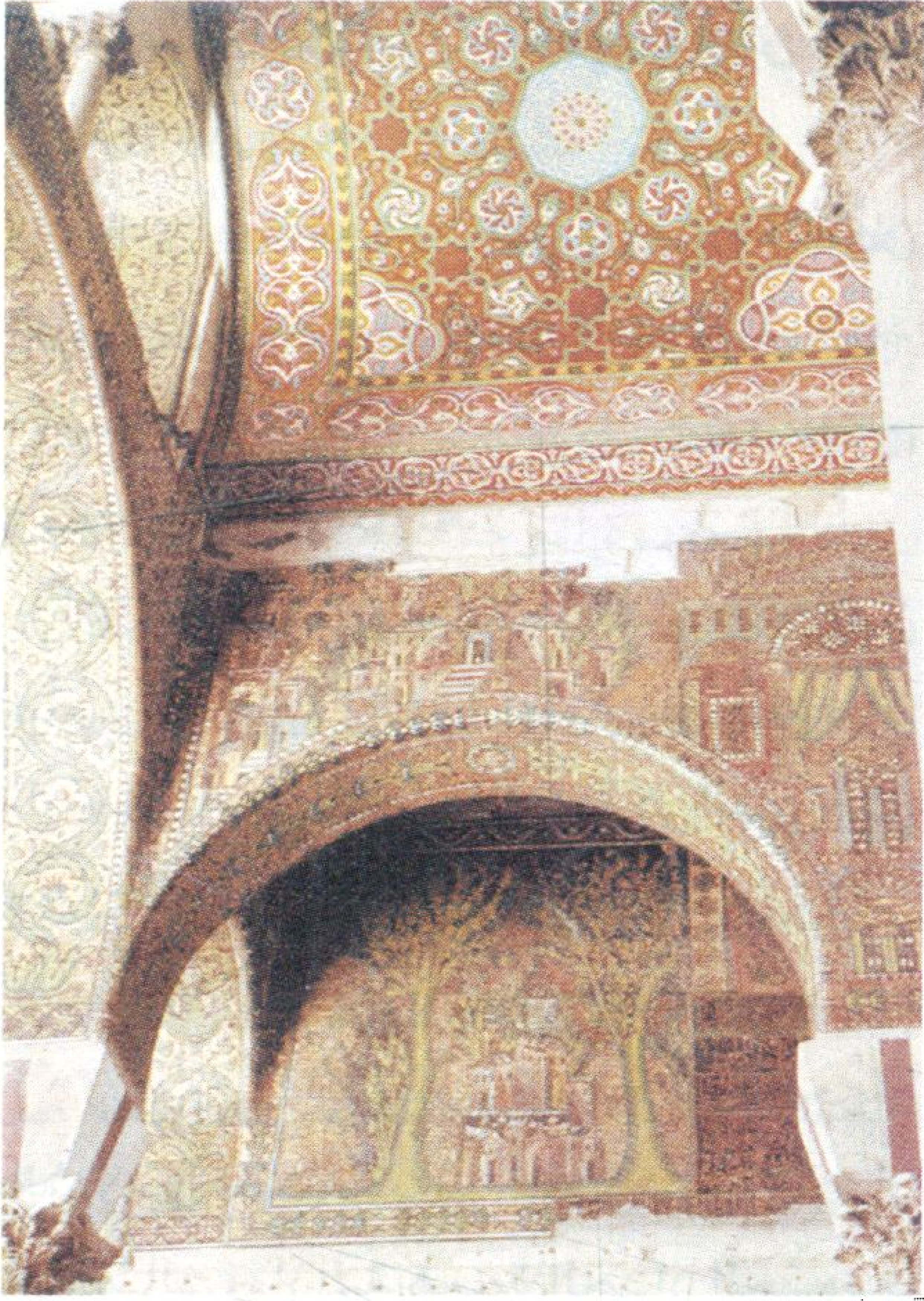
٦- الكسوة الفسيفسائية

١/٦ إن كميات فصوص الفسيفساء الكبيرة التي غطت جدران الحرم والأروقة في صحن الجامع، لم تكن مستوردة بل هي محلية، أخذ أكثرها من المعبد الروماني نفسه، فلقد كانت أرض المعبد مغطاة بسجاجيد من ألواح الفسيفساء، ويؤكد ذلك الحفريات التي تمّت سنة (١٩٦٣م) في صحن الجامع من قبل مديرية الآثار والتي عُثِر خلالها على طبقة من ألواح الفسيفساء حُفِظ جزء منها في المتحف الوطني في دمشق[1].

و ثمة كميات أخرى من الفسيفساء جُمِعَت من أنقاض هيكل المعبد الذي استُخدِم ككنيسة حتى عهد الوليد بن عبد

(١) الريحاوي (عبد القادر) حفريات ضمن الجامع الأموي وأروقته ، الحوليات الأثرية ١٩٦٣ والمجلد ١٣ .





الكسوة الفسيفسائية في أروقة الصحن

الملك، فنقضه لكي يفسح في المجال لإنشاء الجامع الكبير، ويؤكد ذلك لودولفس (Ludolfus) الذي يتحدث عن الكنيسة ويقول أنها كانت تحتفظ في واجهتها بصورة المسيح الفسيفسائية في مظهره النبيل[1].

لقد أزال الوليد الهيكل (الناووس الروماني) الذي استعمل كنيسة، واستُخدِمت أحجاره وأعمدته في بناء الجامع، واستعملت فصوص الفسيفساء في كسوة جدران المسجد، واستُعيض عن البلاط الفسيفسائي ببلاط رخامي، كما يذكر المؤرخون الأوائل مثل ابن حوقل والمقدسي وابن جبير، وكما هو الأمر اليوم، وهكذا عمد العمال والفنيون المحليون إلى إعادة استعمال فصوص الفسيفساء وإلى صناعة فصوص إضافية لاستدراك ما نقصهم لكسوة الجامع.

٢/٦ ويعتبر فسيفساء الجامع الأموي آية الإبداع الإسلامي، وتبارى المؤرخون المسلمون في وصف هذا الفسيفساء، ويذكر العلموي أن كسوة الفسيفساء الضخمة التي غطت جدران الحرم كادت تفلس خزانة الدولة وأن اللوح الفسيفسائي الذي كان على الجدار الجنوبي لحرم المسجد، كلف سبعين ألف دينار ذهبي، وتبدو أجزاء هذا اللوح في الصورة التي نقلها سالادان في كتابه.

وكنا تحدثنا في كتابنا (الجامع الأموي) عن خصائص الفسيفساء السوري في جامع دمشق وفي المسجد الأقصى وقبة الصخرة وفي قصر المفجر في أريحا -فلسطين، وأبنّا أن هذا الفسيفساء صنع في دمشق فيما عدا الذهبي منه. وأبنّا طرائق تثبيته على

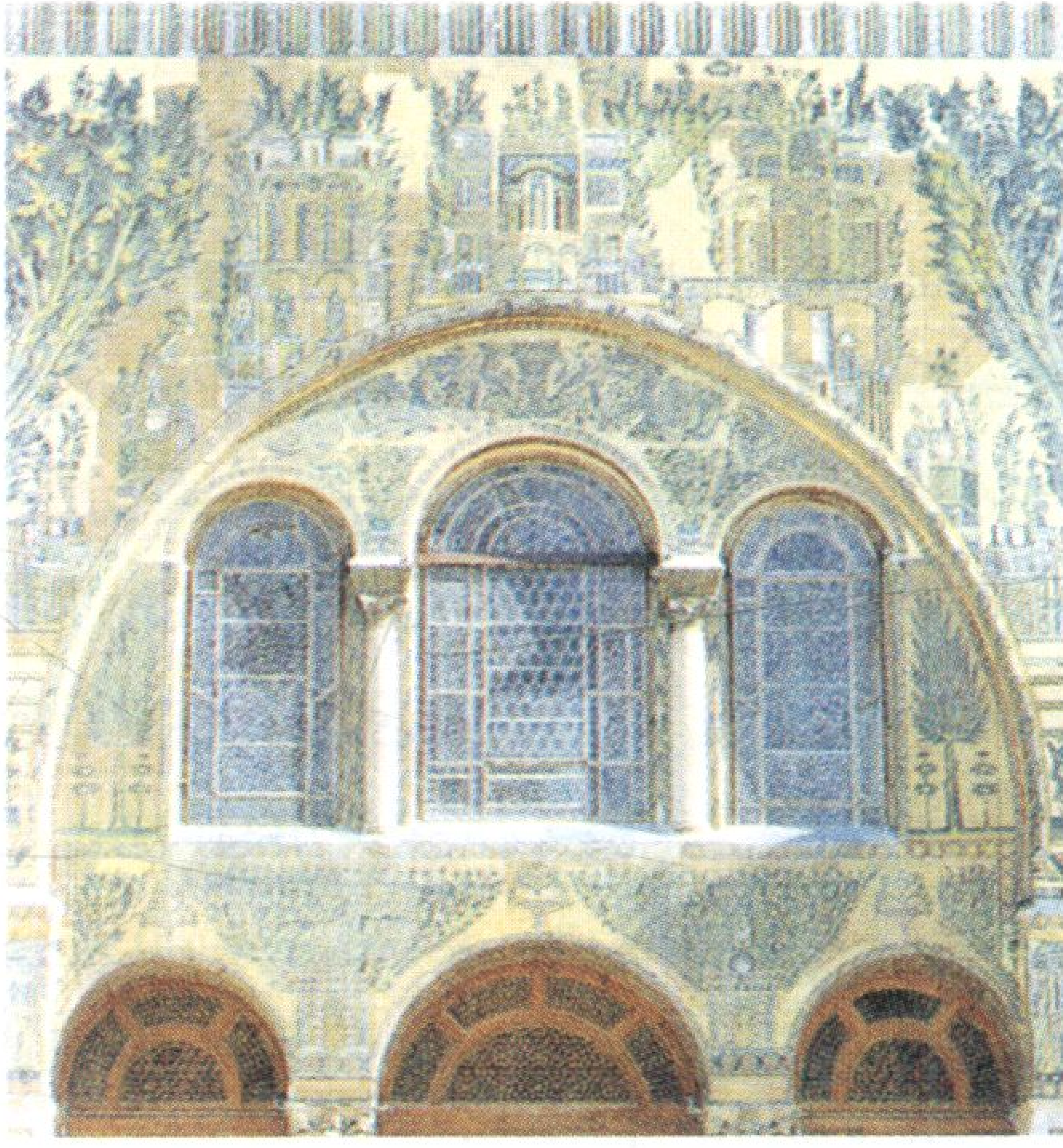
(١) فاتستنغر، الآثار الإسلامية في دمشق ص ٣٣٤.

الجدران قديماً وحديثاً. وتوسعنا في الحديث عن مواضيعه ودلالتها في تأكيد أهمية دمشق وجامعها الذي كان مسجداً ومدرسة ومركز قضاء، يحيطه قصر الحكم بجميع دواوينه. ومما لاشك فيه أن إعادة ترميم الفسيفساء تبقى مسألة إشكالية صعبة.

ولقد كان رأي العلماء عند تحويل كنيسة أيا صوفيا لتكون مصلى، أن لاتتغير ملامح الفسيفساء فيها وذلك لأن البناء استمر يحمل الصفة المسيحية البيزنطية، ولكن هذا الفسيفساء ذي المواضيع المسيحية البحتة، غُلِّف بالجص، حتى تمّت إزالته في العهد الجمهوري التركي حيث أصبحت الكنيسة متحفاً سياحياً.

أما فسيفساء المسجد الأقصى الذي زال بعد زلزال سنة (١٠١٥م) فلقد جُدّد في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر لأمر الله الذي أعاد ترميم الأقصى سنة (٤٢٥هـ/١٠٣٤م)، وهو مختلف ولاشك عن الفسيفساء الأموي في الأقصى لزوال كل أثر له. ولكن عمّال الفسيفساء لم يكونوا على المستوى الجيد الذي نشهده في مَسجد قبة الصخرة. مع أنهم استوحوا منه.

ويبقى الإشكال قائماً في تحديد هوية الفسيفساء الذي يغطي قبة الخزنة في صحن المسجد الكبير، فالقبة هي من منجزات العباسيين، ولكن تاريخ الزخارف الفسيفسائية التي تغطيها مازال غامضاً، ونستطيع التعرف على ملامح هذا الفسيفساء قبل الحريق الأخير، من خلال صور التقطها بو نفيس، وكانت مؤلفة من



الكسوة الفسيفسائية في واجهة الحرم

أشكال أقواس وأزهار نجمية تتكرر في كل ضلع من أضلاع المثمن.

أما طريقة تنفيذ الفسيفساء وتثبيتها فهي مختلفة عن الفسيفساء الأموي. فأحجار الفسيفساء نراها هنا مثبتة على طبقة من الجصّ وأن الكسوة الفسيفسائية لاتمتد إلى حافة العقد وزوايا الأضلاع، بل إن إطاراً من الجص يفصل بين ألواح عنق القبة. ولابد من التذكير أن فسيفساء قبة الخزنة الحالي حديث.

فعندما قامت وزارة الأوقاف بعمليات ترميم الفسيفساء عام (١٩٥٩م) استعملت أولاً كميات أحجار الفسيفساء التي جُمِعَت في صناديق بعد حريق (١٨٩٣م)، واضطرت لاستصناع أحجار زجاجية أخرى لتتم عمليات الترميم. ولقد انتقدت العالمة (مارغريت فان برشيم) عمليات الترميم هذه، لسببين؛ الأول هو رفضها فكرة الترميم أصلاً، والثاني أن طريقة الترميم وألوان الفصوص مختلفة عن الألوان

القديمة؛ وبخاصة اللون الذهبي.

٣/٦ والواقع إن عمليات ترميم الفسيفساء في الجامع الكبير ليست غريبة عن الجامع، فمنذ عهد نور الدين محمود بن زنكي تمَّ ترميم الفسيفساء في واجهة الرواق الشرقي، تشهد على ذلك كتابة مازالت موجودة.

وفي عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي تمت ترميمات أخرى سنة (٥٨٥هـ/١١٨٨م). وفي عهد الملك الظاهر بيبرس تم ترميم فسيفساء الحائط القبلي في الحرم كما يذكر ابن شداد.

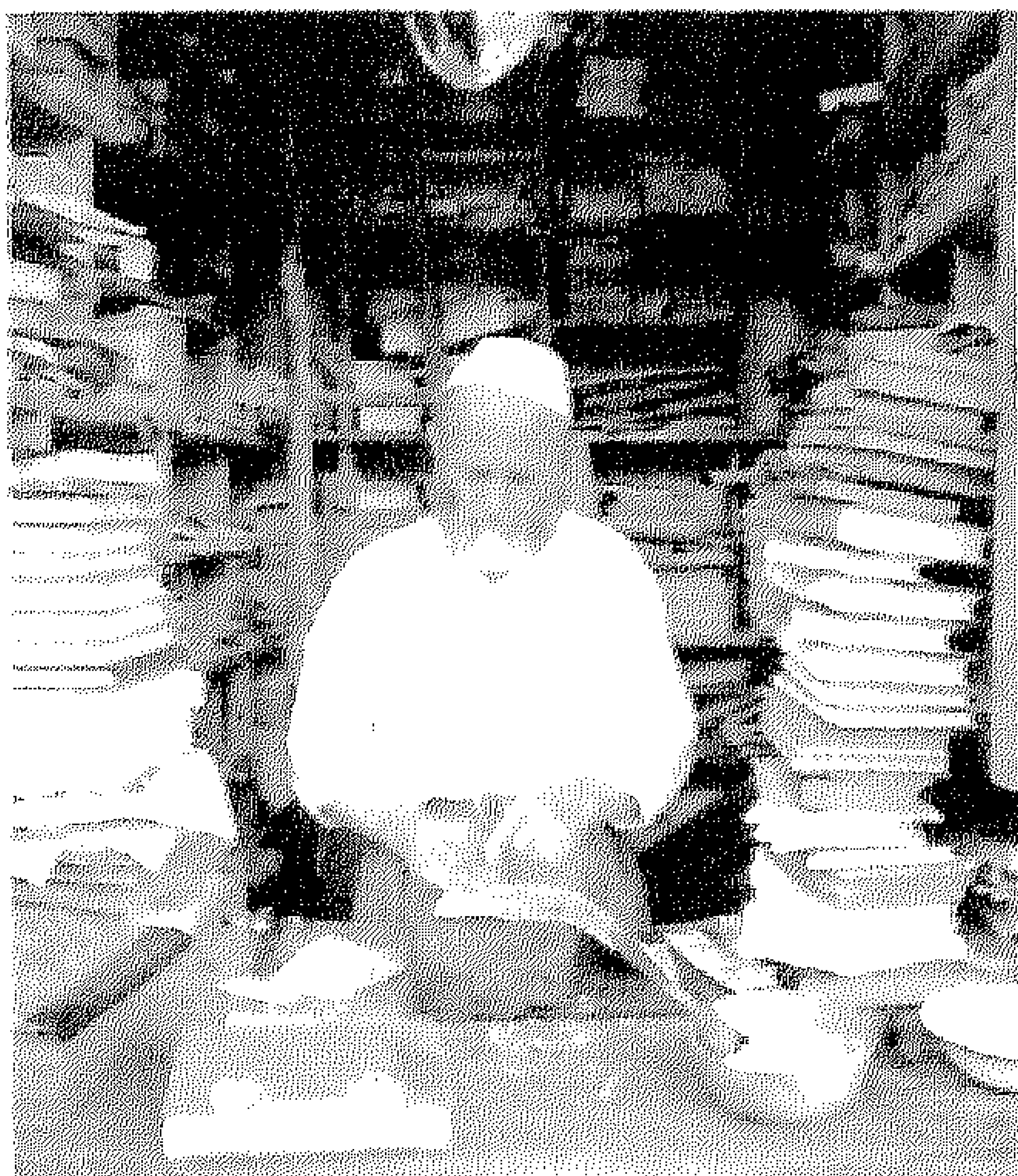
وتؤكد ذلك كتابة فسيفسائية تبيّن أن هذا الترميم تم على يد جمال آقوش النجيبي بين عامي (٦٦٠-٦٧٠هـ/١٢٦١-١٢٧١م) كما تم تنفيذ الفسيفساء في مدرسة الملك الظاهر (الظاهرية) حيث دفن.

٧- الكسوة الجصية

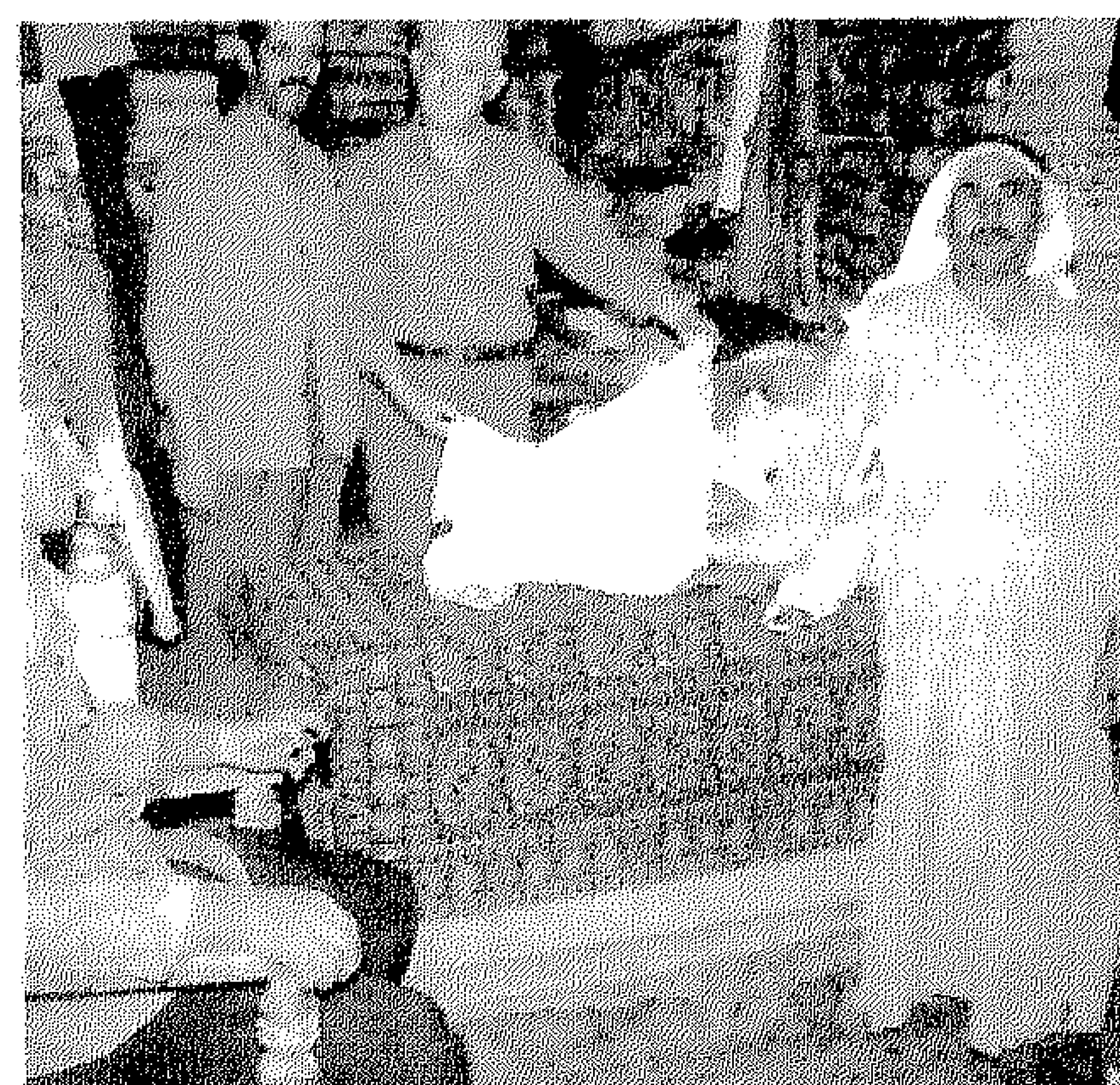
١/٧ تبدو عضادات الصحن مكسوة بالجص بكثير من التقشف، مما لايتناسب مع روعة الكسوة الرخامية والفسيفسائية التي كانت شاملة.

وليس من شك أن هذه الكسوة الجصية تمت كترميم سريع في ظروف مالية صعبة، إثر أحداث أتت على الكسوة الأصلية الرخامية والفسيفسائية التي كانت تغطي هذه العضادات. والواقع أن ثمة عمليات تجديد وترميم واسعة تمت بين عامي (١٢٠٥-١٢١٠م).

ففي سنة (١٢٠٥م) نقضت أعمدة الدهليز الشرقي؛ وتم تجديد بلاط الصحن. وفي سنة (١٢٠٧م) انتهى ترميم







حول الجامع الأموي
وكان المركز الرئيسي لبيع الكتب

الـرواق الشـرقـي وبين عـامـي (١٢١٤ م و١٢١٧م) تم تجديد بلاط الحرم وأصبح بمستوى بلاط الصحن وكان منخفضاً عنه. لقد تمت عمليات الكسوة الجصية المتقشفة في هذه الفترة من حكم الملك العادل الأيوبي.

٨- الكسـوة الخزفيـة

١/٨ حتى حريق عام (١٨٩٣ م) كانت ألواح الخزف القيشاني تغطي أقساماً كثيرة من جدران الحرم، يبدو ذلك واضحاً من صورة تركها لنا (فون أوبنهايم)، ومنها نرى شريطاً بعرض (٦٠سم) على امتداد منتصف جدران الحرم يرتكز على كسوة رخامية بارتفاع مترين تفصل بينها أعمدة زخرفية.. وفي القسم السفلي من الجدران وعلى ارتفاع خمسة أمتار تغطي الجدران سجاجيد قيشانية مؤلفة من ألواح سداسية، ويؤطر هذه السجاجيد ومساحتها (٧٠×٢٠٠سم) إطار رخامي أبيض وفاصل رخامي ملون. وعلى جانبي المحراب لوحتان قيشانيتان مساحة الواحدة (١٥٠×١٥٠سم)، وثمة ألواح قيشانية في الصحن وخاصة عند المدخلين الشرقي والغربي، مازال بعضها حتى اليوم في البوابة الشرقية. وفي صورة التقطها (فان برشيم) تبين الخزفيات التي كانت تغطي واجهة الحرم.

ونستطيع تحديد التاريخ الدقيق الذي وُضعت فيه هذه الألواح، في عهد الوالي عثمان باشا الذي قام سنة (١١٧٣هـ/١٧٧٩م) بترميم الجامع بعد زلزال (١٧٥٩م)، ولكننا نؤكد أنها صناعة دمشقية كغيرها من ألواح القيشاني التي تغطي بعض جدران جامع التيروزي المملوكي أو الجوامع العثمانية مثل جامع الشيخ محيي الدين والتكية السليمانية والسنانية والدرويشية.

٢/٨ لقد أتى حريق الجامع الكبير سنة (١٨٩٣م) على هذه الكسوة التي تسربت بلاطاتها خارج البلاد بعد أن أصبح الجامع خرابة ممتلئة بالأنقاض. ولقد تحرينا عن أماكن بعض هذه البلاطات، فتبين أن بعضها في متحف فيكتوريا وآلبرت في لندن، وبعضها في متحف الميترو بوليتان في نيويورك وفي المتحف الإسلامي في القاهرة[1].

وبعد، فإن هذه الدراسة المختصرة، هي مقدمة للحديث عن عمليات الإكساء التي تمت خلال عامي (١٩٩٥-١٩٩٦م) في الجامع الكبير والتي أثارت اختلافاً في تقييمها، وتدخلاً من المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم، التي أوفدت لجنة برئاسة أوليغ غرابار في تشرين الثاني من عام (١٩٩٥م)، لدراسة واقع التحسينات في الجامع الكبير.

٩- تنظيم منطقة الجامع الأموي

١/٩ الجوامع الكبرى التي أنشئت منذ ظهور الإسلام، كانت ومازالت واضحة المعالم الخارجية، مكشوفة غير متصلة بأبنية أخرى، نذكر منها، جامع القيروان، وجامع قرطبة، وجامع الكتبية في مراكش، وجامع حسان في الرباط ثم جامع ابن

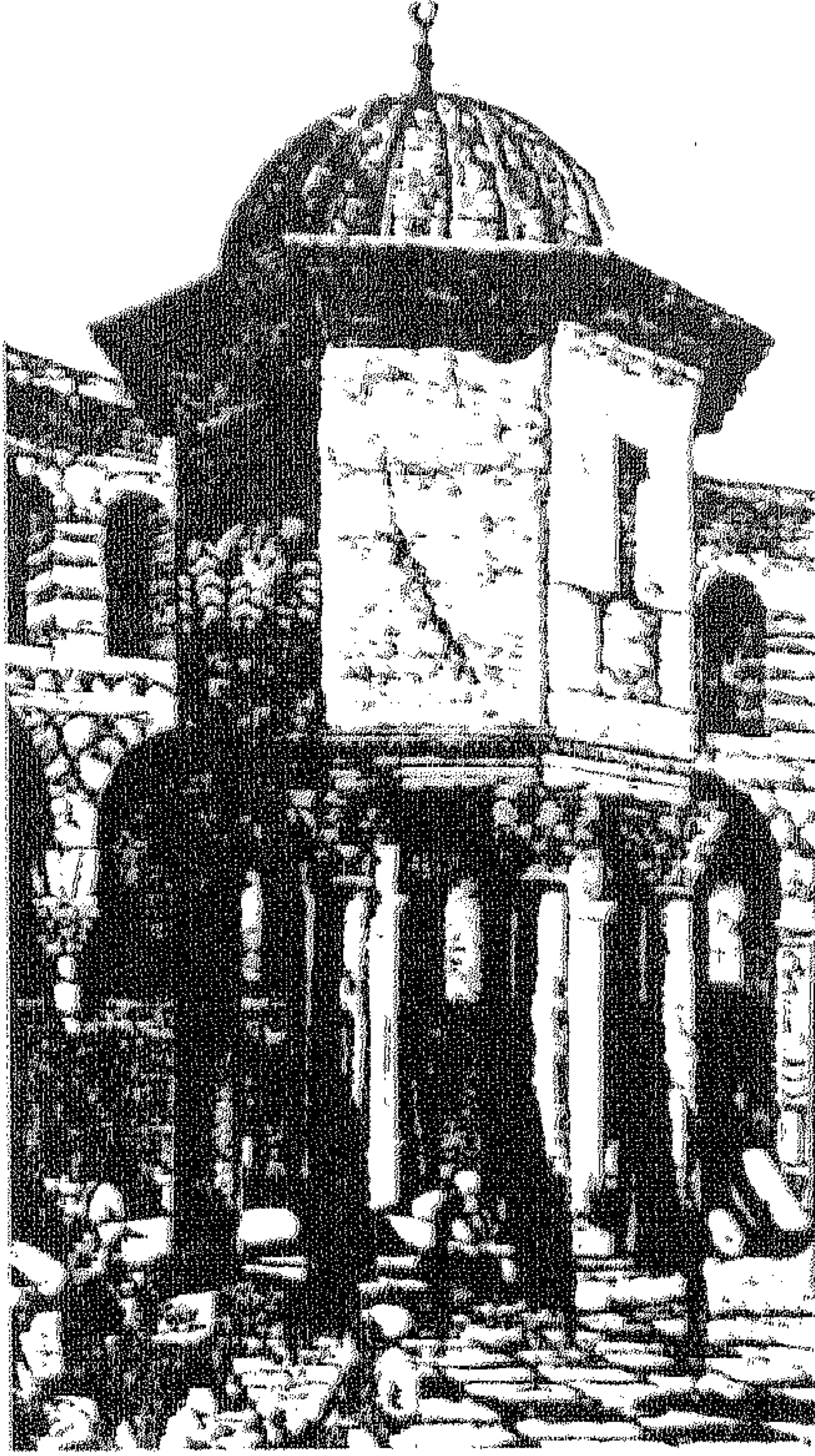
(١) انظر دراستنا : القيشاني الدمشقي، الحوليات الأثرية ١٩٨٧ .

طولون في القاهرة، وهكذا كان شأن جميع المساجد الفاطمية كالأزهر والأقمر والحاكم، والمساجد المملوكية في القاهرة كمسجد ومدرسة السلطان حسن، ويمتد الوضع إلى المساجد العثمانية في إستانبول والمساجد الإيرانية في أصفهان والأوزبكية في بُخارى وسمرقند.

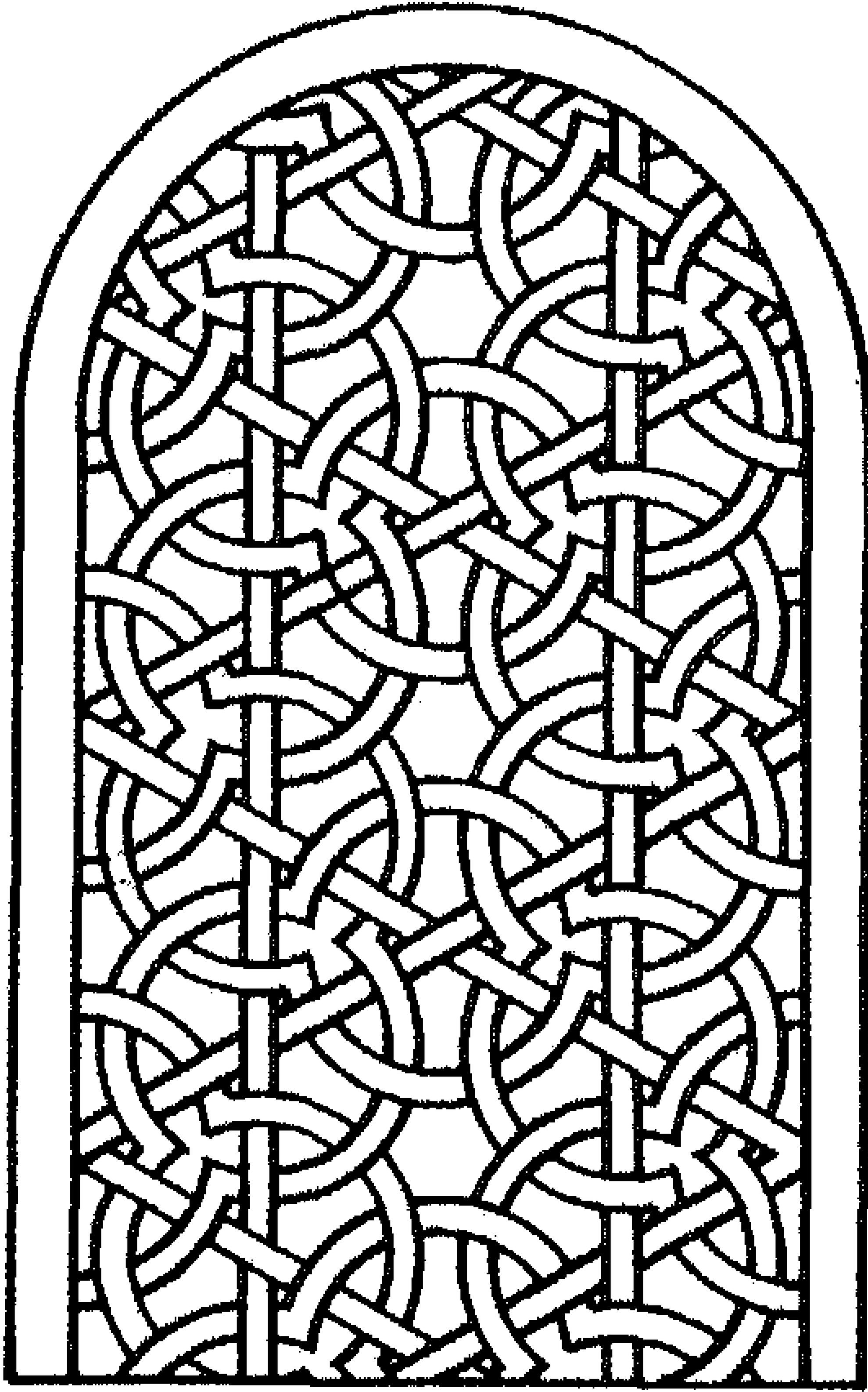
٢/٩ أما جامع دمشق الكبير فلقد كان عرضة لالتصاق الأبنية على جدرانه الخارجية من جميع الجهات، ويرجع ذلك إلى أن الفصيل القائم بين جداري المعبد الروماني القديم (التيمينوس والبيريبول).

كان منذ بداية الإسلام مشغولاً بمنشآت رسمية ودواوين، بل إن قصر الحكم، كان ممتداً من قصر الخضراء في جنوب الجامع إلى منطقة الكلاسة اليوم في شماليه مروراً بمنطقة المسكية في غربيه، ومازالت أعمدة المسكيّة تشهد على الزيادات التي أضيفت لبناء دواوين الحكم في العصر الأموي وبعده. ثم تسربت منشآت خاصة حيثما توقفت الدواوين عن عملها، وامتد هذا التسرب حول المسجد على شكل سوق الصاغة وسوق القباقبية أو النجارين في الجنوب، وحمام ومقهى النوفرة في الشرق، والمدرسة الشميصاتية في الشمال، وقبلها بيت عمر بن عبد العزيز والأبنية المحيطة بالمدرسة العزيزية حيث دُفن السلطان صلاح الدين الأيوبي، وفي الغرب ظهرت أبنيةأحاطت المدرسة الصادرية، وظهر سوق المسكية وسوق القوافين (الحذّائين).

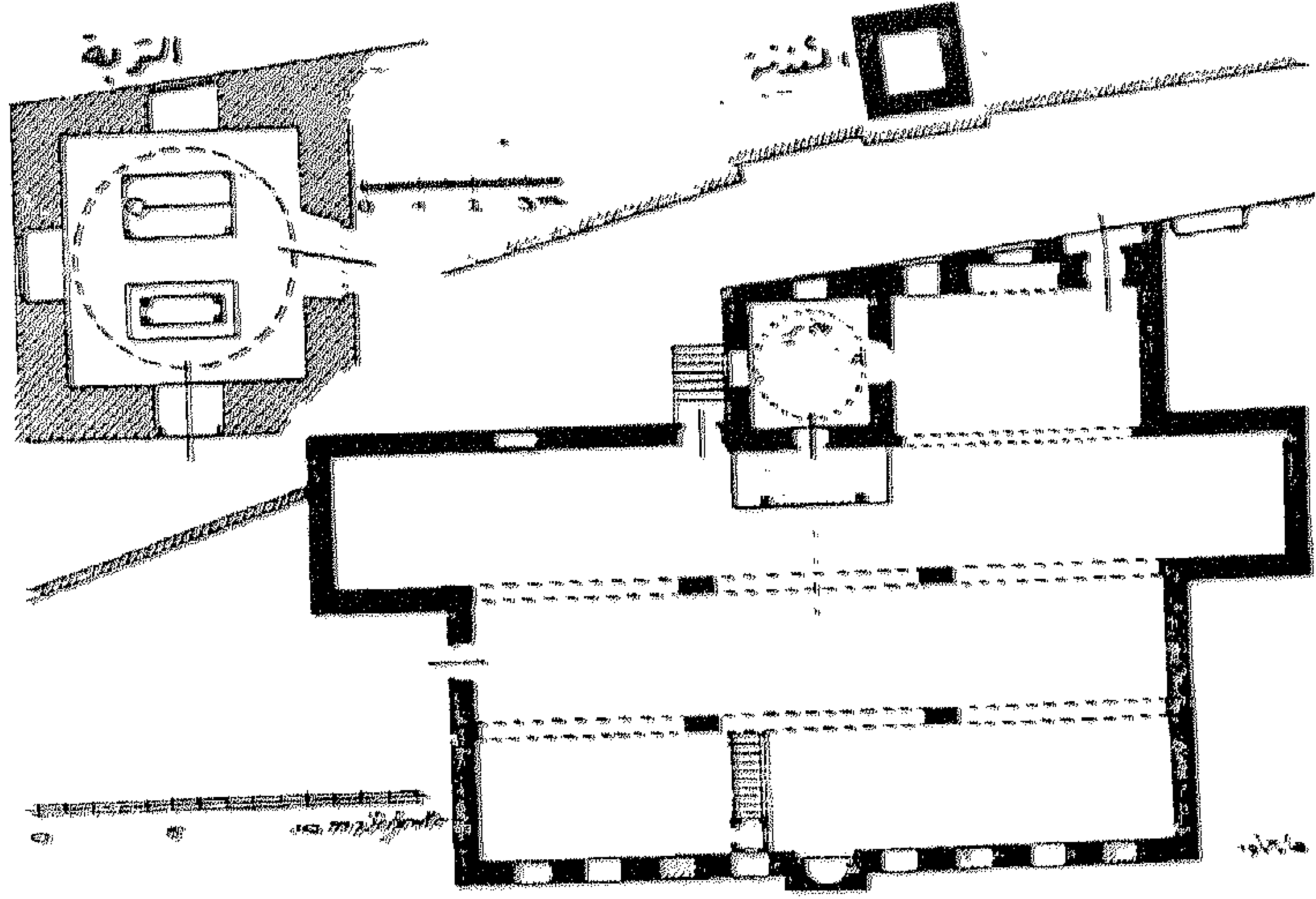
٣/٩ لقد ظهرت هذه الطحالب الإنشائية بشكل عفوي بعيد عن التنظيم لاتحمل أي صفة معمارية، بدت واضحة في وصف



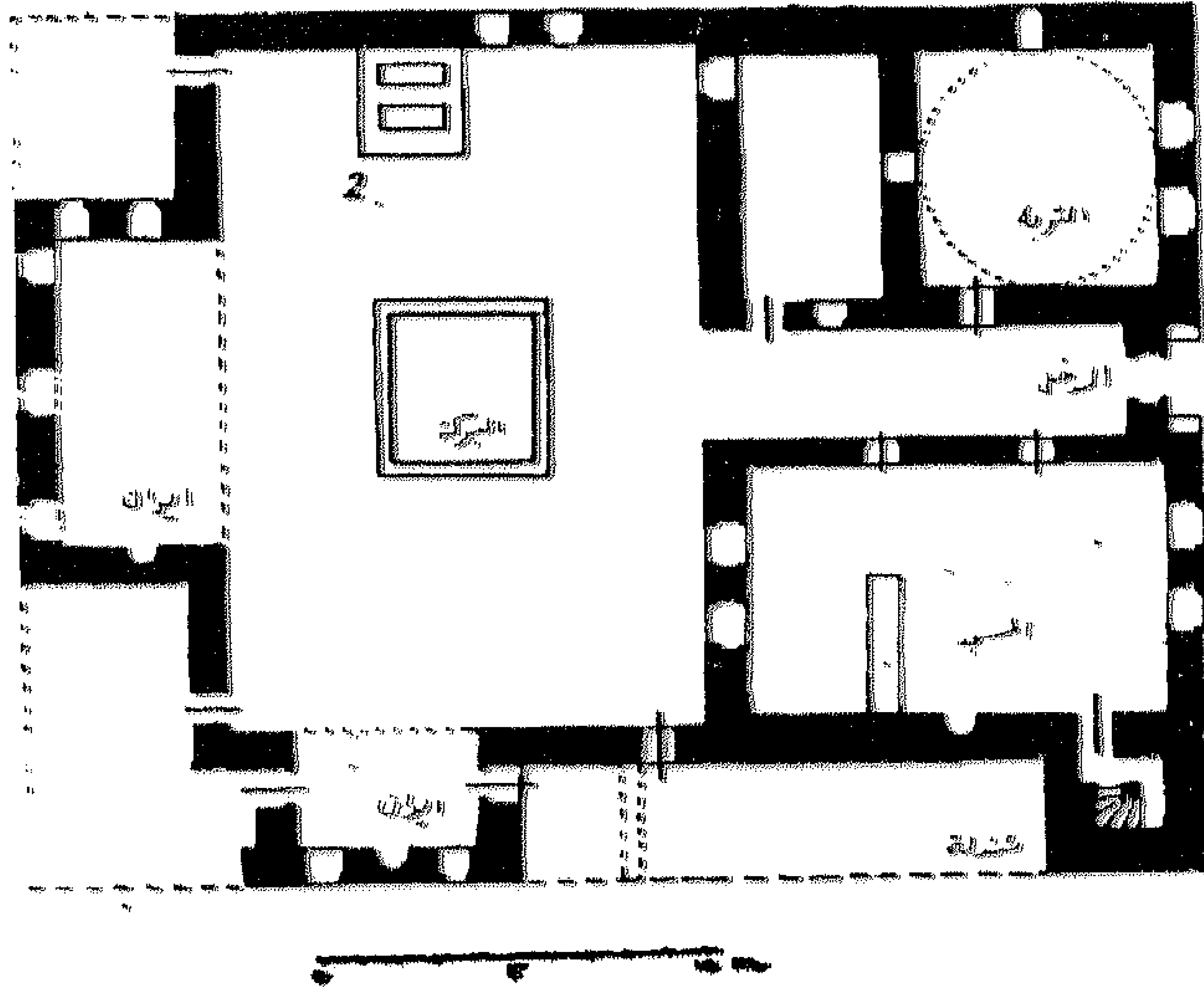
قبة الخزنة



رسم النوافذ الأموية



مسقط مجمع التوريزي ـ جامع+ مدفن



مسقط جامع الصابونية

الجامع قبل زلزال سنة (١١٧٣هـ/١٧٥٩م)، وتأكد هذا الوصف في مخطط بورتر عام (١٨٥٥م) في كتابه (خمسة أعوام في دمشق)، واستمر الوضع قائماً، نقل على خريطة شرطة دمشق (١٩٢٢م) للرسام أحمد راسم.

و ثبت دارفور في مخطط الكاداسترو، وضع الجامع وجوانبه ونَقَله دانجيه وإيكوشار في المخطط التنظيمي الأول لسنة (١٩٣٦م) الذي وجد ولأول مرة

ضرورة إزالة جميع المنشآت الطفيلية اللاصقة بالمسجد

وقد اقترح إيكوشار سنة (١٩٤٢م) إيجاد حديقة تحيط المدرسة الجقمقية وقبر صلاح الدين والأخنائية، وساحة في منطقة سوق الصاغة القديمة.

٤/٩ ولقد صدرت مراسيم استملاك لتنفيذ هذا المخطط وهي:

١- مرسوم رقم ٣٠٣ /١٩٤١/٦/٢٢م لاستملاك المنطقة الشمالية حول قبر صلاح الدين.

٢- مرسوم بتاريخ ١٩٤٦/١٠/١٠م لاستملاك العقارات في الجهات الشرقية والجنوبية والغربية، وصدور قرار تنفيذي بهذا الاستملاك بعد التخمين برقم ١٢/١١ تاريخ ١٩٤٨/٢/٢٥م.

٣- القرار رقم ٢٨١ تاريخ ١٩٦٠/١١/٢٨م باستملاك العقارات المتبقية من سوق الصاغة بعد حريقه، والممتدة من خان السفرجلاني إلى قصر العظم وإظهارهما بعد هدم العقارات المستملكة.

٥/٩ ولقد وضع المصوران رقم ١٢٧٦/١٤٠ ورقم ١٨٠/١٩٨٣م ليشملا مناطق الاستملاك حول الجامع وضمّا إلى مخطط واحد برقم ١٠٨/١٥ لعام ١٩٨٣م، المخطط الذي وضع تنفيذاً للمخطط التنظيمي الذي وضعه إيكوشار عام (١٩٦٧م).

في عام (١٩٨٣م) بوشر بتنفيذ هذا المخطط، فأُزيلت الأبنية الممتدة من القلعة باتجاه الجامع مروراً بالعادلية والظاهرية إلى الأبنية المحيطة بالمدرسة الصادرية في الغرب مع سوق القوافين وسوق المسكية، وارتكبت الجرافات خطأ إزالة المدرسة الصادرية والرواق الخشبي (المظلة) التي كانت فوق مدخل باب البريد. كما أُزيلت جميع الدكاكين اللاصقة بالجدار الجنوبي، والتي كانت تشكل سوق القباقبية. وفي عام (١٩٩٥م) وتنفيذاً للمصور التنفيذي الذي وضعه إيكوشار سنة (١٩٤٢م) تمت إزالة جميع المنشآت الطفيلية اللاصقة بالجدار الشمالي والمحيطة بقبر صلاح الدين، وأُعيد ترميم بعض المنشآت التاريخية التابعة للعزيزية، واستبقي قسم غريب هو الميضأة لاصقاً بالجدار، وأنشئت حدائق



جامع الصابونية (رسم)

أحاطت قبر صلاح الدين والجقمقية، ومازالت المنشآت اللاصقة بالجامع من الجهة الشمالية الشرقية قائمة. وثمة مشروع لتجميل منطقة المسكية لم يرَ النور بعْدُ.

٦/٩ ومن المؤسف أن المدرسة الصادرية التي أُنشئت سنة (٤٩١هـ/١٠٩٧م) وهي أقدم مدرسة في دمشق، وكانت قد فقدت بعض عناصرها سنة (١٨٦٠م) ورُمِّمت ترميماً مختصراً حتى أصبحت هيكلاً، وفي عام (١٩٨٣م) جُرِّفت أعمدتها وأحجارها ووضعت مؤقتاً في منطقة الكلاسة لإعادة إنشائها، ولابد من تحقيق ذلك في فناء المسكية كما كانت سابقاً.

والواقع ليست إزالة المباني الطفيلية حول المسجد من الأمور الخطيرة، ولكن إنشاء مبانٍ تجارية ودوائر كما ورد في مصور عام (١٩٤٦م) ومشروع المهندس موزوروف (١٩٦٢م) لإنشاء مركز تاريخي لمدينة دمشق القديمة هو المشروع الخطير الذي يؤدي إلى القضاء على معالم دمشق التاريخية لمصلحة الشوارع والطرقات، لاختراق المدينة القديمة بالسيارات، ولقد عدل المهندس فيتمر خبير الأمم المتحدة هذا المشروع الذي لم يرَ النور لانتقادات كثيرة.

٧/٩ إن قضية اختراق المدينة بالسيارات قد شغلت واضِعَيّ المخطط التنظيمي الأخير لعام (١٩٦٨م) وهما، إيكوشار، وبانشويا، فلقد أحاط المخطط منطقة الجامع بطرقات مخصصة للسيارات في مربع طول ضلعه (٤٠٠م) مع مواقف للسيارات والشاحنات وتركت الحارات ضمن المربع للمشاة دون السيارات، ولقد راعى المخطط بوضوح خدمة المعبد الروماني وأعمدته، وإظهاره على حساب كثير من المنشآت والأحياء.

٨/٩ إن أهم عمل تحقق لخدمة مدينة دمشق القديمة، هو صدور قرار بإنشاء هيئة دمشق القديمة بناءً على اقتراحنا يجعل تنظيم المدينة وحمايتها والحفاظ على معالمها بيد هذه الهيئة التي يرأسها المحافظ وتعتمد في قراراتها قانون الآثار (ولقد اقترحنا قراراً مماثلاً لمدينة حلب القديمة).

وكانت مبادرتنا سنة (١٩٨٧م) لإنشاء جمعية أصدقاء دمشق تهدف إلى إشراك المواطنين بعمليات الحماية والتعريف بأهمية دمشق القديمة والمباني التاريخية، ودعم السلطات في توعية الجماهير بأهمية التراث المعماري.

٩/٩ ومن أهم أعمال الترميم الأثري التي توليناها، ترميم قلعة دمشق بعد تفريغها وإزالة الشوائب منها، وإعادة بناء البرج رقم (١٢) الجنوبي الغربي، ولقد بدت القلعة واضحة بعد أن استمرت غائبة عن الرؤية منذ إنشاء سوق الحميدية ومن بعده سوق الخجا.

ولقد وضعنا مخططاً لإشغال هذه القلعة بمتاحف ومعارض وغير ذلك من الفعاليات الثقافية.

١٠/٩ لقد أصبحت مدينة دمشق بعد تسجيلها في السجلات الأثرية الوطنية، ومن ثم تسجيلها في قائمة الممتلكات الثقافية في منظمة اليونسكو، أكثر رعاية وحماية، فلقد تعارض هذا التسجيل مع المخطط التنظيمي (١٩٦٧م) مما أدى إلى إيقاف جميع التعديلات المقترحة، وبخاصة فتح الشوارع المربعة التي ذكرناها..

الفصل السابع

تكون معالم دمشق بعد الأمويين

١- الأبواب

٢- قلعة دمشق

٣- البيمارستان

٤- تكون المدارس

٥- تكون أوابد العصر العثماني

٦- خان أسعد باشا

٧- قصر أسعد باشا العظم

٨- بيت خالد العظم

٩- مبنى العابد

١٠- القاعات الشامية

تكون معالم دمشق بعد الأمويين

١ - مقدمة

١/١ تتمثل الحضارة الإسلامية في دمشق، بالأوابد المعمارية التي مازالت شاهدة على عصور الازدهار التي مرت على دمشق، وهي العصر الأموي وكانت خلاله دمشق عاصمة أوسع إمبراطورية في زمانها، والعصر الأتابكي والمملوكي وكانت دمشق عاصمة صلاح الدين ومنطلق التحرير، والعصر المملوكي وهو العصر الذهبي الذي تمتعت مصر والشام خلاله بالاستقرار أحياناً بعد التحرير، ونهضت منشآت دينية وعلمية واجتماعية مازالت دليلاً على هذا الازدهار. وخلال العصر العثماني وخاصة في بدايته نهضت منشآت تعبر عن عناية خاصة بالشام الشريف.

٢/١ أبواب دمشق:

عندما فتح المسلمون دمشق بقيادة خالد بن الوليد ومعه أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان، كان لدمشق سبعة أبواب يطلق عليها أسماء الكواكب السبعة، ثم حملت تسميات شعبية وهي:

من الشرق باب توما والباب الشرقي، ومن الشمال باب الفراديس ومن الغرب باب الجابية والباب الصغير، ومن الجنوب باب الشاغور وباب كيسان. وفي العهد الإسلامي أُغلقت بعض الأبواب وأُنشِئت ثلاثة أبواب؛ هي باب السلام وباب النصر وباب الفرج. وبقي اليوم من الأبواب الإسلامية أو الرومانية المرممة والمجددة في العهد الإسلامي سبعة أبواب هي:

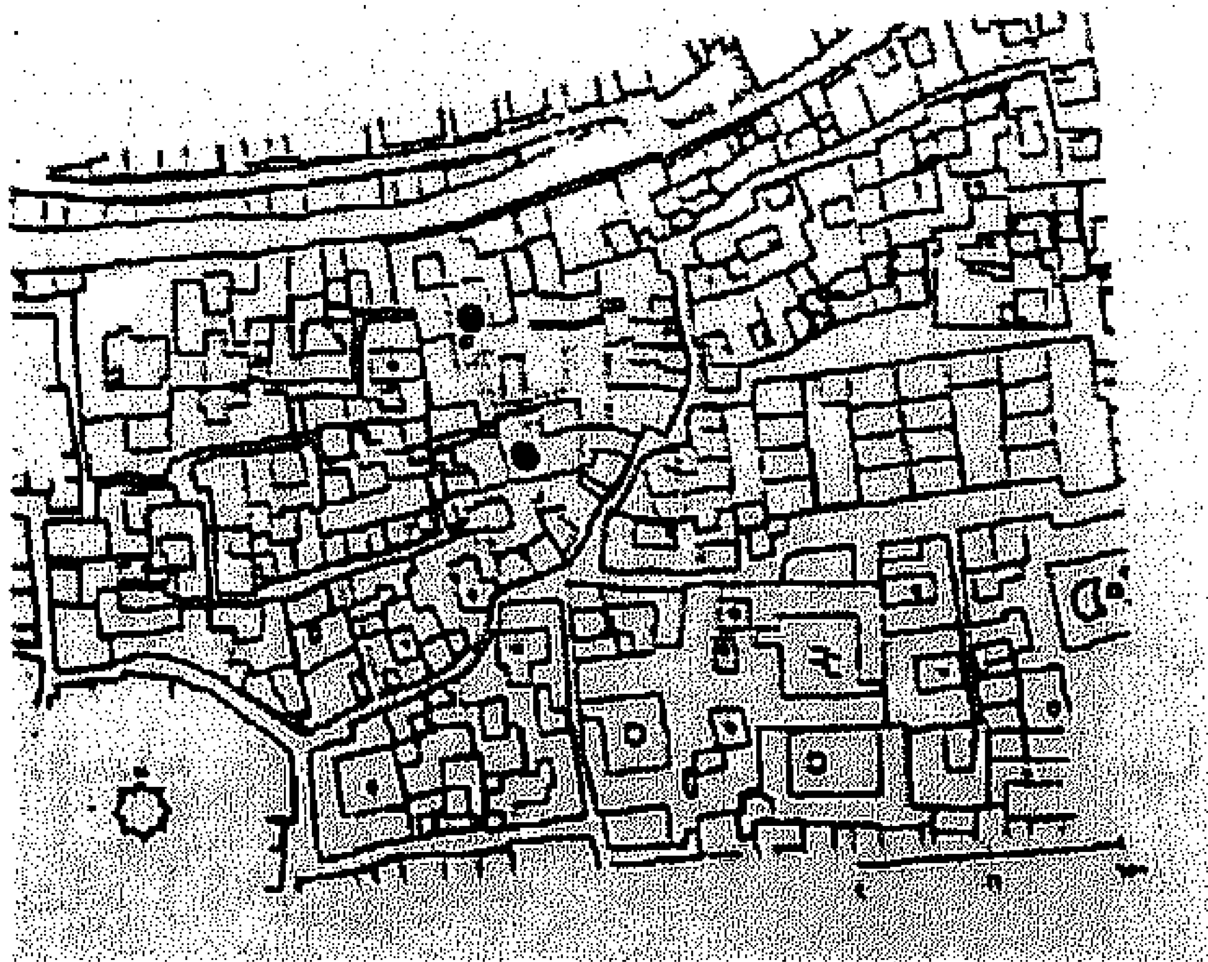
باب كيسان: ويحمل اسم مولى معاوية كيسان، ولقد أُنشئ أمامه بوابة القديس بولس، ويقع في الجنوب.

الباب الشرقي: ويعود إلى العصر الروماني. وينتهي معه الطريق المستقيم.

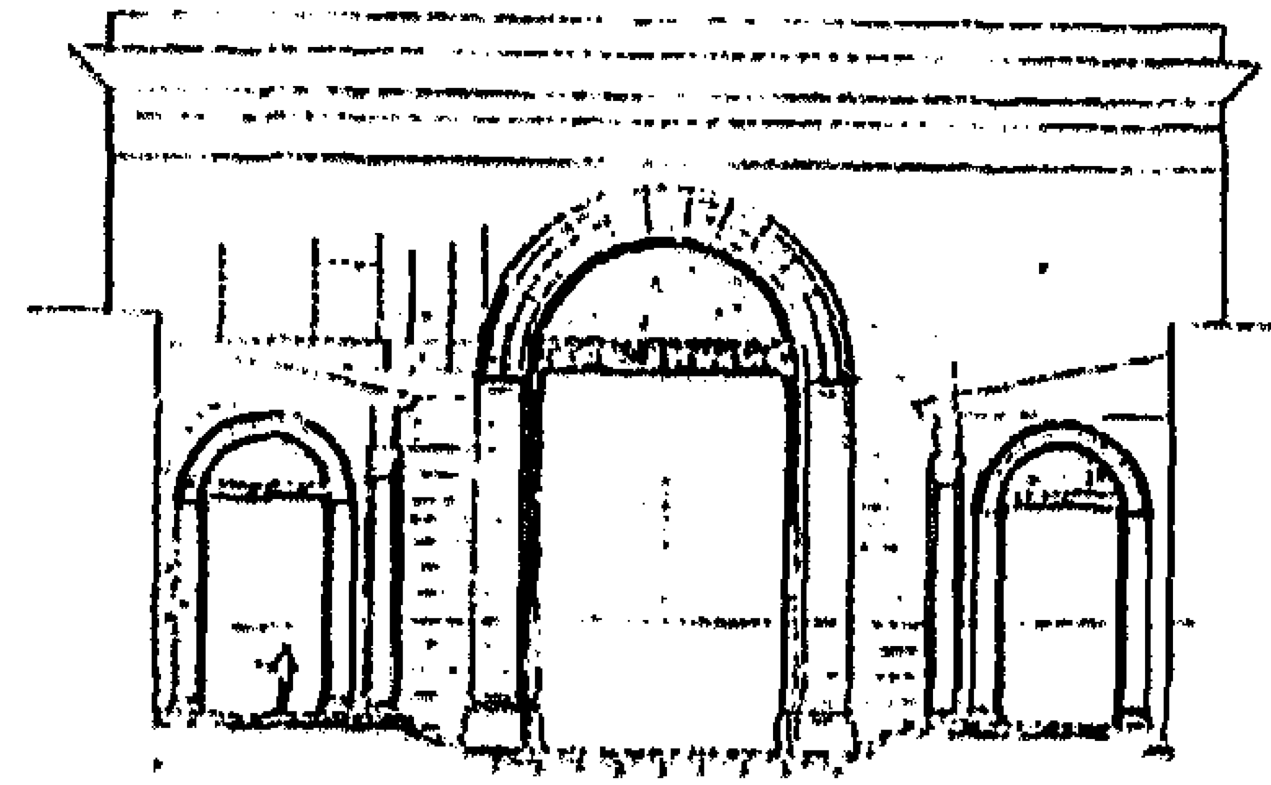
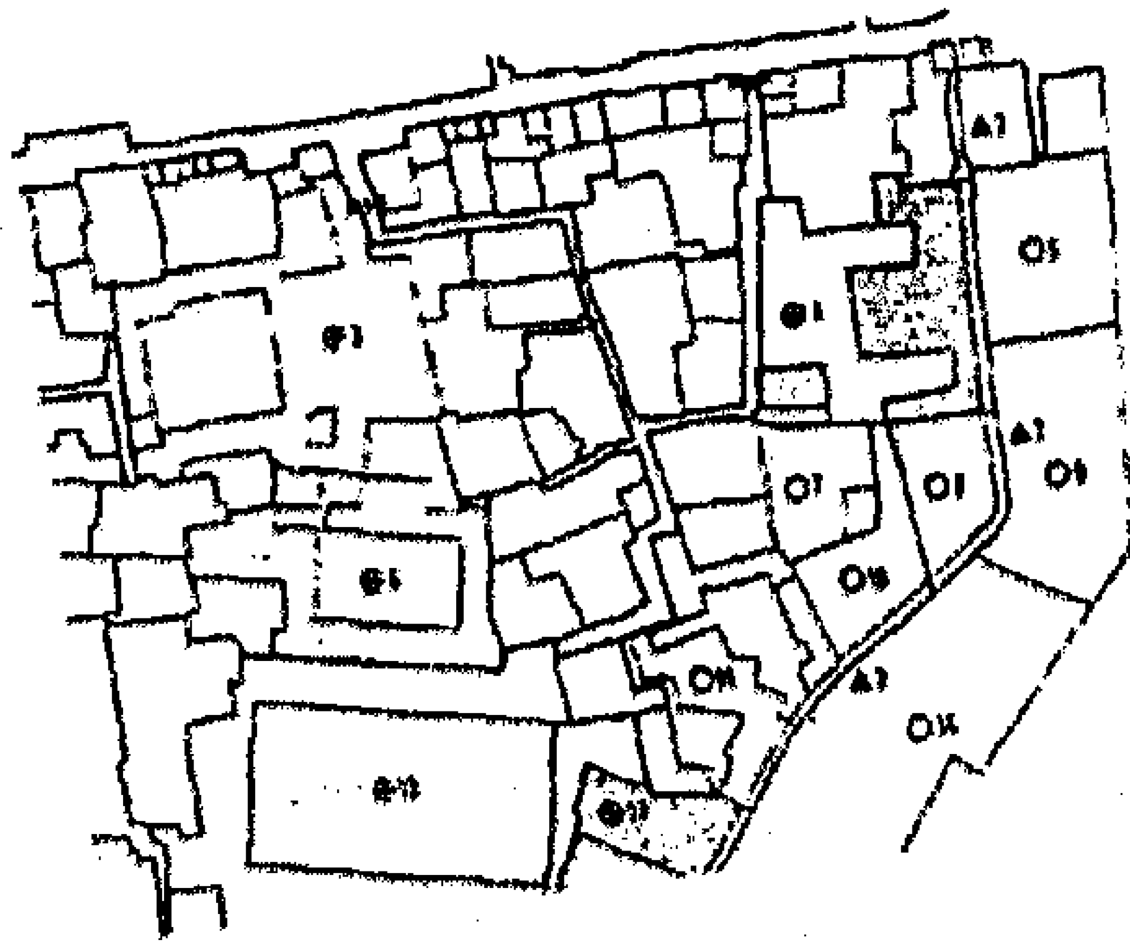
باب توما: في شرقي المدينة ويعود إلى القرن السابع الهجري (٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م). ويبلغ سمك الباب (٧م).

باب السلام: وهو يشبه باب توما وعليه نقش يحدد تاريخه بعام (٦٤١ هـ /١٢٤٣ م) مع ذكر لاسم السلطان برقوق ويقع في الشمال.

باب العمارة، أو باب الفراديس، وهو يشبه باب السلام وباب توما.



منطقة باب السلام

باب شرقي - (حي مسيحي)

باب الجابية: وهو الباب الغربي وبه يبتدئ الطريق المستقيم ولقد أُزيل باب النصر الإسلامي سنة (١٨٦٣م) وكان عند مدخل سوق الحميدية[1].

باب الفرج: ويسمى باب المناخلية وهو مزدوج بينهما باشورة جددّ في عهد صلاح الدين (٦٤٩هـ /١٢٥١م).

٢- قلعة دمشق

١/٢ أُنشئت قلعة دمشق في عهد الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب وهو شقيق السلطان صلاح الدين الأيوبي وخليفته. ولقد أقامها في مكان قلعة سلجوقية أُنشئت عام (٤٦٩هـ/١٠٧٦م) وكانت قلعة هامة استفاد منها نور الدين بن زنكي وصلاح الدين الأيوبي في الدفاع عن دمشق ضد الصليبيين عام (٥٤٢هـ/١١٤٨م) وفي دعم منعة الحكم وسياسة البلاد. ثم توهنت وهُدمت بسبب الزلازل والحروب. ولقد تمّ الكشف عن أقسام كثيرة منها عندما قمنا بترميمها عام (١٩٨٥م).

ويؤكد وجود هذه القلعة السلجوقية أقوال المؤرخين، وماتبقى من منشآت أهمها البرج الشمالي الذي جدده صلاح الدين عام (٥٨٥هـ/١١٨٨م) كما ورد في الكتابة عليه. وفيها دُفن أولاً نور الدين وصلاح الدين ثم نُقِل جثمانهما إلى قبريهما في دمشق القديمة.

على أن قلعة دمشق كما نراها اليوم بروعتها وقوتها وضخامتها، إنما ترجع إلى الملك العادل نفسه، فهي قلعة أيوبية، وقام المماليك والعثمانيون فيما بعد بإجراء بعض الترميمات والإضافات التي تشهد الكتابات عليها اليوم[2].

٢/٢ تبلغ مساحة القلعة (٣٣١٧٦ متراً مربعاً) وهي ذات شكل مستطيل ذي أضلاع غير مستقيمة ويبلغ طولها (٢٤٠-٢٥٠م) وعرضها (١٦٥-٢٢٠م). ويحيطها من الخارج سور منيع ذو أبراج مربعة ضخمة يبلغ عددها (١٢) برجاً، وتعلو الأسوار رواشن من الحجر النحيت. وينفتح في جسم أسوار القلعة أربعة أبواب،

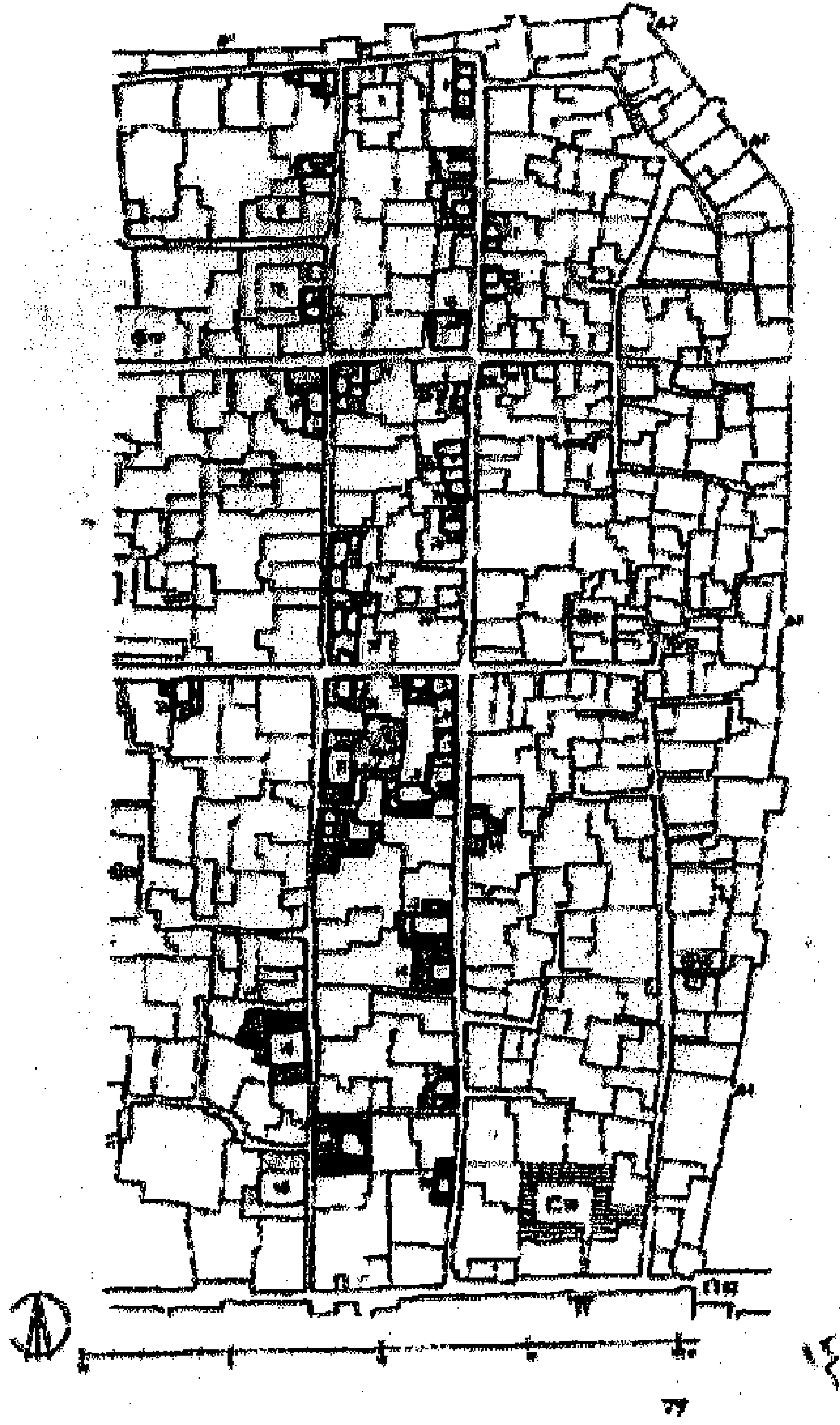
(١) صلاح الدين المنجد : دمشق أسوارها، أبراجها ، أبوابها - مديرية الآثار دمشق .
(٢) عبد القادر الريحاوي : قلعة دمشق - وزارة الدفاع - دمشق ١٩٧٩ .

الباب الحديث في الشمال وأمامه جسر والباب الشرقي وهو المدخل الرئيسي، وبابان للسر ذات جسور متحركة فوق الخندق في الغرب وفي الجنوب. ويحيط بالقلعة خندق تم توسيعه عام (٦١٢-٦١٤هـ/١٢١٤-١٢١٦م). وهو بعرض (٢٠ متراً) كما يقول دارفيو وقد يصل إلى خمسة أمتار، وقد رُدم الخندق إلا من الجهة الشمالية حيث أصبح مجرى لنهر العقرباني.

لقد تمّ تشييد القلعة بصورة متتابعة برجاً فبرجاً، وقد ساهم أولاد الملك العادل بهذا العمل، وكان أول برج أُنشئ عام (٥٩٨ هـ/١٢٠٢م) هو البرج الجنوبي الغربي الذي تهدم عام (١٢٨٠ هـ/١٨٦٢م)، واستغرق بناء الأبراج والأسوار خمسة عشر عاماً، وهي مبنية من الحجر الأبيض البارز، وعند الترميم اللاحق استُعمِلَت أحجار منحوتة أو غشيمة أصغر حجماً.

٣/٢ وكان في القلعة عدد من المنشآت الهامة، مسجد أبي الدرداء والقصر ودار المسرة ودار رضوان والبركة والطارمة وهي قاعة في أعلى البرج الشمالي الغربي أُزيلت، كما زالت أكثر المنشآت.

لقد كانت القلعة منذ بداية إنشائها، حصناً عسكرياً هاماً، وكانت مقراً للسلاطين الأيوبيين، وفيها كانت تُمارس جميع النشاطات السياسية والاجتماعية، فكانت مدينة محصنة فيها القصور والحمامات والمساجد وفيها دُفِن عدد كبير من الملوك ثم نُقِلت رفاتهم إلى خارج





منطقة باب توما (رسم)



الباب الشرقي بعد ترميمه خلال الستينات

القلعة مثل صلاح الدين ونور الدين وبيبرس، وفي العهد المملوكي (٦٥٩-٩١٨هـ/١٢٦٠-١٥١٦م) أصبحت القلعة مقراً لنواب السلطنة إذ أصبحت القاهرة هي العاصمة، وكان الملوك المماليك يقيمون فيها عند قدومهم إلى دمشق. ثم صار للقلعة نائب خاص مستقل عن نائب السلطنة.

٢/٤ وقد لعبت القلعة دوراً هاماً في الدفاع عن المدينة وبخاصة عند غزو التتار عام (٦٥٨هـ/١٢٥٩م). ولكنها سقطت أمام عنف ضربات المنجنيق التي أتت على البرج الغربي الجنوبي[1]، ويصف أبو شامة هذا الحصار العنيف وهذا التخريب الخطير.

وقد عني الملك الظاهر بيبرس بترميمها، فقد كان كثير التردد والإقامة فيها لقيادة معاركه ضد الصليبيين والتتار. وعندما توفي عرض جثمانه فيها ثم نُقل إلى المدرسة الظاهرية.

و لقد استعملت أسلحة مختلفة للدفاع عن القلعة، من أهمها المنجنيق الذي يقذف الحجارة الكبيرة والمكحلة أو المدفع الذي يستعمل كحل البارود، ثم قوارير النفط والنشاب.

و لم تكن القلعة في حالة السلم إلا مدينة مكتفية، ففيها سكانها وجنودها والموظفون والفقهاء، ولها صندوق مال مستقل وفيها مخازن للمؤن وسجن ومسجد وطاحون عدا القصور والبيوت.

(١) أعدنا بناء هذا البرج سنة ١٩٨٧ م.



باب كيسان، وهو مدخل كنيسة القديس بولس، ينتسب إلى كيسان مولى معاوية، كما يقول ابن عساكر مؤرخ دمشق

وفي العهد العثماني أصبحت القلعة مقراً للانكشارية والدالية ويرأسها آغا القلعة ومهمته استقبال وتوديع الوالي. وقد استخدمت القلعة سجناً ومعقلاً وكانت مجالاً للفتن والاختلافات ثم أصبحت المقر الوحيد للحامية العسكرية[1].

٥/٢ إن أهم منشآت القلعة وعناصرها الدفاعية هي الأبراج والبدنات بينها والممرات الدفاعية والمرامي والرواش والسقاطات والشراشيف والخندق والجسور المتحركة.

أما أهم المنشآت المدنية التي مازالت حتى الآن فهي جامع أبي الدرداء وهو قاعة واسعة تتصل بالبرج الشمالي المتوسط، وإلى جانبها إيوانان صغيران. ويعلو القاعة قبة وفي الحرم ضريح ينسب إلى الصحابي أبي الدرداء.

أما القصر فهو بناء كبير يمتد خلف الممر الدفاعي الجنوبي بطول (٨٠ متراً). وهو مؤلف من طابقين بارتفاع (١٥,٥ متراً)، ومن قاعة ستة أواوين في كل طابق، وتسقف القاعة بعقود متقاطعة.

والقاعة الطويلة (القصبة) تمتد من الشرق إلى الغرب مؤلفة من قاعة أولى مؤلفة من ستة معازب موزعة على جناحين، ومن قاعة ثانية مؤلفة من تسع معازب مسقوفة بعقود متقاطعة ولها أربعة أبواب. وتعلو المعزبة الوسطى قبة، وقد أطلق دارفيو على هذا البناء اسم القصبة.

أما القاعة الرباعية فهي مؤلفة من أربع معازب ولعلها سلجوقية.

٦/٢ كانت القلعة مرئية من جميع جهاتها. إذ كان الخندق وجيبة جيدة تحيطه مناطق وطرقات خالية. ففي

(١) قمنا بإخلاء القلعة من الشرطة والسجناء وأزلنا المنشآت المضافة في عام ١٩٨٣ م.

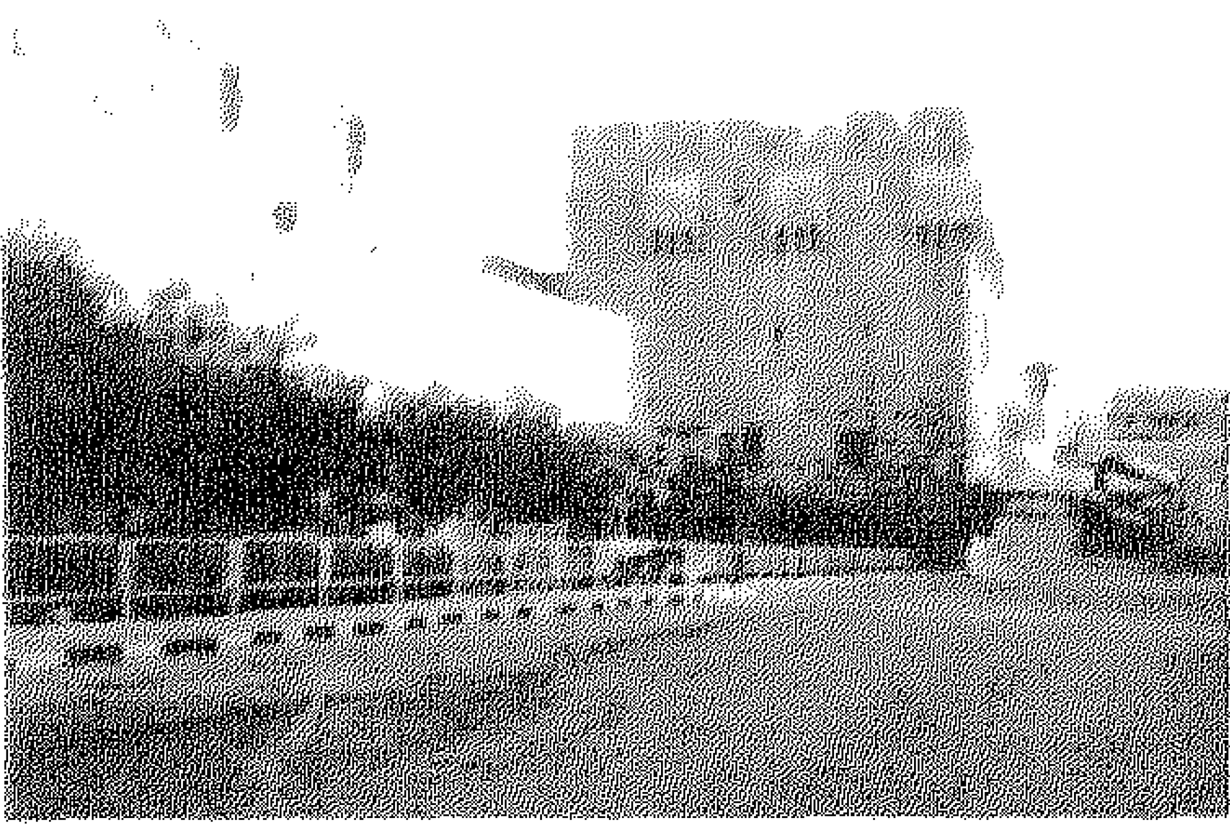
الشمال كانت منطقة أصبحت سوقاً للسروجية الذي هُدم قسم منه عام (١٩٧٠م)، وفي الغرب كان طريق يوازي الخندق وصفه بورتر عام (١٨٥٠م) ثم رُدِم الخندق وأُنشئ سوق الخجا، وفي الجهة الشرقية رُدم الخندق في أواخر العصر العثماني وأُقيم فوقه سوق العصرونية، والتصقت بجدار القلعة محلات تجارية باستثناء باب القلعة الذي أصبح باباً للسجن، ولقد أُزيلت هذه الدكاكين في نهاية عام (١٩٨٣م). أما من جهة الجنوب فلقد كان سوق الأورام يحاذي الخندق ويترك مجالاً لظهور أجمل واجهات القلعة، إلى أن تم ردم الخندق وإقامة سوق الحميدية والمحلات التجارية على امتداد سوق القلعة دون أن تلتصق به. وهكذا فإن ماتم في عام (١٩٨٥م) من إظهار وإحياء القلعة، إنما هو عمل تصحيحي لخطأ استمر قرناً كاملاً من الزمن.

ومنذ عام (١٩٨٢م) وحتى (١٩٨٥م) قمنا (في مديرية الآثار) بإخلاء القلعة من الشرطة، وأزلنا الأبنية المضافة وبخاصة السجن. وقمنا بإجراء أسبار وتنقيبات في ساحة القلعة. وكان علينا أن نعيد بناء البرج الجنوبي الغربي كاملاً وأن نرمم الأسوار الشمالية، ونبرز أجزاء القلعة السلجوقية السابقة وقد تمّ ذلك في عام (١٩٨٨م).

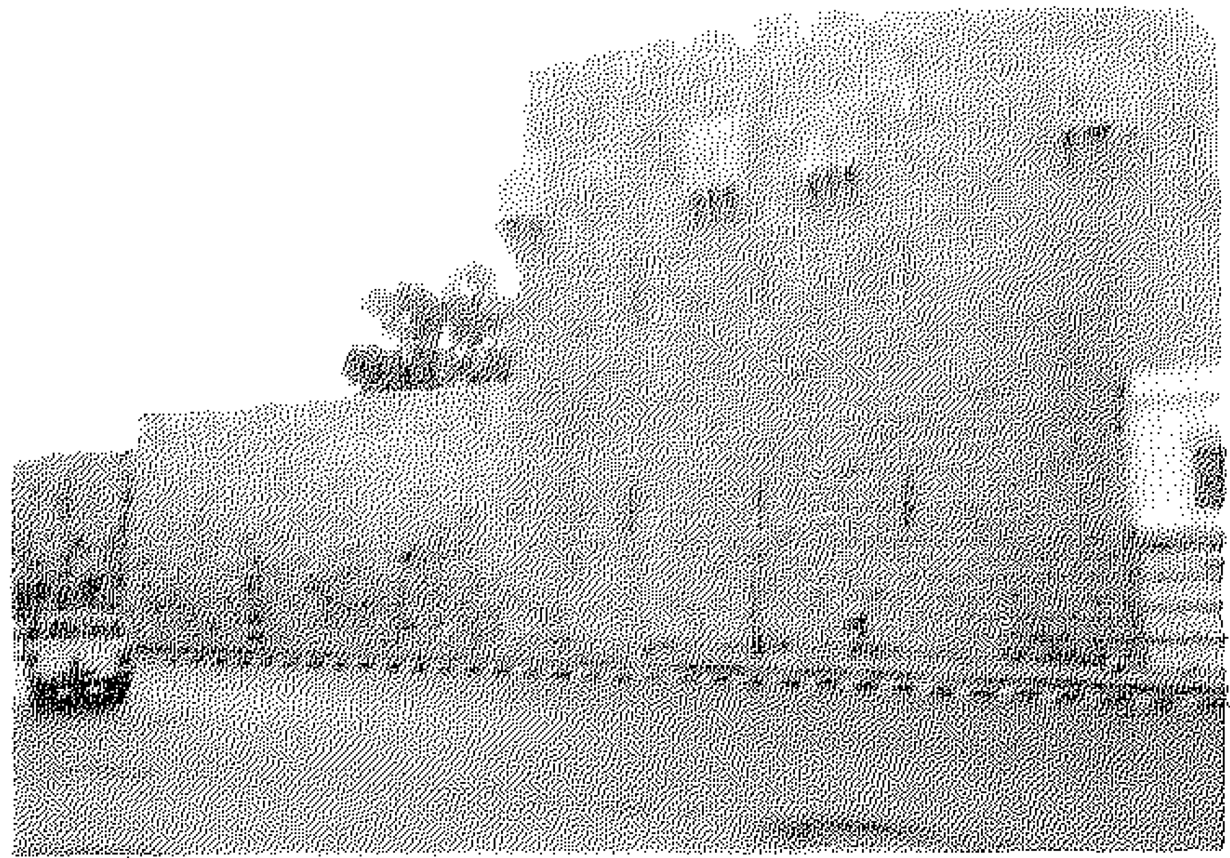
٣- البيمارستانات

١/٣ بيمارستان نور الدين:

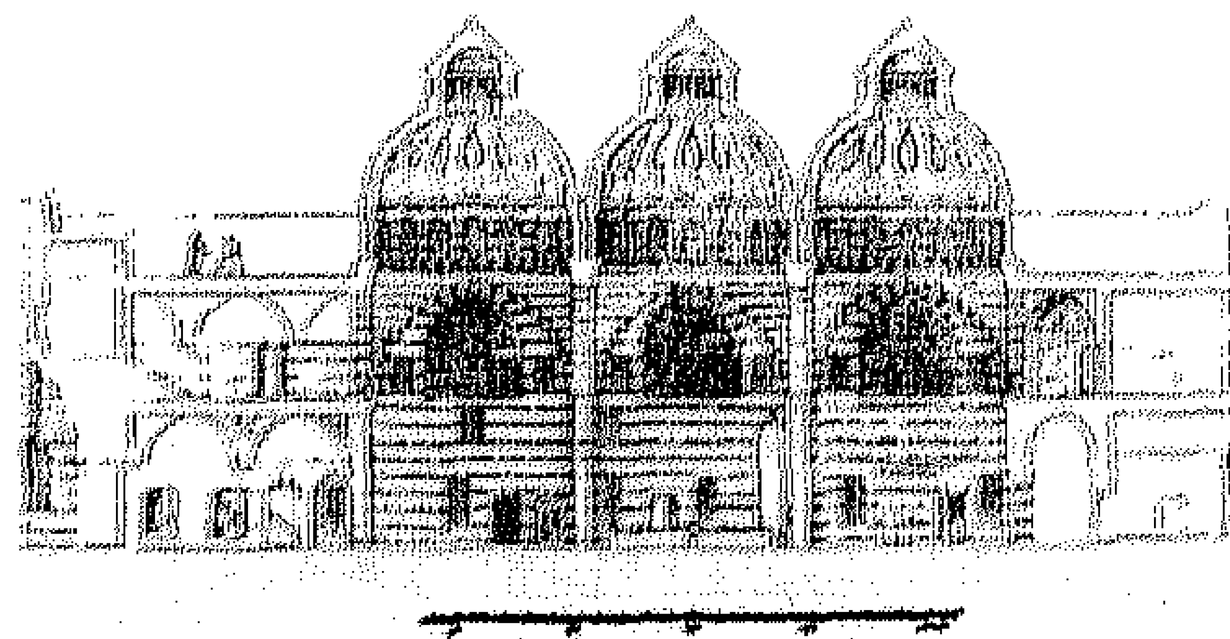
أُنشئ هذا المشفى في دمشق في



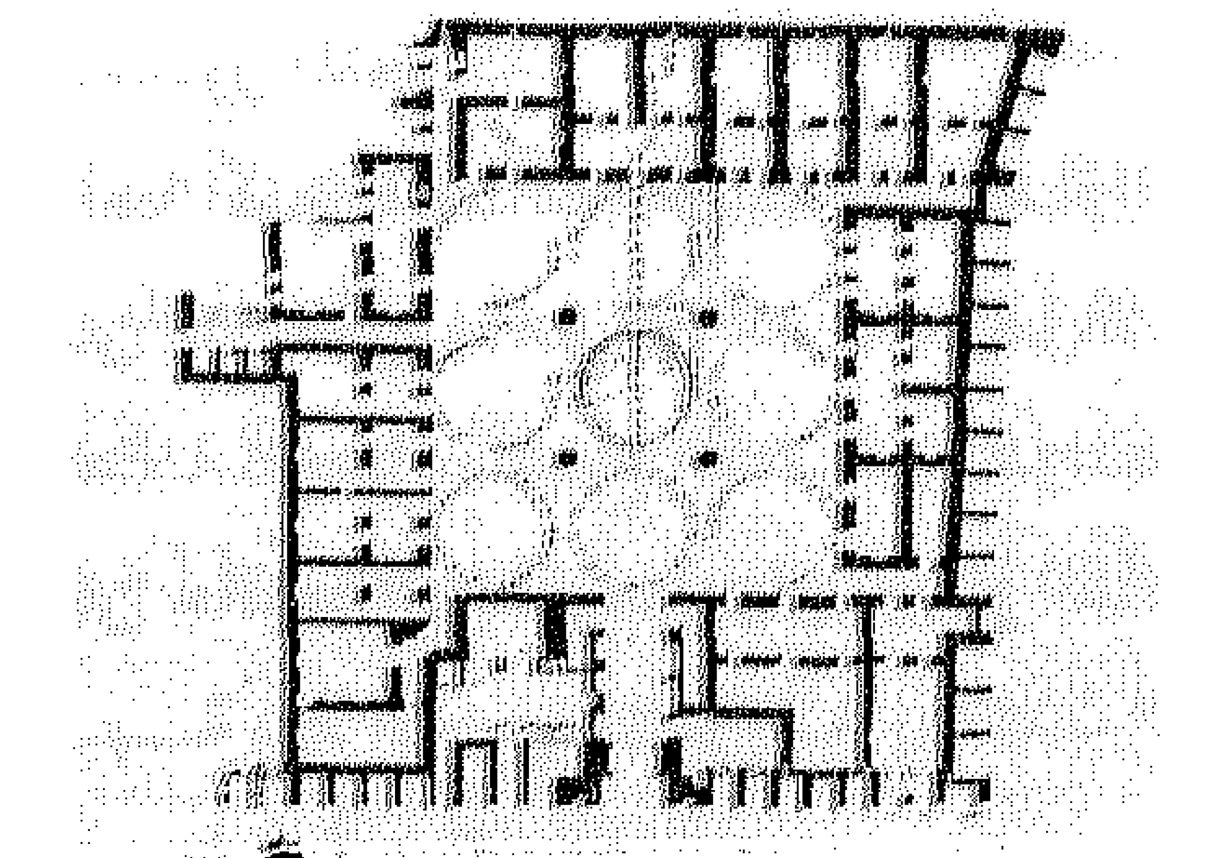
قلعة دمشق، البرج الجنوبي الغربي بعد الترميم ١٩٨٧



الواجهة الغربية



مقطع خان أسعد باشا



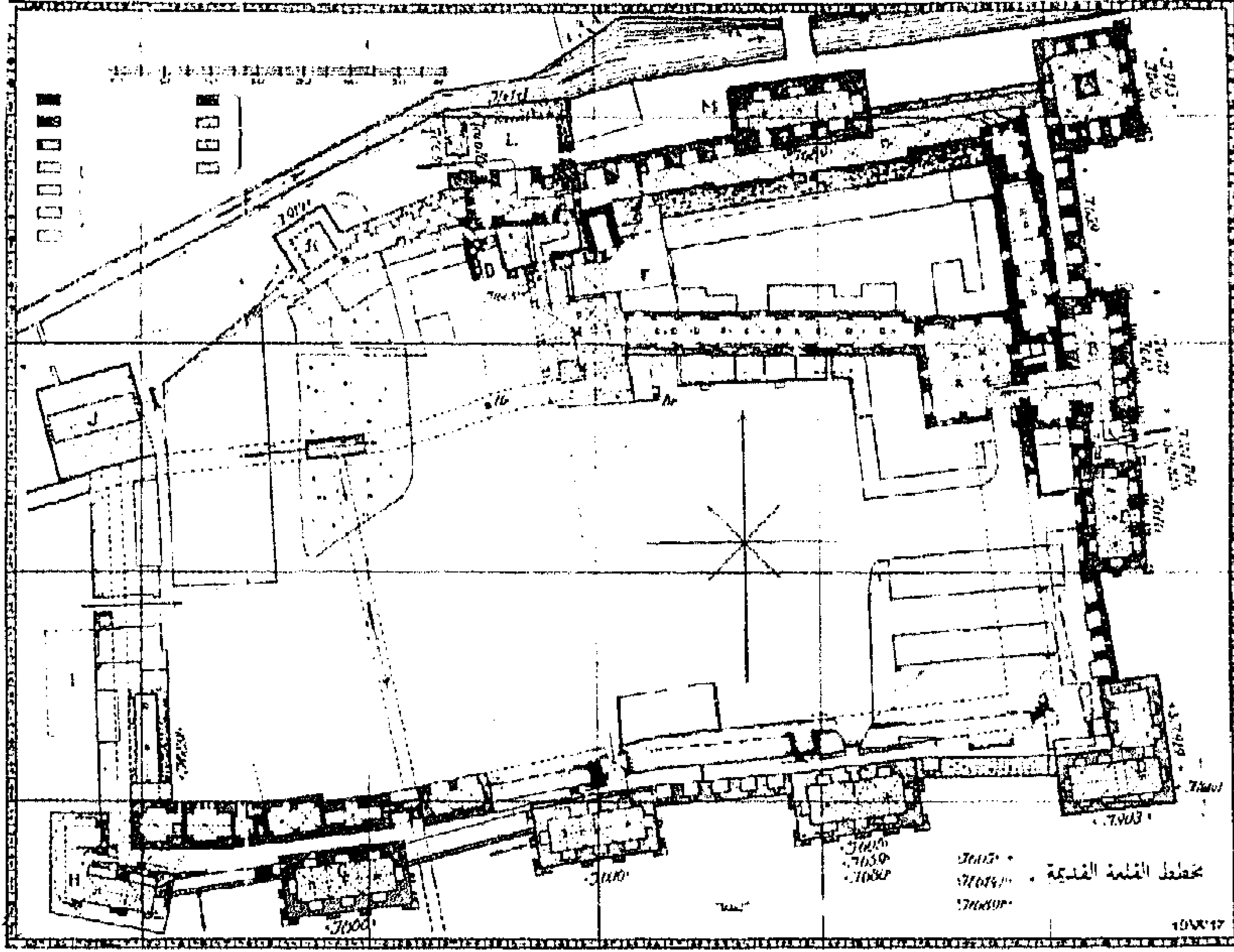
مخطط خان أسعد باشا



قلعة دمشق ـ منظر جوي ويرى سوق الخجا قبل إزالته ١٩٧٧



قلعة دمشق ـ بمحاذاة سوق الحميدية ـ الواجهة الجنوبية المحجوبة عن الرؤية



مخطط قلعة دمشق

عهد نور الدين محمود بن زنكي سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م)، ثم وسعه الطبيب بدر الدين ابن قاضي بعلبك سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٨م) ثم قام بترميمه الملك الظاهر بيبرس، ثم السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد وآخر ترميم قمنا به كان في عام (١٩٧٨م) وجعلناه مقراً لمتحف الطب والعلوم عند العرب.

ومخطط هذا المشفى مؤلف من باحة سماوية (٢٠×١٥م) في وسطه بركة ماء (٧×٨,٥م) مبنية من الحجر المصقول وفي زواياها الداخلية حنيات. ويحيط بالباحة إيوان من جهة الشرق وعلى جانبه غرفتان ركنيتان مسقوفتان بعقود متقاطعة، وفي الشمال والجنوب إيوانان صغيران وعلى جانبي المدخل من جهة الغرب غرفتان كبيرتان.

أما المدخل فهو ذو ساكف تعلوه واجهة من الزخارف الجصية من عصر نور الدين تتألف من صف من المحاريب ذات الأقواس المفصصة.

ويلي الباب دركاه (٥ × ٥م) تقوم مقام دهليز، وتقع بين الباب الخارجي والباب الداخلي المؤدي للباحة، ويعلوه قبة تغطيها المقرنصات من الداخل والخارج. ويزين جدران الأواوين زخارف رخامية وكتابات وشعارات رسمت بشكل زنبقة.

٢/٣ بيمارستان القيمري:

هو مشفى أنشأه الأمير سيف الدين

قيمر (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) في منطقة الصالحية بدمشق، وهو مؤلف من مدخل جميل مزخرف يؤدي إلى باحة يتصدرها من الجنوب إيوان كبير مزين بزخرفة جميلة، وفي الجانبين غرف للمرضى والعيادات وقسم للخدمات، ومازال هذا المشفى مستعملاً حتى اليوم وبحالة جيدة.

٤- المدارس

١/٤ المدرسة النُّورِية:

أُنشئت هذه المدرسة في دمشق ضمن الأسوار سنة (٥٦٣ هـ/١١٦٧م) وتضم قبر نور الدين محمود بن زنكي الذي توفي سنة (٧٥٠هـ/١١٧٤م) وتمتاز قبة القبر بطابعها السلجوقي، فهي مؤلفة من مقرنصات متوضعة من الخارج والداخل. وتتصل غرفة مقام نور الدين بصحن المدرسة، التي كانت تحيطها عقود الأواوين، وفي وسط الصحن بركة تتصل بفسقية مزخرفة كانت في حائط الإيوان الغربي. ومازالت واجهة المدرسة سليمة.

وفي عام ١١٩٣ م أنشأ العزيز بن صلاح الدين الأيوبي، جنوبي باب الجامع الأموي، مدرسة عرفت باسمه (العزيزية) وإليها نُقل جثمان السلطان صلاح الدين من القلعة إلى المدرسة ومازال.

٢/٤ العادلية الكبرى:

المدرسة العادلية، أنشأها الملك العادل سيف الدين بن أيوب سنة (٦١٢هـ/١٢١٥م) وأكملها ابنه المعظم عيسى سنة (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) وهي مؤلفة من واجهة شرقية يؤدي بابها إلى دهليز واسع مسقوف بقبوة، ويأتي بعده باب آخر



بيمارستان (مشفى) القيمري



الفناء الداخلي والإيوان والبركة



بيمارستان نور الدين في دمشق القديمة، وقد استمر حكومياً حتى إنشاء مشفى الغرباء



المدرسة العادلية



المدرسة الظاهرية

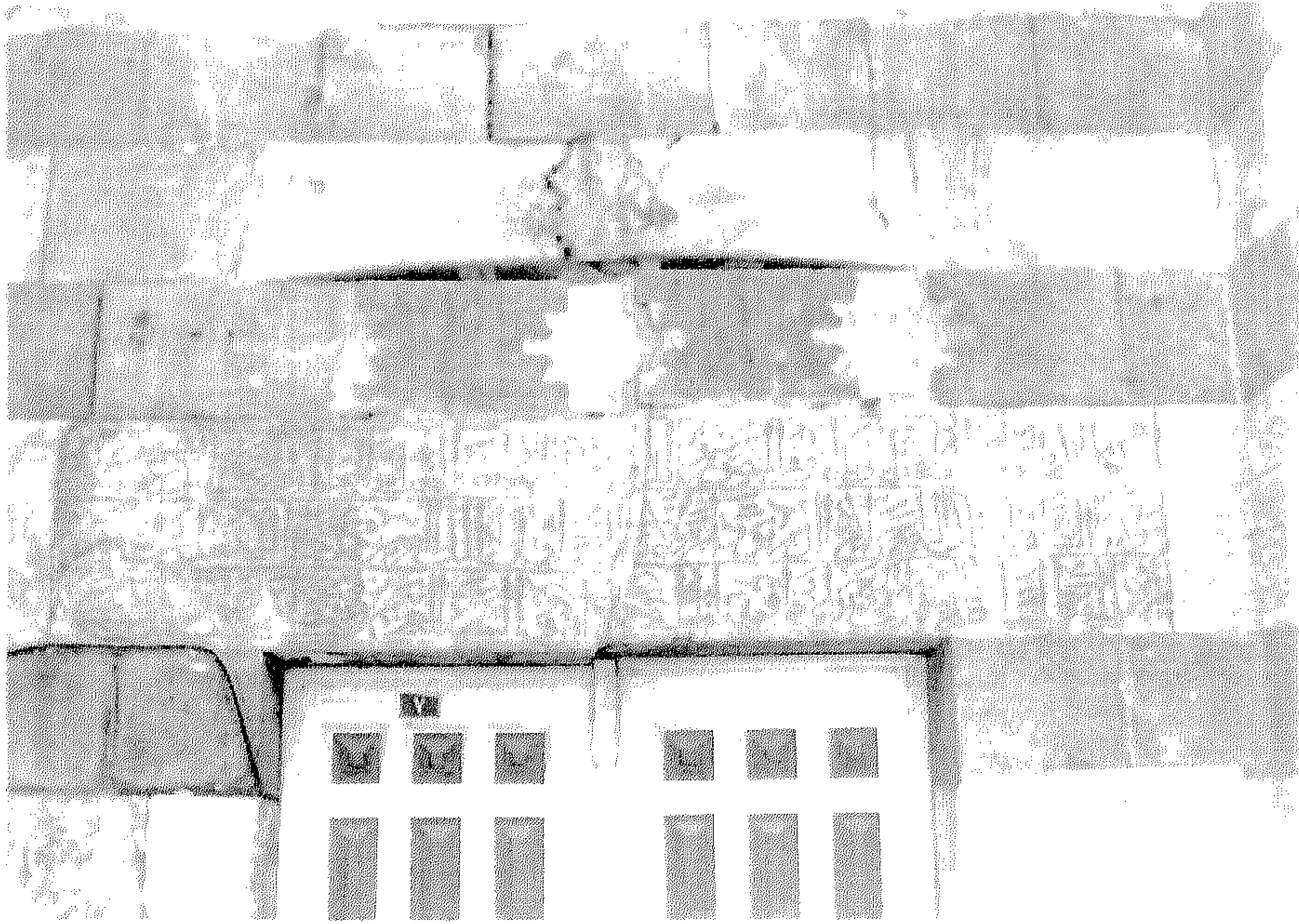
ينفتح على إيوان مطل على صحن المدرسة. وثمة باب في الجنوب يؤدي إلى مدفن الملك العادل، وباب من الشمال يؤدي بسلّم إلى الطابق العلوي.

وفي الصحن المربع إيوان كبير من الشمال، وثمة غرف كانت في جهة الغرب. وواجهة المدرسة مبنية من الحجر الكلسي النحتي، ينتهي في الأعلى بطنف. أما البوابة فهي غنية بهندستها وزخارفها، وهي حَنِيَة عالية يغطيها عقد حجري في وسطه حجر مدلّى طوله (٢,٢٠م) على طرفيه قوسان مفصصان ثلاثياً وللباب إطار حجري بمداميك ملونة مع إطار آخر ذي قوالب زخرفية.

ولقد غُطِّيت أرض الصحن بحجارة ذات ترتيب زخرفي شطرنجي في وسطها بركة ماء مربعة.

ويضم المدفن رفات الملك العادل أخي صلاح الدين وتعلوها قبة محمولة على عقود جدارية، وزينت زوايا الفناء بأركان من المقرنصات بينها أربعة مجاميع من النوافذ. وتغطي المدفن قبة عالية وفي المقبرة محراب للصلاة.

٣/٤ أما المدرسة الظاهرية فكانت داراً حُوِّلت إلى مدرسة سنة (٦٧٠هـ/١٢٧١م) حيث شُيِّد في الزاوية الجنوبية الغربية منها تربة للملك الظاهر بيبرس الذي توفي عام (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) ثم دُفن ابنه فيها من بعده. ومازالت المقبرة قائمة تعلوها قبة نصف كروية، وتزين جدرانها ألواح الفسيفساء كما تزين أبوابها ونوافذها زخارف حجرية ومقرنصات. ومازال مدخل المدرسة الفخم بصيوانه العالي المقرنص والكتابات التاريخية بخط الثلث



بيمارستان القيمري في الصالحية

محفورة على أحجار الواجهة. ومنها كتابة تحمل اسم المعمار إبراهيم بن غنائم.

٤/٤ المدرسة الجقمقية:

تقع المدرسة الجقمقية قرب الباب الشمالي للجامع الأموي أنشأها نائب السلطان المملوكي الأمير سيف الدين جقمق سنة (٨٢٤هـ/١٤٢١م) وهي مدرسة وخانقاه وتربة له ولوالدته. واستمرت المدرسة تعمل حتى أُصيبت بقنابل الفرنسيين (١٩٤١م) ثم رُمِّمت وجعلناها متحفاً للخط العربي.

والمدرسة بأبعاد (١٨×١٦م) وهي مؤلفة من مدخل مزود بباب ودهليز ومن أربعة أواوين وتربة في الزاوية الشمالية الشرقية.

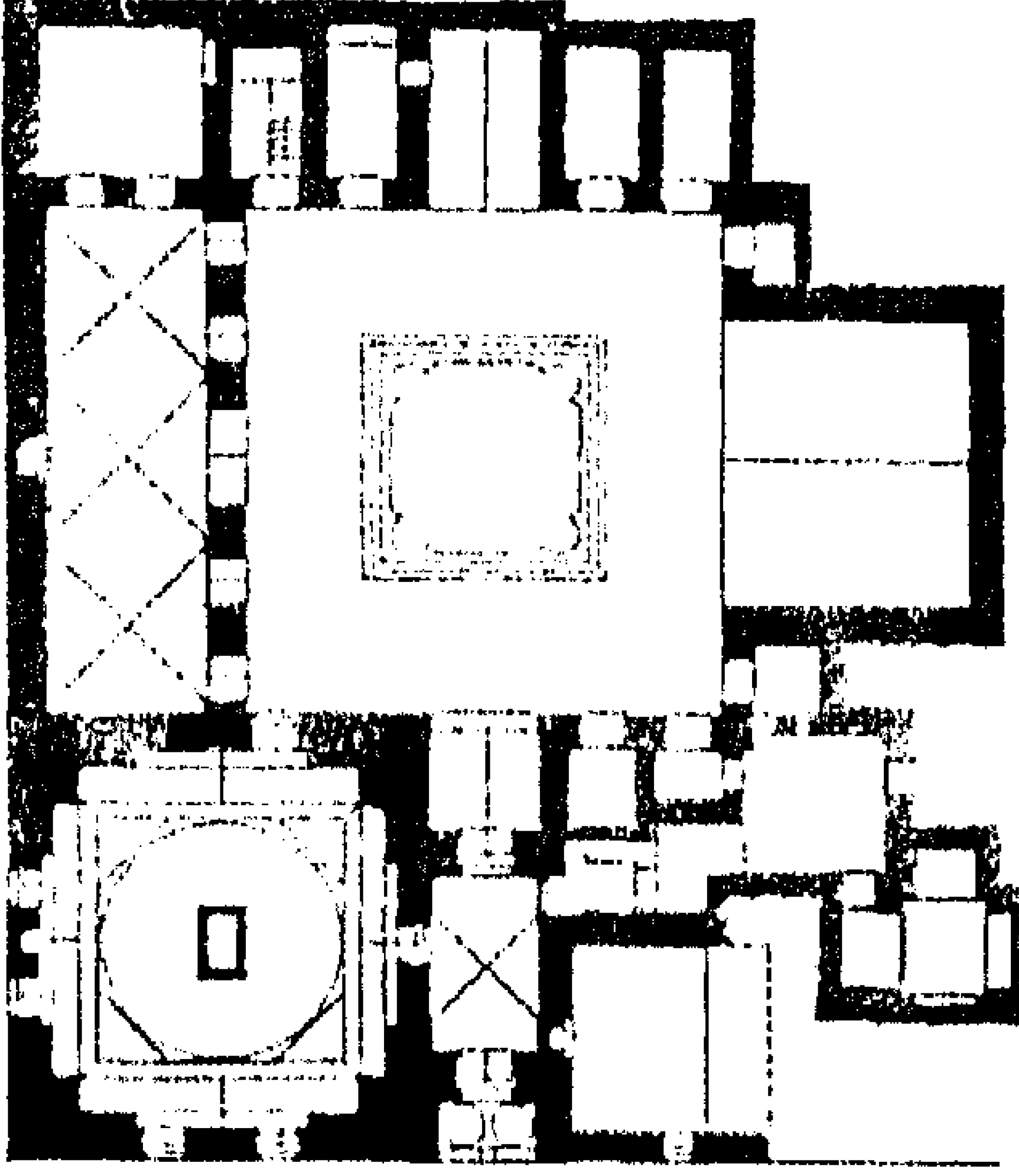
وللمدرسة مدخلان جميلان مزخرفان، وواجهاتهامن الحجر بلونين مع شريط من الحجارة المتداخلة ثم شريط كتابي تأريخي.

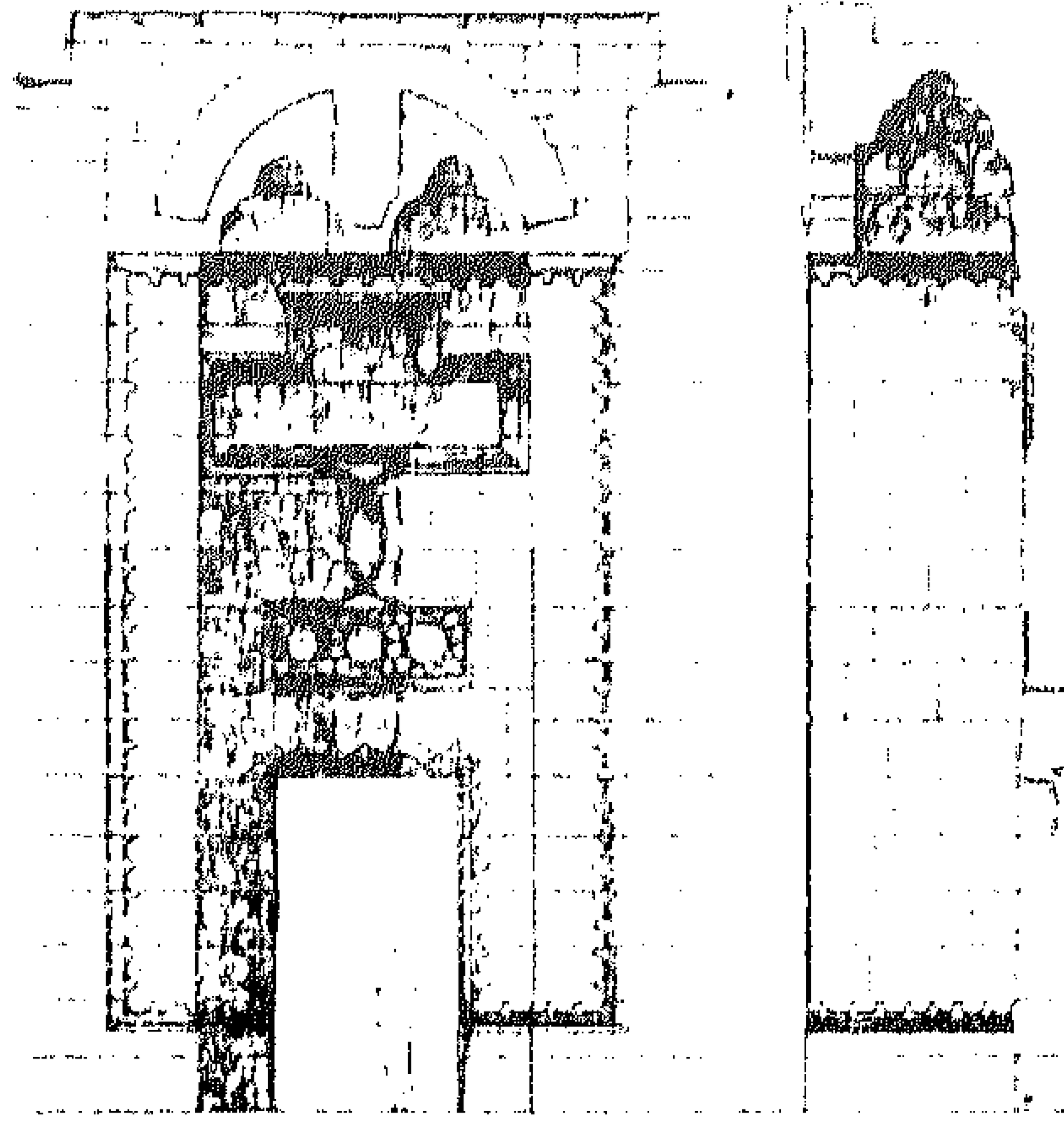
وفي أعلى الواجهتين شريط زخرفي مؤلف من محاريب وشراشيف ملونة، مع رنك جقمق، ويزين جدران الأواوين وقاعة الصلاة زخارف رخامية من الرقش والخطوط تتخلل المحراب وخزائن الكتب والشبابيك المفتوحة إلى الخارج، كما زينت السقوف بالخشب المزخرف الملون. وتعتبر هذه المدرسة بعمارتها وزخارفها آية الفن المملوكي[1].

٥- تكون أوابد العصر العثماني

١/٥ على الرغم من التاريخ المضطرب

(١) انظر دراستنا : الخانات الأثرية في دمشق - جريدة الحياة - بيروت - العدد ١١٥١٧/١٩٩٤ .





مخطط المدرسة العادلية ومدفن

والصعب الذي انتهى بالحكم العثماني، فإن دمشق نعمت في العهد العثماني في مرحلتين. المرحلة الأولى في عهد السلطان سليمان القانوني وأبيه سليم الذي فتح دمشق، وأنهى عهد المماليك. ومن أهم أوابد هذه المرحلة، التكية السليمانية.

والمرحلة الثانية، كانت في عهد أسعد باشا العظم والي دمشق وأمير الحج، وخلالها أنشأ قصراً وخاناً هو من أحسن الخانات في العهد العثماني[1].

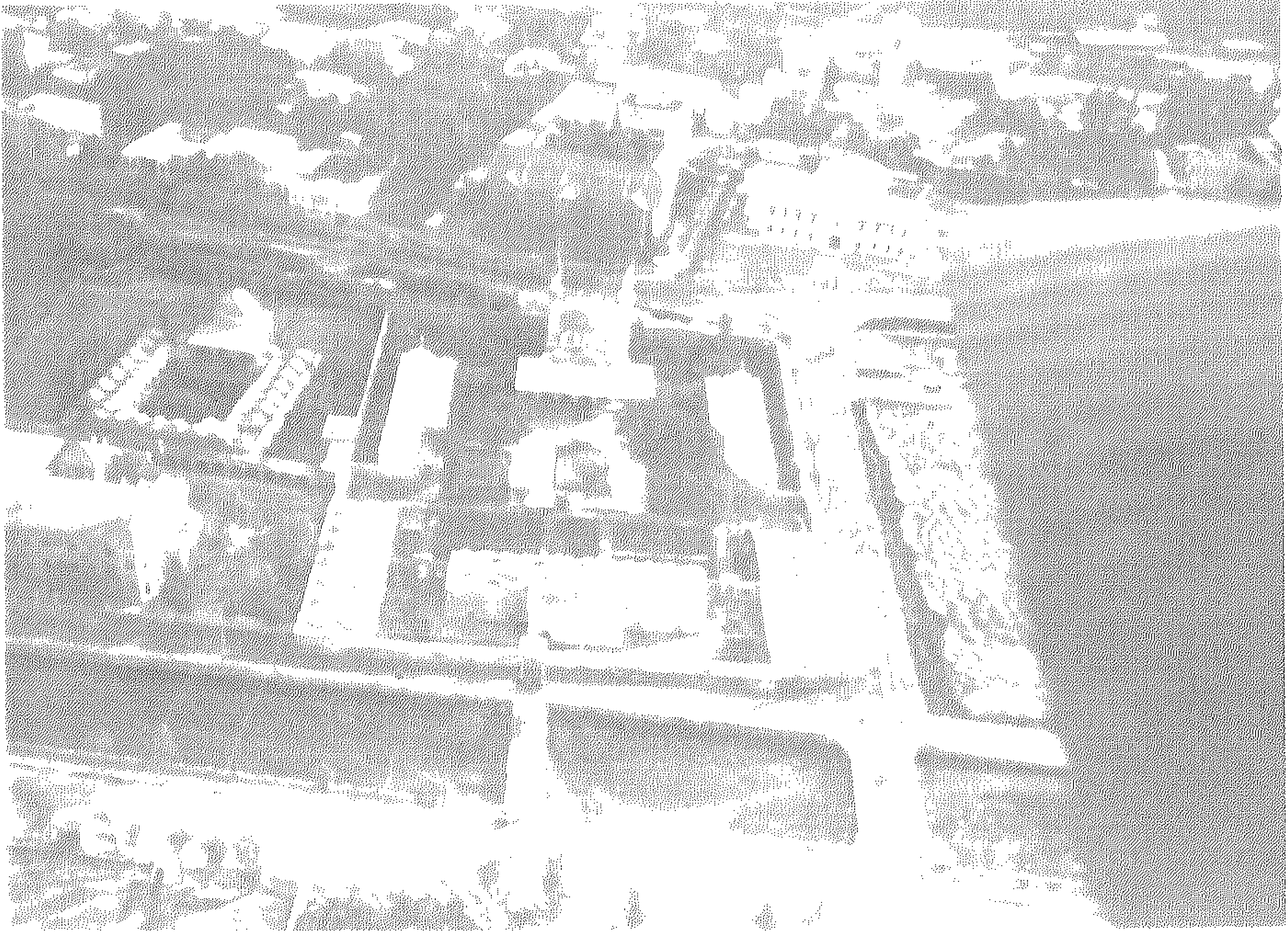
٢/٥ التكية السليمانية بناء ضخم في مدينة دمشق يتألف من عدد من المباني المستقلة. يحيط بها جميعاً سور مرتفع أبعاده (١٢٥×٩٤م)، ومدخل التكية الرئيسي يقع في الشمال، تعلوه قبة محمولة على أعمدة، وثمة باب أصبح أكثر استعمالاً ينفتح من الغرب مخترقاً الصحن ومتصلاً بباب آخر ينفتح على



المدرسة العزيزية - مدفن صلاح الدين

السوق والمدرسة. ولقد غطت الحدائق والأشجار جميع الفراغات بين الأبنية التي تتقدمها أروقة مسقوفة بقباب منخفضة، وخلفها قاعات مسقوفة بقباب مماثلة أكثر ارتفاعاً، يتخللها ذؤابات المداخن على

(١) عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس - تحقيق جعفر الحسني - دمشق ١٩٤٨.



التكية السليمانية، تصوير (إيكو شار) سنة ١٩٢٨م، وهي من تصميم المعمارسنان وتنفيذ المعمار الدمشقي ابن العطار

شكل مآذن صغيرة، ويبدو المشهد رائعاً عندما يتناغم شكل القباب المتكرر مع شكل الأقواس فوق أعمدة الأروقة في جميع الأبنية التي كانت تستعمل لإيواء المصلين والمتعلمين ولإطعامهم، وجميع الأبنية الواقعة في القسم الشمالي تؤكد هذه الوظائف التي أُلغيت الآن. أما المسجد فيقع في منتصف القسم القبلي أي الجنوبي من الصحن، وهو حرم، والصحن هو صحن التكية المشترك. وهذا الحرم مربع الشكل طول ضلعه ستة عشر متراً تغطيه قبة عالية ذات قطر واسع ذات عنق مؤلف من عدد من النوافذ ذات الزجاج المعشق، ويحمل القبة أربعة أقواس محمولة على أركان الجدران في زواياها مثلثات كروية، ويعلو جدران الحرم نوافذ كانت محلاة بالمعشق. أما واجهات الحرم من الخارج فهي مؤلفة من مداميك من الحجر الأبيض والأسود بشكل متناوب، وهو طابع جميع جدران هذه التكية. ولعل هذا التشكيل البديع كان مطابقاً لتشكيل المباني المملوكية، وبخاصة قصر الأبلق الذي كان قد أنشأه الملك الظاهر بيبرس، وكان السلطان سليمان قد أعاد استعمال حجارته في موقع التكية نفسه.

٣/٥ لقد أشرف على بناء هذه التكية الرائعة المهندس الدمشقي ابن العطار، ولكن تصميم البناء يعود إلى المعمار الشهير سنان الذي رافق السلطان سليم في زيارته إلى بلاد الشام ومصر عند



التكية السليمانية ـ للمعمار سنان ـ ١٥٥٤ ـ ١٥٥٩م

الفتح العثماني.

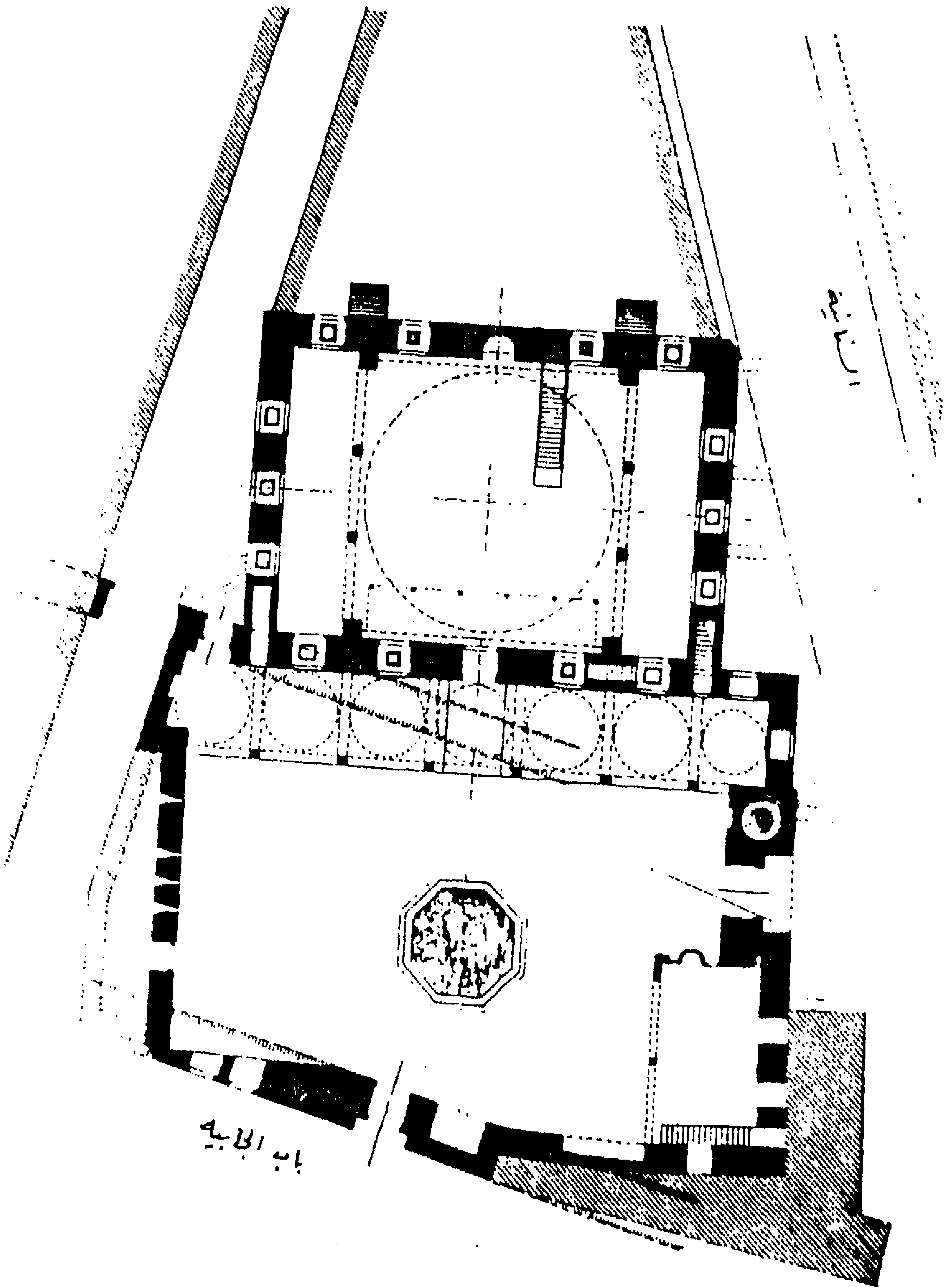
ويبدو تأثير المعمار سنان واضحاً في شكل المئذنتين الواقعتين في زاويتي الجدار الشمالي للمسجد، وهما مضلعتان، ولكن تبدوان أسطوانيتين يعلوهما قمع مخروطي من الرصاص، ولكل مئذنة شرفة محمولة على مساند من المقرنصات. وفي داخل المسجد محراب تعلوه زخارف حجرية مقرنصة وإلى جانبه منبر رخامي.

وينفتح حرم المسجد على الصحن بباب رائع الزخرفة تتقدمه مظلة ضخمة محمولة على أعمدة ذات تيجان مقرنصة ملساء، والمظلة مؤلفة من ثلاث قباب ويتقدم المظلة رواق أقل ارتفاعاً محمول على قناطر ذات أعمدة ضخمة.

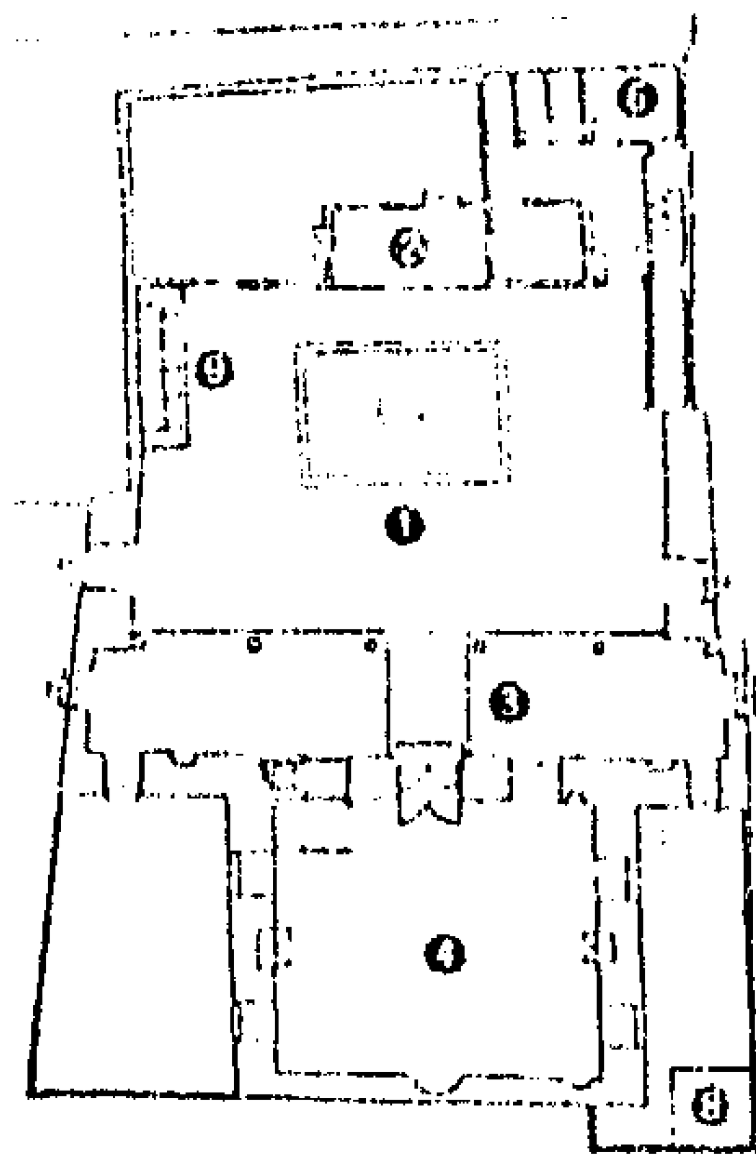
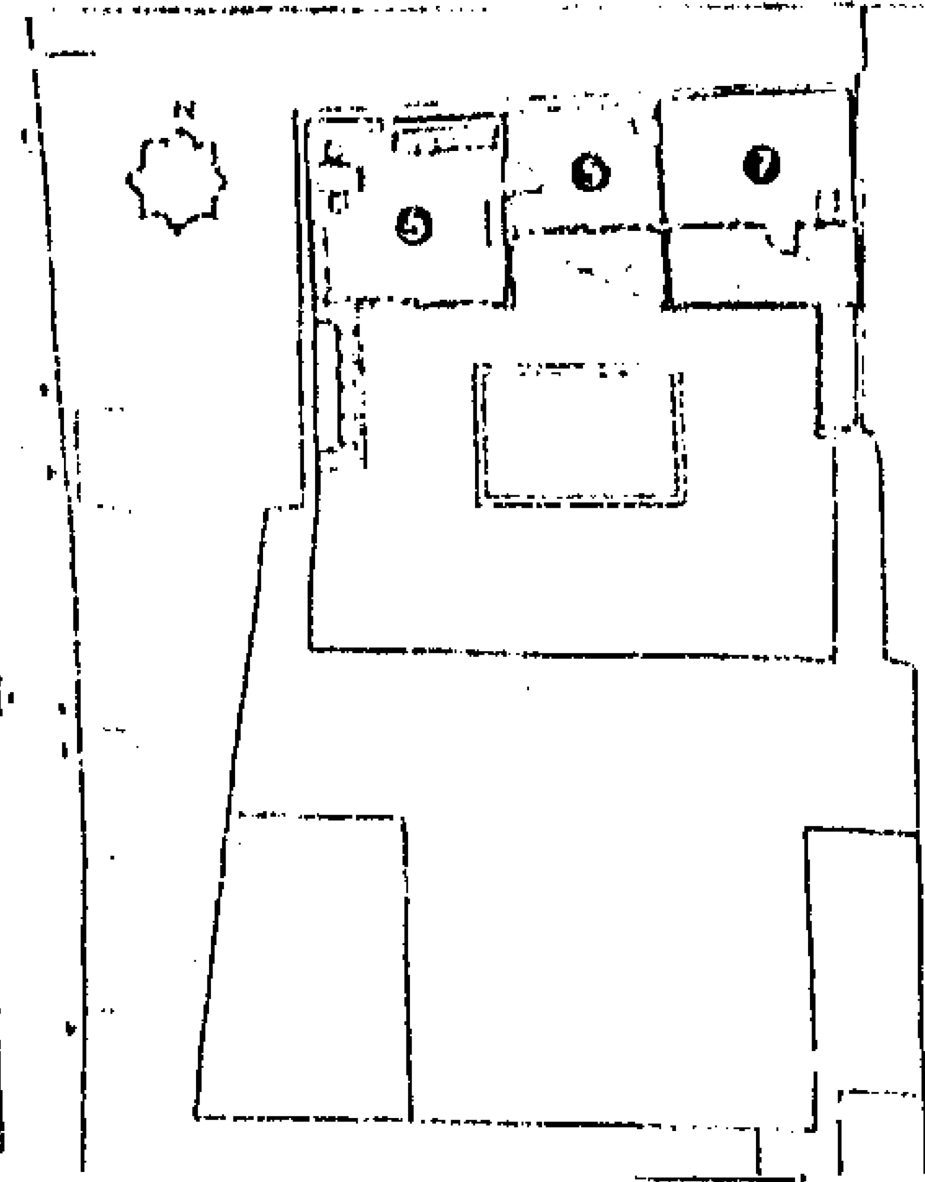
وفي مدرسة التكية إلى الشرق، بناء مستقل لمسجد خاص بها يمتاز بزخارفه الوفيرة، ورشاقة بنائه، وجمال بابه ونوافذه.

٥/٤ إن أروع ما يميز هذه التكية هو الزخارف التي تعلو الأبواب والنوافذ، أو التي تزين جدران المسجدين من الداخل على شكل سجاجيد، وهذه الزخارف مؤلفة من ألواح خزفية صنعت كلها في دمشق، وهي ذات مواضيع زخرفية نباتية وكتابات قرآنية، بلونين؛ الأزرق والأخضر وبعض اللون الأحمر الرمّاني، الذي امتازت به ألواح الخزف الدمشقي والتي يميزها عن الخزف التركي.

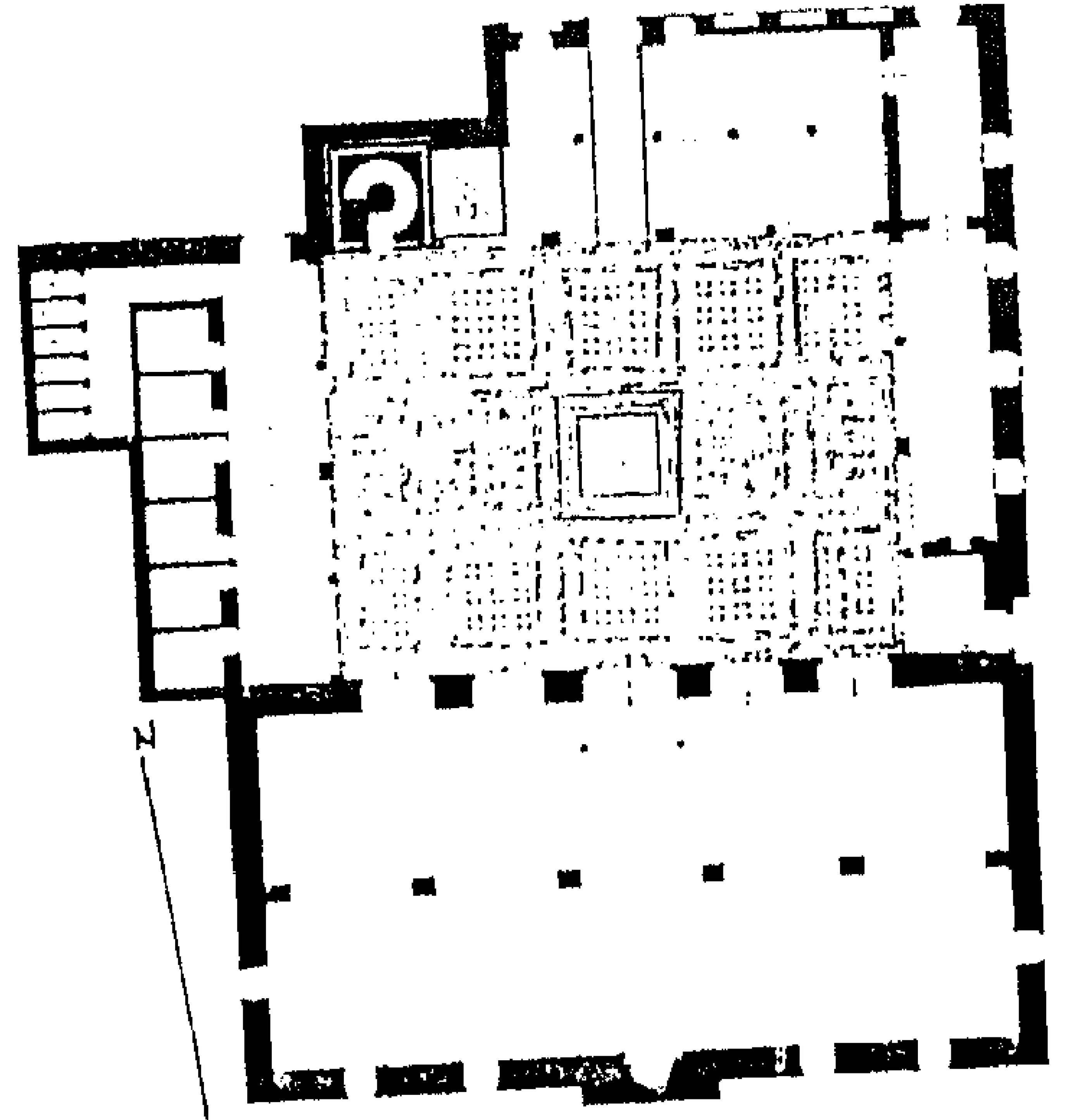
٥/٥ أما المدرسة والسوق، فلقد شكلتا مجموعتين مستقلتين عن التكية وإن وحّدتهما الزخارف والقباب والأروقة.



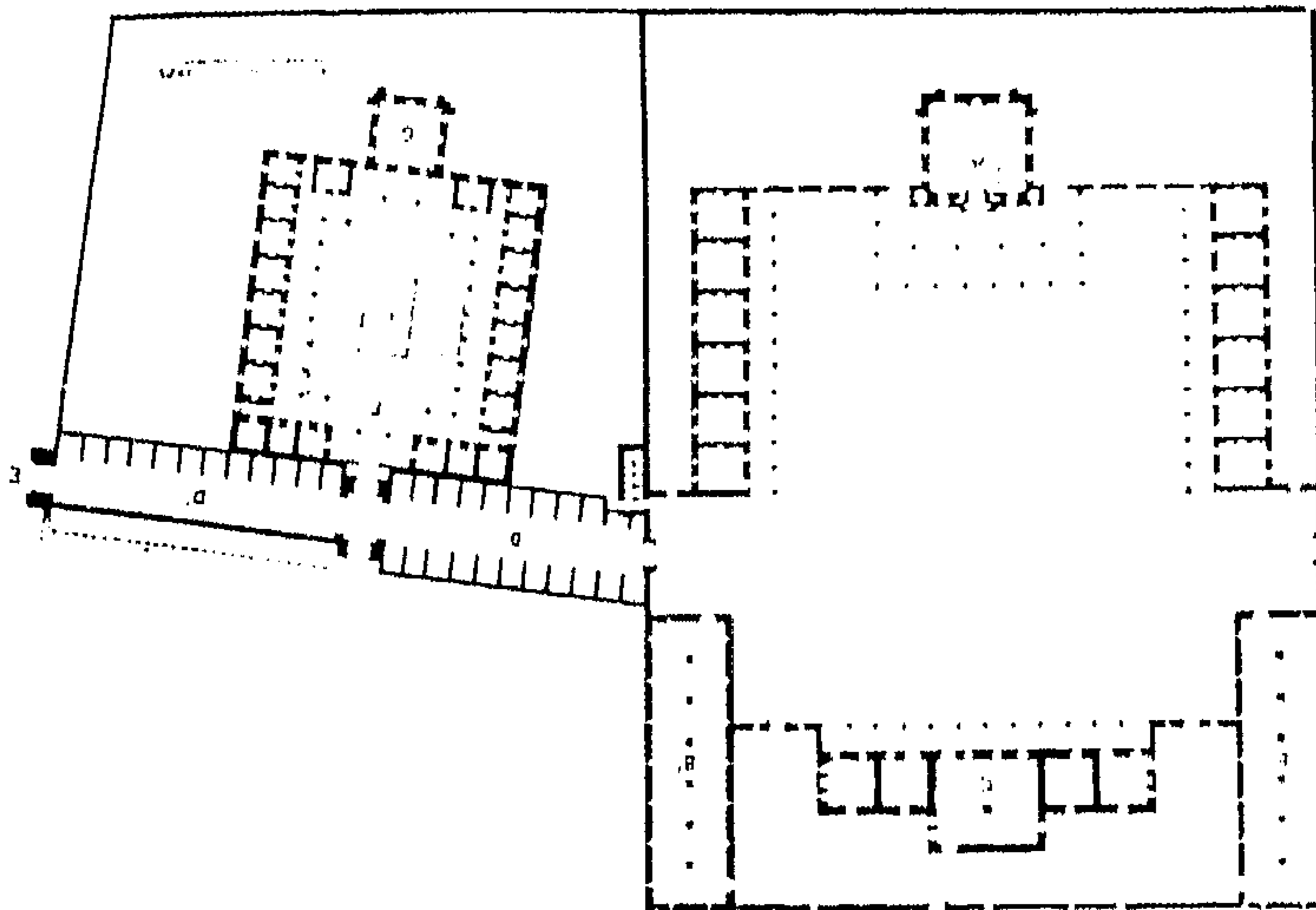
مخطط جامع السنانية

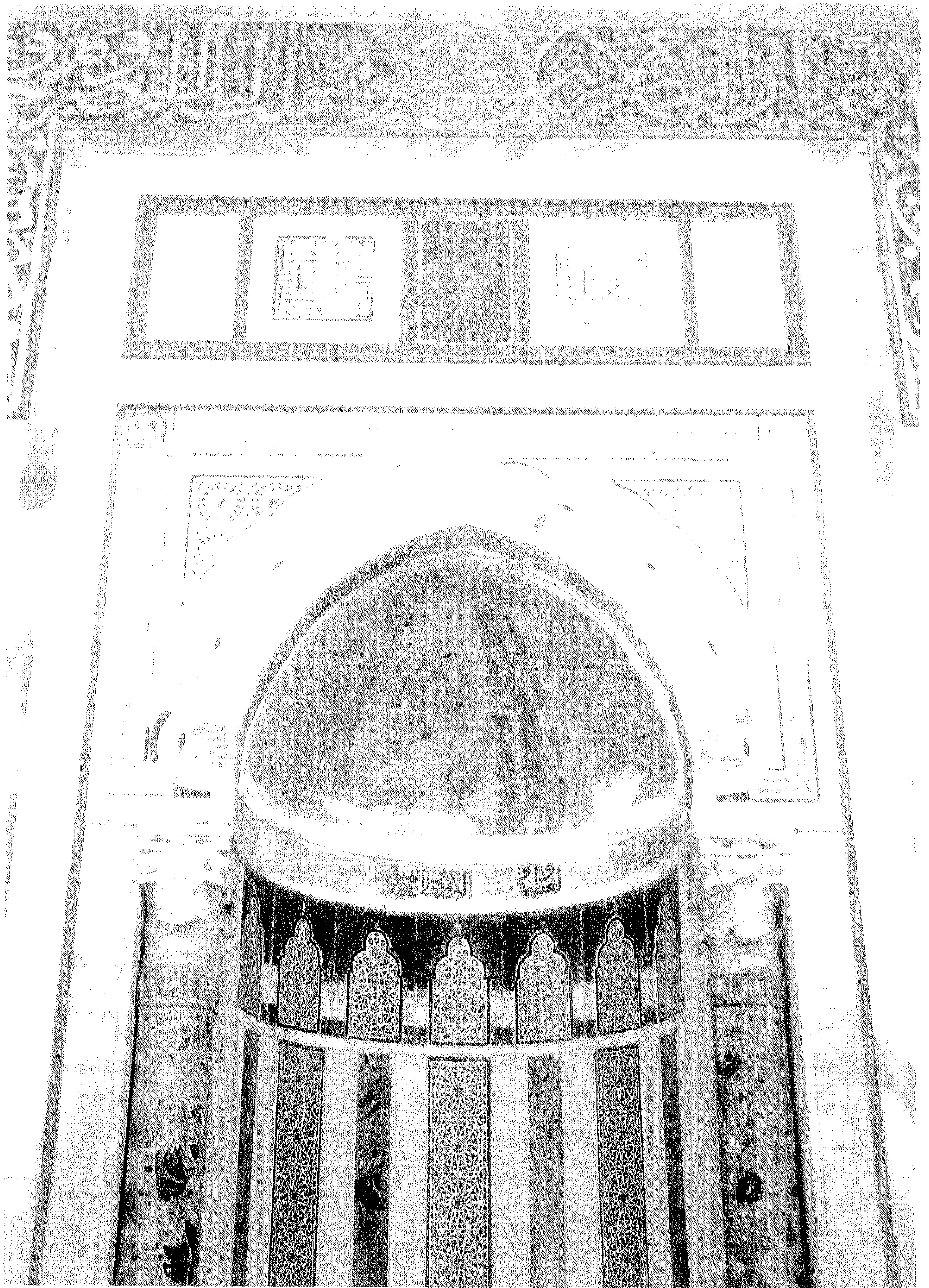
مسقط جامع الياغوشية



مسقط مسجد الأقصاب – السادات



مسقط عام للتكية السليمانية



محراب المدرسة الجقمقية

وتستعملان اليوم سوقاً للفنون اليدوية. أما أبنية التكية -عدا الجامع -فلقد استعملت مؤقتاً متحفاً حربياً وسينقل قريباً إلى قلعة دمشق.

إن هذه التكية التي أُنجزت في عهد السلطان سليمان كان قد أمر ببنائها أولاً والده السلطان سليم فاتح الشام ومصر. وكان السلطان سليم قد أمر منذ دخوله دمشق بإنشاء مسجد على ضريح الشيخ الصوفي محيي الدين بن عربي المتوفى سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٠م) إلى جانب تكية وتربة، ومازالت هذه المجموعة من الأبنية قائمة في سفح قاسيون تزودها بالماء ناعورة فريدة بنوعها وآليتها. وتمتاز زخارف هذه المجموعة بألواح الخزف الدمشقي.

٦- خان أسعد باشا

١/٦ آبدة معمارية تفوق نظائرها في جميع أنحاء البلادالتي انتشرت فيها الخانات الإسلامية. ولقد وصفه (لامارتين) عند زيارته إلى دمشق، بكثير من الإعجاب والتقدير لصانعيه ومصمميه.

أنشئ هذا الخان في عام (١١٥٩هـ/١٧٤٣م) وانتهى بناؤه عام (١١٧٢هـ/١٧٥٦م) وهو ملك خاص لوالي دمشق أسعد باشا العظم، ثم انتقلت ملكيته فيما بعد إلى عدد من التجار، ثم استملكته مديرية الآثار مؤخراً ورممته بإشرافنا لاستخدامه سوقاً سياحياً للصناعات الشعبية.

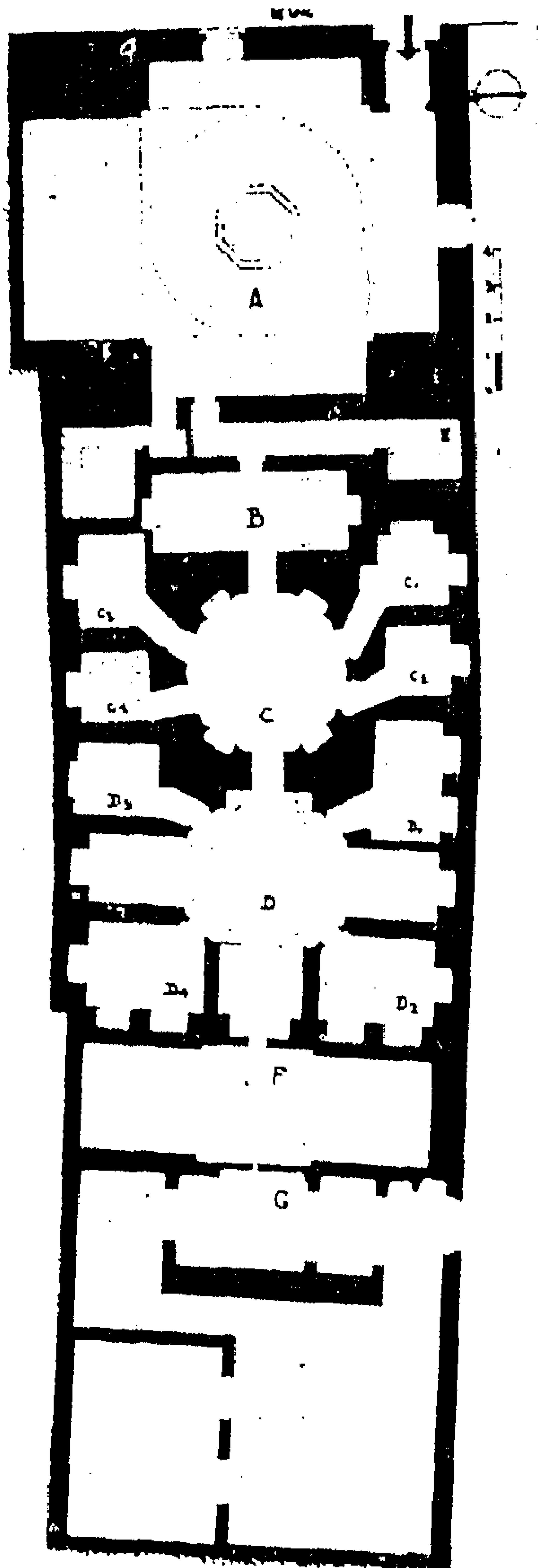
٢/٦ يقع هذا الخان في سوق البزورية الشهير حيث باعة العطارة والسكاكر، إلى جانب حمام تاريخي أنشئ في عهد نور الدين بن زنكي. وتبلغ مساحة هذا الخان (٢٥٠٠متر مربع)، ويمتاز بواجهة عريضة في وسطها بوابة ضخمة مزخرفة، يعلوها سقف مزخرف بقوسين بارزين متشابكين، وفوقهما تجويف من المقرنصات يحيطه قوس مركب من أحجار متشابكة مسننة بلونين أبيض وأسود متناوبين، وفوقه نافذتان وعلى جانبي القوس من الأعلى نوافذ مستطيلة، ومن الأسفل فتحتان مزودتان بفسقيتين. وفي واجهة البناء الجنوبية الغربية ٣١مخزناً.

بعد دهليز عريض يستوعب غرفتين للحراسة ومصعدي الدرجين، نصل إلى باحة ذات فتحة سماوية دائرية توحي أنها كانت مغلقة بقبة، وفي وسط الباحة، بركة مثمنة. وجدران الباحة التي تشكل واجهات الغرف مبنية بالحجر الأسود والأبيض بمداميك متناوبة. ويحيط الفتحة السماوية ثمانية قباب تغطي الباحة عدا مركزها بمساحة (٧٢٩ متراً مربعاً)، ولقد أعيد ترميم بعض هذه القباب مؤخراً. وهي ترتفع عشرين متراً.

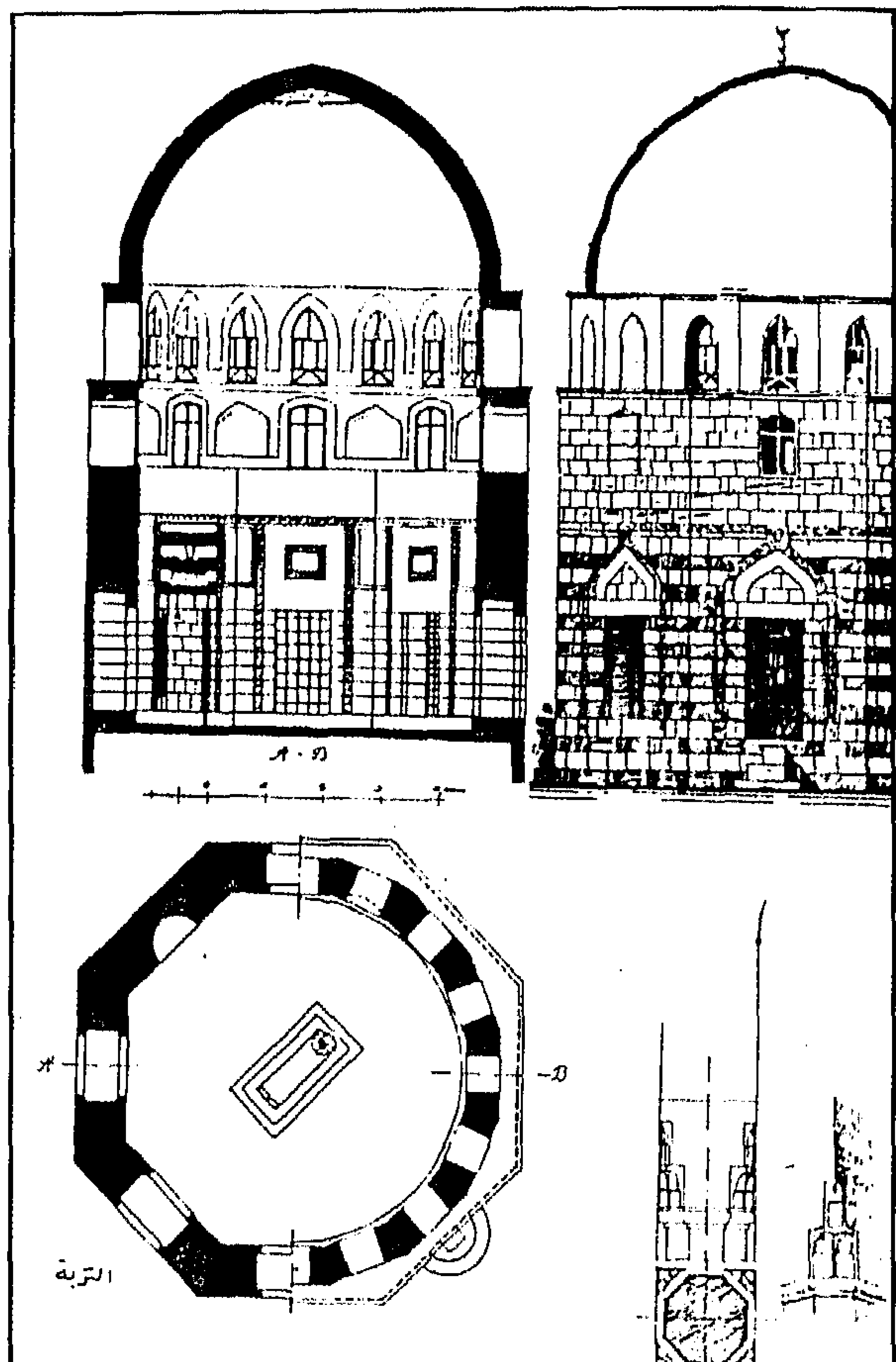
ويتألف هذا الخان من طابقين، الطابق السفلي ويحوي واحداً وعشرين مخزناً أكثرها مزوّد بمستودعات. وفي القسم الشمالي الغربي مسجد صغير ينفتح إلى خارج الخان.

ويتألف الطابق العلوي من أروقة مشرفة على الباحة، وخلفها خمسة وأربعون غرفة، وجناح للمراحيض. وجميع الغرف

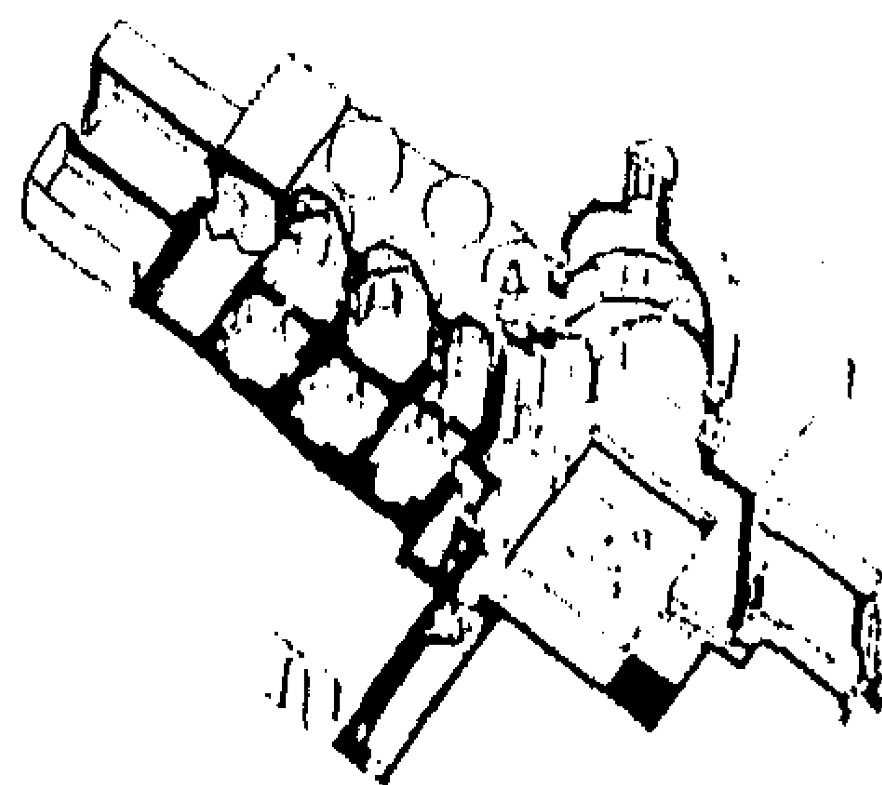
مساقط أبنية نموذجية مختلفة



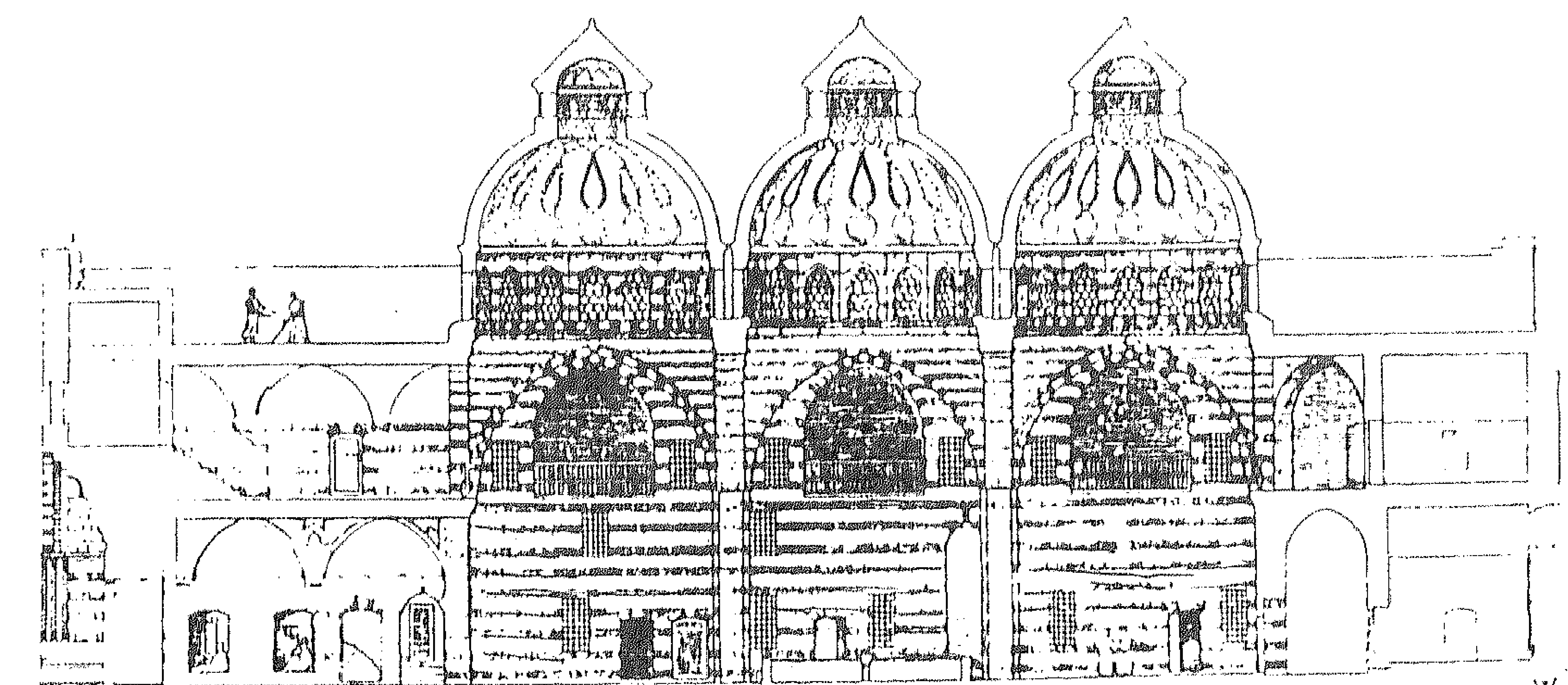
مسقط حمام التيروزي



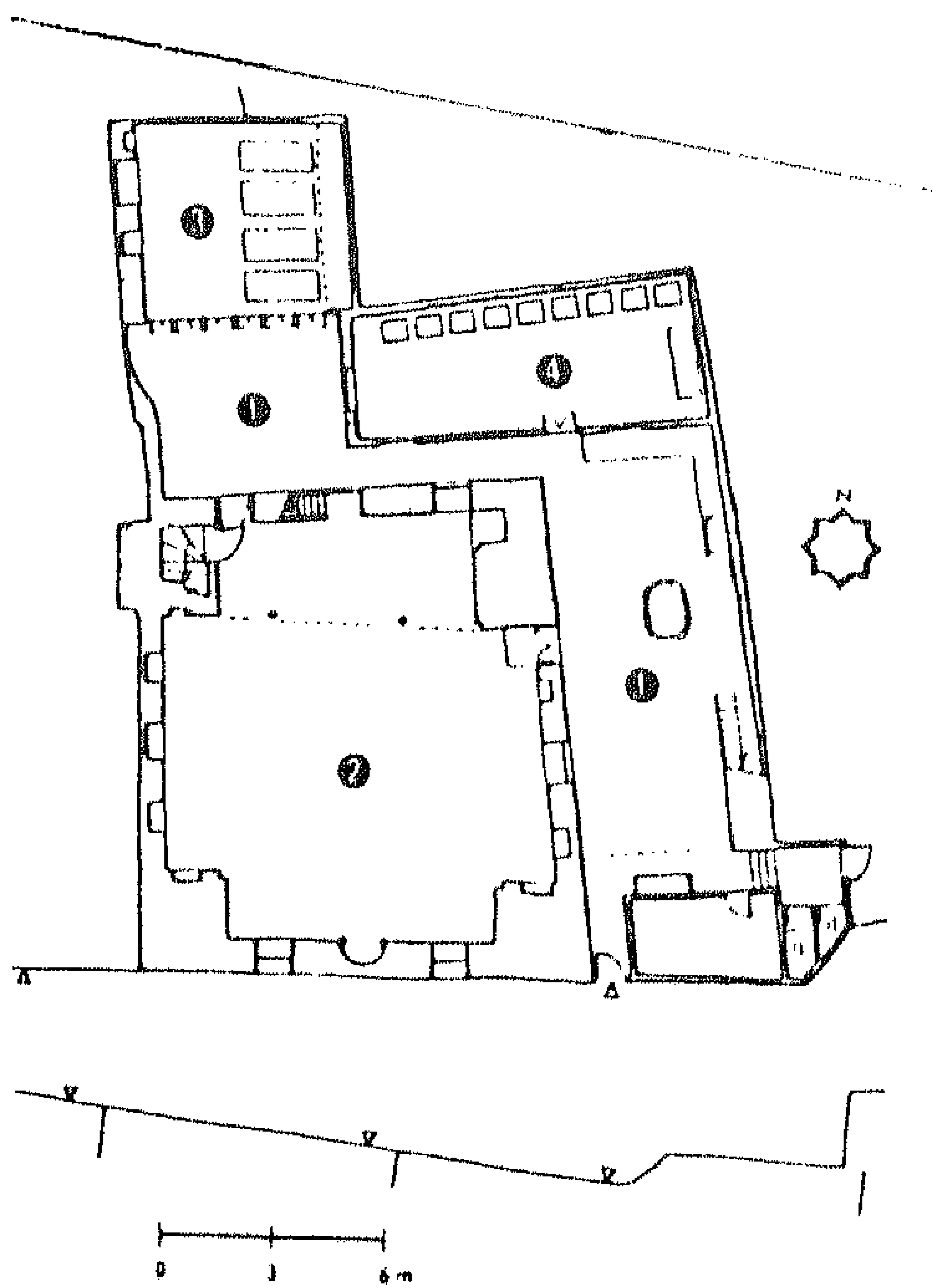
مدفن درويش باشا



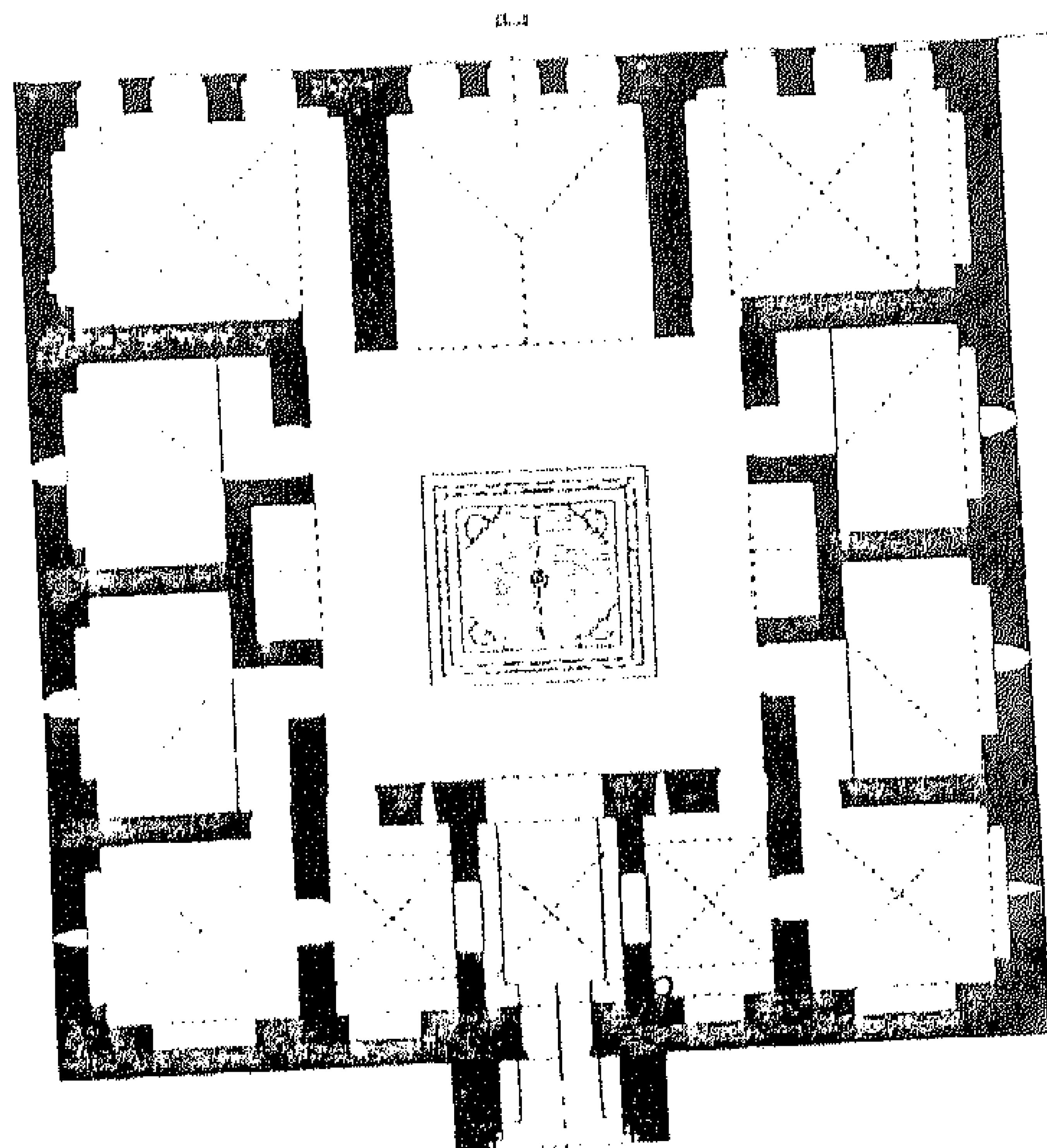
حمام السلطان قبل زواله



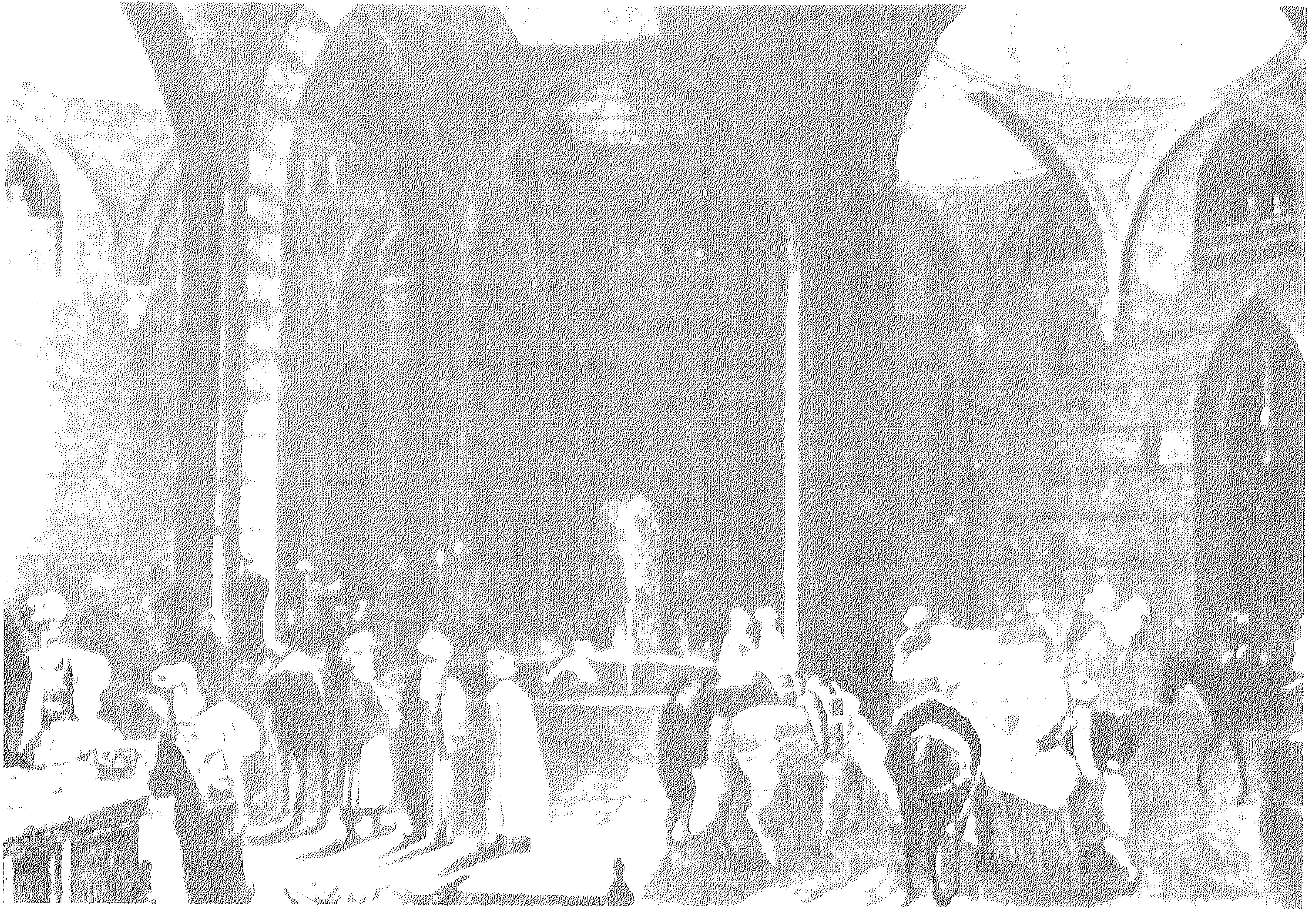
خان أسعد باشا



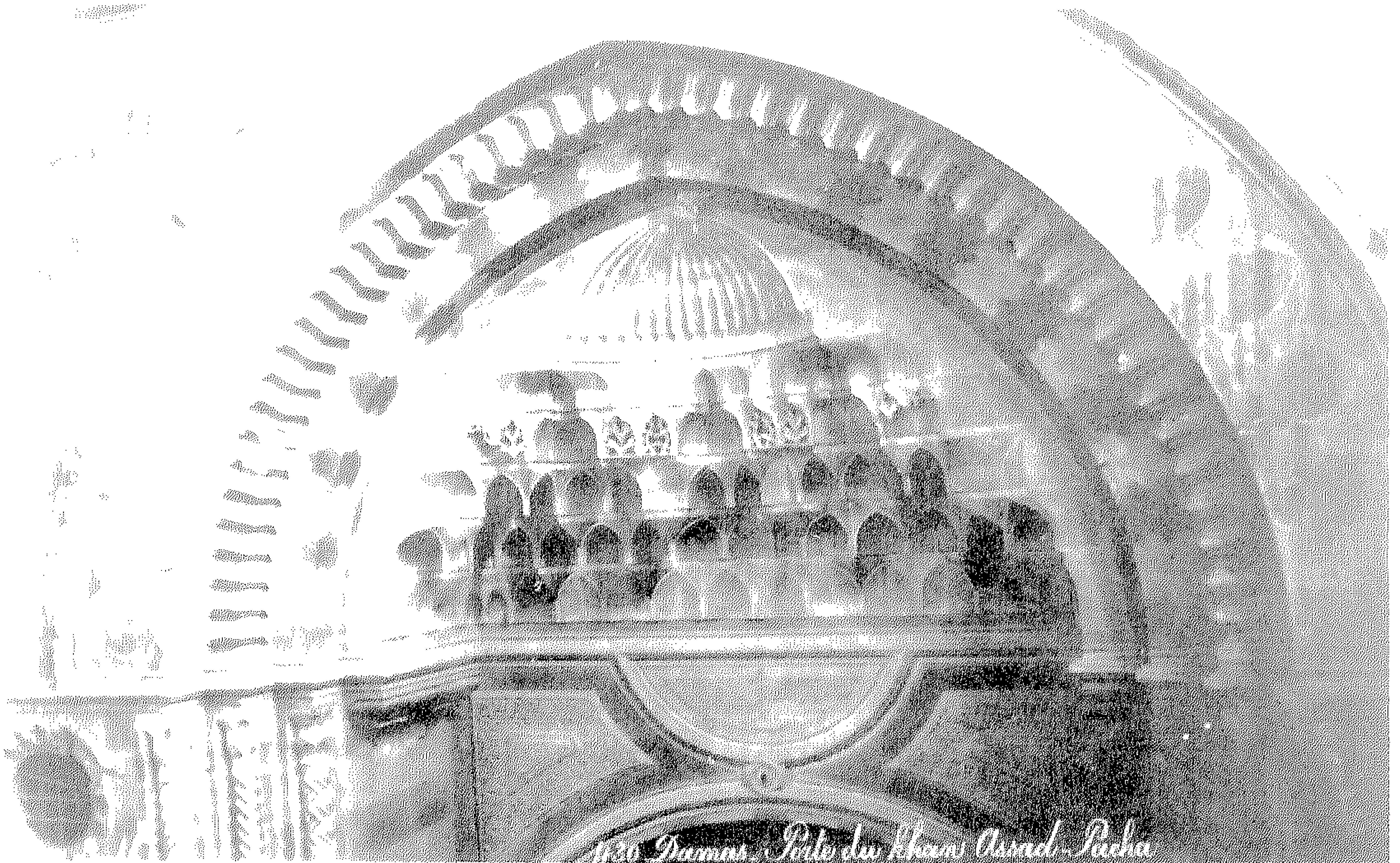
زاوية الصمادية



بيمارستان القيميري



النشاط التجاري في خان أسعد باشا في عام ١٨٧٠ (رسم يدوي لأحد الرحالة)



قمة مدخل خان أسعد باشا في البزورية

مغطاة بقباب داخلية صغيرة، وذات أبواب ونوافذ ما زالت تحتفظ بأصالتها مع أقفالها.

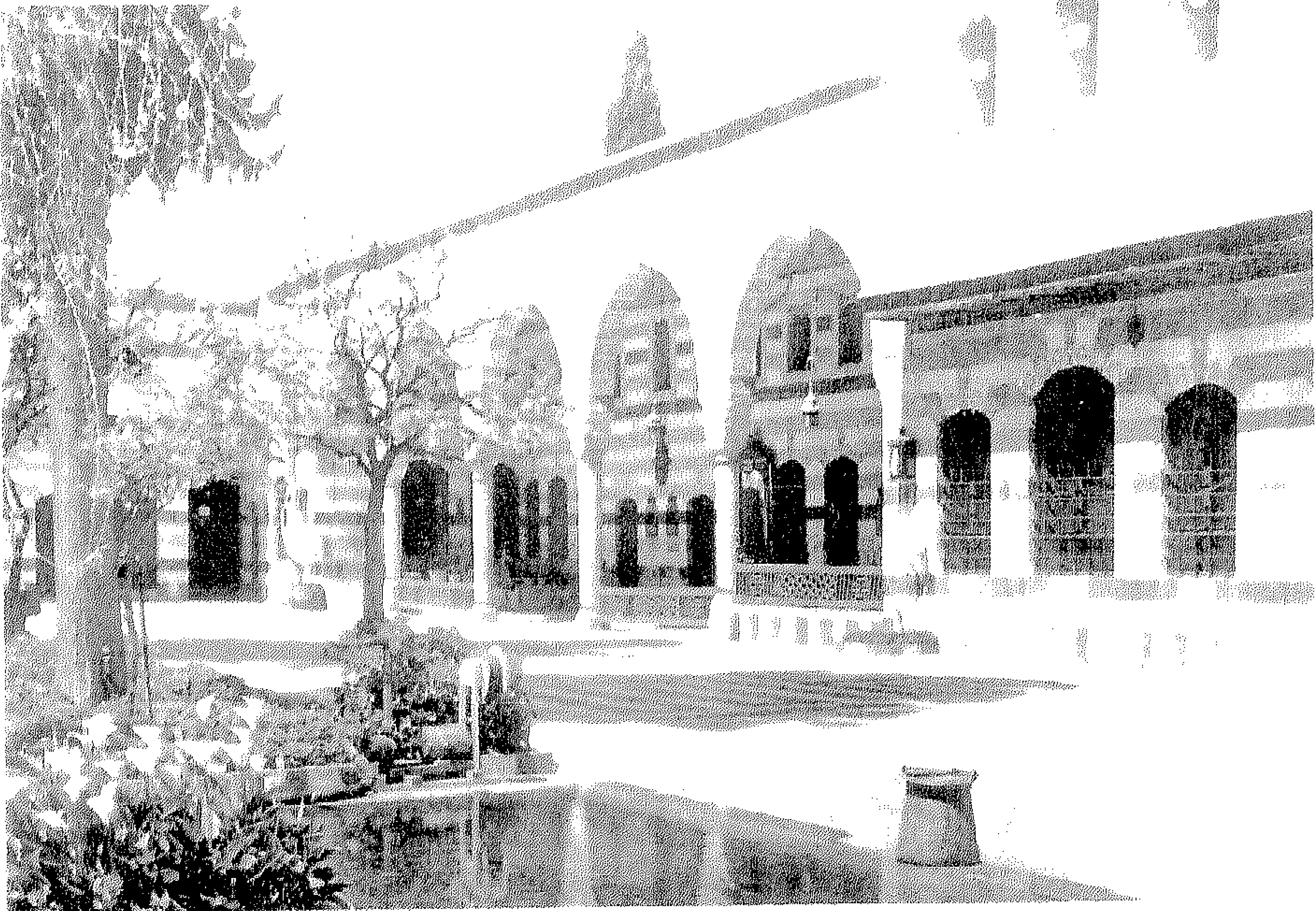
إن واجهة هذا الخان ومشهده الداخلي يثيران الإعجاب بروعة الزخرفة والتنسيق اللوني مع دراسة رائعة للفضاء الداخلي.

٧- قصر أسعد باشا العظم

العظم أسرة سورية مشهورة حكم بعض أفرادها بظل الدولة العثمانية، وبخاصة أسعد باشا بن إبراهيم وقد ولد في معرة النعمان (١١١٧هـ/١٧٠٥م)، وكان نائباً لوالده والي دمشق ثم أصبح وزيراً وعندما أصبح أسعد باشا والياً على حماة أنشأ فيها كثيراً من المباني والمنشآت.

ثم أصبح والياً لدمشق (١١٥٦هـ/١٧٤٣م) مع إمارة الحج وبقي فيها ١٤ عاماً فابتنى بها قصراً وخاناً ورمم المساجد والمآذن. ثم انتقل والياً إلى حلب ثم سيواس إلى أن قُتِل في أنقرة (١١٧١هـ/١٧٥٧م) وصودرت أمواله التي قُدِّرَت بمئة ألف كيس (بما يعادل ثمانية ملايين فرنك ذهبي فرنسي).

٢/٧ ولقد ترك أسعد باشا في دمشق قصراً، أُنشئ سنة (١١٦٣هـ/١٧٤٩م) ليكون مقراً لوالي دمشق أسعد باشا العظم، ويقع في مكان كان فيه قصر الخضراء الذي بناه معاوية بن أبي سفيان في الجهة الجنوبية من الجامع الكبير. ولقد أنفق أسعد باشا على بناء هذا القصر أموالاً كثيرة، ولعله جمع بعض



قصر العظم بدمشق أنشأه والي دمشق أسعد باشا العظم ١٧٤٩ م



الحرملك ــ قصر العظم بدمشق



قصر العظم ـ المدخل

عناصر بنائه من أطلال أبنية دمشق آنئذ[1].

وعمارة هذا القصر تقوم على تقاليد بناء البيت الشامي الذي يقتصر جماله على الداخل، أما خارجه فهو بسيط متقشف إلاّ من باب أساسي جميل.

٣/٧ ويتألف هذا القصر من ثلاثة أقسام هي قسم الاستقبال وقسم المعيشة وقسم الخدم يضاف إلى ذلك الحمام والمرآب. وفي كل قسم فناء (الديار) تحيطه الغرف العالية ويزدهر بالبرك المائية والأشجار المثمرة والنباتات العطرة والزهور. وندخل إلى القصر من بوابة تؤدي لمر عريض مغطى بعقود متصالبة، على يمينه مصطبة للجلوس وعلى يساره غرفة للحارس، ويؤدي هذا الممر إلى قسمي الاستقبال والمعيشة.

إن أكبر قسم في القصر هو قسم المعيشة المسمى (حرملك) ومساحته تزيد عن ثلثي مساحة القصر، ويلحق به قسم الخدم واسطبل الخيل والعربات في الزاوية الشمالية الغربية. وحول الفناء الواسع تقوم القاعات والغرف والإيوان الكبير، وتمتد أمامه بركة طويلة شبيهة ببركة جنة العريف في غرناطة. ولقد زينت واجهات الغرف والقاعات بمداميك ملونة وبالأبلق الذي يغطي بزخارفه الهندسية الدقيقة، أحجار الأقواس.

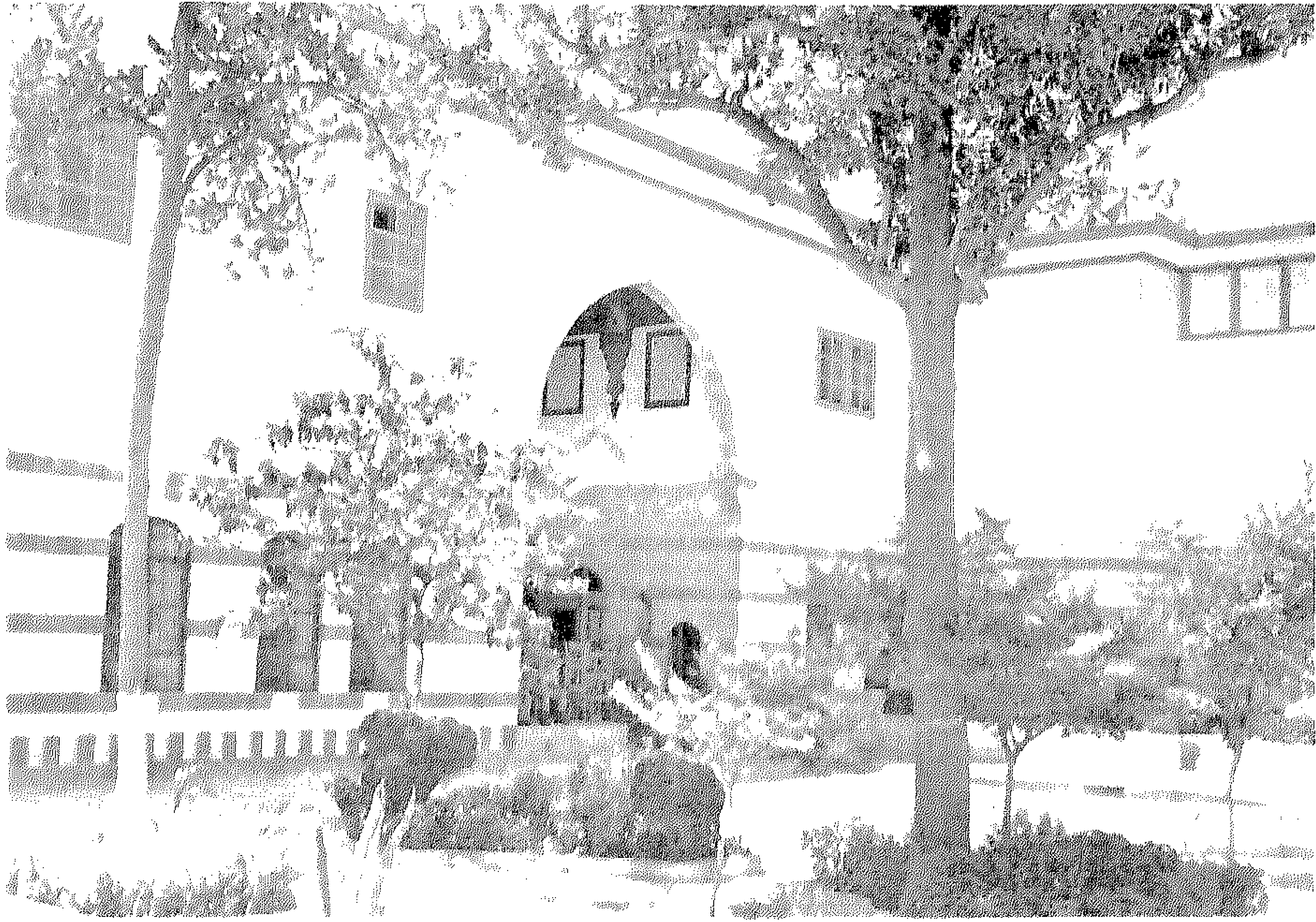
٤/٧ وتغطى السقوف والجدران بكسوة خشبية ملونة بالأسلوب (العجمي). وقسم الاستقبال (السلملك) هوأصغر حجماً ولكنه يحمل الزخارف نفسها والطابع المعماري وفي وسط الفناء بركة مربعة، أما حمام القصر فهو خاص صغير، ولكن عمارته تشبه عمارة الحمامات الدمشقية، فهو مؤلف من ثلاثة أقسام، البارد والدافئ والحار. ويقع في قسم المعيشة (الحرملك) وله قبة ذات عيون زجاجية، ويلحق بالحمام مرجل الماء الساخن (الخزانة) التي تغذي الحمام. ولقد رُمِّم هذا القصر واستحق جائزة آغا خان.

٨- بيت خالد العظم

١/٨ في عام (١٩٧٢م) تم استملاك بيت أثري في سوق ساروجة، كان ملكاًموروثاً لخالد العظم (رئيس الوزراء الأسبق)، وكان هذا البيت متهدماً أصابه

---

(١) صلاح الدين المنجد : قصر أسعد باشا – بيروت ١٩٤٧ .



بيت خالد العظم ـ متحف دمشق التاريخي

حريق وإهمال، ولقد قمنا خلال عشر سنوات بترميمه وإعادة الحياة إليه وتوظيفه كمركز للوثائق التاريخية في القسم الجنوبي ومتحف لمدينة دمشق في القسم الشمالي.

ويتألف هذا البيت من ثلاثة بيوت قديمة، البيت الشمالي هو الأوسع والأكثر غنى وأصالة، والبيت الجنوبي وهو أصغر حجماً وأقل أصالةً، والبيت الشرقي وهو فقير. ولقد اتصلت هذه البيوت ببعضها بدهاليز وأبواب.

٣/٨ والبيت الشمالي مؤلف من فناء واسع مستطيل ينفتح عليه أبواب ضخمة على طرفيه تقوم قاعتان مرتفعتان، مزينتان بزخارف خشبية وحجرية حسب الأسلوب الدمشقي، وتقابل هذه المجموعة الجنوبية مجموعة شمالية مؤلفة من قائمة ذات طرازات ثلاثة وفي غربيها قائمة حلبية الطراز وفي شرقيها دهليز ثم قاعة ذات طرزين. وفي الجهة الشرقية قاعة كبيرة علية بطرزين وتحتها قبو مرتفع. ويقع المطبخ والحمام في الزاوية الشرقية الجنوبية. وثمة بركة بيضوية واسعة تجاه الديوان.

٣/٨ ويعتبر البيت برمته رائعة دمشقية أصيلة ويعود إلى بداية القرن التاسع عشر، ولقد تم تأثيثه بالأثاث الدمشقي التقليدي. ولقد تم ترميم جميع الخشبيات والحجريات وتصنيع المفقود منها من قبل ورشة واسعة من العاملين في إدارة الآثار، ضمّت طلاباً ومتمرنين من الفنانين التشكيليين الشباب.



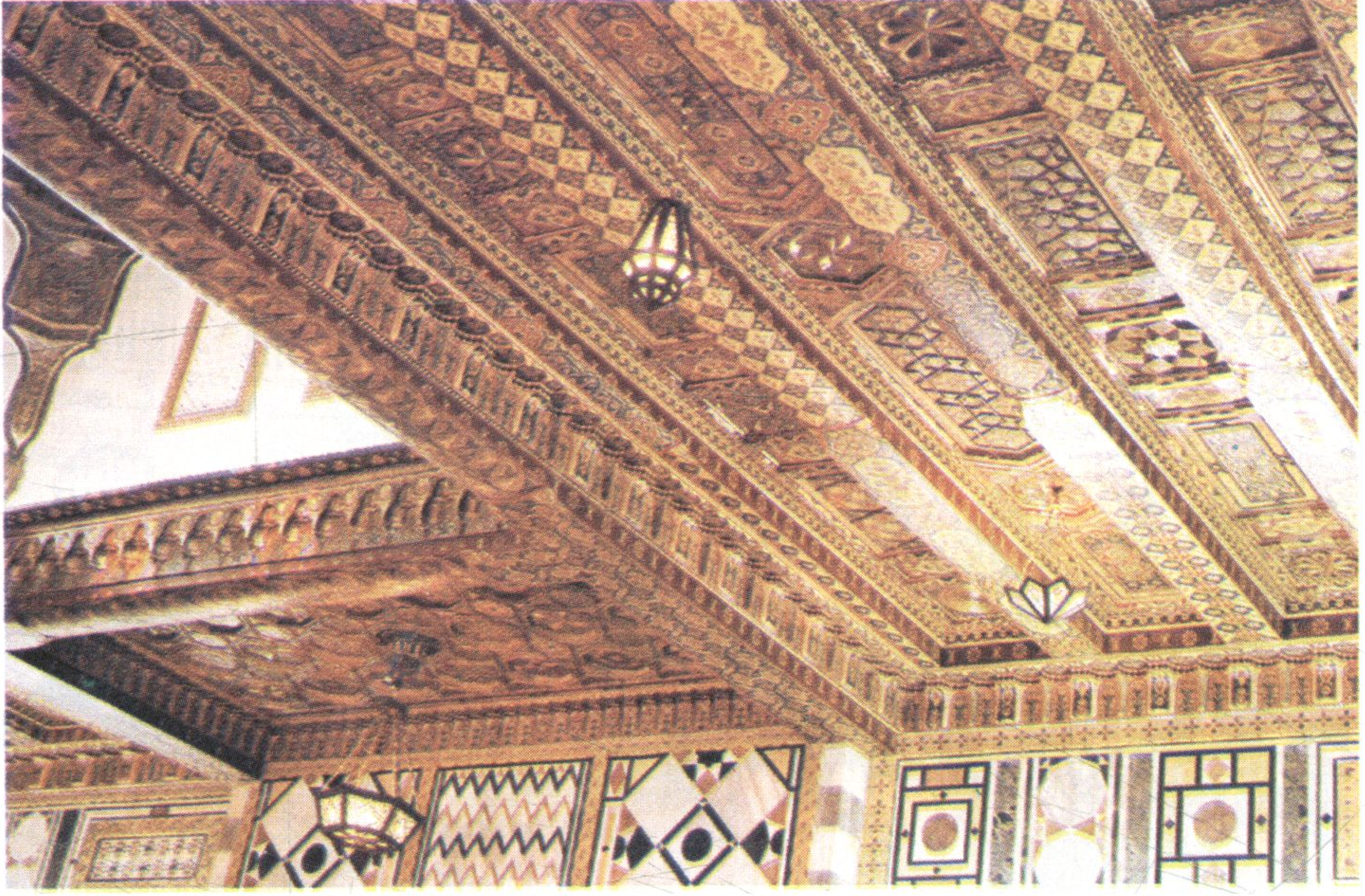
مبنى العابد (المنزل) أضخم بناء في ساحة المرجة، أنشأه عزت باشا ليكون فندقاً ١٩١٠

٩- مبنى العابد

١/٩ في مركز مدينة دمشق (المرجة) شيّد عزت باشا العابد فندقاً انتهى بناؤه سنة (١٩١٠م)، وكان قد اشترى من الوالي حسين باشا قصر الوالي كنج يوسف باشا الذي أنشأه سنة (١٢٢٢هـ/١٨٠٧م) عندما كان والياً. فهدمه وأقام مكانه هذا المبنى الضخم على الطراز الألماني، ومازال هذا المبنى مهيمناً على ساحة المرجة، ولقد أُنشئ على مرحلتين. ويقوم على أساسات هي أوتاد خشبية بطول (٢,٥م)، وجدرانه من الآجر المكسوّ بالحجر، وللمبنى مدخلان رئيسيان وخمسة مداخل ثانوية، ويحيط المبنى ساحة سماوية نصل إليها عبر مدخلين. ومنها نصل إلى الطابق الأول بأدراج رئيسية، وحولها مخازن. ويحوي الطابق الأول قاعة مركزية ذات قبة وهي محاطة بغرف. ولم يُسْتَعْمل البناء فندقاً بل جعله الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى منزلاً للعساكر، ومازال يسمى (المنزل). ويعلو المبنى في قمته منور اثني عشري الأضلاع وغُطِّي السطح بالقرميد.

١٠- القاعات الشامية

١/١٠ تبدو القاعات الشامية أثراً فنياً حضارياً تتسابق المتاحف لاقتنائها، فنحن نراها في متحف برلين ونراها في البرتغال وفي بيروت ونراها في متحف دمشق ومتحف حلب ومتحف حماة، ومتحف بيت الدين.



القاعة الشامية في متحف دمشق أعاد تركيبها أبو سليمان الخياط ١٩٦٧ وأضاف عليها

بل نراها في بيوتات دمشق وحلب شاهدة على نبوغ الصانع الشامي، في إبداع روائع الفن المعماري الإسلامي في بلاد الشام.

في المتحف الإسلامي التابع للمتحف الوطني بدمشق، أُعيد بناء قاعة شامية كان قد تبرع بها جميل مردم آنئذ. وقام المتحف بترميمها وإضافة بعض المساحات إليها استكمالاً لصالة واسعة.

وتتألف القاعة من طزرين وقاع (ولم يعد الطزران مرتفعين بعد التركيب الجديد)، وفي القاع بركة مؤلفة من الفسيفساء الحجري النجمي الشكل، تتلقى ماءها من سلسبيل يقوم على جدار القاع الشمالي الذي زُيِّن بزخارف رخامية كبيرة. ويزين جدران القاعة وسقوفها خشبيات ملونة على طريقة العجمي، تُعْتَبَر آية في الإبداع الشامي، ولقد أُضيفت لهذه الخشبيات بعض الحشوات.

وفي وسط سقف القاعة تنهض متجاوزة السقف، قبة مكعبة تسمح نوافذها بالإضاءة والتهوية وتعود هذه القاعة إلى بداية القرن التاسع عشر.

٢/١٠ القاعة الشامية: في جامعة نيويورك-أمريكا

إن مؤسسة كيفور كيان الخيرية التي قدمت قاعة إلى متحف الميتروبوليتان كانت قد قدمت أيضاً إلى جامعة نيويورك، مجموعة أخرى من الزخارف المعمارية الداخلية تعود إلى منزل سعيد القوتلي الذي أُنشئ عام (١٢١٢هـ/١٧٩٧م) على الطراز التقليدي الدمشقي، الذي فقدت



الطغراء العثمانية
تعلوها زخرفة
شطرنجية بارزة
ضمن لوح كامل ـ
جزء من جدار
القاعة الشامية في
المتحف الوطني

دمشق بعض روائعه أثناء الحريق الذي أتى على حيّ سيدي عمود في دمشق القديمة، بفعل المستعمر الفرنسي الذي أراد أن ينتقم من سكان الحي الذين قادوا الثورة ضده، ومازال هذا الحي يُعرف باسم (الحريقة) على الرغم من إعادة إعماره، ولكن- مع الأسف - حسب الطراز الأوربي وليس حسب الطراز الدمشقي التقليدي.

وفي جامعة نيويورك قسم للدراسات الشرق أوسطية. يعلّم اللغات والآداب والاقتصاد في منطقة الشرق الأوسط، وبخاصة البلاد العربية. ولقد قدمت مؤسسة كيفوركيان منحة لبناء عمارة خاصة بهذا القسم توخى المعمار أن يستوحي واجهاتها من العمارة العربية، أما أقسامها الداخلية، فلقد روعي فيها استيعاب القطع الخشبية والحجرية التي كانت تعود إلى بيت القوتلي، وهو بيت آخر مختلف عن ذلك الذي أُهدي إلى متحف الميتروبوليتان، فلقد تأثرت زخارف هذا البيت بالأسلوب الباروكي الأوربي الذي امتد إلى جميع المباني في السلطنة العثمانية، في نهاية القرن الماضي.

وكما هو الأمر في المتحف، فلقد صُنِّفت القطع التي كانت في مخازن الجامعة ووُثِّقت، لكي يُعاد تركيبها كما كانت ولكن بترتيب مختلف. في القسم السفلي من بناء قسم الدراسات الشرق أوسطية، وبالتحديد في قسم المطالعة من المكتبة الكبرى التي تحوي ما يزيد عن عشرين ألف كتاب ومخطوط.

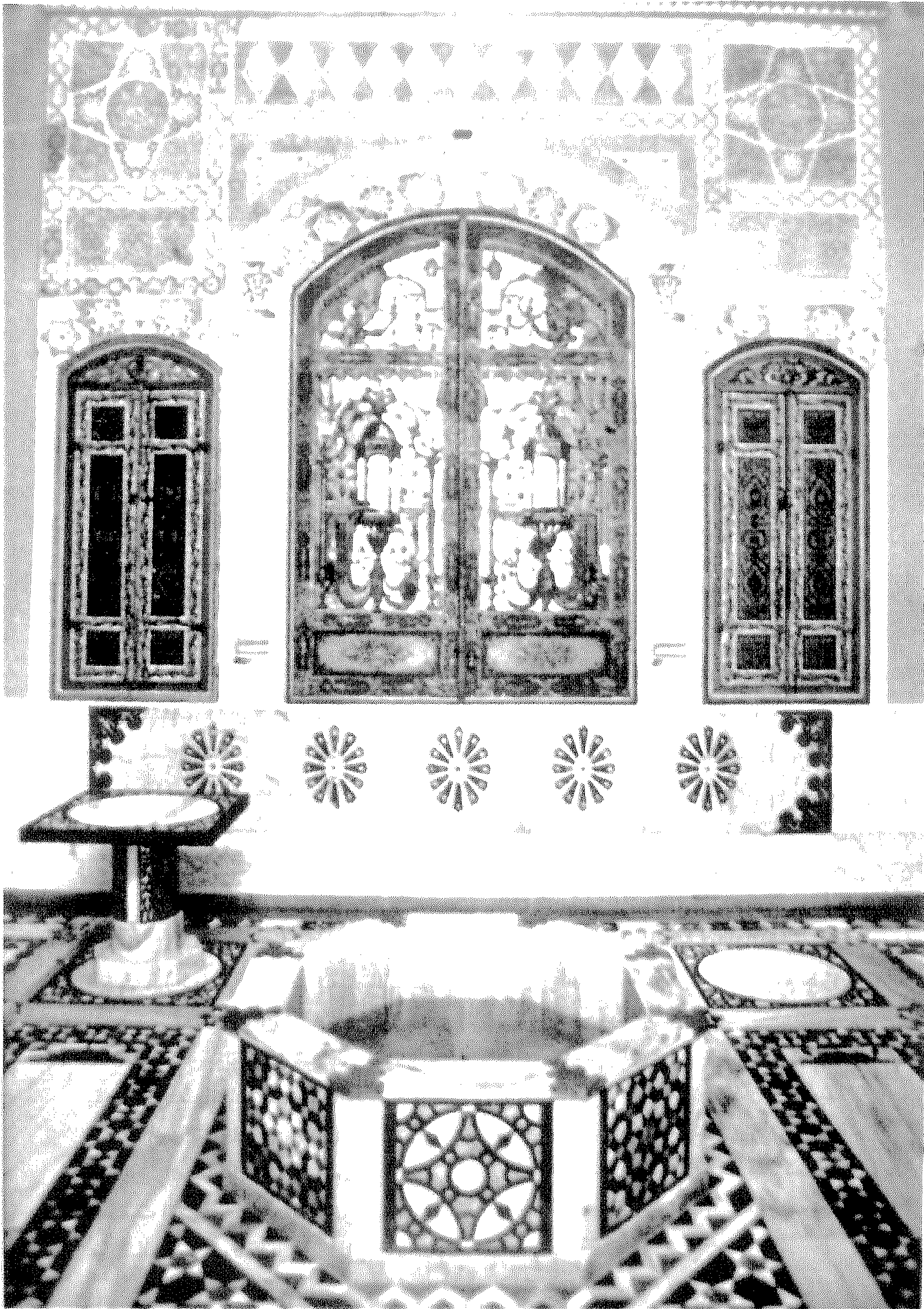
٣/١٠ وفي هذه المكتبة أُعيد تركيب باب عريض مقوس ومزين بالزخارف النباتية على خلفية زرقاء وبأقسام مزخرفة وبالأحجار الملونة على شكل أقواس ومقرنصات وألواح فسيفسائية حجرية هندسية الزخرفة، ومن كتبيات تعلوها أقواس حجرية محلاة بزخارف بارزة، وفي جدار آخر أُعيد تركيب كتبيات مختلفة الأشكال والقياسات، أما أرض القاعة، فلقد فُرشت بأروع البلاطات الرخامية المنزلة بزخارف رخامية ملونة، على شكل أزهار أو حصائر شطرنجية ملونة. ويعلو القاعة سقف خشبي مزخرف بعناصر نباتية متأثرة بوضوح بالزخرفة الباروكية.

ولم تكن إعادة تركيب هذه الزخارف أمراً سهلاً، نظراً لأنها لاتشكل غرفة كاملة، بل عناصر غرفة، أُعيد توزيعها في هذه القاعة بطريقة ذكية، فبدت متحفاً يُعاش فيه، أو مسكناً يتمتع سكانه بتحفه.

٤/١٠ القاعة الشامية: في متحف الميتروبوليتان -نيويورك- أمريكا

إن أول ما يشاهده زائر متحف الميتروبوليتان في نيويورك، هو القاعة الشامية التي أُعيد تركيبها في مقدمة القسم الشرقي في المتحف.

ومتحف الميتروبوليتان هو أضخم متحف في نيويورك يحوي آثاراً رائعة ونادرة من مصر القديمة ومن بلاد الرافدين ومن الآثار الإغريقية والرومانية القديمة. وأهم ما يختزنه هذا المتحف قطع رائعة من التحف الإسلامية النادرة؛ من أوان زجاجية ومصابيح، إلى السجاجيد



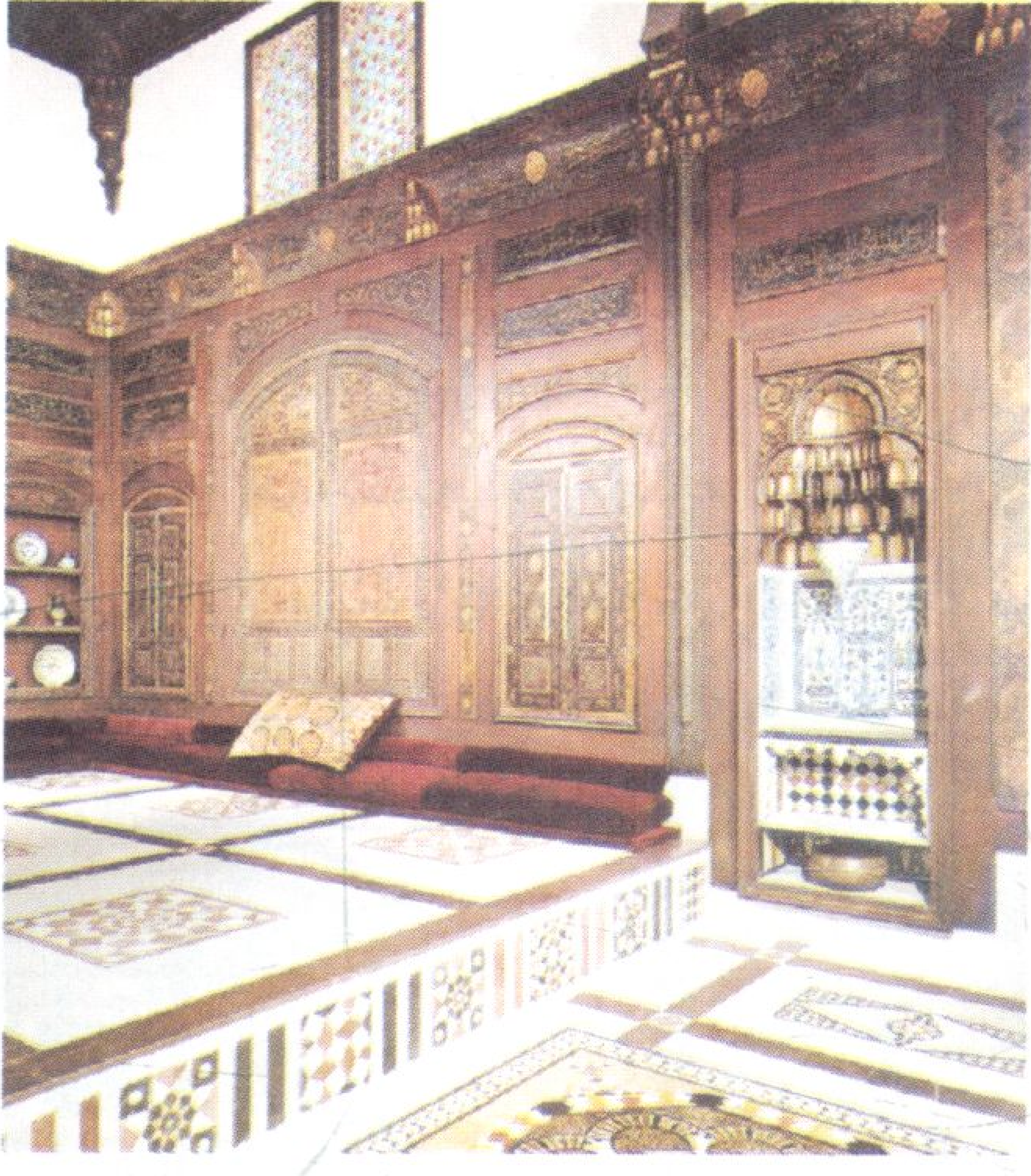
القاعة الشامية ـ مكتبة جامعة نيويورك

القديمة ثم باقي القطع المعدنية والخشبية التي تمّ اقتناؤها منذ تأسيس هذا المتحف.

ومنذ عام (١٩٢٠م) قامت مؤسسة آغوب كيفوركيان الخيرية بإهداء هذا المتحف قطعاً خشبية وحجرية، هي أجزاء غرفة كاملة من بيت شامي قديم، وكان البيت قد أُنشئ عام (١١١٦ هـ/١٧٠٣م).

إن القاعة التي أُهديت إلى متحف الميتروبوليتان، ليست كافية لتمثيل البيت الشامي، ولكنها مع ذلك كانت من أكمل التحف التي يمتلكها متحف الميتروبوليتان، ولقد حُفظت في مستودعات المتحف بعد ترقيمها وتوثيقها بصور فوتوغرافية لوضع وشكل القاعة قديماً، وفي عام (١٩٧٠م) تمّ تركيبها في المتحف من قِبَل عاملين اختصاصيين وبإشراف مدير المتحف إيتهاوزن الذي ذكر في تقريره إلى مجلس إدارة المتحف، ((إن هذه الصالة هي بدون أدنى شك، أكثر التحف المقتناة إثارة وأهمية))، وأضاف قائلاً: ((إنها متحف ضمن متحف)).

١٠/٥ وتتألف القاعة الشامية في متحف الميتروبوليتان من سقفين خشبيين متصلين، واحد يعلو القسم المرتفع من القاعة (الطزر) والآخر يعلو القسم المنخفض، والأول هو أشبه بالسجادة، قطعة خشبية مؤلفة من مستطيل مركزي يحوي معينات مختلفة الأشكال والزخارف، تحيطه أربعة إطارات تنتهي بأفاريز تصل السقف بالجدران. أما السقف الثاني فهو مؤلف من أساطين عرضانية مزخرفة، بينها خلفيات ذات



القاعة الشامية في متحف
ميتروبوليتان نيويورك

زخارف وألواح مختلفة القياسات والأشكال. وفي أعلى الجدران الكلسية تنفتح نوافذ من الزجاج المعشق الملون على الفناء الخارجي. وتحت هذا الشريط الكلسي العريض تغطى الجدران بكسوة خشبية مزخرفة تنفتح فيها أبواب الخزائن الجدارية والكتبيات التي تزيّن بالأواني الخزفية والمصابيح الزجاجية أو الكتب.

وحول القاعة العليا، تمتد أرائك ووسائد على أرضية رخامية مزخرفة برخام منزّل ذي صيغ نجمية هندسية.

أما القسم المنخفض، فلقد حوى كتبية مزينة بألواح القيشاني وبزخارف خشبية وحجرية جدارية، وبأرضية رخامية غنية الزخارف، في وسطها بركة ماء ثمانية الأضلاع، مزخرفة بفسيفساء حجري هندسي التشكيل.

الفصل الثامن

إشكالية التكون الأصيل

١- هموم المدينة القديمة
٢- هجرة المدينة القديمة
٣- تطور الآلة والتقنيات والمواد
٤- المدينة ومشكلة السيارة
٥- عدم توفر الدراسات القومية لتطوير المدينة العربية وحفظها
٦- ضعف وسائل الحفاظ على المدينة القديمة
٧- حماية المدن التقليدية في الجزائر وتونس مثال
٨- صعوبات تنتج عن التسجيل الأثري
٩- حدود الترميم الأثري
١٠- حماية المدينة التقليدية
١١- عدم وضوح مفهوم المعاصرة
١٢- مدينة المستقبل

إشكالية التكون الأصيل

١ - هموم المدينة القديمة

١/١ تحملت دمشق من المآسي والأهوال، وتحملت من الزلازل والحرائق والأوبئة والحروب، ماجعلها من أكثر المدن العربية عذاباً، وأكثرها تعرضاً للظلم، وكان العصر الحديث أو مفهوم المعاصرة المبني على التقليد فقط مع الأسف، آخر مظاهر العسف الذي تحملته المدينة منذ بداية هذا القرن.

٢/١ ولكن دمشق مازالت صامدة تتحمل بعض جروح المخططين والمهندسين والخبراء بكثير من التحدي والثورة، فلم تكن مثل شقيقتها القاهرة، فقد انتهكت شخصيتها التقليدية التي تكونت في العهد المملوكي. وفسح في المجال أمام الشوارع العريضة المستقيمة والأبنية الأوروبية بحجة أن المباني القديمة سيئة الإضاءة قليلة التهوية رطبة. ولم تمض سنوات حتى شعر المواطن المصري بالخراب الذي حل بمدينته، وبالتعديل الجذري الذي تم في حياته الاجتماعية نتيجة لتعديل مسكنه الذي كان مفتوحاً على الداخل ومؤلفاً من طابق أو طابقين للسكن، يرى نفسه في عمارات مفتوحة على الخارج يسكن في شقة صغيرة من شقاتها الكثيرة، وعاش في شوارع غريبة شقتها شركة بلجيكية في مصر الجديدة أو وفق مخطط إيطالي كما تم في حي الإسماعيلية. ويمكن القول إن القاهرة فقدت كل ميزات شخصيتها التقليدية، وكما يقول حسن فتحي[1] (لقد اندثرت التقاليد وانقطعت صلتنا بالماضي منذ أطاح محمد علي برأس آخر مملوك).

ولم تطرح مشكلة التجديد والأصالة في المجال المعماري إلا بعد ذلك بفترة طويلة أي خلال الأربعينيات، وذلك بفضل انتشار الوعي لدى المهندسين المعماريين المصريين.

٣/١ مشاكل العصر الحديث

لقد جابهت المدن القديمة بطرازها التقليدي كثيراً من ضرورات العصر الحديث، والواقع أنها لم تصمد أمام هذه الضرورات، ولكن ما أصاب المدينة العربية القديمة من تعديل يبقى أكثر خطورة لأنه أصاب جوهر تكوين المدينة. ونحن نعترف أن ضغوط التعديل كانت أقوى من صمود

---

(١) H. Fothi: Construire avec le peuple ed. Jerone Martineau P.52

التقرير المبدئي للتنظيم الدولي من أجل حماية الآثار والمباني وثيقة رقم SHC/MD/17 باريس ١٩٧١ ص ٨.



قلعة دمشق ١٩٢٨ (تصوير إيكوشار) ويلاحظ ـ قصر المشيرية وكان في موقع قصر العدل ثم أرض لالا باشا
وخلفها منطقة سيدي عامود وقد أحرق منازلها الفرنسيون ١٩٢٥



قباب مدافن ـ الأولى لابن دقيق العيد، والثانية لنور الدين محمود بن زنكي

المدن، خاصة أن هذه الضغوط جاءت مفاجئة وكثيفة، ومن أبرز هذه الضغوط:

- تضخم السكان الانفجاري.
- تطور الآلة والتقنيات والمواد.
- سيطرة التخطيط الاقتصادي الإمبريالي.
- عدم توافر الدراسات القومية لتطوير المدينة العربية وحفظها.
- ضعف وسائل الحفاظ على المدينة القديمة.
- عدم وضوح مفهوم المعاصرة.

٤/١ تضخم السكان الانفجاري في المدينة القديمة

لقد تضخم سكان المدينة العربية القديم وخاصة سكان العاصمة، بشكل سريع وانفجاري، فبلغت نسبة الزيادة السكانية السنوية الطبيعية ٤ ٪ في بعضها، وبلغت نسبة الزيادة السنوية الاستيطانية ٢٥٪. ففي دمشق مثلاً بلغ عدد السكان عام (١٨٨٤م) ١٦٠ ألف نسمة وارتفع إلى ٣٠٠ ألف نسمة عام (١٩١٣م)، ثم انخفض بسبب الأوبئة والحرب إلى ١٧٢ ألف حسب إحصاء عام (١٩٢٣م). وفي عام (١٩٦٠م) أصبح عدد سكان مدينة دمشق (٤٩١٣٩٨ نسمة)، ثم ارتفع عام (١٩٧٠م) إلى (٨٣٠٩٢١ نسمة). وبصورة عامة فإن زيادة السكان في مدينة دمشق هي ١٢ ٪ سنوياً، وهي زيادة عالية جداً، بل بلغت بعد حرب (١٩٦٧م) مع إسرائيل حداً أعلى بكثير. هذه الزيادة الكبيرة في عدد سكان مدينة دمشق تعطينا فكرة عن كثافة السكان فيها التي تبلغ (٥٠٠-٨٠٠ نسمة)



منطقة الخانات التي تستوعب النشاط التجاري ـ قباب خان أسعد باشا (بونفيس ١٨٧٠)

في الهكتار. ولكن الفرق كبير بين كثافة السكان في المدينة القديمة إذ يبلغ نهاراً (١٢٠٠ نسمة) في الهكتار وبين الكثافة في المدينة الحديثة التي تبلغ (٢٥٠ نسمة) في الهكتار. على أن كثافة المساكن فيها التي تبلغ (١٠١٣٦ منزلاً) في الهكتار الواحد بينما هي (١٢٣٨ منزلاً) في الهكتار الواحد في المدينة الحديثة، وأن متوسط ما يخص الأشخاص في كل غرفة ويسمى درجة التزاحم تبلغ (٣,٢) في الضواحي الشرقية وقلب المدينة، بينما هي (١,٣) في المدينة الحديثة بسبب ارتفاع المستوى المعيشي.

٥/١ أما القاهرة، فلقد كان عدد سكانها في عام (١٧٩٣م) (٢٦) ألف نسمة فقط، ثم ارتفع هذا العدد إلى (٢٧٤) ألفاً في عهد إسماعيل، ثم قفز عدد سكان القاهرة إلى ٥,٧٦٩٠٠٠ نسمة في عام (١٩٧٠م). وتزداد الكثافة السكنية في المدينة القديمة (شبرا وباب الشعرية). ولقد بلغ عدد سكان القاهرة عام (١٩٩٥م) خمسة عشر مليون نسمة تقريباً.

٦/١ لقد كان سبب الزيادة في دمشق القديمة أيام الاحتلال يرجع إلى تجمع السكان الأصليين في الأحياء القديمة وانتقال المجاهدين من المدن الأخرى ومن الأرياف والقرى المجاورة إلى هذه المدينة لتحضير الثورة وعمليات التحرير، وليس مجهولاً مثال سكان أحياء الميدان والشاغور ومئذنة الشحم في مدينة دمشق القديمة، واعتصامهم أيام الثورة السورية عام (١٩٢٥م) في أحيائهم المنيعة، بل إن آثار الحريق الذي قامت به سلطات الانتداب في



سوق الطويل، واسمه في العهد الروماني الطريق المستقيم VIARECTA وفي العهد المملوكي سوق جقمق وفي آخر العهد العثماني سوق مدحت باشا . (تصوير إيكوشار).

حي سيدي عمود الشهير والذي أتى على الحي برمته، مازال قائماً في تسمية المنطقة بالحريقة. لقد أتى هذا الحريق على روائع مدينة دمشق السكانية ملتهماً بيوت الثوار من أهل دمشق. ومثال آخر من أمثلة جهاد سكان المدينة القديمة، جهاد حي القصبة في الجزائر المدينة، إبان حرب التحرير الجزائرية في الخمسينيات، فلقد اعتصم سكان المدينة الأصليين في القصبة التي أصبحت حصن جميع المجاهدين والثوار، الذين تجمعوا من الجزائر العاصمة ومن أحاوزها بل ومن المدن البعيدة والصحراء.

٢- هجرة المدينة القديمة

١/٢ بعد الاستقلال نشأت الزيادة السكانية في المدينة القديمة عن تحسن الظروف المعاشية

والاجتماعية انعكاساً لتحسين الحياة الاقتصادية في العالم كله، وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن مما يؤسف له أن المدينة القديمة قد تضررت من هذا التطور الاقتصادي والاجتماعي العالمي والوطني أكثر بكثير مما استفادت فهي وقد قصرت عن تلبية ظروف الرفاه المفاجيء وزيادة السكان المتفجرة والطارئة، تخلى عنها سكانها وهجروها إلى مناطق أخرى جديرة، لكي تصبح مقراً لمدينة جديدة متعجلة سدت حاجتهم الطارئة للرفاه الشكلي الذي فرضته مقتضيات الحياة العصرية.

٢/٢ هكذا نزح السكان الأصليون أصحاب البيوت الجميلة الفخمة والذين يشكلون رؤوس العائلات العريقة، نزحوا عن المدينة القديمة، ومعهم كل إمكانيات حماية بيوتهم وصيانتها، وكل إمكانيات تطويرها وتعزيزها، وحل محلهم في بيوتهم وأحيائهم سكان جدد فقراء جاؤوا من الأقضية والقرى، كما توسع فيها أصحاب المتاجر محدثي الثراء الذين استرخصوا البيوت الكبيرة القديمة، فجعلوها مخازن ومستودعات بل جعلوها مشاغل لأعمالهم، وهكذا تعرضت المدينة التقليدية فجأة وخلال الخمسينيات على الأخص إلى عسف شديد من هؤلاء، يضاف إلى ذلك إهمال قاسٍ من السلطات الحكومية والبلدية التي صرفت اهتمامها نحو المدينة الحديثة وحدها،، وتركت المدينة القديمة نهباً لأصحاب المصالح والفقراء الذين أوشكوا أن يقضوا عليها مستعينين برخاوة السلطة ذاتها.

٣- التكنولوجيا والعمارة

١/٣ وفي دراسة وضعتها منظمة اليونسكو(١)، تبين أن التقدم الصناعي الحديث كان سبباً في تحطيم التقاليد الموروثة واقتلاع الجذور القومية للإنسان، كما هو سبب في زعزعة المعتقدات، وفي خلل التوازن الاجتماعي، إذ أنها تؤدي إلى انتقال أعداد لا حصر لها من السكان إلى مدن جديدة أصبحت تنمو بصورة اعتباطية، مما أدى إلى نشوء مدن مستحدثة هائلة متنافرة مع مصالح السكان الحياتية ضمن إطار

(١) وثيقة رقم SHC/MD/١٧ باريس ١٩٧١ ص ٨.



حي البحصة البرانية وتبدو البيوت الشامية زادت من الاعتناء بواجهاتها (بونفيس)

حاجاتهم وقدراتهم.

الحق أن ظاهرة التوسع في تشكيل المدن الحديثة أصبحت خطرة جداً، وذلك أنها لم تقم لمفهوم المدينة أهمية، بل كان الهم يتجه لحل مشكلة السكن التي تفجرت بصورة عنيفة[1]، ولم يعد بالإمكان التفكير بالمدينة التقليدية باعتبارها أساساً لتأصيل العمارة الحديثة نظراً للازدياد السكاني المريع في المدينة التي تمت بسبب الهجرة من القرى بصورة خاصة. ولابد للتخفيف من أزمة الهجرة من إعادة النظر في شؤون القرية واقامة مجموعات من القرى المصنعة، كما تم في الجمهورية الجزائرية.

٢/٣ تطور الآلة والتقنيات والمواد

بعد استعمال الإسمنت في البناء ودخول الحديد والموزاييك والخزف والمواد البتروكيمائية في تكميل الأبنية، تطورت العمارة التقليدية تطوراً أساسياً، فلقد انتهى عهد العمود والكتلة الحاملة وانتهى عهد القباب والأقواس والعقود والطوابق المحدودة، وأصبح بالإمكان إقامة سقوف ذات قطر واسع دون أي مستند، كما أصبح بالإمكان رفع عشرات الطوابق فوق بعضها، وكان مثال ناطحات السحاب التي أنشأها سوليفان في شيكاغو عام (١٨٩٠م) وماتلاها من أبنية شاهقة، أكبر دليل على دور الإسمنت في تغيير كل مبادئ المسكن والبناء التقليدي.

(١) انظر التوصية الخاصة بحماية الممتلكات الثقافية التي تهددها الأشغال العامة والخاصة الدورة ١٥ اليونسكو باريس ١٩٦٨



السيارة والمدينة القديمة

وتطورت الآلة المتحركة ذاتياً بقوة الكهرباء والوقود الأخرى، مما ساعد على سرعة إنجاز عمليات البناء وحسن استخدام العمارات عن طريق المكيّفات والمشعّات والروافع. وكانت السيارة ذاتها من أهم الآليات التي ساعدت على عملية البناء الضخمة والسريعة.

إن هذه المستحدثات الإنشائية قد شجعت الناس على إقامة منشآت جديدة وإهمال القديمة، منشآت تخضع للمستحدثات التقنية والمواد الجديدة، وأصبحت هذه المستحدثات هي الأساس الإنشائي والمعماري الفني، فيما كان الأساس في بناء المدينة القديمة ومنشآتها السكنية هو الإنسان بشروطه التقليدية وضمن حدود راحته ومتطلباته الفردية. بل إن السيارة وحدها حلت محل الإنسان في اعتبارها المقياس الأساسي لإنشاء المدن والبيوت.

ولقد شخص المهندس آيشتر[1] واقع مدينة فاس، وأبان أثر التحول الذي تم في المدينة العربية نتيجة التقدم الصناعي، والذي أدى إلى التضحية بالمقياس الإنساني في سبيل مقياس السيارة الذي قطع صلة الإنسان الطبيعية بالشارع والحي.

وهكذا أصبحت السيارة المزاحم العنيد للإنسان ولظروف المدينة القديمة التي باتت مضطرة لاستقباله،

ففتحت الشوارع والساحات في قلب المدينة التقليدية المتماسكة، مما أدى إلى إزالة عدد كبير من الأبنية الجميلة، كما

(١) J.P.Ichter es Puissance elLimites d'une tradition urbaine - Fes 1973 L'V-NESCO shc/ws/313.

أدى إلى تجزئة وحدة المدينة وتطعيمها ببيوت مستحدثة كان لابد منها، على الأقل لإشغال طريق الشوارع المستحدثة والمفتوحة كالجروح في قلب المدينة.

٣/٣ سيطرة التخطيط الإمبريالي

لقد قامت الإمبريالية على توسيع مناطق الاستهلاك في العالم لتغطية الإنتاج الضخم الذي وصلت إليه خلال هذا القرن. ولقد كانت المخططات الاستعمارية تستند على توسيع الحاجة للإنتاجات المستحدثة. ولهذا فإن المدينة العربية القديمة بظروفها الإنشائية التي تعتمد على المواد الأولية المحلية وعلى التخطيط التجمعي الأليف المتماسك، وبشوارعها الضيقة التي لاتستوعب الحافلات المستوردة،

هذه المدينة أصبحت عنصراً مضاداً للمخطط الإمبريالي الذي يسعى وراء جعل الحياة مرتبطة بالمتحولات وليس بالثوابت، مرتبطة بتغيير الوسائل والأزياء التي تبتكرها المؤسسات الإنتاجيةالضخمة والتي يهمها إحداث تغيير مستمر في الحاجيات لزيادة حجم هذه الحاجيات.

٤ - المدينة ومشكلات السيارة

١/٤ ولقد كانت السيارة ذاتها والتي أصبحت رمزاً للإمبريالية عاملاً من عوامل فرض المدن الحديثة على العالم الثالث وعلى المدينة العربية، وكانت سبباً بالتالي إلى هجرات المدينة التقليدية وإلى رفض جميع مبادئها العمرانية والمعمارية والإنشائية عند إقامة المدينة الحديثة أو التوسع حول المدينة القديمة.

فالشارع يجب أن يكون مستقيماً لتسهيل سرعة السيارة، وعريضاً لتنظيم مرور السيارات المتقابلة، والساحات يجب أن تكرس لوقوف السيارات، والبناء يخضع في تكوينه لاستيعاب السيارة ومرآبها واستطاعت السيارة تقليص المسافات، مما استهوى صاحب المنشأة من إقامة مسكنه أو بنائه في أماكن بعيدة عن مركز المدينة. وهكذا امتدت المدينة أفقياً وتبعثر ذلك التجمع السكني الذي اتصفت به المدينة التقليدية دائماً. ولقد سيطرت شروط السيارة على العمران الحديث نفسه، فأفقدته

بعض ميّزاته التي أراد منها الملاءمة مع البيئة العربية ومع الضرورات السكنية، فازداد عدد السيارات حتى أصبح لكل ثلاثة أشخاص من سكان بيروت سيارة واحدة، فضاقت الشوارع وذابت الأرصفة مع الاشجار المظللة، مما زاد في ابتعاد التنظيم العمراني عن ملاءمة البيئة. ولم تقتصر السيارة في كونها عاملاً لأزمة عمرانية تبحث عن التحكم في تيسير عمليات النقل والانتقال،

بل إن الأزمة الأكثر خطرًا هي تلوث الأجواء الذي تسببه هذه السيارات بما تفرزه من دخان مسموم وسيأتي اليوم قريباً الذي تصبح فيه السيارات مصدراً أساسياً للأمراض والأوبئة بل سبباً للموت الجماعي.

٢/٤ لقد خضعت المدينة الجديدة لمقياس السيارة. وكان هذا من أخطر مبادئ المدينة الجديدة، ليس في بلادنا العربية وحسب بل وفي العالم كله. ذلك أن المقياس يجب أن

يكون من الثوابت وليس من المتحولات، والسيارة متحول لا يصلح أبداً أن يكون المقياس. والدليل على ذلك ماتم من أزمة الوقود بعد حرب (١٩٧٣م) العربية. لقد أدت هذه الأزمة إلى زعزعة الثقة بالحضارة الحديثة كلها، فعندما ندر النفط توقفت السيارة فتعطلت الفعاليات الاقتصادية بل الفعاليات المعاشية ذاتها، انتبه الإنسان أنه كان أسير ظروف متحولة كان قد أقام عليها صرح تنظيمه العمراني والمعاشي والحضاري أيضاً. ولسنا ندري كيف سيؤول الأمر عندما ينضب معين الطاقة ويعجز العقل الإنساني عن إيجاد طاقة بديلة للوقود والنفط، لعله عندها سيبحث عن مقياس جديد، ولكنه يبقى مقياساً متحولاً، ويبقى الإنسان غريباً عن نظام المدينة الذي يساق إليه سوقاً بتأثير المستحدثات التقنية.

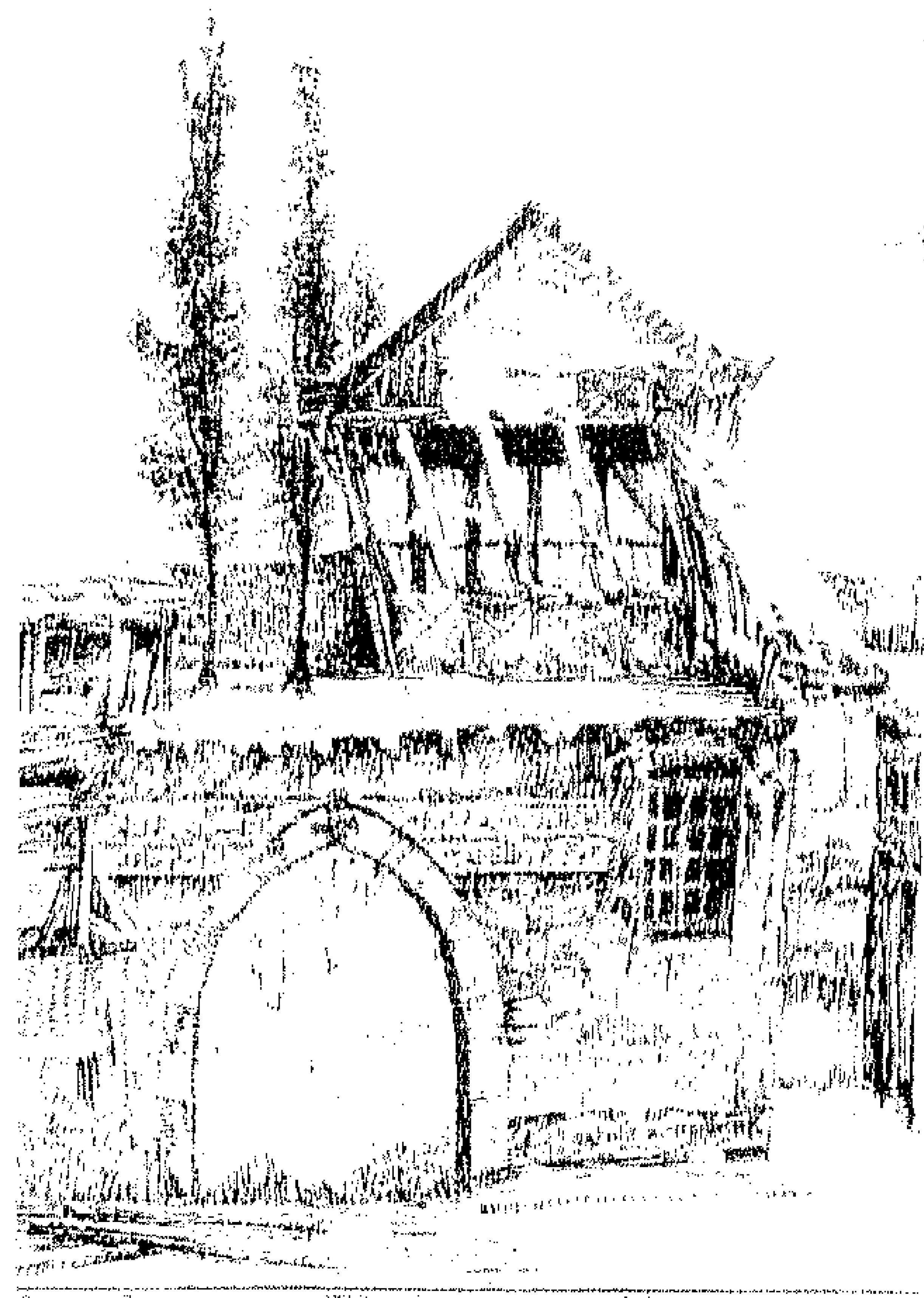
٣/٤ ولقد ساعد في نبذ وإهمال المدينة القديمة وإهمال تقاليد عمارتها وأسلوب تنظيمها العمراني،

موجات المهندسين والمتعهدين الذين نقلوا معارفهم وثقافاتهم المعمارية عن المفاهيم الغربية التي قدمتها الجامعات الأوربية والأميركية لمثقفينا المحرومين من أي رصيد ثقافي قومي، لفقدان الدراسات والمراجع المعمقة، وكان هذا التقدم الهجين عاملاً من عوامل التهجين العمراني والمعماري، ونستطيع

اعتبار متعهدي العمار ومنظمي المدن العربية خلال الأربعينيات والخمسينيات هم المسؤولين عن تغيير معالم المدينة العربية ومسح شخصيتها بحجة تطويرها مع مقتضيات العصر. ذلك لأنهم كانوا من المهندسين المدنيين غير المختصين بالعمارة وعمران المدن. فما كان بإمكانهم أن يفعلوا أكثر من تقليد المنشآت الأوربية ونسخها نسخاً كاملاً.

٥- عدم توفر الدراسات القومية لتطوير المدينة العربية

١/٥ لقد فاجأ التقدم الاقتصادي العالمي والازدهار التجاري المدينة العربية، ولم يكن الظرف متسعا خلال الأربعينيات لمجابهة الحاجات السكنية الجديدة المتزايدة والمتطورة. فليس من كوادر تستطيع تقديم الدراسات المورفولوجية اللازمة أو تقديم مخططات التنمية القومية، وليس من اختصاصيين في العمران العربي والعمارة العربية، بل إن التقدم الثقافي الذي تم في البلاد العربية منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية إنما اعتمد على الثقافة الأجنبية، ولم يتح للمعمار أو المؤرخ أو الفنان أن يتوسع في دراسة أهمية العمارة العربية وأن يتقصى أسرارها وخصائصها، وأن يستخلص مبادئها الأساسية لإقامة عمارة حديثة أصيلة. ولم يظهر اختصاصيون في ميكانيك التربة، قادرون على دراسة طبيعة الطين الذي صنعت منه أوابدنا القديمة في بلاد الرافدين وسورية وفي شمالي إفريقية وجنوبي مصر، والذي مازال حتى الآن مستعملاً كمادة أساسية للبناء في القرى العربية والبيوت التقليدية. ولابد من دراسة عملية لهذا الطين الرخيص الثمن، العميم الفائدة والذي يمتاز في مقدرته على تحمل



رسم بيت قديم



رسم بيت متوهن

تقلبات الطقس ووقايته لسكان المنشآت من الحر الشديد والبرد القارس، مما يجعله أكثر انسجاماً مع طبيعة مناخنا من أية مادة أخرى كالإسمنت، فلقد تبين من خلال دراسات جديدة أن الطين المشوي على شكل آجر قادر بالإضافة إلى قابليته للوقاية من الطقس المتقلب، على مقاومته المذهلة بقوتيّ الشد والضغط إذا ما أضيفت له بعض الرمال والمواد المقّوية عوضاً عن التبن والشعر مما ينجيه من التشقق والانكسار.

٢/٥ ولقد أشرف المهندس حسن فتحي في مصر على دراسات في تطوير الآجر ودراسات أخرى في إعادة العمارة إلى مبادهات المعمار المعلم، الذي تبين أنه قادر على إقامة المنشآت بأقل التكاليف وبأصدق الأساليب وأكثرها أصالة.

لقد كان منطلق المهندس حسن فتحي أن الإنسان أو الفلاح يجب أن يكون طابعاً لا مطبوعاً، وأن العمارة هي ظل الإنسان إذا تغير فلابد لها أن تتغير[1] ولقد قام حسن فتحي بتجاربه العملية انطلاقاً من عمارة الريف مستعيناً بخبرات المعلم البنّاء الريفي في بناء عمارة تقليدية وبأساليب سهلة غير معقدة وصحيحة وسليمة جداً. وكانت قرية (القرنة) مركز اختباراته التي سجلها في فيلم طويل، وفي كتابه (البناء مع الشعب).

٣/٥ وليست دراسة المواد فقط هي الأهم، بل دراسة فن العمارة ووظائفها الأساسية. إن كليات الهندسة في العالم

(١) نفس المرجع.

العربي مازالت مفتقرة إلى هذه الدراسات، ومن المؤسف أنها مازالت تدرس الطرز الكلاسيكية (الإغريقية الرومانية) وكأنها الأساس الفني والعلمي للعمارة. وليس من كلية عربية حتى الآن تعتمد في تدريسها المعماري المبادئ والمنطلقات العربية، من الناحية الجمالية والتقنية والبيئية

والتاريخية أن مثل هذه الدراسات العلمية ما زالت ذات أهمية بالغة وأساسية لإنقاذ المدينة العربية من التهجين، ولإنقاذ المدينة القديمة من الإهمال والزوال.

٦- ضعف وسائل الحفاظ على المدينة القديمة

١/٦ إن وسائل الحفاظ على المدن التقليدية التي لجأت إليها الحكومات العربية مؤخرًا ارتكزت على المنطق والعلم والشعور بالمسؤولية، إلا أن النتائج التي توصلت إليها ما زالت غير مقنعة.

٢/٦. لقد لجأت السلطات الأثرية أو البلدية إلى اعتبار المدينة القديمة منطقة أثرية أو على الأقل اعتبار بعض المنشآت الهامة أثرية وتسجيلها في سجل الأوابد الأثرية. ولعل القطر العربي السوري كان من أكثر البلدان العربية تحمساً إلى هذه الطريقة لحفظ المدينة القديمة ومنشآتها التقليدية والتاريخية، ويعتبر قانون الآثار السوري لعام (١٩٦٢م) من أكثر القوانين العربية حرصاً على المدينة التقليدية والمباني القديمة.

فلقد نصت المادة /١٣/ على مايلي: ((للسلطات الأثرية أن تعّين ما يجب أن يحافظ عليه من مناطق اثرية أو أبنية تاريخية أو أحياء قديمة، وذلك لحمايتها وتأمين صيانتها بسبب اجتماع خصائص فنية أصيلة فيها، أو دلالتها على عصر ما أو لاقترانها بذكريات تاريخية هامة. وعلى هذه السلطات أن تعمل على تسجيلها في سجل المناطق الأثرية والأبنية التاريخية، وذلك بعد موافقة مجلس الآثار وصدور قرار وزاري بالتسجيل، ويمكن أن يشمل القرار مجموعة أحياء أو مبان أو حياً أو مبنى

واحداً أو جزءاً منها، وينص في قرار التسجيل على حقوق الارتفاق التي تترتب على العقارات المجاورة)).

٣/٦ إن تسجيل المباني الأثرية والأحياء التاريخية يهدف إلى مايلي:

١- الحفاظ على هذه المنشآت من الهدم والتخريب، فقد نصت المادة ٢٣ على مايلي:

((لايجوز لمالك أحد الآثار الثابتة المسجلة وفقاً لأحكام هذا القانون أن يقوم بهدمه أو نقله كله أوبعضه أو ترميمه أو تجديده أو تغييره على أي وجه بغير ترخيص سابق من السلطات الأثرية ويكون إجراء الأعمال التي يرخص بها تحت إشراف السلطات الأثرية، وعند مخالفة ذلك تقوم السلطات الأثرية بإعادة البناء التاريخي إلى ما كان عليه، وتستوفي من المخالف نفقة ذلك فضلاً عن العقوبة المنصوص عليها في هذا القانون)).

٢- الحفاظ على سلامة ونظافة هذه المنشآت، ويبدو ذلك من المادة ٢٥:

((لايجوز أن تكون الأرض المشجرة مستودعاً للأنقاض أو للأقذار، كما لايجوز

أن يقام فيها بناء أو مقبرة أو وسائل للري أو أن يحفظ أو يغرس أو يقطع منها شجر أو غير ذلك من الأعمال التي يترتب عليها تغيير في معالم تلك الأرض، بدون ترخيص السلطات الأثرية وإشرافها. ويحظر استعمال أنقاض الأبنية التاريخية المتهدمة والخرائب الأثرية أو أخذ أتربة أو أحجار من المناطق الأثرية دون ترخيص رسمي من هذه السلطات)).

٣- الحفاظ على شخصية المدينة أو المناطق التاريخية من الهجانة وعدم الانسجام، كما ورد في المادة ١٤:

((تتضمن حقوق الارتفاق إيجاد حرم غير مبني حول المناطق الأثرية والمباني التاريخية، وتحديد طراز الأبنية الجديدة أو المجددة وارتفاعاتها ومواد بنائها وألوانها لتكون المنشآت الجديدة منسجمة مع المنشآت القديمة، ويشمل ذلك عدم فتح نوافذ أو شرفات على المباني التاريخية أو المناطق الأثرية إلا بترخيص من السلطات الأثرية)).

٤- صيانة الآثار الثابتة المسجلة من الترميم غير الفني. وربط هذه العمليات بالسلطات الأثرية وحدها، فلقد توسعت المادة ٢٢ في تحديد شروط هذه الناحية ونصت: ((على أن السلطات الأثرية وحدها هي التي تقوم بصيانة وترميم الآثار الثابتة المسجلة للمحافظة عليها والإبقاء على معالمها وزخارفها، ولا يحق للمالك أو المتصرف الاعتراض على ذلك. أما الإصلاحات والترميمات الناشئة عن الأشخاص والاستثمار فيقوم بها المالك أو المتصرف بموافقة السلطات الأثرية وتحت إشرافها على أن يتحمل نفقاتها. وتنفق السلطات الأثرية من ميزانيتها على ترميم وإصلاح المناطق الأثرية والمباني التاريخية لمسجلة، على أن تتحمل وزارة الأوقاف أو الهيئات الدينية نصف تكاليف ترميم إصلاح الأبنية الأثرية المسجلة العائدة لها. كما يجوز للسلطات الأثرية أن تسهم بجزء من نفقات إصلاح المباني التي يملكها الأفراد وعلى هؤلاء تحمل باقي النفقات)).

ولقد قامت السلطات الأثرية منذ عام (١٩٧٢م) بإجراء مسح شامل للآثار غير المنقولة، التلال الأثرية والمواقع التاريخية، والمنشآت العامة والخاصة ذات الصفة الأثرية التي مضى على إنشائها أكثر من مئتي سنة، بل قامت بتسجيل المنشآت الحديثة ذات الصفات الجمالية الحاصة استناداً إلى المادة الأولى من

قانون الآثار السوري التي تنص: ((يجوز للسلطات الأثرية أن تعتبر من الآثار أيضاً، الممتلكات الثابتة أو المنقولة التي ترجع إلى عهد أحدث، إذا رأت أن لها خصائص تاريخية أو فنية أو قومية)).

وهكذا تم تسجيل عدد من الأبنية، وبعضها لم يمض على بنائه أكثر من خمسين عاماً، ولكن الصفات الجمالية أو القومية هي التي دفعت على تسجيل هذه المباني للحفاظ عليها ومنع هدمها.

٤/٦ ولقد قمنا بتسجيل مدينة دمشق ومدينة حلب في السجلات الأثرية الوطنية، وتسجيلها في قائمة الممتلكات الثقافية العالمية (اليونسكو)، أما تدمر فقد تم

تسجيلها في عام (١٩٣٠م) وكانت أطلالها مغمورة بالبيوت الطارئة السيئة البناء، يسكنها الناس البسطاء الذين أساؤوا كثيراً لبقايا هذه المدينة الأثرية، ولقد تم إجلاؤهم عن بيوتهم مقابل إعطائهم ضعف المساحة التي كانوا يشغلونها في تدمر. وأما مدينة بصرى القديمة والتي ازدهرت في العصر الروماني مثل تدمر، فما زالت مشغولة بالمدينة الحديثة التي أقيمت شوارعها فوق الشوارع القديمة، وشيدت مساكنها من أحجار المباني الأثرية أو من الإسفلت، وكان علينا أن نزيل هذه المباني كلها للكشف عن المدينة الأثرية ومعالمها الواضحة أو المختفية تحت الأرض، وذلك بإزالة المباني المحدثة وتخصيص منطقة سكنية جديدة مستوفية للشروط الصحّية والاجتماعية، ولكنها لم تراع أبداً الشروط التقليدية والتاريخية.

أما أفاميا وهي مدينة هلنستية ثم رومانية، فإن الأمر فيها أكثر تعقيداً ذلك أنها مازالت معزولة عن المنطقة السكنية الجديدة وإن كان السكان يصبون دائماً لإشغال المدينة التاريخية، لحسن موقعها. ومن الواضح أن هذه التدابير كانت لأغراض أثرية محضة ولم يكن الغرض منها خدمة المدينة التقليدية التي يعيش فيها الناس حتى اليوم حسب متطلباتهم، مثل مدينة دمشق. إن التدابير المتخذة من قبل السلطات الأثرية والبلدية تمنع إجراء أي تعديل في المدينة الواقعة ضمن السور إلا بموافقة مسبقة، هذا إلى جانب تسجيل أكثر الأبنية والمنشآت القائمة فيها مثل المساجد والمدارس والترب والأسواق (كسوق الخياطين)، ومثل المساكن القديمة (بيت السباعي وبيت جبري وبيت حورانية)

على أن من أهم التدابير التي حققناها ربط مدينة دمشق القديمة بإدارة مستقلة لرعايتها وحفظها وتطويرها. واستملاك أكبر عدد ممكن من الأبنية الأثرية لحمايتها وتوظيفها لأغراض ثقافية.

٧- حماية المدن التقليدية في الجزائر وتونس

١/٧ في الجزائر اتخذت تدابير مماثلة لحفظ المدن التقليدية والأثرية والمباني التاريخية[1] وبقيت مسؤوليات ذلك مرتبطة بالسلطة الأثرية، وكان من أهم الأعمال التي تمت في هذا المجال تسجيل مجموعة من خمس مدن تقليدية مع المواقع المحيطة بها مما يؤلف وادي المزاب، وهذه المدن هي العطف، وأبو النور، وغرداية وبني أرجن (المدينة المباركة) وملكة.

٢/٧ ولقد أنشئت هذه المدن في القرن الحادي عشر الميلادي. ويقع الوادي على بعد (٦٠٠ كم) جنوبي الجزائر، وقد سكنه الإباضيون وهم من الخوارج الذين ظهروا في العراق وانتشروا في المغرب. وأقاموا عمارتهم وفق معايير دقيقة تقوم على المهارة في التصميم والتنفيذ والتنظيم. وتقوم كل مدينة من المدن الخمس عليمرتفع على شكل قلعة تحدها أسوار وفي أعلاها المسجد وحوله المساكن منحدرة نحو السور، تاركة أمكنة مناسبة

(١) انظر القرار رقم ٢٨١/٧٦ الصادر في كانون الأول / ديسمبر ١٩ (الحفائر وحماية المواقع والآثار التاريخية).

للأحياء التجارية، وتنتشر في أسفل الوادي بساتين النخيل والمساكن الصيفية.

ويمتاز نظام العمارة في المدن الخمس بالتقشف والتناسق والابتعاد عن الزخرفة ملتزمين قوانين الامتثال الدقيق للبيئة القاحلة ومحترمين إرادة التمسك بالقيم الروحانية والأخلاقية الصارمة(١).

ولقد بلغ كمال العمارة وترابط العمران حداً رائعاً جداً مما جعل وادي المزاب مصدر إلهام لكبار المعماريين في العالم وخاصة لوكور بوزييه(٢).

٣/٧ ولقد أنشئت لوادي المزاب هذا إدارة خاصة تابعة لمصلحة الآثار أطلق عليها اسم (مختبر دراسة أعمال الإصلاح والتنظيم في وادي المزاب)، ومن مهامه الأساسية:

١- إعداد الخطة التفصيلية للتخطيط العمراني.

٢- تنظيم الموقع في مجموعه وفي أحيائه.

٣- ترميم الآثار والأسوار.

٤- دراسة ومراقبة أعمال البناء العامة والخاصة على السواء.

٥- إنشاء ملفات ووثائق فنية عن الموقع وعن عمليات الترميم.

ولابد من القول أن هذه التجربة التي تلقى نجاحاً هائلاً اليوم، يمكن أن تكون تجربة رائدة للحفاظ على المدينة التقليدية عن طريق إنشاء إدارة مستقلة لرعايتها، تعمل على إحياء تراث عمراني محدد بمتابعة جميع مشكلاته التقنية والعلمية والتاريخية

٤/٧ ولقد استفيد من هذه التجربة ذاتها في الحفاظ على حي العباد في أعلى مدينة تلمسان، والذي شيد حول ضريح سيدي بومدين الأندلسي من مشاهير الصوفيين (١١٢٦-١١٩٨م). ويعتبر هذا الحي الأصيل مركزاً دينياً وثقافياً. وتجري فيه الترميمات لإعادته إلى واقعه التاريخي. كذلك أنشئ في الجزائر العاصمة، مختبر خاص بالقصبة (المدينة القديمة)، من مهامه النظر في شؤون المدينة القديمة، ولقد توسعت مهامه مؤخراً لكي تشمل عمليات تنظيم منطقة الجزائر بكاملها، ولدراسة عوامل دمج المدينة القديمة بالمدينة الحديثة.

٥/٧ وثمة تدابير أخرى لجأت إليها مدن عربية أخرى مثل تونس، وكانت الدوافع الملحّة إلى تسجيل القصبة هو تلبية حاجيات السياحة ومتطلباتها الثقافية والجمالية وخاصة في مدن كالمدن العربية.

فلقد امتازت الدول العربية بشمسها وسواحلها ومراكزها الثقافية العريقة، فكانت بذلك مقصداً سياحياً ممتازاً. ولأن السياحة أصبحت من مصادر الدخل الهامة، فلقد اعتنت بعض المدن العربية بآثارها ومعالمها التاريخية لكي تستجيب للحاجات السياحية، وهكذا أصبحت مدينة تونس القديمة (القصبة) منطقة مخصصة للسياح تحافظ على طابعها التقليدي مع بعض التجديد، ويقطنها أصحاب المهن التقليدية الذين يجهزون

---

(١) انظر Preservation et amenagement de patrimoine urbsnistique arabe dans le monde arabe. Document de I, Unesco N.SNC /WS/312 Paris 1973 P.3.

(٢) R.Ravereau: Preface de "le M, Zab" Par M.R.Arthaud.

طرائفهم للسياح.

٦/٧ إن المحذور الأساسي لهذا التدبير هو تعارض أغراض السياحة في كثير من الأحيان مع الأغراض الأساسية من الحفاظ على المدينة، وتفضيل الأغراض السياحية على الأغراض القومية المرجوة من تطوير المدينة التقليدية. ثم إن تكريس المدينة القديمة للسياحة يعني تفريغها من الحياة وعزلها عن المجتمع أو عزل المجتمع عنها وجعلها أشبه (بمتحف فولكلوري) كل شيء فيه للعرض ولخدمة المتفرج السائح أو المشتري المدهوش ببريق الماضي المزيف الذي صنعته ضرورات الدعاية، مما يخالف في كثير من الأحيان الحقائق التاريخية، ويجعل هذه البيئة المزيفة غريبة أيضاً حتى في وطنها.

ولقد انتبهت اللجنة الدائمة لدراسة منطقة الجزائر[1] إلى خطورة هذا الأمر، وقررت أنه لابد من إعادة المدينة إلى وظيفتها الأولى، وذلك بالحؤول دون استغلالها للمضاربات السياحية وغيرها، وأنه لابد من تحسين نوعية الحيّز، وبالتالي زيادة إشعاع المدينة القديمة وتآلفها، الأمر الذي يعيد إلى الأهالي حقهم في الحيز التاريخي.

إن الهدف الاقتصادي من السياحة لايمكن أن يكون متفوقاً على الهدف الثقافي والتاريخي، فالتعريف بالثقافات والحضارات والفنون لايتم عن طريق وضعها ضمن إطار مزيف أو محنط، بل عن طريق تأكيد أصالتها وبتثبيت مظاهر الحياة والتطور فيها.

٨- صعوبات تنتج عن التسجيل الأثري

١/٨ نعترف أن تبني رعاية وصيانة المنشآت المعمارية والأوابد التاريخية عن الدولة واجب لايمكن إغفاله، ولكن لابد من ملاحظة المشاكل التي تنتج عن اللجوء إلى تسجيل المدن التقليدية والأوابد أو بتعبير قانوني (تسجيل الآثار غير المنقولة). لقد ثبت لنا من خلال التجربة أن عملية التسجيل هذه عبء ضخم تتحمل مسؤولياته الدولة، وأن عليها أن تملك جميع الإمكانيات اللازمة للقيام بهذا العبء، وإلا فإن عملية التسجيل تصبح عاملاً معيقاً للتقدم بل مسبباً للتخلف. وفعلاً ينظر الناس إلى عمليات التسجيل هذه نظرة استنكار، ويعتبرونها أحياناً تعدياً على حقوقهم، حقهم في تعديل مسكنهم وتطويره أو في هدمه وبيع أنقاضه أو إعادة استعماله كما يريدون، ثم في الاستفادة من الأرض لإعادة بناء مجّمع سكاني قد يكون مؤلفاً من طبقات كثيرة. ولقد ثبت أن عملية التسجيل والتي يمنع المالك بمقتضاها من زيادة ارتفاع البناء أو من هدمه والاستفادة من الأرض، تؤدي إلى تخفيض قيمة الأرض التي قد تصل إلى عدة أضعاف لو أصبحت حرّة.

واذا كان من حسنات التسجيل أن تكفل الدولة صيانة البناء وترميمه، فإن الدولة عاجزة في أكثر الأحيان عن متابعة وتنفيذ هذا العمل الواسع النطاق، وذلك لضآلة إمكانياتها بالنسبة لاتساع رقعة الآثار غير

(١) G.H. Riviere : Seminaire museologique d, Alger 1969 - Doc Icom P.108.

المنقولة، هذا مع العلم أن تكاليف الترميم والصيانة تقع كلياً وجزئياً على عاتق صاحب البناء نفسه.

ثم إن عدم السماح بإجراء أي ترميم إلا عن طريق السلطة الأثرية التي تعجز عن القيام بهذا العمل باستمرار، هو من المشاكل الخطيرة التي تزيد المدينة التقليدية والبناء التاريخي تعرضاً للخراب والزوال، ويجعل المدينة التقليدية أشبه بحديقة حيوان بشرية على حد تعبير ريفيير[1].

٢/٨ لقد ازداد عدد المناطق والأبنية الأثرية والمواقع التاريخية المسجلة في السنين الأخيرة، ولم تزدد الاعتمادات المخصصة لعمليات الترميم الفني بالنسبة نفسها، وباعتقادنا أن المشكلة لاتكمن فقط في ضيق الاعتمادات والآليات والكوادر، بل أيضاً في عدم توزيع العمل. لقد آن الأوان أن يكون في كل مدينة قديمة جهاز مستقل لترميم الآثار، بل أن ينشأ لكل مدينة قديمة إدارة مستقلة تعنى بشؤون المحافظة على منشآتها وتطويرها ومدها بوسائل الحياة المعاصرة باعتبارها وحدة مشخصة، وليست مجموعة من المباني الهامة.

٩- حدود الترميم الأثري

١/٩ ثمة مشكلة لابد من ذكرها في هذا الصدد وتقوم في تحديد أبعاد الترميم، فما هو المقصود من ترميم الأوابد، هل يعني ذلك إعادة عناصرها المعمارية أو الزخرفية كما كانت عليه بدقة، أم الاكتفاء بإصلاح القائم منها وترك الأماكن المهدمة دون إعادة بنائها[2].

لقد تبين أن أكثر الأوابد التاريخية ما زالت مستعملة وخاصة المساجد التي تؤدي وظيفتها الدينية عليالوجه الكامل، وأن ضرورة ربط المدينة القديمة بالحياة يدفعنا أيضاً إلى الحفاظ على المساكن القديمة صالحة للاستعمال بحسب وظائفها.

٢/٩ هنا لابد من التفريق، بين الأوابد التاريخية القديمة التي ترجع إلى العهود الكلاسية أو ماقبلها، وهي مبانٍ لم تعد على الغالب صالحة لأداء وظيفتها بعد أن تعرضت لكثير من الهدم بسبب الزلازل والحرائق والحروب. وفيها يقف الترميم عند حدود إعادة إنشائها بالعناصر المعمارية المتبقية مع إضافة ما هو ضروري لتماسكها على أن تبقى العناصر الجديدة واضحة بلونها خدمة للحقيقة التاريخية.

أما المدن التقليدية وأبنيتها القديمة، فإن التزام الحياد في عمليات الترميم أي وضع نقوش بكماء مكان النقوش الدقيقة التالفة، أو إبقاء الأثر على ما هو عليه احتراماً لواقعه التاريخي، هذان الموقفان يتعرضان في الواقع إلى نقد شديد نظراً لأن هذه المنشآت ما زالت تقوم بوظائفها التي أنشئت من أجلها، وخاصة المساكن والأسواق والخانات وبصورة أعم المدينة

(١) انظر كتاب الآثار الإسلامية في دمشق : ترجمة قاسم طوير دمشق ١٩٨٥ .

(٢) Recommandation Concernant la Preservation des biens culturels mis en peril par des traveau publique ou prives XV e session de la conference generale de I, Unesco Paris 1968

القديمة بكاملها.

٣/٩ ولكن لابد من وضع خطة كاملة لصيانة المدن والأحياء التاريخية، وذلك لإيقاف الانهيار الذي يطرأ عليها ولتطويرها مع ظروف الحياة الاجتماعية الكريمة والعصرية، وتحضيرها للنهوض بمهام جديدة تتفق ووظائفها، كل ذلك ضمن الحفاظ الدقيق على الأسس المعمارية والعمرانية التقليدية مع تطويعها للظروف الجديدة[1].

ويمكن أن تكون هذه الخطة لعدة سنوات كما تم في سورية (خطة التنقيب والترميم للخطة الخمسية الثالثة (١٩٧٠-١٩٧٥م) والخطة الجزائرية (١٩٧٤-١٩٧٧م).

٤/٩ ولأن التراث العربي واحد في الأقطار العربية، ولأن مشكلة المدينة القديمة واحدة أيضاً كان لابد من التعاون العربي لدعم مشاريع تعريب المدينة ومشاريع الحفاظ على تراثها وتقاليدها. ومن حسن الحظ أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المنبثقة عن جامعة الدول العربية قد وضعت مشروعاً لإنشاء صندوق لإنقاذ الآثار العربية، مما سيكون له أثر بالغ في دعم المشاريع المتعلقة بالحفاظ على الطابع العربي في المدينة القديمة والحديثة.

١٠- حماية المدينة التقليدية

١/١٠ يتضح لنا أن التدابير المتبعة في بعض البلاد العربية لحماية المدينة التقليدية لم تكن كافية ولم تحقق الغرض منها، والسبب في ذلك يرجع إلى اعتبار هذه المدينة التقليدية مجرد أثر من الماضي، وليست تجسيداً مادياً لأسلوب الحياة الذي درج عليه الناس ضمن حدود عاداتهم وتقاليدهم وأذواقهم. لذلك فإن تدابير الوقاية المتبعة، على ضرورتها، كانت تسعى، في أحسن الحالات إلى تثبيت الحالة الراهنة وإصلاح بعض الأضرار إصلاحاً جزئياً ودرء التخريب المتعمد أو التشويه الجاهل. والحق كان هذا أقصى ما يمكن أن نطالب به السلطات الأثرية. ولكن السلطات البلدية مطالبة برسم أهداف أخرى هي تحقيق استمرارية الحياة في المدينة التقليدية، وتحقيق التطوير اللازم في هذه المدينة مما يجعلها منسجمة مع مقتضيات العصر ومستحدثاته.

٢/١٠ ولابد لتحقيق ذلك من إجراء دراسة تخطيطية تعتمد على جهود الأثريين والمؤرخين والاقتصاديين والمعماريين والعمرانيين (مخططي المدن) لدراسة طريقة تحقيق التوازن بين أصالة الماضي وإرادة التقدم والمعاصرة.

على أنه لابد من اتخاذ إجراءات مباشرة وعاجلة للحفاظ على المدينة القديمة يمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

١- تحديد المدينة القديمة ضمن نطاق سورها القديم وتعيين الأوابد القديمة لترميمها وصيانتها.

٢- عدم السماح بإجراء أي تعديل معماري غير مدروس، وعدم إخضاع المدينة لأي تنظيم عمراني يؤثر على وضعها ووحدتها.

---

(١) محمود المسعدي : كلمة الافتتاح في ملتقى اليونسكو، (حول مشكلات الفنون العربية) الحمامات - نيسان ١٩٧٤ .

٣- تنظيف المدينة القديمة من الأبنية المشوهة على أن لايؤدي ذلك إلى تفكيك المدينة بل إلى إبراز الأبنية الهامة.

٤- منع وسائط النقل الضخمة أو الإقلال منها ضمن نطاق المدينة.

٥- استملاك المساكن الأثرية الخاصة وجعلها أماكن سياحية.

٦- وضع مخطط دقيق للأوابد الأثرية وتسجيلها مهما كانت بسيطة.

٧- تخفيف الإسكان في المدينة القديمة ومنع الصناعات الآلية والإبقاء على الصناعات القديمة والشكلية.

٨- الحفاظ على الأسواق والمجاميع الإنشائية بما فيها من مدارس وحمامات وجوامع ضمن نطاق وحدتها العمرانية دون السعي إلى خلق فواصل وفراغات تفكك الوحدة العضوية التي تجمع هذه المنشآت.

٩- لابد من الحفاظ على الحياة في المدينة القديمة وتأمين الانسجام الكامل بينها وبين متطلبات العصر، ولكن يبقى من المفضل المحافظة ما أمكن على تقاليد الحياة وعلى البيئة مع تطويرها دون أن يؤثر ذلك على ماهيتها.

١٠- يجب ألاتصبح المدينة القديمة موئلاً للفقراء والمهاجرين من القرى. بل على العكس، يمكن أن تكون مقراً للمحافظين الذين يتفهمون جيداً أهمية المدينة القديمة وتقاليدها.

١١- إن الهدف الثابت من المحافظة على المدينة القديمة هو حفظ التراث والتاريخ وإبراز الماضي العريق وتحسين مظاهره أمام الزائر والسائح والمحقق، وبذلك تبقى المدينة القديمة الواجهة الحقيقية الأكثر أهمية من الناحية السياحية. وبهذا المعنى لابد من العناية بالمرافق السياحية الضرورية ضمن المدينة القديمة.

١١ - عدم وضوح مفهوم المعاصرة

١/١١ لقد كان على البلاد العربية الناهضة والتي استطاعت أن تتحرر عقب الحرب العالمية الثانية من الاستعمار والانتداب. أن تباشر مسؤوليات تطورها استناداً لمعطيات القرن العشرين والعصر الحديث خاصة. ولكن مما يؤسف له أن المعاصرة لم تكن جوهرية بل كانت شكلية، تقوم على التقليد لمظاهر المدينة الحديثة. وهذا أمر يبدو لعالم اجتماعي مثل (تارد) طبيعياً، لأن الإنسان يبتدئ في تطوره مقلداً ولا ينفذ إلى جوهر تطوره إلا متأخراً.

٢/١١ ومن أهم مظاهر هذا التقليد الشكلي، هو العمارة الحديثة التي انتشرت بسرعة مذهلة لتغطية الحاجات السكنية التي تزايدت عقب الحرب الثانية. وقد أقبل الناس الذين أثروا على هذه البيوت التي ساعدتهم علىالأقل على تغيير وضعهم الاجتماعي، مما يتفق مع أشكال الحياة الاجتماعية الغربية التي رأوها عند المحتل أو المستعمر أيام وجوده في مدينتهم،

في أحياء أوربية منسقة ذات شوارع منظمة وذات أرصفة تظللها الأشجار، وتمتد المساكن حول الشوارع يفصلها عنها حدائق خارجية بديعة. وجاءت السيارة لكي تؤكد تنظيم المدينة الجديدة أو الأحياء الجديدة وفق النظام الغربي المخالف تماماً للتقليد المحلي، وأصبح البولفار هو أساس

هذا التنظيم.

٣/١١ ولقد وصف محمود المسعدي هذا الواقع بفطنة فيما يتعلق بمدينة تونس التي تشابه المدن العربية الأخرى[١].

ولقد أدى هذا التعديل الجذري في نظام المدينة إلى تعديل جذري في نظام العلاقات الاجتماعية. ففي الحي التقليدي يمارس الناس نوعاً معيناً من السلوك والآداب وعمليات البيع والشراء واللهو، ونوعاً خاصاً من الأزياء. هذه المظاهر زالت تماماً إذ لم يعد في الشارع أركان هادئة تستقبل مثل هذه الأنشطة[٢].

٤/١١ إن تنظيم المدينة الحديثة قد حرم السكان من الظروف الملائمة للمناخ. فلقد كانت الشوارع الضيقة الملتوية والمظللة بالبروزات والمشربيات تحمي المشاة من العواصف والغبار والأمطار كما تحميهم من الشمس المحرقة في الصيف. أما الشوارع الحديثة فلقد انكشفت على العوارض الجوية وتركت المشاة عرضة لها، حتى الأشجار المظللة للأرصفة أخذت تتناقص مع ضيق الأرصفة المتراجعة لصالح السيارات. لقد قامت المدينة التقليدية على مبدأ توزيع الفراغات لصالح الإنسان وحسب حاجته ورغبته. أما المدينة الحديثة فإنها درست الفراغات لصالح السيارة وحدها وأغفلت الإنسان تماماً وجعلته مرتبطاً بالسيارة.

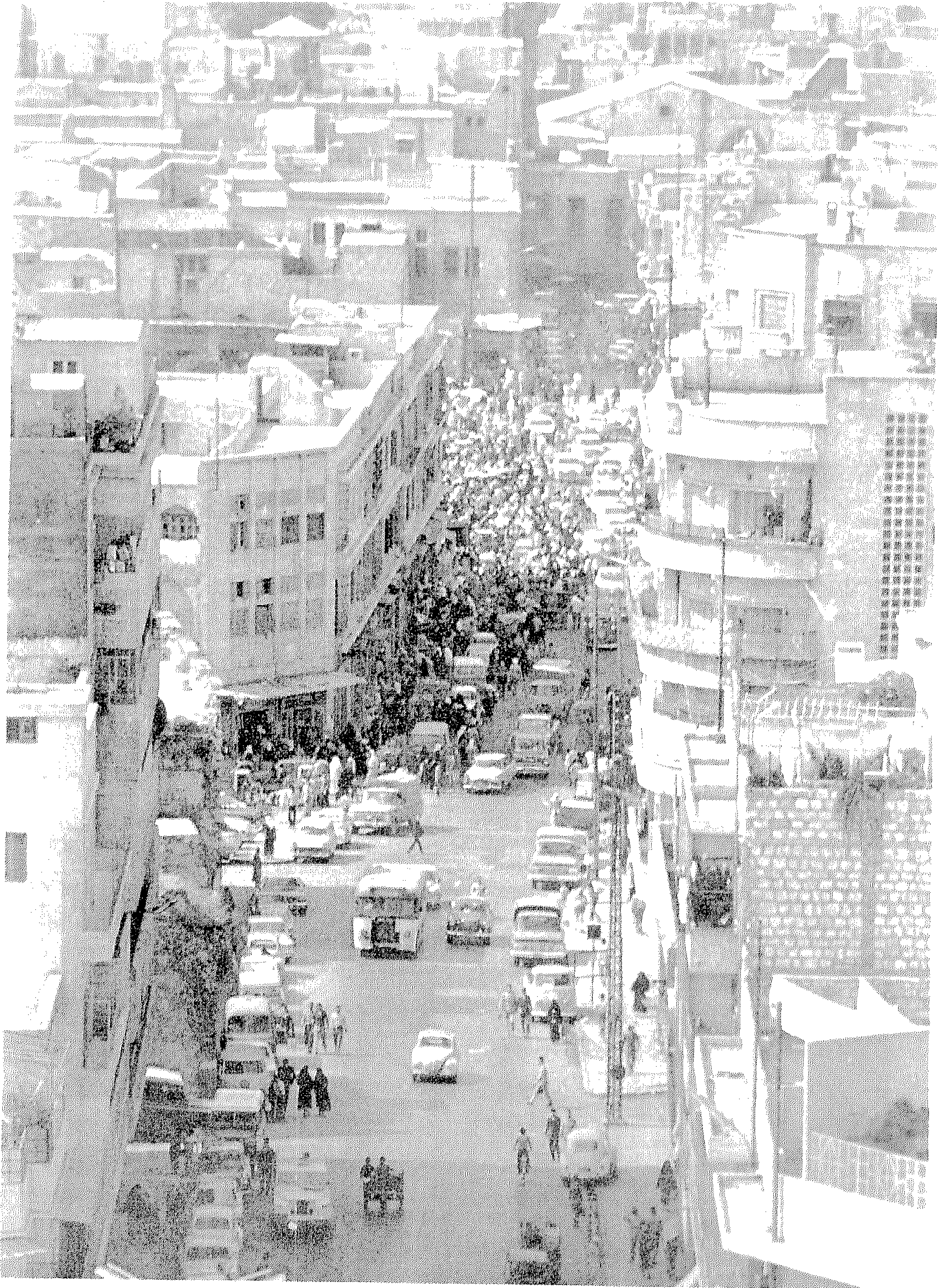
٥/١١ أما في مجال المسكن ذاته، فلقد أدى تغيير شكل عمارته وتغيير مادة العمارة ذاتها إلى نتائج مؤسفة، جعلت العمارة الحديثة ذاتها على جمالها الشكلي ومعاصرتها غريبة عن الذوق، بل وضارة أيضاً. فلقد لاحظ المهندس حسن فتحي بعد تجاربه التي قام بها الملاحظات التالية:

١- إن إهمال الصحن الداخلي الذي كان أساسياً في العمارة التقليدية، قد حرم السكن من (معدِّل للجو) فهو خزان ترطيب وخزان تدفئة في الوقت نفسه، لذلك واستناداً لعلم الأيروديناميكا أي حركية الهواء، فإن الصحن يحتفظ بحرارة هوائه دون أن يتأثر بالهواء الخارجي الذي يمر فوق الصحن محدثاً دوامات ودون أن يهبط إلى الصحن، ويمكن التأكد من ذلك باللجوء إلى تجربة الدخان أو تجربة الرائحة.

٢- عدا عن دور حفظ الحرارة الذي يقوم به الصحن فإن دوراً أهم أصبح يقوم به الصحن هو حفظ نقاء الجو بعد أن أصبح هواء المدينة الحديثة ملوثاً بشكل خطر. وتتحقق هذه الحماية وفق مبدأ حركية الهواء نفسه الذي ذكرناه.

لقد أراد المعمار الحديث أن يخفف من وطأة الطقس المتبدل وأن يعوض عن الفسحة السماوية الداخلية بالنوافذ الكبيرة المطلة على الشارع، دون أن يفطن إلى الخطأ الجسيم الذي زاد المسألة تعقيداً وأدى إلى عكس الهدف الذي يسعى إليه، لأن النافذة المفتوحة الكبيرة كانت تسبب زيادة في برودة الغرف شتاء وزيادة في

(١) محمود المسعدي : كلمة الافتتاح في ملتقى اليونسكو ، (حول مشكلات الفنون العربية) الحمامات - نيسان ١٩٧٤ .
(٢) د. ثروة عكاشة : المشاكل المعاصرة للفنون العربية ، باريس ١٩٧٤ ص ٢٨ .



دمشق الحديثة ـ والتخطيط الهندسي

حرارتها صيفاً، عدا أنها أصبحت تستقبل ببساطة الهواء الملوث.

٣- لقد أضافت المواد الإنشائية التي استعملت في العمارة الحديثة مشكلة جديدة. فالإسمنت والحديد حلا محل الطين أو الآجر والخشب. هذه المواد التي تتناسب دائماً مع الظروف المناخية وقدمت للإنسان الظروف المواتية.

وعندما استيعض عنها بالإسمنت، فإن العمارة خالفت وخانت مصلحة الإنسان لتخدم الشكل والتقنية الحديثة ولترتبط بالموضة وليس بالمعاصرة. ويجب أن نوضح المقصود من الطين فهو ليس مجرد التراب المجبول بالماء، بل الطابوق والآجر والقرميد، أي ألواح الطين المجفف أو المحروق[1].

٦/١١ لقد أجريت تجارب لدراسة أهمية الآجر ومشاكل الإسمنت في منطقة صحراوية، فتبين أن المدى الحراري، أي الفرق بين الحرارة والبرودة في كل يوم كامل في مسكن مبني باللبن، لاتتجاوز درجتين حراريتين فقط، أما المدى الحراري في المسكن المبني من الإسمنت فهو ٢٢ درجة حرارية.

ومن هنا يتبين أن استعمال الإسمنت كبديل للطين لم يكن لمصلحة الإنسان العربي لا من الناحية الصحية ولا الاقتصادية أيضاً، ذلك لأن الطين مبذول في أي مكان ومجاني كالماء بينما يخضع الإسمنت إلى الأسعار الدولية وإلى تكاليف باهظة لإنتاجه.

٧/١١ إن الاتجاه نحو المعاصرة أمر ضروري ولاشك، ولكن هذا لايتم عن طريق الاستيراد الأعمى للطرق والوسائل أو عن طريق التقليد، بل يتم عن طريق فهم جوهر العصر الحديث. وهو العلم، فنحن لم نعتمد على العلم لدراسة الظواهر العمرانية والمعمارية والبيئية ولم ندرس المواد وميكانيكيتها وتطورها

حتى الطين، هذه المادة التي استعملت منذ آلاف السنين في أرضنا فكانت الزيقورات والمعابد في بلاد الرافدين، وكانت ناطحات السحاب في اليمن، ثم كانت المنشآت الفاطمية والعباسية من الطين المشوي أو المجفف، ولكن لم نكلف أنفسنا عبء دراسة إمكانياتها المتطورة بعد وجود الإسمنت والمواد البتروكيمائية مما يجعلنا نستعيض بها عن التبن أو الشعر الذي استمر استعماله آلاف السنين.

المعاصرة هي في الاعتماد على البحث العلمي والتخطيط وليست في التقليد واتباع الموضات، فالحضارة ليست زياً بل هي مقياس رقيّ الإنسان في أمة من الأمم.

٨/١١ والمدينة القديمة ليست مظهراً من مظاهر التخلف يدفعنا إلى إهماله ومناهضته، بل هي الصيغة المركبة من حصيلة التفاعل بين الإنسان والمحيط. الإنسان بقيمه وتطلعاته، والمحيط بمناخه وروحه وتقاليده.

والمعاصرة لاتعني الانفصال عن التراث

(١) انظر الدراسة القيمة عن طريق البناء بالطين في سورية .

R. Thumin; La maison Syrienne, Paris Librairie E. Leroux 1932 PP. 8-13 .



بناء بانوراما حرب تشرين آية معمارية تعبر عن الأصالة المعمارية والمعاصرة

والماضي، بل تعني تطوير هذا التراث مع الواقع. ومن هذه الزاوية نستطيع أن ننظر إلى طريقة تطوير المدينة القديمة وطريقة تأصيل المدينة الحديثة في البلاد العربية. ولكن لابد أن تكون هذه الطريقة علمية، ولابد أن نتجنب في الحالتين التقليد والمحاكاة، وأن نحاذر الخروج عن المقياس الإنساني والانزلاق إلى مقاييس أخرى يصبح الإنسان لها عبداً.

إن مدينة المستقبل كما يقول حسن فتحي يجب أن تكون على مستوى الإنسان الطفل، لأنه لايخطئ ولايتساهل في حاجاته، وهو بذلك يحدد الشروط السليمة التي يشترطها الإنسان في المدينة. ويحدد بالتالي الشروط القومية للعمارة.

١٢- مدينة المستقبل

١/١٢ إن شرط المدينة المعاصرة أن تكون مدينة عربية مرتبطة بالإنسان والمناخ والتاريخ. ونجمل هذا القول بالنقاط التالية:

١- يجب أن تتميز المدينة الجديدة عن القديمة بطابعها المرتبط بالعصر ولكن يجب أن تستمد من الطرز التقليدية لتحافظ على أصالتها.

٢- يقتضي عدم نقل الآثار من مكانها وعدم تزيين الساحات الجديدة بأوابد منقولة من أماكنها الأثرية، فإن هذا العمل يفقد الأثر معناه وروحه ويفصله عن جوه وأرضه ومحيطه الذي نشأ فيه.

٣- إن وجود آثار أو أوابد قديمة في منطقة المدينة الجديدة يلزم المهندس العمراني باحترام مواقعها وجعل مخططه منسجماً معها، وليس ما يبرر نقلها من أماكنها لما في ذلك من مخالفة تاريخية عدا أنه يتطلب نفقات باهظة.

على أن هذه الأوابد كالمدارس والترب والجوامع والرباطات يجب أن تبقى بعيدة عن تأثير العمارة الحديثة، فلا تقام قربها البنايات الشاهقة أو الملونة أو المغرقة بالحداثة. ومن المستحسن دائماً أن يترك حولها إطار من الحدائق والأماكن الرحبة العامة. ويبقى من المفضل أن تبقى هذه المنشآت مخصصة للزيارة فقط دون أن يسمح بإشغالها أو استعمالها إلا في الأغراض التي أنشئت أصلاً من أجلها.

٤- من المفضل أن تحافظ المدينة الجديدة في أحيائها المحدثة على أسماء المناطق والأرباض والبساتين القديمة، لكي تبقى هذه التسميات خلفية تاريخية للأوابد المتبقية، وللمدينة الجديدة ذاتها. ومن الممكن الإشارة إلى الاسم القديم إلى جانب الاسم الجديد عند الضرورة.

ولا بد أن ندرك أن إقامة مدينة عصرية إلى جانب المدينة التقليدية يشجع على النزوح إلى المدينة الحديثة جرياً وراء حياة أكثر انسجاماً مع ضرورات العصر، يلجأ إليها السكان المدنيون هرباً من القديم المتخلف كما يزعم البعض. لذلك لابد من تحويل الانتباه إلى الأهمية التاريخية والمادية للمدينة القديمة والمسكن القديم بجميع ما يحفل به من تحف وطرائف لم يعد بالإمكان مجاراتها أو تقليدها، عدا أنها تتسم بطابع التراث.

٢/١٢ لقد أصبحنا نرى كثيراً من

الأثرياء المثقفين ممن يلجؤون إلى إغناء مساكنهم بعناصر معمارية وزخرفية قديمة، ويتباهون بقدمها وعراقتها (كمنزل هنري فرعون في بيروت) ومع أن هذا الحرص والاهتمام يبقى دليلاً على أهمية هذه الأشياء المعمارية القديمة في الذوق الحديث، فإن صوابه يبقى في إبقاء هذه الأشياء ضمن بيئتها وفي مكانها، فتحافظ بذلك على استمرارية الحياة فيها، ودون أن نبترها من منبتها لنحفظها في مسكن أشبه بالمتحف.

٣/١٢ إن رفض التقليد الأصيل يبقى من لوازم المحافظة على تجانس الحياة الحضرية في المدينتين القديمة والحديثة، وهذا من أهم لوازم الحفاظ على الشخصية القوية المعاصرة، وإبعادها عن الهجانة والزيف المتمثل في حركة التمغرب، ثم هو السبيل إلى التخفيف من النزوح من المدينة القديمة وتركها للإهمال والمهملين.

وأكثر مايعتمد عليه تخطيط المدينة الحديثة، هو الوعي بأهمية الخصائص التاريخية للعمارة العربية، ومن المؤسف أن هذه الناحية لم تصل بسهولة إلى قناعة المسؤولين، على الرغم من اهتمامات الهيئات الدولية وخاصة اليونسكو بمعالجة المشاكل التي تعترض التراث الحضاري العربي والتنبيه إلى أهمية الحفاظ على هذا التراث.

٤/١٢ إن الاهتمام بتوسيع المدن العربية لموافقتها مع ضرورات العصر والتوسع السكاني أمر بدهي بعد أن نهضت الدول العربية نهضتها الواسعة خلال هذا القرن، وبعد أن توسعت ثروتها وشقت لنفسها طريقاً حضارياً جديداً.

ولكن الشعور بضخامة المسؤولية أمام ضآلة الإمكانية أدى إلى الشعور بالدونية والتخلف، هذا الشعور الغريب دفعنا إلى رفض كل قديم في حياتنا، دون الاهتمام بمظاهر الحضارة الشعبية في هذا القديم. إن عودة الثقة بالنفس والماضي والتراث، هي من أهم الأسلحة التي تساعدنا على مجابهة غزو الثقافات الغربية والمشبوهة، وعلى تمكين الانتساب إلى تراثنا وشخصيتنا التي نحن بأشد الحاجة إليها لجعل نهضتنا أصيلة ومتينة.

الفصل التاسع

تكون المدينة المعاصرة

١- العمارة الدمشقية الإسلامية

٢- بداية النهضة العمرانية الحديثة

٣- البيت الدمشقي

٤- العمارة الداخلية

٥- وصف البيت الدمشقي (قصر العظم مثالاً)

٦- الأسلوب المتوسطي الكولونيالي

٧- الأسلوب الأصيل - صرح الشهيد مثالاً

تكون المدينة المعاصرة

١ - العمارة الدمشقية الإسلامية

١/١ أثناء حفرية أثرية في صحن الجامع الكبير، تم العثور على كسر فخارية تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد[١] ، وهذا دليل على أن باطن دمشق يحوي على أسرار التراث القديم الذي لم يكشف عنه بعد. وأثناء ترميم الجدار الشمالي للجامع الكبير ذاته، تم العثور على لوح لنحت نافر يمثل أبا الهول[٢] ، حيوان مجنح يعود ولا شك إلى العهد الآرامي أي إلى الألف الأول قبل الميلاد. ولم تقدم الحفريات الأثرية الدليل على الآثار والعمارة الآرامية مما نراه بوضوح في موقع عين دارا قرب عفرين، وفي عين العرب. لذلك فإن أقدم مانعرفه جيداً من عمارة في دمشق، هو معبد جوبيتر وخاصة (البروبيله) وأجزاء من السور (البيريبول) والواجهة الجنوبية للمعبد والباب الشرقي للمدينة وقوس النصر، وهذه البقايا تقدم لنا نماذج راقية لفن العمارة في العصر الروماني، ونحن نعرف مواقع نماذج أخرى لم يتم الكشف عنها بعد[٣] .

ومن العصر البيزنطي تم الكشف في منطقة الحريقة على بقايا قصر ذي أرضية فسيفسائية أو رخامية ملونة، ولا نملك في دمشق شاهداً كاملاً على عمارة بيزنطية مما نعرفه جيداً في منشآت البارة وقلعة سمعان.

٢/١ ومنذ الفتح الإسلامي عام (٦٣٦ م) ابتدأت سلسلة من المنشآت مرت بأسلوبها بمراحل ثلاث:

المرحلة الاستمرارية التي نرى نموذجها في الجامع الأموي الكبير، وفيه استفاد المعماريون في عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥م)، من بقايا معبد جوبيتر المتراكمة أطلالاً حول الناووس الروماني الذي استعمل كنيسة، ولذلك فإن أسلوب العمارة في الجامع الكبير يذكرنا بالأسلوب الكلاسي الذي تأكد بإضافة التغطية الجدارية الفسيفسائية التي كانت من تقاليد المعمار الدمشقي قبل الإسلام.

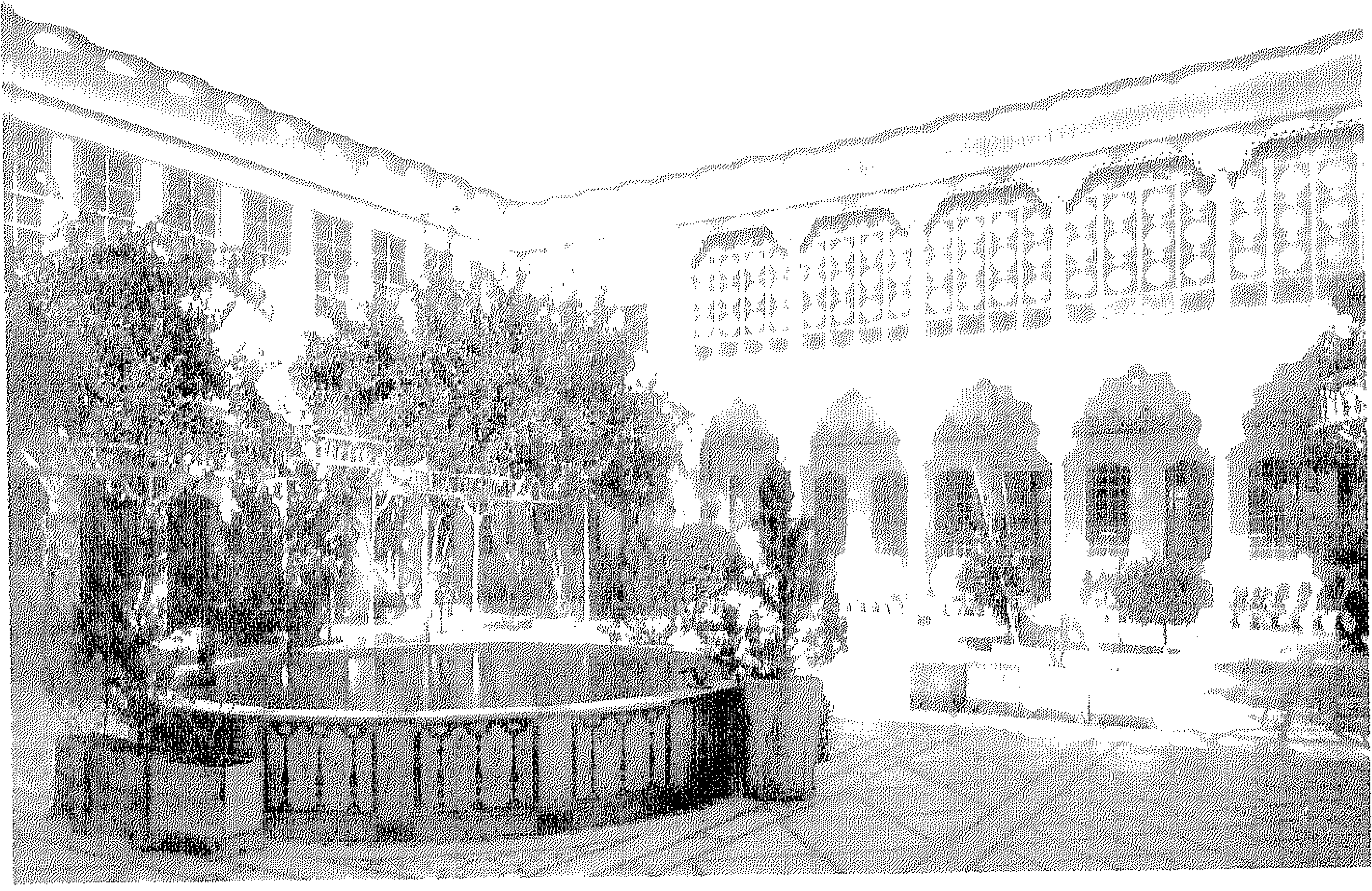
٣/١ مرحلة تكوين فن العمارة الإسلامية: لانعرف تفصيلاً عن العمارة العباسية في دير مران أو قصر خمارويه كما

---

(١) أجريت هذه الحفرية في سنة (١٩٦٣) أثناء تبليط صحن الجامع - انظر بحث الريحاوي - الحوليات - دمشق المجلد ١٣ .

(٢) هذا اللوح موجود حالياً في المتحف الوطني بدمشق .

(٣) انظر الدراسة الموسعة عن دمشق في العهود قبل الإسلامية. K wulzinger - C.watzinger; Damascus T1

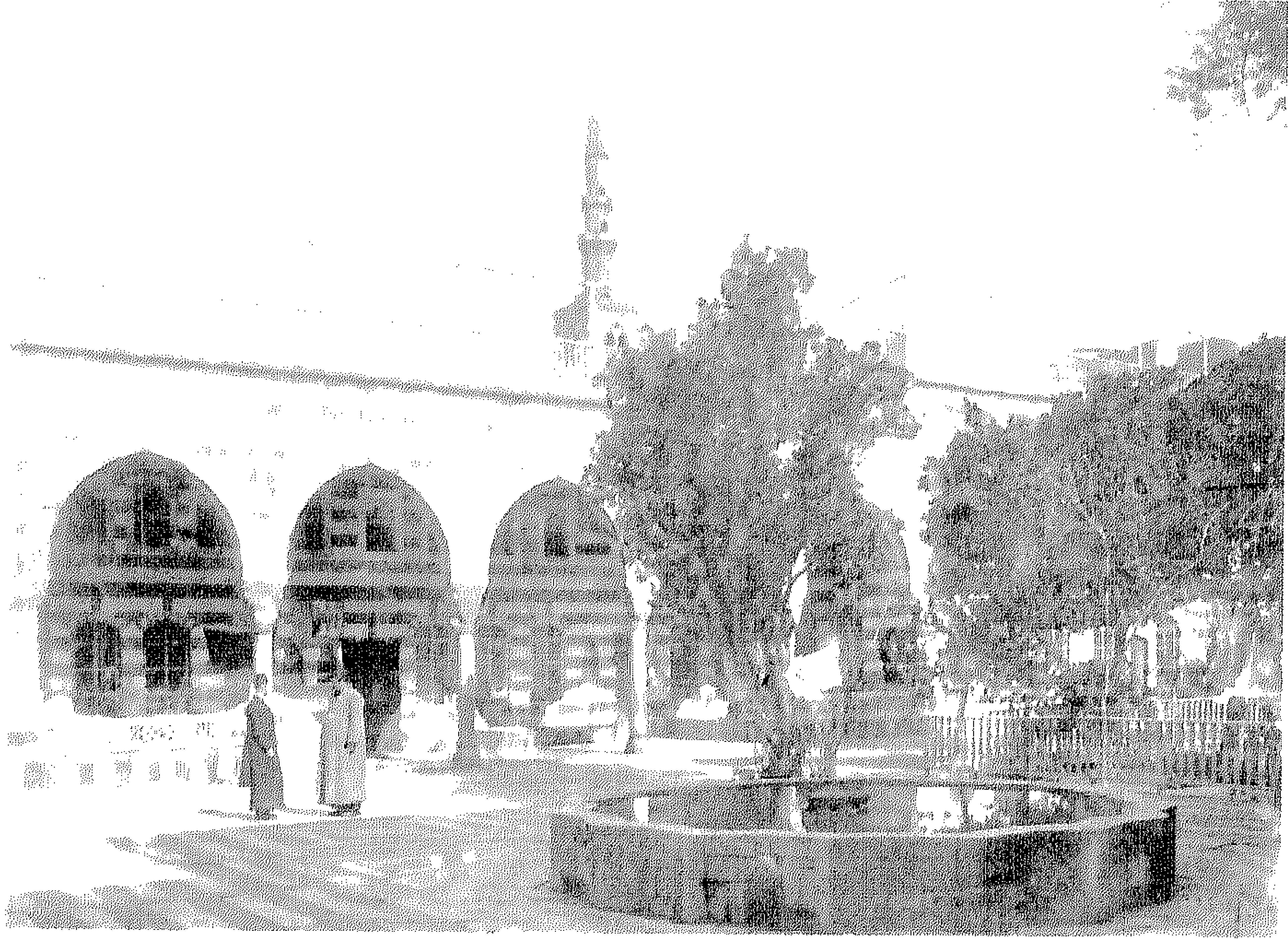


البيت القديم من الداخل - بيت شامية (بونفيس)

لانعرف من بقايا العصر الفاطمي إلا محراب جامع فلوس وتابوت السيدة فاطمة وآخر للسيدة سكينة مما لايقدم لنا مثالاً كاملاً على العمارة الفاطمية التي وصلت ذروتها في القاهرة الفاطمية، حيث جامع الأزهر والحاكم والأقمر،. وحيث أبواب القاهرة وأسوارها، وجميعها قائمة حتى اليوم.

٤/١ وظهرت في العهد السلجوقي منشآت للتدريس والاستشفاء، نرى أمثلتها في عهد نور الدين محمود زنكي، مثل البيمارستان والحمام والمدرسة النورية والمدفن والبرج. وانتشرت العقود والقباب المقرنصة والأواوين، والزخرفة الرقشية والكتابات المتنوعة الخطوط، وكان هذا العصر بداية ازدهار فن العمارة الذي استمر في العهد الأيوبي القصير، وكانت قلعة دمشق من أعظم المنشآت السلجوقية ثم الأيوبية. إضافة إلى المدرسة العادلية والتربة الركنية والمدرسة، وجامع التوبة والحنابلة والبيمارستان القيمري وأبواب دمشق.

٥/١ بلغ الإبداع المعماري أوجه في العصر المملوكي الذي امتد ثلاثة قرون تقريباً. نرى شواهده في مدارس الظاهرية والجقمقية والسيبائية والصابونية، وفي مساجد تنكز ويلبغا والأقصاب والتيروزي وهشام والقلعي عدا المدافن والحمامات. ومن العصر العثماني فإن التكية السليمانية والكلية الدرويشية وقصر العظم والخانات والبيوت الشهيرة في دمشق مثل بيت السباعي وبيت



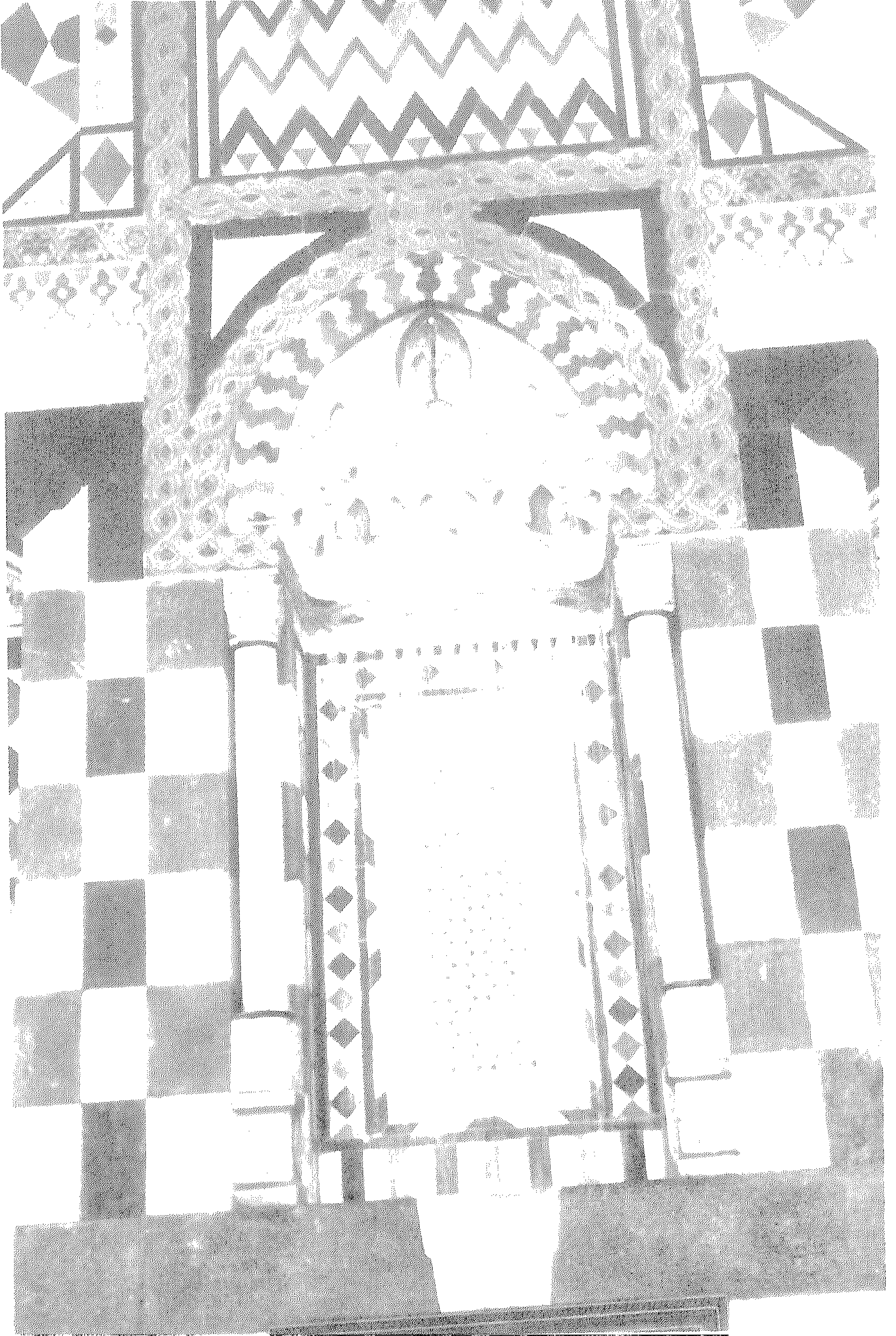
قصر العظم ـ الحرملك ـ (بونفيس ١٨٧٠)

نظام وبيت العظم وبيت عنبر وغيرها، فهي تقدم نماذج جيدة لفن العمارة العامة والخاصة، وفن الزخرفة المعمارية الداخلية والخارجية، وتقدم لنا شواهد من فن العمارة الدمشقية، التي تشكل وجهاً من وجوه العمارة الإسلامية المتنوعة الأشكال والموحدة الهوية والشخصية.

٦/١ وتتحدد شخصية هذه العمارة بالخصائص التالية:

الجوانيّة: إن انفتاح المبنى على الداخل سواء أكان مسجداً أم مسكناً أم مشفى أم مدرسة هو سمة أساسية، فالصحن هو الفناء الداخلي المنفتح مباشرة نحو السماء التي ترمز إلى الملأ الأعلى، ويسعى المؤمن من خلالها إلى ربه لتكلأه عنايته ورحمته، ومن السماء تسطع الشمس بنورها ودفئها، ومنها تهطل الأمطار وتتحرك الرياح، ولأن الإنسان كائن طبيعي فهو يسعى إلى الالتصاق بالطبيعة ومياهها ومناخها، في فضاء الصحن، ويفرش أرضه بالفسقيات والأحواض والأشجار والأزاهير ليتمم صورة الطبيعة في بيته على أزهى مافيها من جمال وألوان وأريج، جاعلاً من ذلك كله فردوسه في سكنه الذي ينشد فيه السكينة والأمن والمتعة.

٧/١ الجمالية: وعلى الصحن تطل من الجهات الثلاث غرف من طابقين، أما في الجهة الجنوبية فتنهض عالياً قاعتان على جانبي الإيوان كبير، هو غرفة بدون جدار رابع، بل هو قوس بديع يجعل



السلسبيل في قاعات البيت التقليدي يتدفق الماء من السلسبيل وهو أعلى مساقط المياه في البيت . ثم يصل الماء إلى نافورة البرك والفسقيات ومنها يتفرع إلى المرحاض وإلى المطبخ عن طريق بركة الحرملك

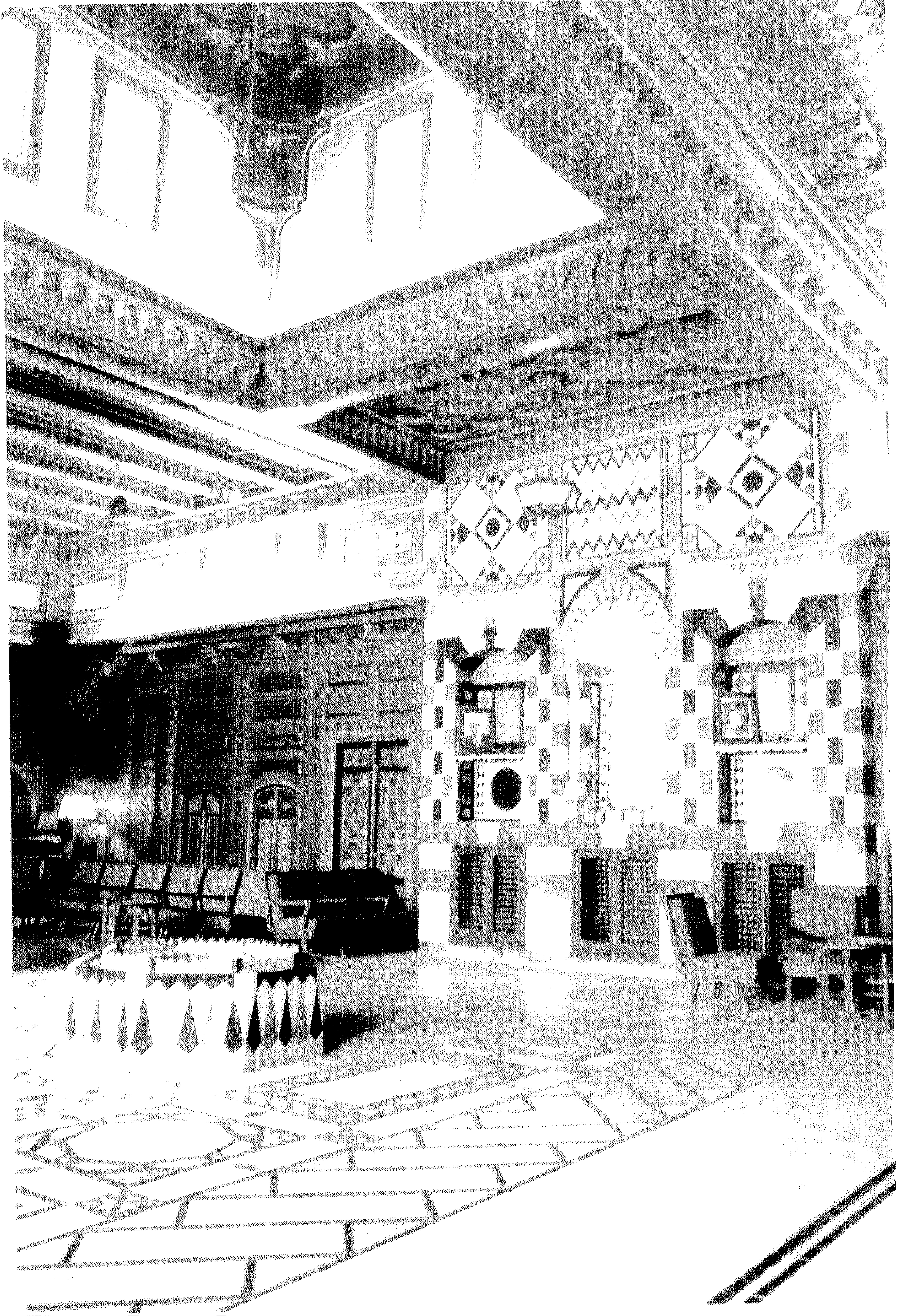
من هذا المكان الكبير محراب البيت. ولاتخلو الغرف الأخرى من الزخرفة الداخلية، بيد أن القاعتين الجانبيتين للإيوان، أو القاعة الواحدة أحياناً، تزهو بزخارف خشبية جدارية ملونة ومزخرفة، وهذه الخشبيات تخفي وراءها خزائن يطلق عليها اسم اليوك. أما السقف فهو مرتفع، مزين بجامة زخرفية تحملها من جهاتها الأربع سراويل مدلاة على شريط من الجدار الكلسي، تنفتح في أعلاه نوافذ لدخول النور، وتحت هذا الشريط تغطي الخشبيات الجدار على ارتفاع أربعة أمتار، وتنفتح فيها من جهة الشمال نوافذ على الصحن، وأخرى تنفتح مع الباب على الإيوان.

أما الإيوان فإن زخارفه الجدارية حجرية أو رخامية، تنفتح فيها مشاكي جميلة. وتزين إطار أبواب القاعتين وبطانة القوس زخارف من الأبلق مؤلفة من أشكال نجمية لايشبه الواحد الآخر، وفيها يتجلى إبداع المعمار الدمشقي والفنان. وتكسو الجدران المطلة على الفناء مداميك من الحجارة في صفوف ملونة، الأسود والأبيض والأحمر الآجري، أما أرض الفناء، فهي مبلطة بالحجر ضمن تشكيلات تتناوب فيها ألوان الأحجار المصقولة.

إن (المصب) وهو السلسبيل الذي تسقط المياه فيه على صفحته المثبتة على جداري القاعتين، هو لوحة فنية متحركة وتنصرف المياه الجارية فيه إلى فسقية جميلة في وسط منخفض القاعة، إذ إن القاعة تتألف من (طزر) أي عتبة عالية تصطف حولها الأرائك، وفي الوسط طنفسة ثمينة من السجاد فوق حصير عازل.

٨/١ المناخ المستقل: إن عناصر معمارية كثيرة يمكن أن نتحدث عنها إذا ما انتقلنا في أطراف المسكن القديم، ولكن أمراً خفياً لانراه بل نحسه إحساساً هو إقليم هذا المسكن، فالمياه الجارية في الصحن والقاعات تجعل الحر القائظ خارج البيت خفيفاً في داخله، وتجعل الجفاف رطوبة، كذلك أيام الشتاء، فإن نظام العمارة القائم على فناء منفتح إلى السماء لايسمح لتيار الرياح أن يمر عبره بسبب إغلاقه الكامل، فالهواء يحوّم فوق الفناء دون أن يتسرب إلى أطراف المسكن، بارداً كان أم حاراً، عاصفاً كان أم هادئاً، كذلك فإن مبدأ الجوانية لايسمح بانتقال الهواء الملوث أو الضجيج خارج المسكن إلى داخل المسكن، إن هذا المناخ الخاص يجعل المسكن منعزلاً تماماً عن موقعه محمياً من الظروف الخارجية الصعبة. وإذا لم يزوّد المسكن الدمشقي بملاقف (بادغير) كما يتم في مدن أخرى مثل دبي والظهران وأصفهان، تساعد على تلقف الهواء لتخفيف الحرارة والجفاف داخل المسكن، فلأن الصحن يقوم مقام الملقف ويؤدي وظائفه ذاتها.

٩/١ المقياس الإنساني: إن البيت الدمشقي وهو بيت عربي إسلامي بمعنى أنه مثال صادق للعمارة العربية الإسلامية، قد قام على المقياس الروحي والمادي للإنسان، بينما قام البيت الغربي الذي نراه ماثلاً في منشآتنا الجديدة على المقياس الرياضي.. ولعله في بدايته قام على



القاعة الشامية ـ الماء ينساب من السلسبيل ليتدفق من البركة في القاعة الدمشقية

مقياس الإنسان من حيث هو شكل متناظر متناسب له قمة وجسم وقاعدة، ولكنه لم يلبث ومنذ عصر النهضة أن سار قدماً نحو التجريد الرياضي متخلياً أكثر فأكثر عن (المودول) الإنساني.

ونحن لاننكر على العمارة الحديثة في الغرب تطورها الإبداعي، ونقف بإجلال أمام أفكار رايت ولوكوربيزيه واسكار نيماير وكينزوتانغي. ونتمنى أن نرى أفكاراً مماثلة حتى ولو كانت متطرفة تنطلق من مبادئ عمارتنا لنتوغل في أبعاد العصر الحديث وظروفه، ولانعتقد أننا سنخرج مع ذلك عن المقياس الروحي والمادي للإنسان.

إن دراسة تحليلية لعمارة الماضي التي مازالت ماثلة في أنحاء دمشق القديمة، تبيّن لنا أن هذا المقياس استمر أساساً ثابتاً في العمارة الدينية والسكنية على السواء.

١٠/١ الجينات المعمارية: إن البحث عن الأصالة الدمشقية في العمارة الحديثة إنما يتم على هدي الجينالوجيا أو علم الجينات، فحيثما كانت الصبغيات الوراثية ماثلة فإن ثمة أصالة يمكن اكتشافها والتأكد منها.

لقد استعيرت عبارة الأصالة من علم الوراثة، وبصورة أدق من علم السلالة الذي كثير ما نعود إليه للتأكد من أصالة الخيول. فكما يتم التكوين العضوي لجسم كائن حي نتيجة توارث الصبغيات، فإن ثمة جينات وراثية تكمن في بنية العمارة والفن وأي شكل من أشكال الإبداع، وعندما تكون هذه الجينات أصيلة فإن البنية الأخيرة تكون أصيلة بالضرورة.

ولقد دخل على علم الجينالوجيا هذا وهو بحد ذاته علم الأصالة، علم آخر هو علم التهجين أو التدجين، وفي مجال العمارة والفن مازلنا نتحدث عن الفن المدجن في الأندلس هذا الفن العربي الذي داخلت جيناته الأصيلة جينات دخيلة.

وعلى هذا فإن البحث عن الأصالة في العمارة ليس بحثاً عن الشكل فقط، بل بحث عن عناصر تكوين هذه العمارة، وما دراسة تاريخ العمارة إلا دراسة للأسس والصبغيات التي تعاقبت مع الزمن في جسم العمارة وشكلها. وكثيراً ما نجد في تاريخ العمارة دخول جينات جديدة تطرد نهائياً الجينات الأصيلة، وهو ما نسميه بالعمارة الدخيلة.

١١/١ هكذا نصل إلى ثلاثة أشكال في العمارة، العمارة الأصيلة، والعمارة المدجنة، والعمارة الدخيلة، ونرى أمثلة لهذه الأشكال الثلاثة من العمارة في عمارات ومنشآت دمشق، وكنا تحدثنا عن خصائص العمارة الأصيلة في دمشق.

١٢/١ استمرت العمارة الدمشقية محافظة على جيناتها الأصيلة حتى منتصف القرن الماضي، فلقد تداخلت في العمارة السكنية عناصر زخرفية مستمدة من أسلوب الباروك الذي انتشر في ألمانيا وفرنسا خاصة. وتسابق أصحاب البيوت الفخمة لاستيراد هذه العناصر جاهزة من مصادرها، مما نراه واضحاً في مكتب عنبر وبيت المجلد، وبيت شمدين وقد نقلت عناصره جميعها إلى القاعة



محطة الحجاز والمنطقة حولها من الشرق بستان المولوية ومن الغرب بساتين الغرباء (إيكوشار ١٩٣٠م)

الدمشقية الرئاسية[1].

وفي هذه العمارة نرى التقسيم التقليدي والمفهوم المعماري للسكن مازال مستمراً، ولكنها الزخرفة الحجرية والرخامية المؤلفة من توريقات معقدة والبارزة بنحت دقيق، قد حلت محل الزخرفة التي عرفناها في العصرين المملوكي ثم العثماني والمؤلفة من الأبلق والمشقف ثم من القاشاني والعجمي.

٢ - بداية النهضة العمرانية الحديثة

١/٢ يجب الاعتراف أن دمشق في نهاية القرن الماضي كانت محرومة من المباني العامة، فقصر العظم كان مسكن الوالي أسعد باشا وأصبح مسكناً لورثته، كذلك كان شأن قصر كنج يوسف باشا في ساحة الشهداء فقد هدم لإقامة مبنى العابد مكانه، وتهدم منذ زمن بعيد قصر السعادة القديم في منطقة سوق الأروام ونرى اليوم عضادة باقية من آثاره، وزال قسم من المشيرية التي كانت في موقع قصر العدل الحالي، وكانت القلعة منذ عصر المماليك قد هجرت تقريباً كمقر للسلطة[2] ولكن عندما جاء الوالي المصلح حسين ناظم باشا، ابتدأ عهد الإنشاء، فبنى قصر البلدية في عام (١٨٩٥م) وأعقبه عدد من المنشآت العامة الأخرى التي تحمل أسلوباً دخيلاً.

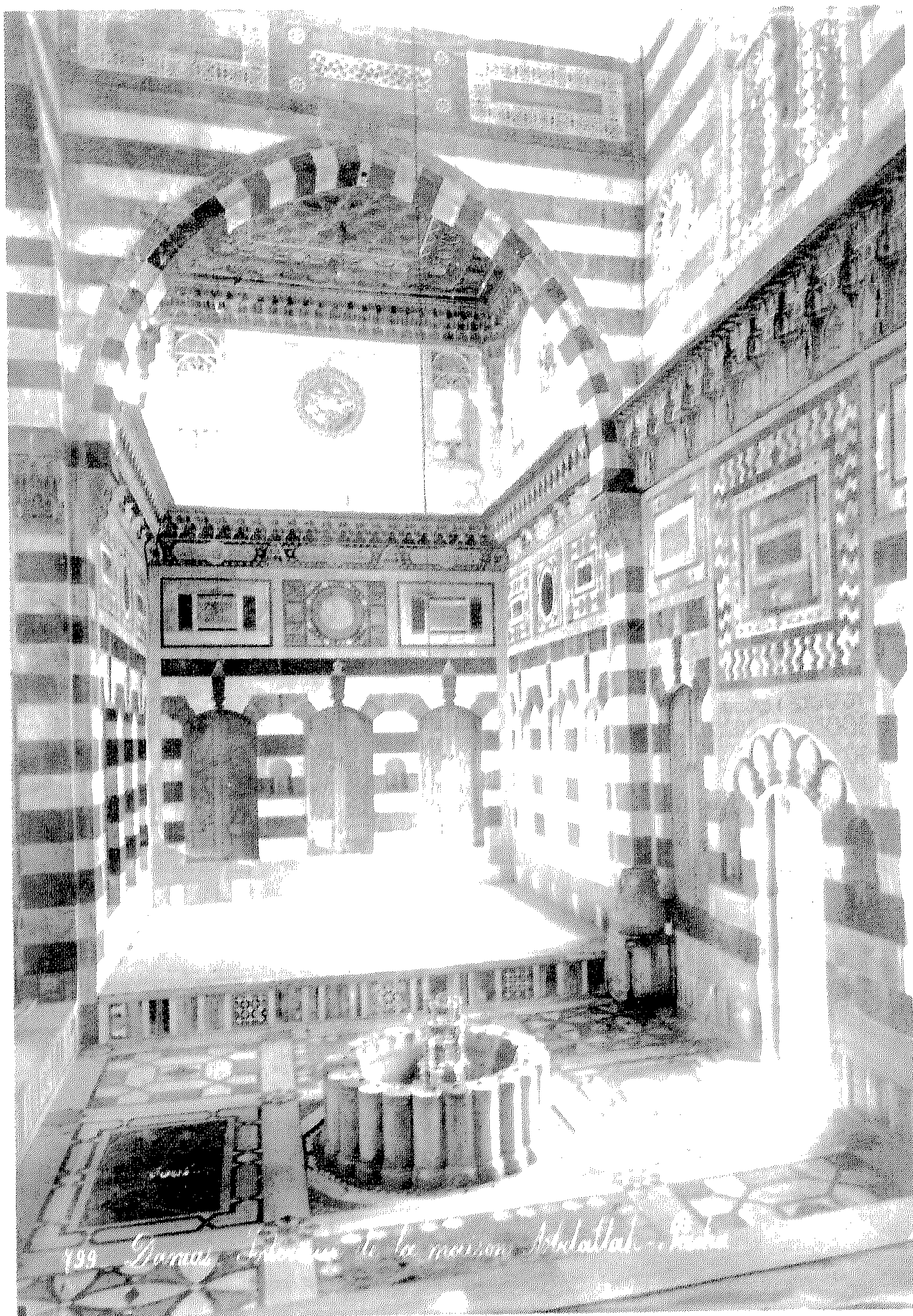
لقد كان لإنشاء الخط الحديدي الحجازي فضل كبير في إغناء مدينة دمشق بالمباني الضخمة مما أعطاها صفة المدينة العصرية.

٢/٢ كان السلطان عبد الحميد شديد الحماسة لإنشاء هذا الخط الذي يصل بين دمشق والمدينة المنورة، ولقد خصص لذلك مبلغاً من المال يصل إلى / ٢٨٣ / مئتين وثلاثة وثمانين ألف ليرة ذهبية، واستطاع الوالي ناظم باشا أن يقتصد من نفقات تنفيذ هذا الخط، بأن استدعى المكلفين بالجنديّة لتنفيذه، ثم قام ببيع أرض قصر كنج يوسف باشا إلى عزة العابد، ولأن المشرفين على تمديد الخط كانوا من المهندسين والمختصين الألمان والنمسويين من أمثال ميسنر ودارنده Miesener و D'Aranda فقد استغل الوالي هذه الفرصة وقام بحركة عمرانية ضخمة، نفذت وفق مخططات مستمدة من أسلوب العمارة الكلاسي المحدث الذي كان منتشراً في أوروبا، مما نراه واضحاً في بناء السرايا وبناء مديرية الشرطة، وبناء الثكنة الحميدية ومدرسة الحقوق والمشفى وبيت ناظم باشا، هذه المنشآت التي أحدثت خلال الفترة من (١٩٠٠ - ١٩١٠م).

٣/٢ إن هذا الطراز الذي ظهر في فرنسا بتأثير مدرسة الفنون الجميلة وعلى رأسها كاترمير دوكانسي، وتجلى في باريس بأبنية وأوابد مثل، كنيسة المادلين وقوس النصر وعمود فاندوم والبانتيون. ثم ظهر هذا الأسلوب في ألمانيا متمثلاً في بوابة براندبورغ، وفي لينغراد مازالت كنيسة القديس سمعان ماثلة، أما في إنكلترا فلقد أنشئ وفق الطراز الكلاسي المحدث هذا

(١) انظر كتابنا : جمالية الزخرفة العربية مكتبة لبنان - بيروت - (١٩٩٩).

(٢) عبد القادر ريحاوي : قصور الحكام في دمشق - الحوليات الأثرية (١٩٧٣-١٩٧٤).



قصر العظم القاعة الكبرى

قصر بلنهيم وقصر شزويك هاوس، وهذا الطراز هو تقليد مبسط للطراز الإغريقي الروماني، الذي لن يكن غريباً على دمشق[1]، فلقد عاشت هذه المدينة بظل الحضارة الكلاسية زهاء ألف عام، ومازالت الآثار الرومانية ماثلة فيها من خلال أطلال معبد جوبيتر. ومع ذلك لاتتصف هذه العمارة بالأصالة، بعد أن ترسخت العمارة الإسلامية في أبنية المساكن الخاصة التي ازدهرت بها المدينة ضمن الأسوار، ومازال بعضها قائماً على الرغم مما أزيل منها واحترق في منطقة سيدي عمود أيام الثورة السورية (١٩٢٥م). وتبقى هذه العمارة هي مقياس الأصالة الدمشقية في العمارة الحديثة.

٤/٢ على أن بناء محطة الحجاز (١٩٠٧م) كان أول منشأة حديثة تحمل ملامح الأصالة على الرغم من أن المعمار ميسنر (Misner) الذي صممها لم يكن دمشقياً بل كان ألمانياً كما ذكرنا، ولكنه استطاع أن يستفيد من بعض العناصر الأصيلة في تصميم النوافذ وزخرفة الواجهات بالخزفيات المملوكية والعثمانية، ثم إغناء الداخل بالخشبيات الدمشقية، لقد كان هذا البناء أول محاولة لدمج العمارة المعاصرة بالعناصر الأصيلة، مع محاولات جادة لتحديث هذه العناصر.

٥/٢ أما بناء قصر العابد الذي أنشئ فندقاً في البداية (١٩٠٨- ١٩١٢م)، فإنه تنفيذ حرفي لمنشأة الطراز الجديد (Nouveau Style) الذي شاع في أوربا خلال القرن التاسع عشر.

لقد رافق هذا التطور المعماري استعمال الكهرباء وحافلات الترام واستعمال الإسمنت مادة للبناء، وبتحقيق الاتصال البرقي الدولي، تمت إقامة أول آبدة تذكارية ذات دلالة واقعية، هي عمود المرجة الذي صنع من مادة البرونز ونفذه فنان إيطالي. وهو يمثل الاتصال البرقي والتمديد الكهربائي ومد الخط الحديد الحجازي، يعلوه تشكيل مصغر ودقيق لجامع قصر يلدز الذي أنشأه السلطان عبد الحميد في إستانبول.

٣ - ذكريات البيت الدمشقي

١/٣ البيت الذي أصبحنا نأوي إليه بعد الحرب العالمية الثانية. بيت غريب مستورد فهو لايحترم عاداتنا وتقاليدنا ولا ينسجم مع مناخ بلادنا ولايشكل مرحلة من مراحل فن العمارة التقليدي.

لقد كانت ثمة أسباب لإنشاء هذه المعلبات الطابقية، منها متانة الإسمنت وطواعيته لتشكيل العمارة، ومنها انفتاح الناس على مظاهر الحياة الأوروبية كعلامة من علامات التقدم، ومنها أيضاً وفرة المال بين أيدي بعض الناس.

٢/٣ ولقد وصفت البيوت التقليدية على أنها عتيقة متخلفة ولم يدر بخلد الذين بارحوها إلى مناطق جديدة، وإلى بيوت جديدة قد تكون أكثرها انتظاماً وأوفر خدمة، أنهم تركوا فيها عالماً أصيلاً وذكريات تمتد إلى آلاف السنين، وأنهم هجروا حنيناً كانت أزقة الحارات

(١) انظر كتابنا الفنون في أوروبا : دار الرائد العربي - بيروت (١٩٨٢) .

وجدران البيوت وظلال النارنج والياسمين قد أترعت منه نفوسهم وخواطرهم.

انتقلوا من الأحياء القديمة إلى أحياء جديدة ذات شوارع عريضة وأرصفة وحدائق خارجية وواجهات مفتوحة على الشوارع، وكان انتقالهم هذا إلى عالمهم الجديد قد كلل سيماءهم بمسحة غريبة، فلقد هجر الناس لباسهم التقليدي واستغنت المرأة عن براقعها وانكشفت الحياة الخاصة لتعرض على النوافذ والشرفات، وانقطعت الألفة بين أبناء الحي من الأهل والأصدقاء، وأصبح المنزل مغلقاً لاتربطه بالأرض إلا طبقات من المساكن لم يألف نظيرها في حياته السكنية الماضية أبداً.

٣/٣ ويرتد إلى جوانح الناس حنين جامح إلى تلك البيوت القديمة التي احتوت شخصيتهم وقيمهم، وقد أصبحت موئلاً للغرباء والعتاد وأصحاب الصناعات. وتهفو نفوسهم أن تعود إلى عالمها الروحي الوديع النقي الهادئ، أن تعود إلى الوطن بعد هجرة قاسية، أن تعود إلى الذات. البيت القديم هو الوطن العريق، فيه عبق التراث ولحن السكينة وأفراح الأسرة المتكافلة، ماذا بقي منه، ما حدود الحاضر من أبعاد الماضي، سؤال حزين ولكنه ملح ولجوج.

ومع ذلك فإن الجواب قد يكون مطمئناً إذا ما استطعنا أن ننظر إلى البيت القديم بروحنا وبعين الفن والحب في نفوسنا.

٤/٣ هي بيوت قديمة عريقة اتهمت مرة أنها عتيقة متخلفة وليست أكثر من مأوى، ولكن إذا كان لابد من تعريفها فإننا نقول أن البيت العربي هو مسكن الروح والجسد، وموطن النفس العائدة من شرودها اليومي إلى جنتها العائلية.

ولكي يكون لهذا التعريف تفسير علمي كان لابد من توضيح وتحليل سريع.

لقد تكونت المدينة العربية الإسلامية، بصورة عفوية منسجمة مع الضرورات المناخية ومستجيبة لمتطلبات الإنسان الذي يعيش في هذه البيئة الجغرافية، فكانت في ذلك الحيز المكاني الذي رسم أسلوب حياته وتقاليده وشكل تطوره.

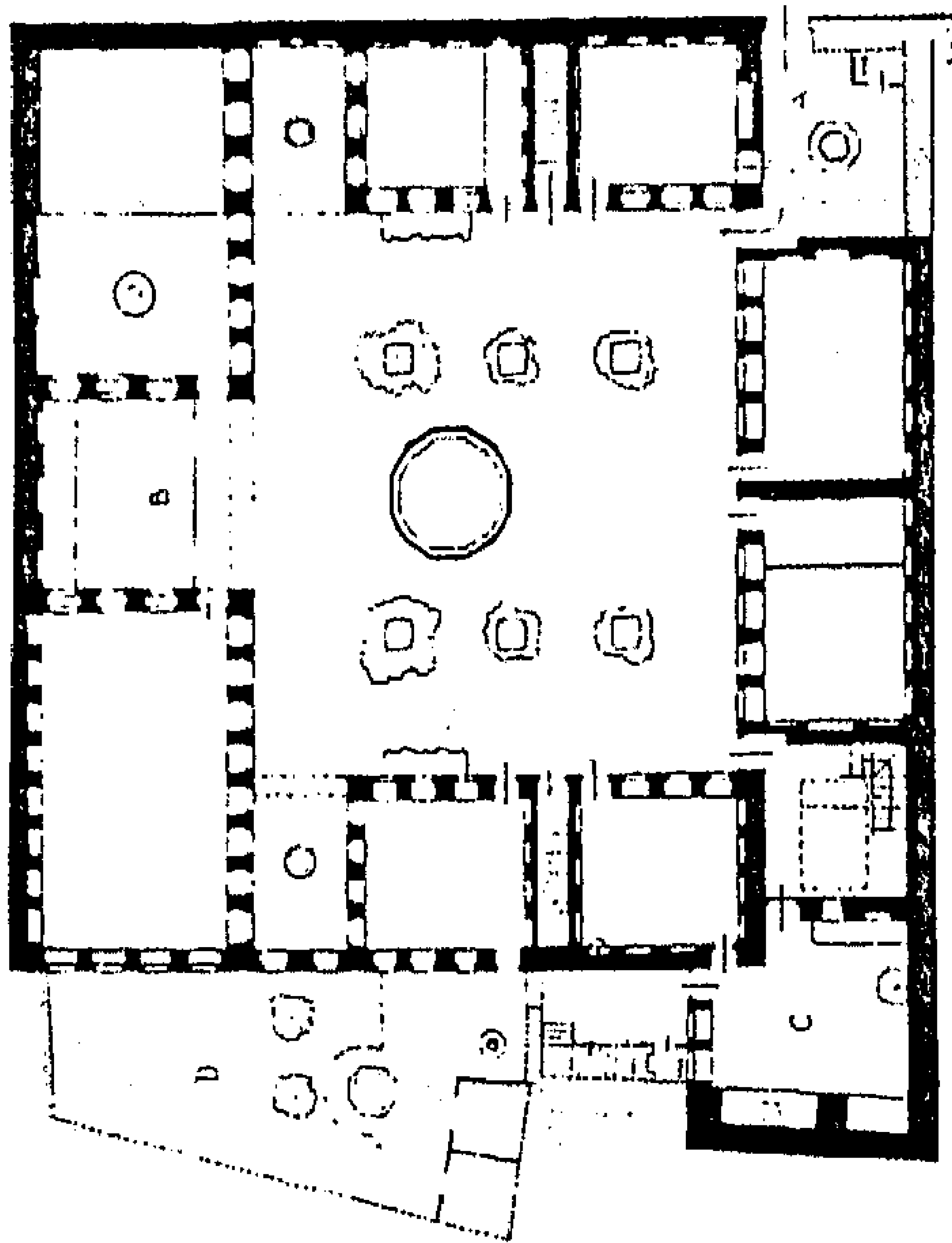
٥/٣ واستجابت المدينة القديمة بصورة تلقائية عن طريق سكانها، لمتطلبات المناخ، فالدروب والأزقة الضيقة والملتوية، التي تحدب عليها والشرفيات والبروزات ما زالت خير وسيلة لتدرأ عن العابرين المشاة حر الصيف القائظ وبرد الشتاء القارص، ولتحميهم من الرياح والعواصف والغبار، حتى الأسواق فلقد غطيت كلها بقبوات خشبية أو معدنية، فأصبحت واقية شاملة لأهل الأسواق وروادها، كما أنها أعطت السوق طابع الوحدة(1).

٦/٣ وإذا ألقينا نظرة على المدينة من علٍ فإننا نرى أسطحتها وقد امتدت على ارتفاعٍ واحد تقريباً، فلا يرتفع البيت أكثر من طابقين، وهكذا فإن تيارات الهواء لاتؤثر على حرارة الجو في الدروب والحارات، مما يجعل الفارق الحراري فيها ضعيفاً ويحميها من تقلبات الطقس الخارجي.

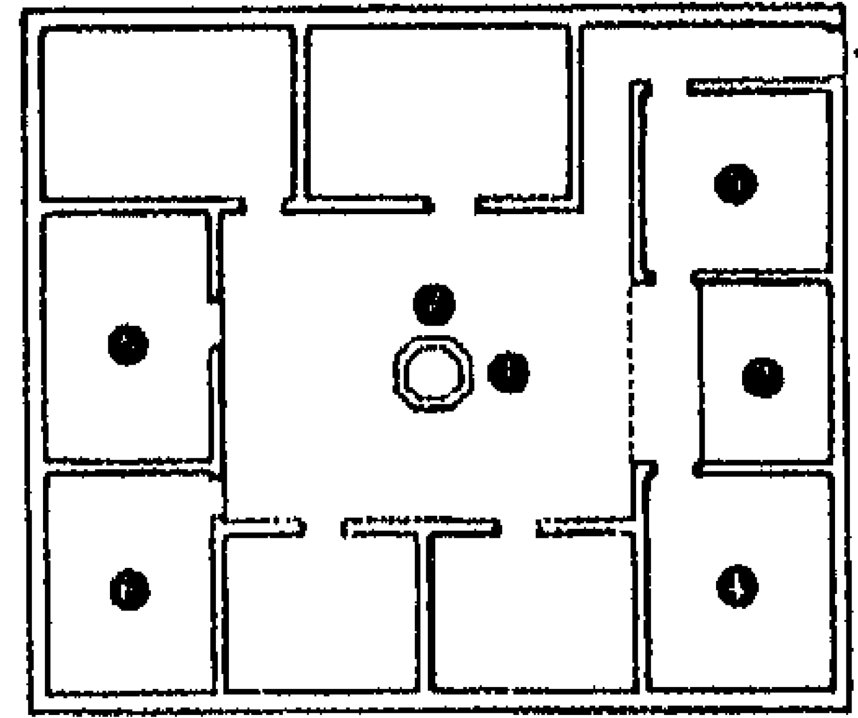
أما المسكن فهو في تكوينه وهندسته،

Ibich: The Islamic City, Economical Institutions- Collogium-Cambridge 1967.

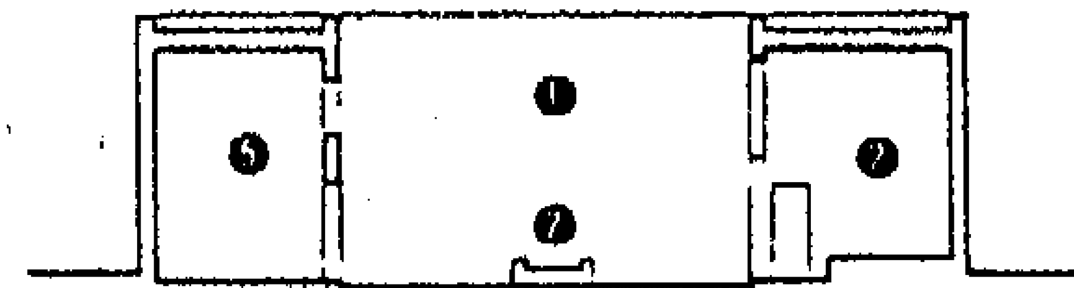
مساقط بعض البيوت الدمشقية:



بيت دادا – الإسباني

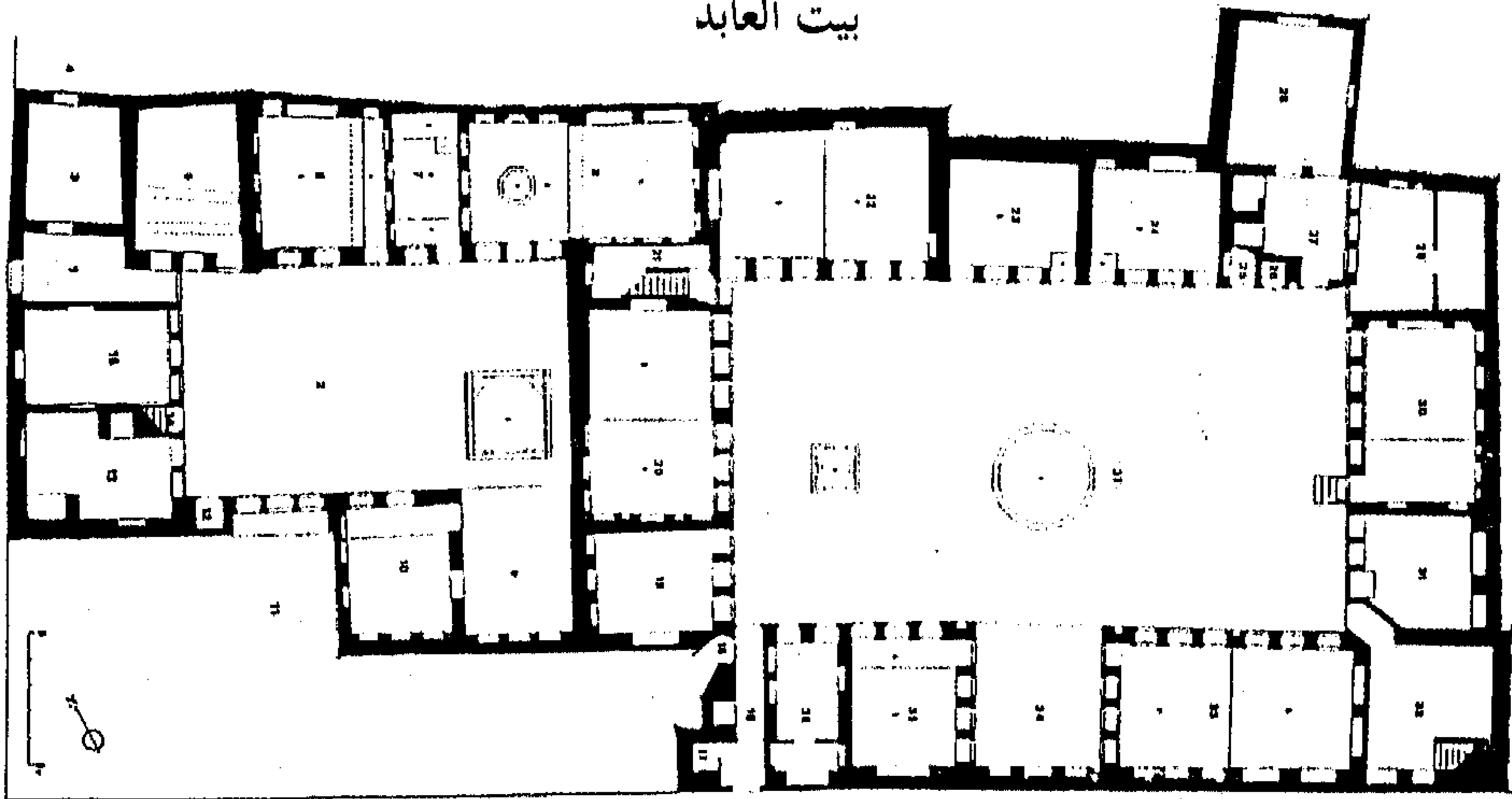


住宅断面概念図
General model of residencial plan



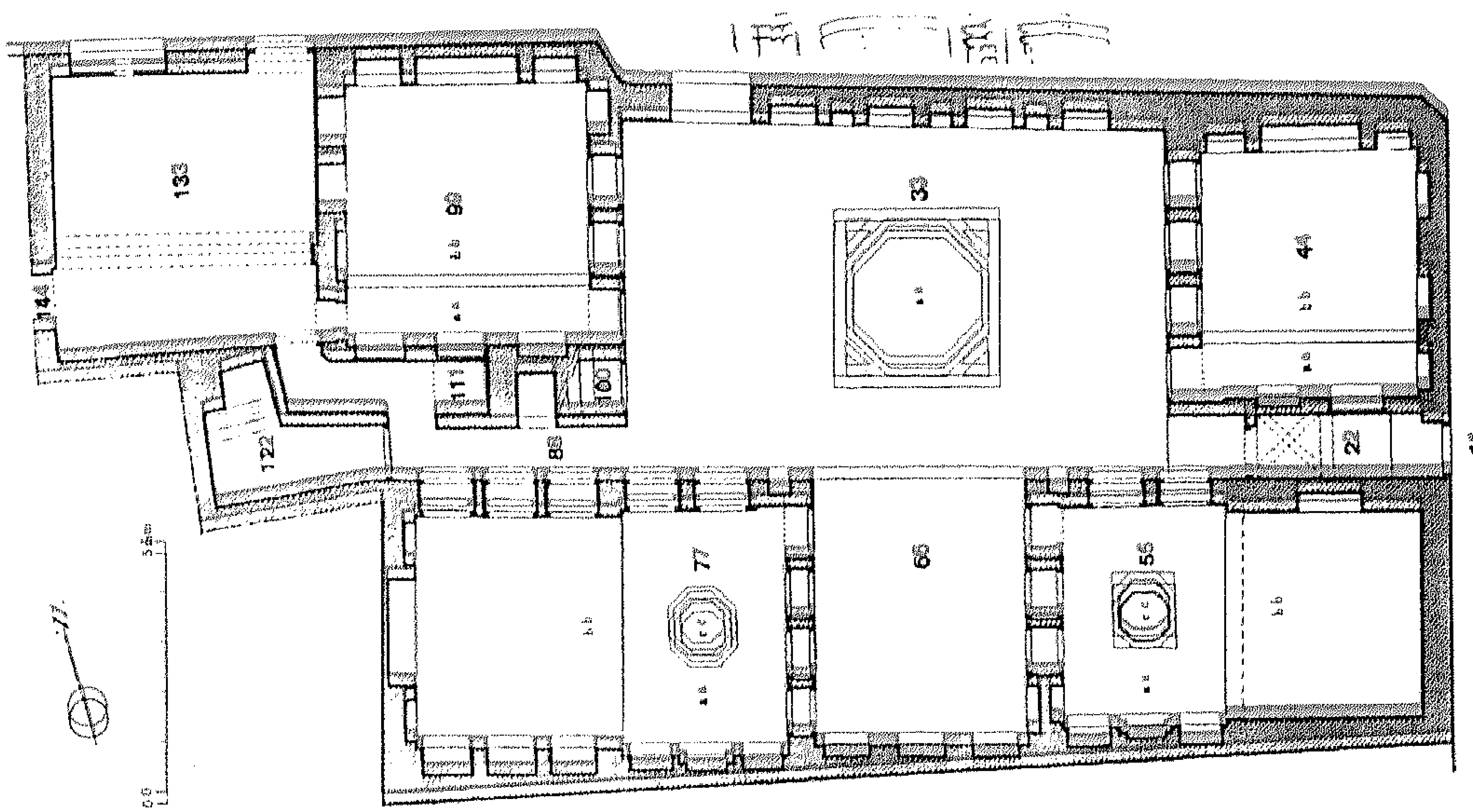
مسقط نموذجي للبيت الشامي

بيت العابد



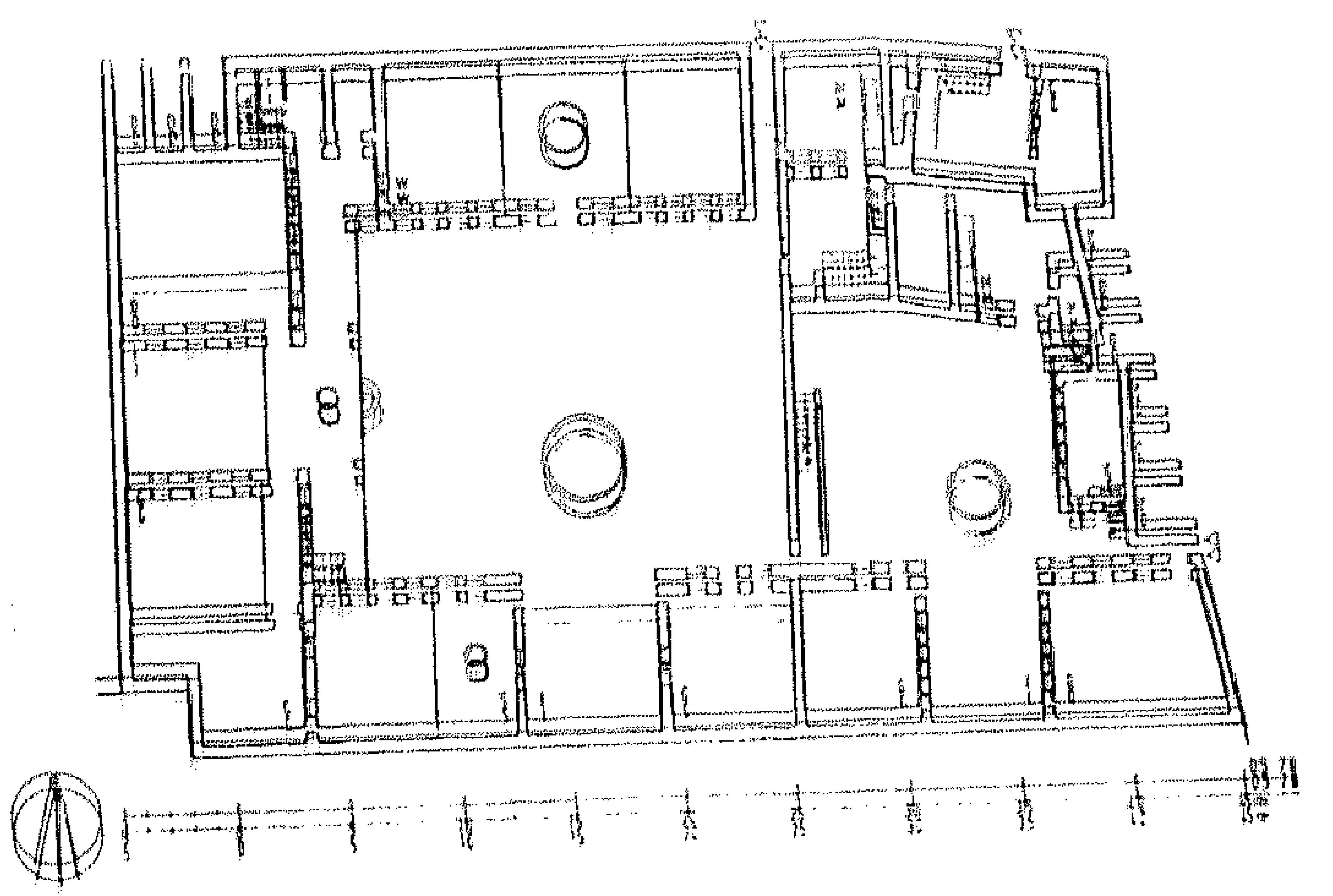
شارع ابن عساكر

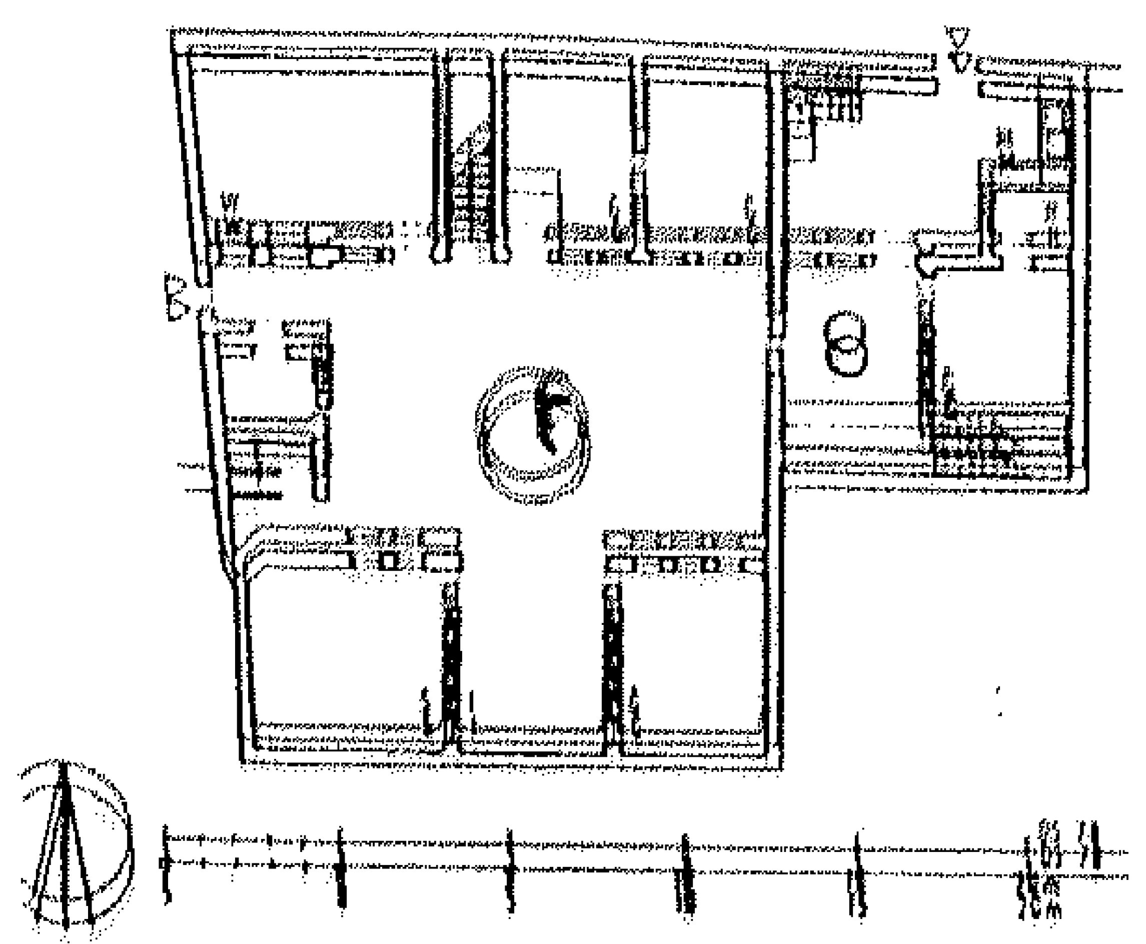
RUE EL ASKARI



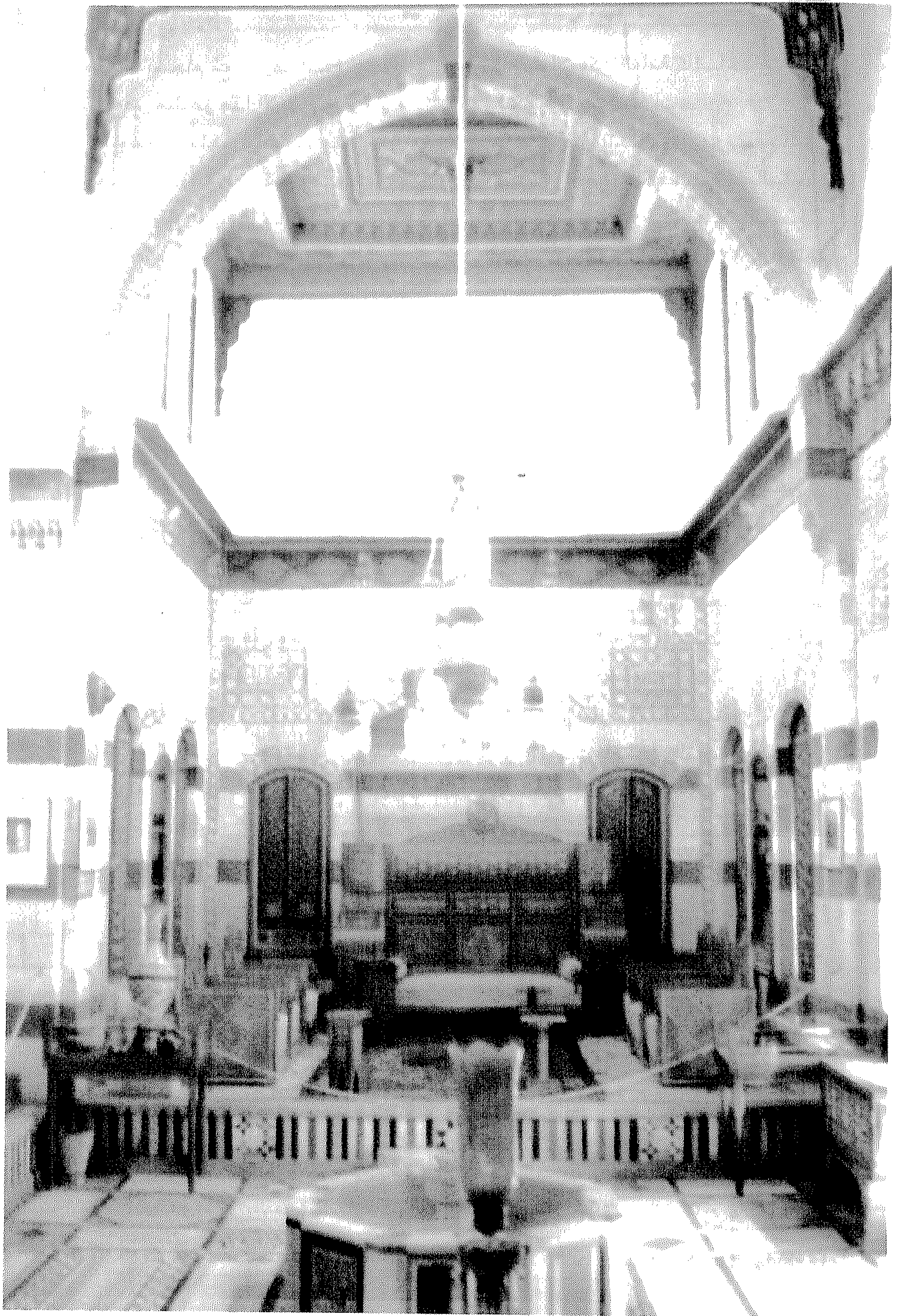
بيت بولاد

بيت عريضة





بيت فارحي / الدحداح



القاعة الكبرى في البيت الدمشقي

شديد الانسجام مع ظروف المناخ، ونعرض هنا بعض مظاهر هذا الانسجام.

تلتصق المساكن ببعضها متداخلة أو تفصلها الأزقة الضيقة والدروب، مما يعطي المدينة وأحياءها طابع التلاحم الذي يساعد على عدم التعرض للرياح والشمس، عدا أنه يعطي المدينة طابع التماسك والوحدة.

٧/٣ تنفتح المساكن على فناء داخلي يسمى الصحن وهو من أهم مميزات عمارة المساكن العربية الإسلامية، التي تجعل هذه العمارة أكثر تكييفاً مع ظروف المناخ، ذلك أن مستوى حرارة الصحن لاتتأثر بتيارات الجو الخارجية، ولذلك فإن الفرق الحراري فيها ضئيل، ولأن الغرف المحيطة بهذا الصحن تنفتح عليه، فإن هذه الغرف تبقى محتفظة أيضاً بحرارتها دون أن تتأثر بتقلبات الطقس الخارجية.

وعدا ذلك فإن الصحن يسمح بظلال على امتداد النهار كما أنه يحتفظ بهواء نظيف غير ملوث.

والإيوان هو قاعة بدون جدار رابع منفتحة كلياً على الصحن، يركن إليها أهل البيت ويستقبلون فيها ضيوفهم مستفيدين من اتساع الصحن وأشجاره وبركته ومن هواءه النظيف المعتدل.

يبلغ ارتفاع سقف القاعة الكبرى والإيوان في المسكن الدمشقي ضعف ارتفاع مستوى الغرف الأخرى، وهذا الارتفاع يساعد على الاحتفاظ بنقاوة الهواء، وعلى تلطيفه المستمر كما هو الأمر بالنسبة للقباب التي تقام في الأماكن العامة كالمساجد والخانات والتكايا والبيمارستانات.

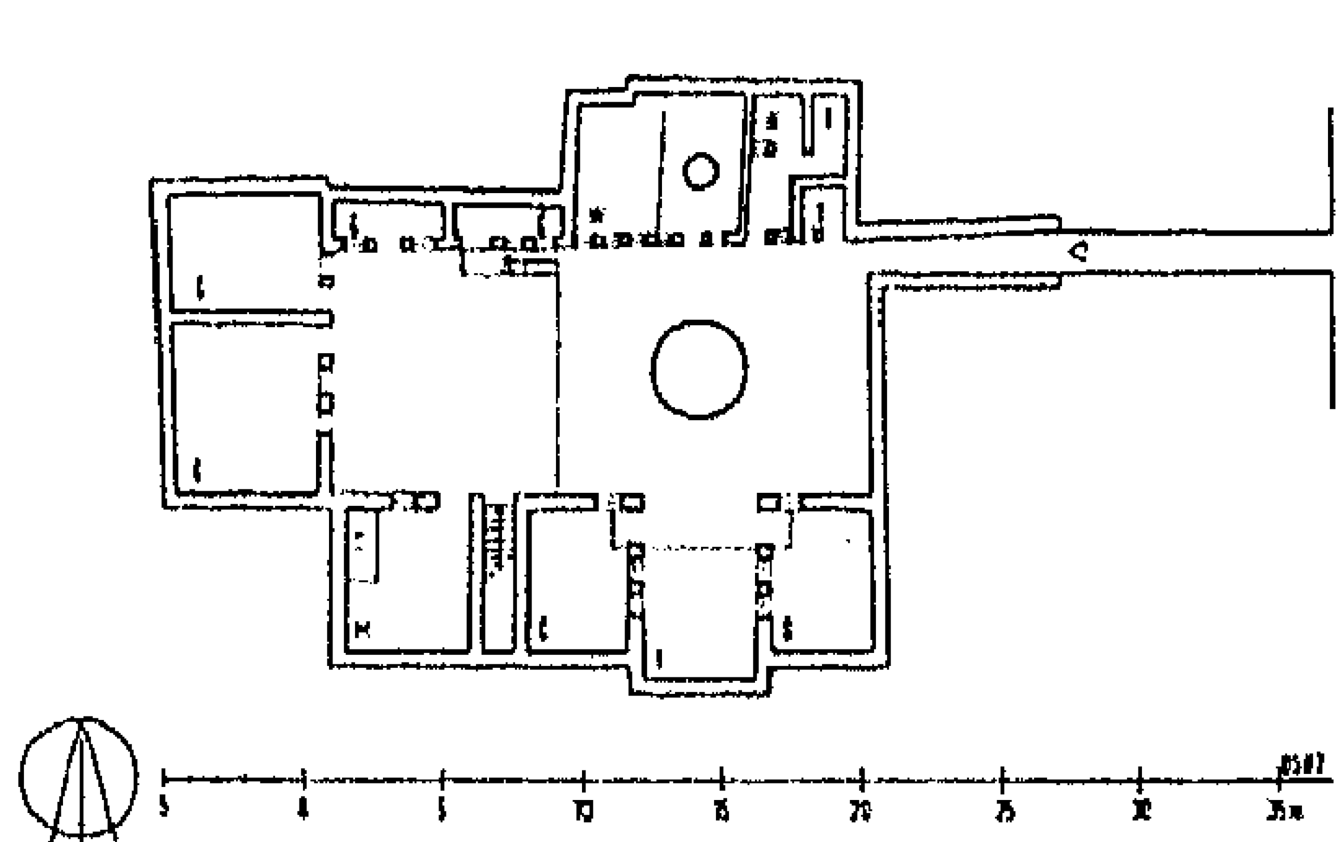
٨/٣ تحفل المساكن العربية بالبرك (بحرة) والفسقيات (فستقية) وبالسلسبيل (المصب) وتقوم البركة في منتصف الصحن واسعة يبلغ قطرها (٣-٦ أمتار). أما الفسقية فهي صغيرة قطرها متر وهي إما أن تكون مرتفعة أو منخفضة وتصنع من الرخام المشقف أو من الفسيفساء الرخامي الهندسي، ومكانها ضمن القاعة، والسلسبيل لوح مرمري أو مزين بشقوف رخامية مجزعة قائم على الجدار يسيل من أعلاه الماء على صفحة هذا اللوح المحاط بإطار وقاعدة مزخرفين.

واهتمام المعمار بالمياه محاولة لتلطيف الجو الجاف في داخل البيوت بل وفي داخل الغرف أيضاً[1].

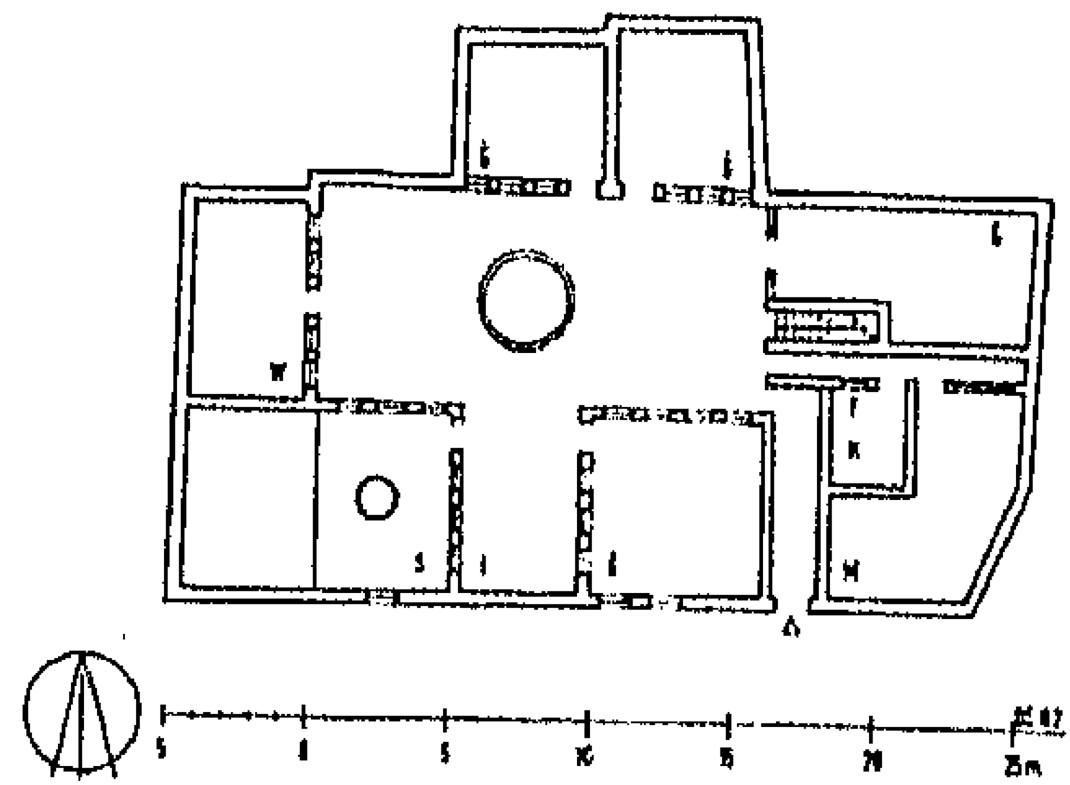
٤ - العمارة الداخلية

٤/١ أقيمت المساكن والقصور من الحجر ومن الآجر المضبب بين مداميك البناء، أو بالخشب الملبن وهي في مجملها طريقة لدعم اللبن بأعمدة خشبية أشبه بالإطار، ثم تكسى هذه الجدران بالطين والكلس. أو تبنى الجدران بالطين الدك، أو بالآجر، ويدخل الحجر كمادة إنشائية ضرورية لإقامة المداميك الأولى للجدران، ولتغطية بعض الواجهات ولإقامة إطارات الأبواب والنوافذ الداخلية والخارجية. ولقد أبانت الدراسات أن البناء الطيني هو أكثر انسجاماً مع البيئة القارية من أي مادة أخرى، إذ إن الفرق الحراري في البناء

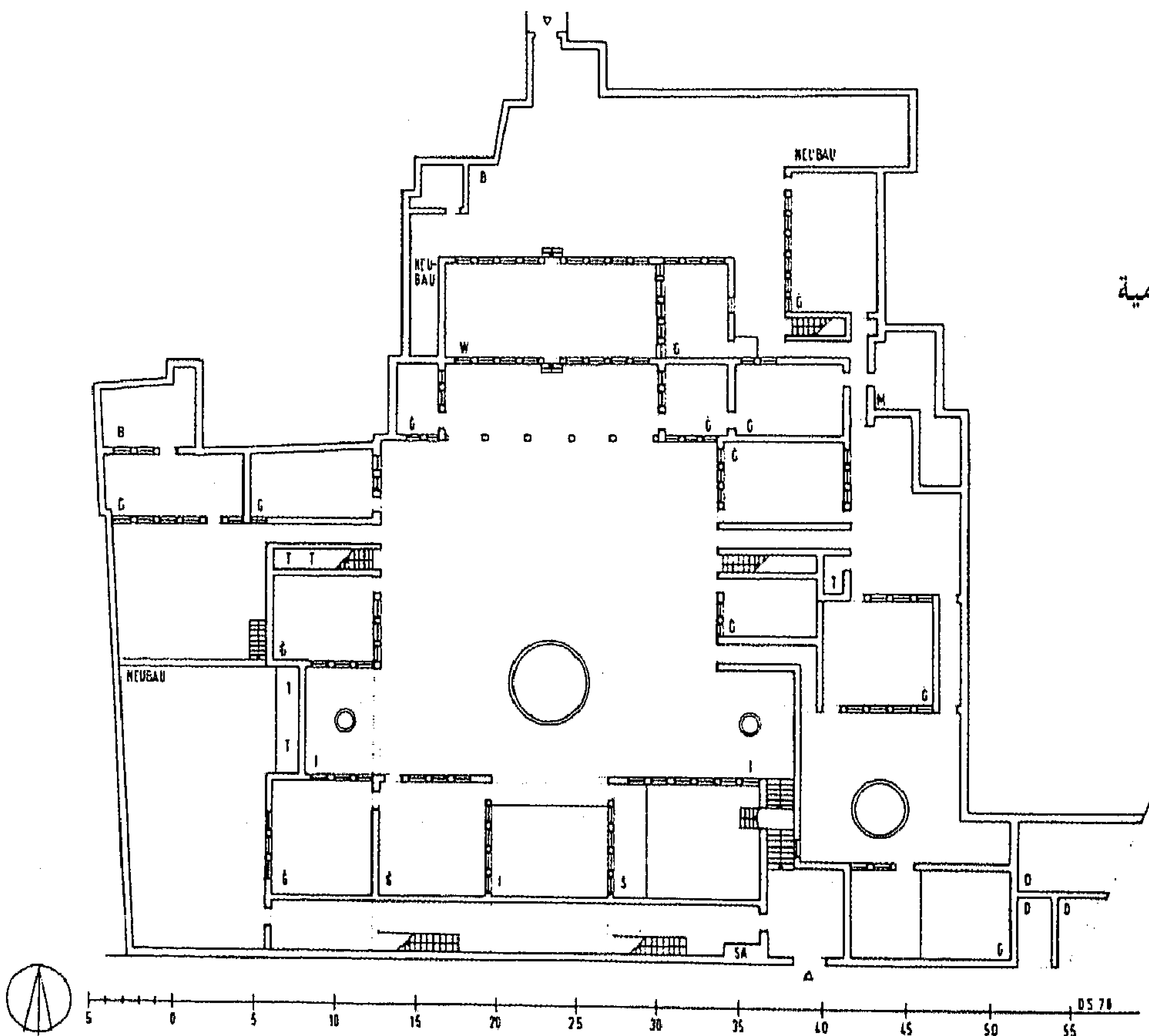
D.Duda : Die Sammlung Henri Pharaoun in Beirut 1971 Beirut



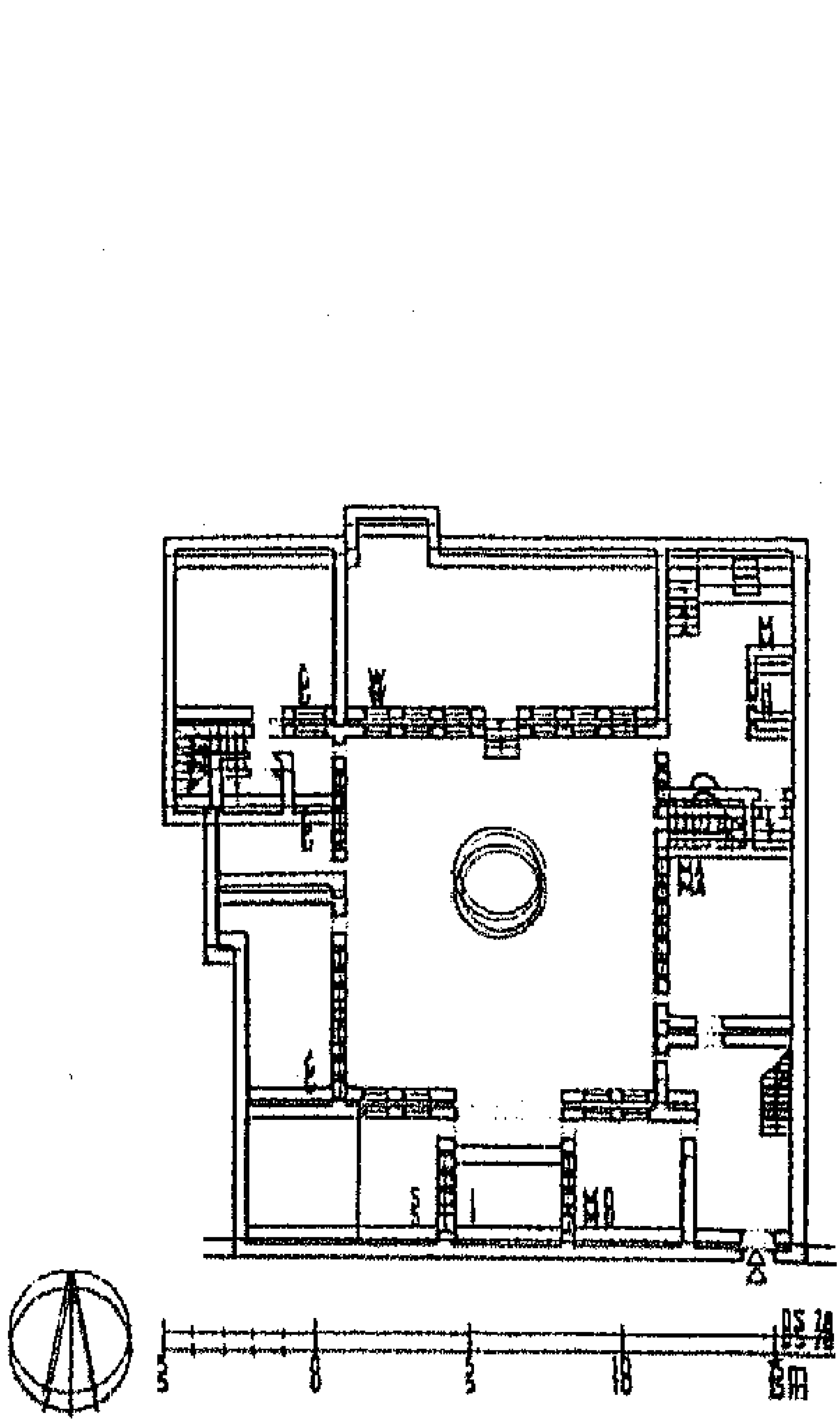
بيت الحناوي



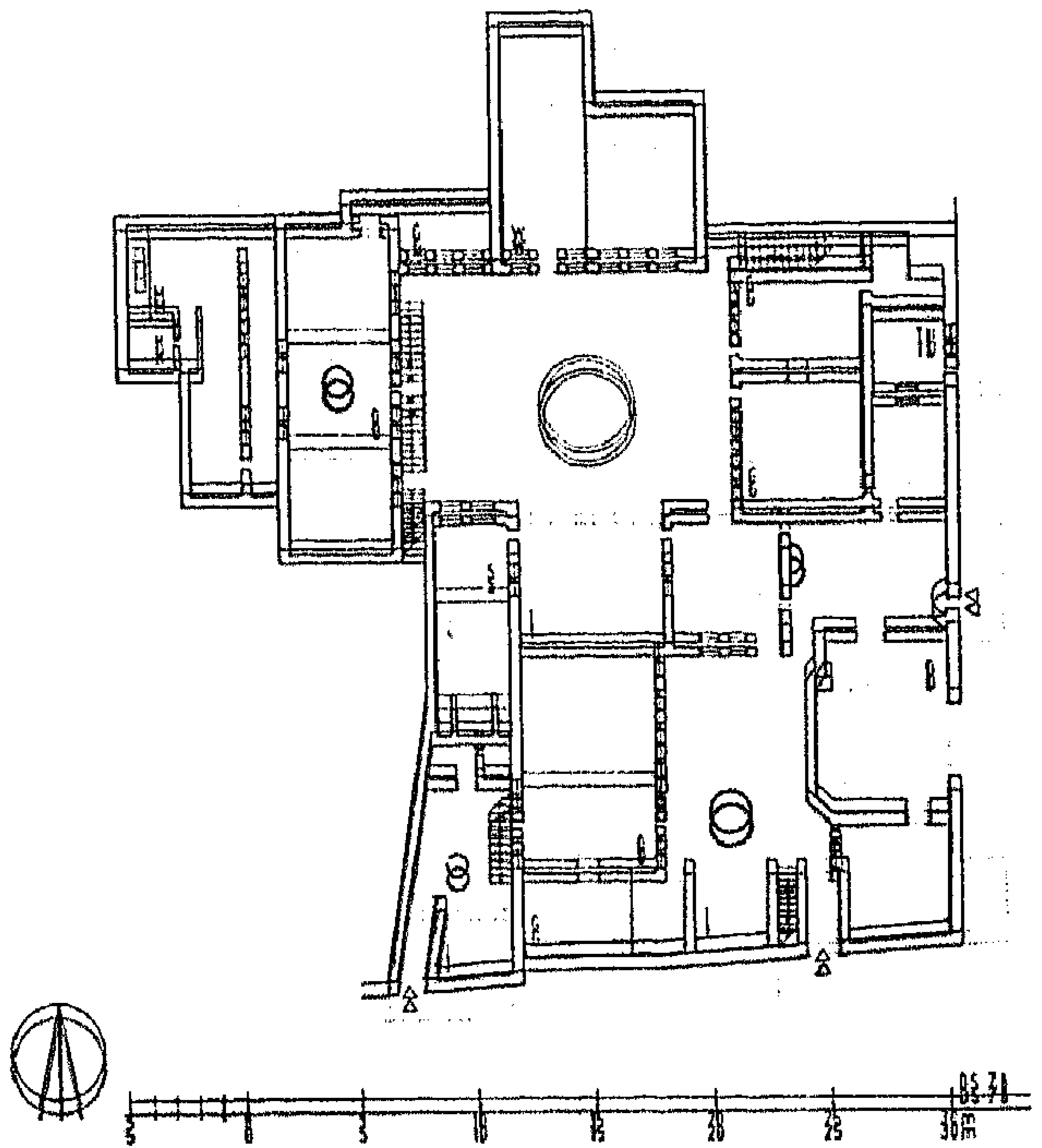
بيت الشطة



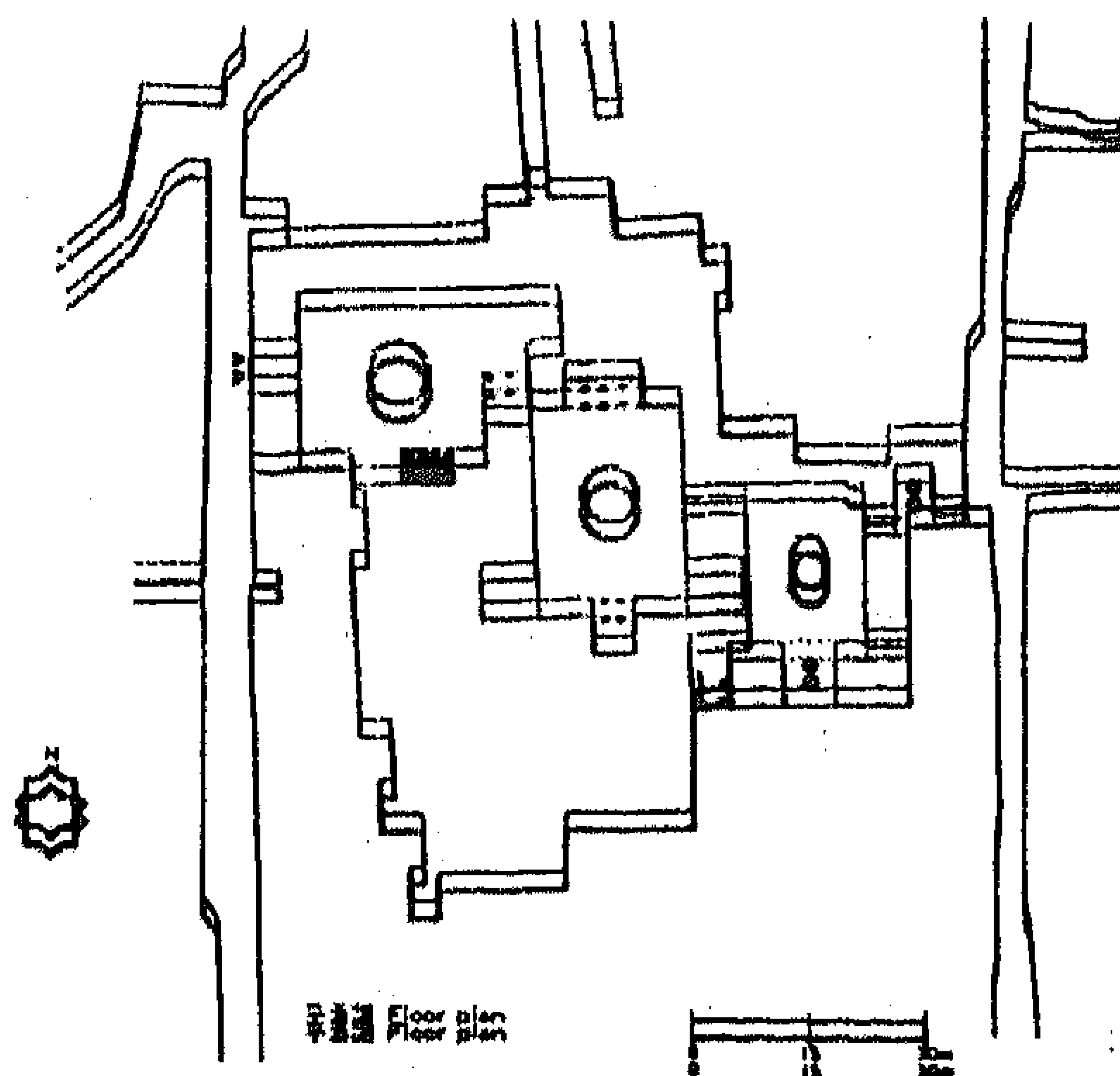
بيت شامية



بيت الجزائري



بيت السباعي



بيت عنبر (مكتب)

الطيني لايتجاوز الدرجتين.

٢/٤ إن العامل الجغرافي، قديم وثابت منذ العصر الجيولوجي الرابع على الأقل، وهو يبقى الناظم الأساسي لتطوير المدينة عبر التاريخ، فإذا استثنينا الإنسان وخصائصه الروحية والاجتماعية مما سيأتي الحديث عنه، فإن العامل الجغرافي يحدد الشروط اللازمة لتكّون المدينة، ويحدد الفرق بين مخطط مدينة قطبية ومدينة استوائية، بل بين مخطط مدينة ساحلية وأحرى جبلية، وثالثة صحراوية، ذلك لأن الأرض وغلافها الجوي هي الحيز المكاني المادي الذي لابد أن يتفاعل معه الإنسان، لتكييف حياته مع شروطه الثابتة.

٣/٤ وعلى هذا فإننا نرى أن المدينة العربية حملت طابعها العمراني والمعماري منذ القدم، ومازال هذا الطابع قائماً حتى اليوم، ولعل هذه الوحدة الراسخة والمستمرة، هي التي تعطي المدينة العربية هذه الأهمية العالمية من أنها أقدم المدن في العالم، فهي قديمة لأنها مازالت زاهرة عبر القرون، وهي قديمة لأنها مازالت محافظة على خصائصها عبر التاريخ.

٤/٤ ونعود إلى داخل المنزل القديم، إلى الصحن حيث البركة الواسعة في منتصف الصحن، وحيث الأشجار المثمرة كالنارنج والليمون، وحيث الزهور كالياسمين والورد والريحان، ولندقق أيضاً في الخطوط الأفقية والشاقولية المحيطة بالصحن، والتي تشكلها حدود الطبقات والنوافذ والأبواب والأقواس والزخارف الحجرية والخشبية، هذه العناصر الزخرفية التي تحقق جمال العالم الداخلي في المسكن، إنها صورة عن سعي المؤمن إلى تحقيق روعة العالم الداخلي في أعماق نفسه، فالخطوط الأفقية المحيطة بالصحن هي رمز لحلقات الوجود المادي المحيط بالكون أو بالملأ الأعلى، وتتصل الأرض وجميع حلقات الوجود المادي بالسماء، عن طريق المركز المتمثل ببركة الماء التي تتدفق من أوسطها نافورة مستمرة الانبثاق.

وهذه الأشجار المثمرة والرياحين، هي الجنة التي تصورها المسلم دائماً كنقيض للصحراء القاحلة، أما الأقواس، فهي صيغة مصغرة لاتصال المكان بالسماء، فهذا القوس يبتدئ من الأسفل، ثم يعود إلى الأرض وقد رسم شكل الكون الأصغر، وفي حنايا هذه الأقواس أو العقود أو القباب يعيش المؤمن في مسكنه المدني تحت رحمة أجنحة الله الحادبة.

٥/٤ والحديث عن الزخرفة الحجرية (المشقف) والجصية (الأبلق) والزخرفة الخشبية (العجمي) وعناصرها الهندسية التي تصدر عن شكل هندسي أساسي مثلث أو مربع أو مسدس أو مثمن لكي تنطلق متشعبة بحركة نابذة جاذبة، إنما هي من العناصر التجريدية التي ترمز إلى الله الواحد الذي تصدر عنه كل القوى واليه تعود، و﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ البروج: ١٣/٨٥ وإليه ترجع الأمور.

أما الزخرفة النباتية فإنها تبدو بأشكالها النباتية المحوّرة بعيدة عن أصولها الواقعية، ولكنها بقيت ترمز إلى عناصر الطبيعة، وهي بحركتها المكرورة الرتيبة تحاكي

(الذكر)، فكأنما المؤمن هنا يتواجد مع الله في ذكر مستمر (الله حي) لايكف عنه ولا يتعب عنه.

٦/٤ وقليلاً مانشاهد في البيت القديم زخارف تشبيهية فالصور الآدمية والحيوانية تكاد تكون مفقودة، وإذا وجدت صور تشبيهية ما، فإنها تمثل مشهد مدينة أو موضوع فاكهة أو زهور. ذلك أن التقليد بقي مستمراً في المدينة القديمة بكراهية التصوير التشبيهي[1] وذلك لاعتقاد الناس بتحريم الدين لهذا الفن، تبعاً لحديث الرسول مع عائشة: ((إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون الذين يضاهون بخلق الله)).

ومع أننا من القائلين بأن الإسلام إنما حرم تصوير الله، لأن الله غير قابل للشبه والتصوير، وهذا مبدأ أساسي في العقيدة الإسلامية، فإن كراهية التصوير استمرت في المدينة القديمة حتى أيامنا هذه. واستعيض عنها بالتصوير المجرد الذي أطلق عليه اسم الرقش العربي.

٥ - الأسلوب المتوسطي الكولونيالي والعودة إلى الأصالة

١/٥ في بداية القرن العشرين ظهرت عمارة جديدة نطلق عليها اسم العمارة المتوسطية نسبة إلى البحر الأبيض، ولقد انتشرت هذه العمارة من إسبانيا وجنوبي فرنسا وإيطاليا وظهرت في اللاذقية ودمشق (ونموذجها مدرسة الفيجاء) وهي تطوير وتبسيط للعمارة الكلاسية المحدثة. ولقد تلاشت في هذه العمارة جميع الجينات المعمارية الدمشقية، وكان المشجع إلى هذا النوع من العمارة انفتاح الثقافة المحلية على الثقافات الوافدة، وتأكد ذلك بظهور مهاجرين وجاليات أجنبية رافقت سلطة الانتداب، فأسهمت بتعديل بنية العمارة المحلية مما نراه في منطقة الشهداء وجادة الصالحية.

لقد قامت هذه العمارة الطارئة على مجموعة مبادئ مخالفة وغريبة، أولها انفتاح البناء على الخارج والاعتناء بالفتحات المتناظرة، والمؤطرة والمتوجة وارتفاع عدد الطوابق واختتامها بسقف قرميدي. وهكذا ألغي فناء البيت والإيوان والقاعات والغرف، كما ألغيت بركة الماء، ولم يعد للزخارف التقليدية محل في التزيين الداخلي، بل أصبحت الجدران عارية بيضاء وانتهى عهد الخشبيات الملونة الرائعة التي كانت تغطي جدران القاعات وسقوفها.

٢/٥ العمارة الحديثة:

منذ الحرب العالمية الثانية انتشرت الأبنية الطابقية تحمل شذرات من التأثيرات الأوربية، لانستطيع تحديد منطلقها لتنوعه، وطغت المعلبات الإسمنتية الهجينة على مدننا وخاصة دمشق، وامتد هذا التأثير على بعض المباني التعبدية التي أصبحت بناء من عدة طوابق بدون صحن، بل هو محاط بحديقة لاتميزه عن غيره من المباني إلا المئذنة والقبة أحياناً.

٣/٥ العودة إلى الأصالة:

المرحلة الثانية من العمارة الحديثة

---

(٢) انظر كتابنا : أثر العرب في الفن الحديث - المجلس الأعلى للفنون - دمشق (١٩٧٠) .



مبنى لجنة مياه عين الفيجة / تصميم المهندس عبد الرزاق ملص، والزخارف الداخلية للمعلم أبي سليمان الخياط

اتسمت بالأصالة، ولكنها لم تتضمن تطويراً وإبداعاً جديداً، بل كانت المنشآت ذات سمة حديثة، فهي مؤلفة من طوابق منفتحة على الخارج وتقوم على التناظر الكلاسي، إلا أنها تزينت بعناصر معمارية تقليدية أعطت البناء طابع العمارة الدمشقية الحديثة. ونرى أمثلة على هذا الطراز، في بناء لجنة مياه عين الفيجة وبناء قصر العدل، وكلاهما من تصميم المعمار عبد الرزاق ملص، وبناء البرلمان (مجلس الشعب) وبناء جامع العثمان للمهندس خليل الفرا. ومدرسة التجهيز (جودت الهاشمي) للمهندس سليمان أبو شعر.

٤/٥ أبنية المرحلة الثانية إذن قامت على تركيب أسلوب جديد جمعت عناصره من الفنون الإسلامية التي ظهرت في عهود متعاقبة، كالعهد السلجوقي والفاطمي والعهد المملوكي ثم العثماني. ولقد أحسن



صرح الشهيد بدمشق ١٩٩٣ ـ نوذج العمارة الأصيلة في العصر الحديث

المعمار والمساعدون الفنيون انتقاء العناصر وتركيبها لتكوين نموذج لطراز يمكن أن نطلق عليه اسم (الطراز العربي المحدث).

٥/٥ المرحلة الأخيرة هي مرحلة (مابعد الحداثة). أورثت الحداثة الطارئة نوعاً من النمطية والتكرار في الشكل المعماري العالمي وطغت فيها الوظيفة والاقتصادية وغاب مفهوم العمارة المبدعة كما غابت الهوية الأصلية واكتست طابع الهجانة.

ولقد طغت هذه الهجانة على واقع العمارة الغربية مما دفع إلى ظهور اتجاه يدعو إلى مابعد الحداثة (Post-Modernisme) وهو اتجاه يستقي خصائصه من العمارة التقليدية والتاريخية. ولكنه يعمد إلى خلق عمارة حديثة[1].

لقد فقدت كلمة الحداثة (Modernisme) معناها، إذ أصبحت إنتاجاً تجارياً يقوم على نسخ التصاميم والمخططات، مما دفع إلى تصحيح مفهومها لتصبح حداثة لما هو قديم وعريق، إذ لايوجد مانطلق عليه أنه حديث، إلا إذا كان ثمة ماهو قديم. فثمة علاقة عضوية بين الحديث وأصوله. أما أن يكون الحديث مبتوراً منقطع الجذور، فهو يفقد صفة الحداثة ويكتسب صفة الابتكار المنفصل عن الظروف التاريخية والاجتماعية والجمالية، ويمكننا أن نسميه الطراز الهجين[2].

(١) Ch. Jenkes; The language of post Modern Architecture - Academy Edition - London.

(٢) انظر كتابنا : الفن الحديث بين الهوية والتبعية – دمشق (١٩٩٧) وانظر كتابنا : خطاب الاصالة في الفن والعمارة – المجلس القومي للثقافة العربية – الرباط – (١٩٩٧) .



متحف الصرح

وطراز مابعد الحداثة يعني لنا الطراز الأصيل الذي سيحل محل الطراز الهجين. قد يكون سهلاً تكليف المعلم المعمار الذي كان قد أنجز كثيراً من المباني القديمة وزخارفها، أن يطعّم المبنى الحديث ببعض العناصر المعمارية والزخرفية التقليدية، كما في مبنى محطة الحجاز. وقد يكون سهلاً أيضاً محاكاة طراز معماري إسلامي معين، فاطمي أو مملوكي أو عثماني في عمارة حديثة ينتسب كلياً إلى الطرز القديمة. ولكن الصعب هو فهم فلسفة العمارة العربية واكتشاف جيناتها، ثم تصميم عمارة تعتمد هذه الخصائص وهذه الفلسفة في بناء جديد، وهذا ما نعنيه بعمارة (بعد الحداثة)[٣].

٦/٥ لقد قام المعماريون الإيطاليون الذين صمموا بناء الشيراتون، بزيارة مدينة دمشق، زاروا أسواقها ومساجدها ومدارسها وبيوتها، وقرؤوا عن تاريخها، وعن عادات سكانها كما درسوا مناخها وجغرافيتها. ولقد شغفوا كثيراً بالخصائص المعمارية الدمشقية، ولعلهم بحثوا عن العناصر الوراثية في هذه العمارة، ويجب القول هنا، إن هذه المجموعة التي سعدنا بالتعاون معها، أبدت قناعة عاجلة بتغيير المخططات الأولية التي كانت قد جهزتها لهذا المشروع، والتي لاتخرج عن الضرورات الوظيفية الفندقية التي يتقيد بها أصحاب المجموعة الفندقية، والتي نراها في التصاميم

(٣) انظر كتابنا : من الحداثة إلى مابعد الحداثة في الفن ، القاهرة ١٩٩٧ م.

المنفذة في أنحاء العالم.

٧/٥ وعندما بهرتهم العمارة المحلية، وتعرفوا على خصائصها المتميزة، وضعوا مشروعاً بديلاً، تقيدوا فيه بروح العمارة الدمشقية إلى الحد الذي جعل هذا المشروع خاصاً بدمشق، لايمكن تنفيذه خارجها دون أن يحمل معه هويتها الواضحة. مما لانرى له مثيلاً في الفنادق التي أنشأتها هذه المؤسسة في أنحاء العالم.

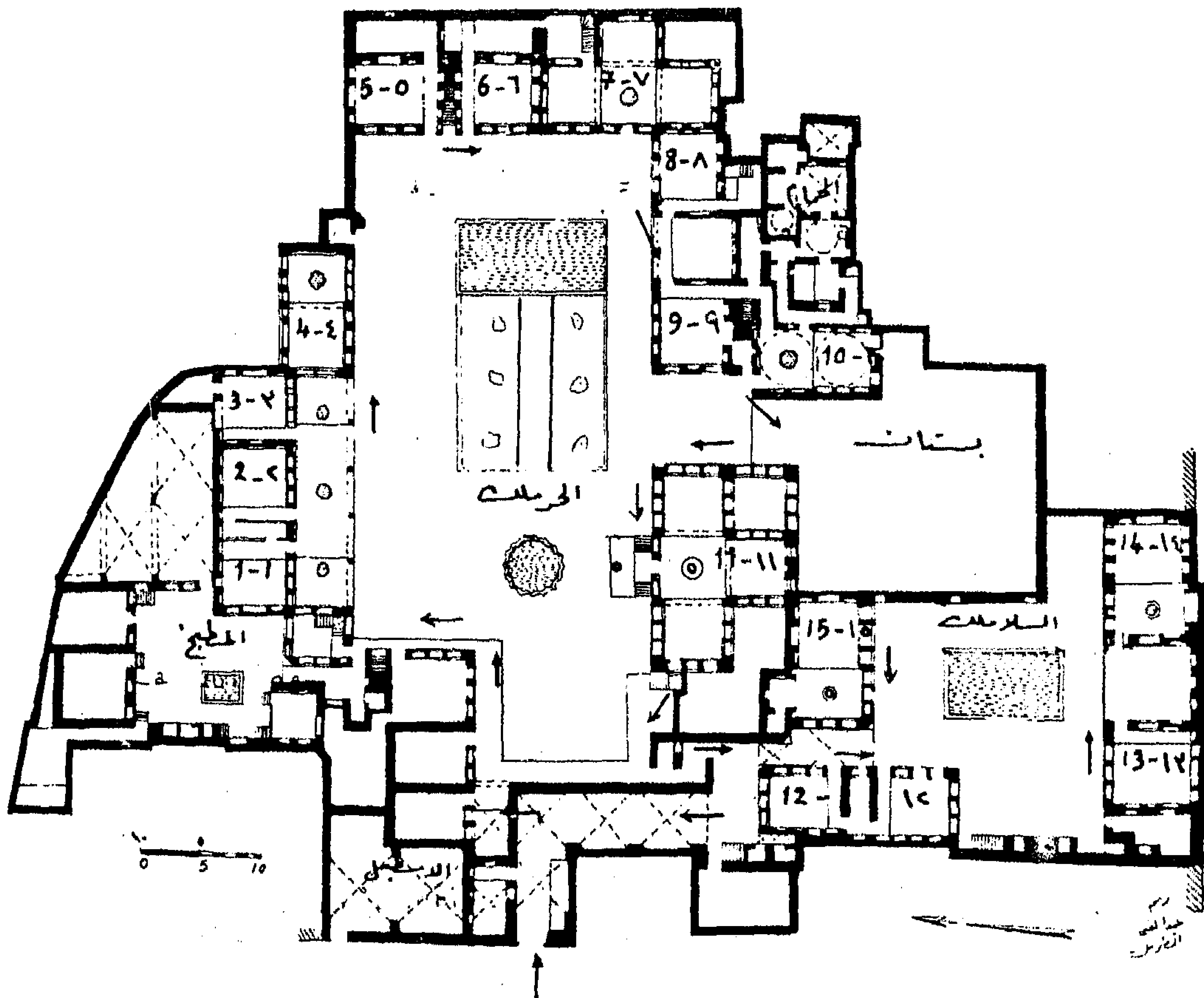
لقد تجلت في هذا المشروع شخصية العمارة الدمشقية بقالب حديث وضمن حدود الوظيفة الفندقية، وبدت هذه المنشأة نموذج المسكن الذي ينشده كل دمشقي في ظروفه المعاصرة وفي أسلوب حياته الجديدة. ونستطيع القول أيضاً أن الشيء الجديد في هذه العمارة، هو تدخل المعمار المبدع في تصميم طراز جديد ينتمي إلى أصول راسخة، ولكنه يتعامل مع العمارة العصرية علماً وتقنية ومفهوماً.

و نحن هنا لانريد أن نستثني هذا البناء من بعض العيوب، ولكننا أردناه مثالاً يساعدنا في عملية تحديد جينات الشخصية الدمشقية في العمارة الحديثة. ولذلك فإننا سنحاول الحديث عن ملامح الأصالة في هذه العمارة الحديثة كنموذج وليس كمثال كامل. إن أول مايسترعي اهتمامنا ونحن نزور هذا المبنى هو هيبة الكتلة المعمارية وقد توضعت في بيئة حدائقية كانت هامشاً وإطاراً ساعد على تركيز الاهتمام بها.

٦ - الأسلوب الأصيل صرح الشهيد مثالاً

١/٦ أنشئ سنة (١٩٩٤م) في مدينة دمشق، وهو من أكثر الصروح ارتباطاً بالفن الإسلامي، فهو مؤلف من القبة والقوس وكلاهما أساس العمارة التقليدية ولقد أردنا أن تعبِّر القبة عن العناية السماوية التي تحنو على الشهيد وترعاه أما القوس فهو رمز للنصر.

٢/٦ ويتألف الصرح من ثلاثة أقسام؛ القسم العلوي وفيه القوس بارتفاع (٣٧,٢٠) وعرض قاعدته (٣٧,٦٠م) والقبة بارتفاع (٢٠ م) وتحتها فتحة بالقطر ذاته، تطل على فناء حوله قاعة المتحف من جهة وقاعة الاستقبال من جهة أخرى، وتحتها القسم الثالث ويحوي قاعة الديوراما، وفيها خمس لوحات ضخمة مع مجسمات تمثل المواقع التاريخية الأكثر أهمية في تاريخ سورية. وهي، موقعة اليرموك التي قادها خالد بن الوليد فاتحاً دمشق عام (٦٣٦م). ومعركة حطين التي قادها صلاح الدين الأيوبي عام (١١٨٧م)، محرراً القدس من الصليبيين، ومعركة ميسلون التي قادها يوسف العظمة لمقاومة دخول الفرنسيين دمشق عام (١٩٢٠م). ومعركة جبل الشيخ التي استولى فيها الجيش السوري على موقع الإسرائيليين المنيع في جبل حرمون (الشيخ) عام (١٩٧٣م). ومعركة السلطان يعقوب في لبنان لتحريره من الاحتلال الإسرائيلي. وتبلغ مساحة الصرح مع حدائقه (١٢٦٠٠٠م٢).



مخطط قصر العظم ـ متحف التقاليد الشعبية

الفصل العاشر

تحديات العصر الحديث

١- مقدمة

٢- المشاكل التي تعاني منها المدينة العربية نتيجة التطور الحضري السريع

٣- تفاقم ضغط السيارة على المدينة وقصور الطرق

٤- المدينة الحديثة ومشاكل التلوث

٥- تهديد الطابع التاريخي للمدينة العربية

٦- الخلل الحضري

٧- قصور التخطيط العمراني

تحديات العصر الحديث

١ - المقدمة

١/١ نهاية التطور البطيء:

في الجنوب الشرقي من إفريقية اكتُشِف أقدم وجود للإنسان يرجع إلى ثلاثة ملايين سنة، وامتد الوجود الإنساني عبر عهود حجرية ثلاثة، القديم والوسيط والعصر الحجري الحديث الذي ينتهي في الألف الرابع قبل الميلاد، حيث ابتدأ التاريخ وابتدأ الوجود الحضري للإنسان.

وتشكلت المدن الكبرى مثل أور (العراق) وماري (سورية) وممفيس (مصر). ولم يكن الإنسان قبل التاريخ يعيش في مدن ثابتة، بل كان في العصر الحجري القديم يعيش في المغاور، ثم عاش في العصر الحجري الحديث في البيوت البحيرية مثل نقُف أو المراكز الحجرية، ونستطيع أن نتعرف على أقدم بيت مبني بالحجر والطين والخشب، اكتُشِف في المريبط (سورية) يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد. ويدلنا هذا البيت على شكل العمارة والحياة والتقاليد الاجتماعية التي كان يعيشها الإنسان قبل عشرة آلاف عام من يومنا هذا، وعلى التقدم الذي أحرزه الإنسان في مجال الحضارة، إذ أنشأ عمارة، وبحث عن المجهول من خلال تصور آلهته، واستعمَل الطين لتشكيل الأواني والتماثيل وفي موقع آخر يدخل التاريخ لكي ينشئ مدينة متكاملة فيها قصر ومعبد وبيوت وقبور. هنا ابتدأ الإنسان يستغل المعادن، النحاس أولاً ثم البرونز ثم الحديد. وهكذا فإن تطور حضارة الإنسان تتجلى من خلال أشكال استقراره وإبداعه.

٢/١ بداية عصر التحدي:

استمر التطور الحضاري صاعداً حتى عصور الاكتشافات، المحرك والطاقة الكهربائية. وتجاوز الإنسان ما كان يعرف باللامنتهي، اللامنتهي بالصغر واللامنتهي بالكبر واللامنتهي بالسرعة كما يقول غارودي. وانتشر هذا التحول المتفجر في جميع أجزاء العالم على السواء، الجزء المتقدم والجزء المتنامي منه.

وإذا كان العالم المتقدم قد خلق هذا التحول المتحدي، فإن العالم المتنامي قد تحمل هجمة التحدي كاملة، إذ لم يكن قادراً على مجاراة سرعة التقدم الصناعي، بل كانَ عليه أن يلهث لكي يفهم ويستعمل منجزات العصر الانفجاري، فكان عبء هذا العصر ثقيلاً جداً عليه، وأكثر ثقلاً من العبء الذي تحمله العالم المتقدم، والذي كان باستطاعته أن يخلق لتحديات العصر الانفجاري، وسائل وقائية ودفاعية تخفف

من تحديات المنجزات الحديثة، قد يعجز عنها العالم المتنامي.

٢ - المشاكل التي تعاني منها المدينة العربية نتيجة التطور الحضري السريع

١/٢ زيادة السكان وأثرها:

إن زيادة الدخل القومي التي نشأت عن اكتشاف حقول البترول وارتفاع عائدية هذه المادة، وعن تطور الزراعة ومكننتها وتقدم مصادر الري، وزيادة الإنتاج الزراعي وتصنيع بعض هذا الإنتاج الزراعي والتجارة به دولياً، سببت نوعاً من الرخاء الاجتماعي والتقدم الصحي الذي أدى إلى زيادة عدد السكان وإلى ارتفاع معدل الإعمار ونحن نرى أن نسبة ارتفاع السكان في البلاد العربية تصل أحياناً إلى ٤٪ بينما تكون صفراً في فرنسا مثلاً، وفي الدول الاسكندنافية[1].

٢/٢ تمركز الزيادة السكانية في المدن الكبرى:

إن زيادة السكان التي نشأت بشكل متصاعد بعد الحرب العالمية الثانية، تركزت في المدن العربية الكبرى على حساب المدن الصغرى والقرى، فلقد عزف الفلاحون عن الزراعة لارتفاع تكاليفها واتجهوا مهاجرين إلى المدن الكبرى حيث الظروف الإيجابية لتقدمهم الاقتصادي والاجتماعي، مما سبب عدم التوازن الحضري في الدولة الواحدة، وخلق إشكالات حضرية، تحمل أعباءها الطارئون على المدينة الكبيرة، الذين وجدوا أنفسهم أمام ظروف سكنية صعبة. بسبب ارتفاع قيمة الأرض، وتكاليف البناء وندرة المساكن[2] . مما دفع إلى السكن في أحياء الصفيح والطين.

٣/٢ تراجع الخدمات:

لقد تراجعت الإمكانيات البلدية عن تقديم الحاجات المتزايدة للاستجرار الكهربائي والإنفاق المائي والصرف الصحي، عدا العجز عن تدارك الكافي من المؤسسات الصحية والتعليمية، والعجز عن تأمين الطرقات لوسائل النقل والانتقال المتزاحمة في المدن الكبرى، وتعقد جميع طرقات المواصلات.

٤/٢ الخلل الاجتماعي:

إن تضخم السكان في المدن الكبرى، أدى إلى تقلص فرص العمل، وإلى ظهور أعمال بسيطة تقابل أجوراً محدودة، مما سبب خللاً في مستويات الناس الاجتماعية، عدا عن الخلل في البنية الاجتماعية الذي نتج عن الهجرة الداخلية. ولقد تبين أن تسارع ارتفاع تكاليف الحياة الحضرية، يزداد بنسبة هندسية مع ازدياد حجم المدينة.

٥/٢ المدينة والنشاط الاقتصادي:

لقد تضخمت المدينة الكبيرة بعامل آخر، هو العامل الاقتصادي[3]، إذ أصبحت المركز الصناعي والتجاري الذي استقطب رؤوس الأموال والآلات المتطورة، التي أدت إلى تحسين البنية الأساسية للنشاط الاقتصادي؛ مثل شبكات الكهرباء والمياه والصرف والطرقات.

إن مستقبل المدينة العربية وبخاصة العاصمة هو التحول إلى حاضرة (متروبول)، وهذا

---

(١) سمير دركزنلي : تضخم المدينة وحدودها - مجلة المدينة العربية العدد ١٩ سنة ١٩٨٦ ص ٣٥ .

(٢) انظر في ذلك : J. Turner : Housing by peaple- Lowords

(٣) انظر في ذلك : G. Letiner ; L'etude d'économie urbaine - voll - preface Univ.de Toulous Autonomy in bulding- London

يعني التكثيف في تجهيزها للأعمال الاقتصادية، لأنها سوف تصبح موطناً لتوظيف رؤوس الأموال، على حساب الفعاليات الثقافية والاجتماعية، بل وعلى حساب القيم التاريخية والتراثية، ونرى ذلك واضحاً في دمشق عندما أُنشئت عمارات (حي طارق بن زياد - الحريقة) فأصبحت هذه البنايات جميعاً مركزاً تجارياً يستقطب فعاليات سورية كلها وانعكس تأثير هذه الفعاليات على جميع المناطق في دمشق القديمة.

٦/٢ النمو الإسكاني في المدن:

إن المعادلة بين النمو السكاني المرتفع، وبين التوسع في التحضير، وهما الظاهرتان الأساسيتان في تضخم المدينة، لم تكن متوازنة. فلقد ازداد عدد الوحدات السكنية بنسبة أربع وحدات لكل ألف نسمة فقط، بينما يقتضي أن تكون ثماني وحدات على الأقل. وسبب هذا التقصير، زيادة تكاليف العمارة ونقص العمالة الماهرة[1].

٧/٢ تنامي الحاجة الإسكانية:

إن معدل النمو الإسكاني الحضري، يفوق معدل زيادة السكان، وذلك بسبب التقدم الاجتماعي والهجرة إلى المدينة، حتى بلغت الزيادة في العواصم إلى مايقرب من ٩٠٪ من معدل النمو السكاني العام، مما سبب اضطراباً اجتماعياً وسكنياً. إن هذا النمو السكاني يحتاج إلى حل جذري. ولايتم ذلك إلا ضمن خطة علمية ترفدها موارد ضخمة ومؤازرة دولية.

٨/٢ الصعوبات الإسكانية:

لقد قامت كثير من المدن بإيجاد حلول سكنية مختلفة، مثل إنشاء الجمعيات السكنية، والمصارف العقارية والإسكانية، مما شجع على بناء مساكن جديدة قليلة الكلفة، ولكن سياسة الإسكان مازالت معقدة، ويرجع ذلك إلى قيود قوانين الإيجار والبيع في أكثر المدن.

٣ - تفاقم ضغط السيارة على المدينة وقصور الطرق

١/٣ سيطرة السيارة والشارع على المدينة:

إن التخطيط الحضري الحديث الذي اعتمد على التوسع الأفقي في المدن الحديثة، كان السبب الرئيسي في سيطرة الشوارع والطرقات على المدينة الحديثة التي بدت بطرقاتها العالية وجسورها، مدينة معكوسة مفتوحة للعوارض الخارجية والتلوث، ومع أن هذه الظاهرة مشتركة في جميع المدن القديمة الغربية والشرقية، فإنها قد غُيِّرت إلى حد بعيد من ملامح المدينة، حتى قيل إن تنظيم وعمران المدن أصبح مرتبطاً بسياسة تنظيم مرور السيارات، ولقد لجأت المدن الكبيرة السابقة لعهد السيارات إلى بناء أنفاق واسعة تحت الأرض لتأمين النقل السريع والمريح بالميترو. كما لجأت المدن الواسعة إلى استعمال الطائرات المروحية. على أن المترو يبقى الوسيلة الأكثر جدوى لتسهيل النقل بعيداً عن تشويه المدينة بالجسور والطرق المتصالبة، والوسيلة الأقل ضرراً وخطراً، ذلك أنها لاتنشر تلوثاً ولا تسبب حوادث كما يتم في الشوارع التي تتزاحم فيها السيارات الضخمة وكل سيارة لاتنقل إلاّ شخصاً واحداً أو شخصين.

(١) انظر عفيف البهنسي : العمارة العربية، الجمالية ، الوحدة، التنوع ، طبع روما ١٩٩٢ - المجلس الوطني للثقافة العربية، الرباط.

كما أنها لاتضج بضوضاء مزعجة كما تفعل السيارات.

وبنتيجة تطور وسائل حفر الأنفاق بشكل آلي، أصبح من الممكن إيصال هذه الأنفاق إلى المدينة القديمة، وبذلك تُحَل جزء من مشكلة النقل والمواصلات فيها.

٢/٣ حوادث وفواجع السيارات:

إن إشكاليات السيارات في المدينة القديمة لاتنتهي عند حدود التلوث الذي تنشره في أنحاء المدينة دونما مانع أو مخفف، بل أيضاً لما تسببه من حوادث مؤسفة وفاجعة يومياً وبشكل متزايد، ما دام عدد السيارات يزداد بشكل غير منطقي، حتى إن عدد السيارات في أمريكا وألمانيا يكاد يساوي عدد السكان، أي أن لكل مواطن سيارة تقريباً، بينما لم تزدد الطرقات بهذه النسبة، مما أدى إلى زيادة الكثافة وزيادة التلوث وزيادة الحوادث المؤسفة حتى بلغت في البلاد العربية ٤٠/-١٠٠/ شخص قتيل لكل (١٠ آلاف) سيارة.

٤ - المدينة الحديثة ومشاكل التلوث

١/٤ المدينة القديمة والحماية التقليدية من التلوث:

لقد وعى الإنسان العربي في سكنه القديم مشكلة المناخ الخارجي وتأثيره على داخل المدينة بشحن الملوثات أو بنقل التأثير الحراري البارد أو الرطب أو الحار ولقد درس علماء حركة الهواء (الإيروديناميك) ظاهرة الانتقال هذه، وماتسببه من أضرار للمدينة الحديثة التي أصبحت دونما أسوار خارجية، ودونما أشجار ومناطق خضراء تشكل رئة منقية.

وتبين لهم أن واقع المدينة العربية الحديث مؤسف حقاً إذ إن البناء الطابقي الغاشم الذي طغى على عمارات المدينة الحديثة، لم يأخذ أبداً بالمبادئ الصحية التي كان المصمم الحضري والمعمار العفوي القديم قد اعتمدها في عمرانه وعمارته، مما يجعلنا نقف بإعجاب وتقدير أمام حلوله الرائعة، بينما نأسف لإنتاج المعمار المثقف المعاصر الذي اعتمد نظاماً فاسداً في أعماله[1].

٢/٤ المدينة القديمة والتهوية:

في المدينة القديمة مثل مراكش أو فاس أو دمشق، كانت الأسوار المحيطة والأبواب المنفتحة فيها، وكانت البساتين وقنوات المياه، هي الثوابت في تكوينها، وزالت هذه الثوابت في المدينة الحديثة. فعندما يندفع الهواء القادم من المحيط الفسيح الذي يلف المدينة القديمة، فإنه يصطدم أفقياً بالأسوار فيرتفع إلى أعالي المدينة، حاملاً معه الحرارة والرطوبة، المختلفتين عن حرارة المدينة ورطوبتها. ونتيجة هذا الفرق يتم التبادل وفق معادلة تتعلق بارتفاع الأبنية، أي بعدد طبقات البناء.

وبمعنى آخر، فإن الهواء الخارجي يتدفق نحو الأعلى بتأثير الأسوار ثم ينتشر على شكل دوامة فوق السطوح فيحدث تبادلاً لطيفاً بين المناخين. على أن هذا التبادل يضعف ويختل، إذا كانت المنازل مرتفعة أو كانت الساحات الخضراء هزيلة، ولذلك فإن المدينة القديمة وبشكل فطري كانت مؤلفة من مساكن على ارتفاع طابقين فقط، في فسحاتها خضار يساوي رقعة البناء.

(١) أناتولي ريمشا: تخطيط وبناء المدن في المناطق الحارة - دار الفجر - حلب.

٣/٤ التهوية في البيت القديم:

مايصدق في المدينة يصدق في البيت، فلقد درس المعمار القديم بشكل فطري، كيفية الاستفادة من حركة الهواء، لتحقيق تنقية كاملة لهواء البيت وذلك عن طريق ترك فتحات سفلية لإدخال الهواء البارد النظيف، وفتحات علوية لهروب الهواء الساخن الملوث. وتم ذلك أيضاً عن طريق ما يسمى بالباتنج أو البادغير، التي كانت الوسيلة العملية لتحقيق التكييف الصحي المثالي عديم الكلفة والضرر.

٤/٤ ضعف الحماية البيئية في المدينة الحديثة:

لكن في المدينة العربية الحديثة التي تخلت عن الأسوار وعن المناطق الخضراء لم يراع المخطط الحضري مسألة الحماية البيئية، فلقد ترك العمل الهوائي الأفقي متدفقاً من جميع أطراف المدينة، ورفع الأبنية شاقولياً دون الاهتمام بخصائص الحركة الديناميكية للهواء[1].

٥/٤ الوسائل التقليدية في المجتمعات البدائية:

لقد أعلن باري كرموز عن خوفه البالغ إذ قال: ((ساهموا في مكافحة التلوث أنقذوا الإنسان من موت محتم، إن قرية قبائل البوشمان البدائية، هي أرقى من مدينة الإنسان المعاصر ذات البيئة الملوثة الأمريكية)). إن حياة البوشمان تقوم على استغلال كامل للثروات وحتى الفضلات فلها استعمالها المفيد، فالبول لدباغة الجلود، وتتحلل النفايات في بيئة واسعة مكشوفة للهواء والشمس، وليس من طائرة تقضي على طبقة الأوزون، وليس من سيارة تنفث مادة الرصاص شديد الخطورة على الإنسان.

٦/٤ أثر المبيدات:

إن زيادة الفضلات والتلوث دفعت إلى استعمال المبيدات للقضاء على الآفات الصحية والزراعية والحيوانية المتزايدة، بل إن البلديات ذاتها أصبحت تلجأ إلى استعمالها على شكل واسع في شوارع المدن المكتظة بالسكان، وأصبحت توزعها على السكان بالمجان لاستعمالها دون إرشاد أو تحذير، حتى أصبح حجم المبيدات المستهلكة يصل إلى الأطنان سنوياً، مما سبب خطراً على الصحة العامة وعلى النباتات والهواء والماء وعلى طبقة الأوزون في الغلاف الجوي، فصدرت القوانين لتحريمها في البلاد المتقدمة، ولكنها لم تمنع إنتاجها وتصديرها لدول العالم النامي بدعايات سحرية تمارسها في وسائل إعلامنا.

و على ذلك فإن الحذر الشديد في استعمال المبيدات هو من الأهداف البلدية الصحية وعلينا الاعتماد على أخصائيين لاستخدامها وفق خطة علمية طبية، في الحالات الاستثنائية، أو ابتكار البديل.

و يجب الانتباه إلى أضرار المنظفات التي تفرز الفوسفات وتطرحه في المجاري الواصلة إلى مياه الري، عندها تتأثر النباتات وتموت.

٧/٤ هباب السيارات:

إن التلوث الذي يحدث نتيجة استعمال السيارات وانتشار الإيروسولات، (الهباب الجوي) والمؤلف من أوكسيد

---

(١) فؤاد محمد الصقار: دراسات في الجغرافيا البشرية - الكويت ١٩٧٥ ص ٢٤٠-٢٤١.

الفحم أو ثاني أوكسيد الكبريت ومن سموم أخرى مختلفة، تفرزها المصانع وأجهزة التدفئة والأفران كالغازات المنصرفة أو غازات العادم. قد زاد مقدارها في بعض المدن الكبرى عن (١٤٠ مليون طن)، وتشكل فوق المدينة قبة من الدخان الملوث. وأصبحت أكبر مهدد للمدينة الحديثة.

٨/٤ تلوث المياه:

تبين جميع التقارير التي تقدمها منظمة الصحة العالمية، أن أكثر مياه الأنهار في المدن العربية ملوثة، وأن ٨٠٪ من الأمراض (الكوليرا - التيفوئيد - التهاب الكبد - شلل الأطفال - الملاريا - البلهارسيا) تأتي عن نقص المياه النقية وسوء الصرف الصحي[1].

بل إن بعض المدن العربية ينعدم فيها الصرف الصحي ويصبح الماء أداة مباشرة للأوبئة والأمراض. عدا أن الماء يصبح عديم الفائدة. وهكذا فإن الهدف من معالجة مياه الفضلات هو درء الأمراض، وتحسين الزراعة، وحماية النباتات من التلوث، وتأمين مياه نظيفة وسليمة للري والشرب[2].

٥ - تهديد الطابع التاريخي للمدينة العربية

١/٥ عمران المدينة القديمة:

لاشك أن المدينة القديمة قد تنامت حسب الحاجات البشرية الاجتماعية والاقتصادية التي كانت من متطلبات العصور القديمة. فبدت دونما شوارع عريضة مستقيمة ودونما حدائق عامة، بل هي مدينة مغلقة مؤلفة من أحياء ترتبط بحارات أو نهج وطرقات ضيقة ملتوية تنساب بين البيوت المنشأة على جانبيها بعيداً عن النظام الهندسي، وتلتف أسواقها حول المسجد الجامع الكبير مركز المدينة، بينما ينهض قصر السلطان أو الوالي في طرف من أطراف المدينة محصناً منيعاً. ويحيط هذه المدينة سور مرتفع فيه أبواب ضخمة.

٢/٥ متطلبات العصر الحديث والمدينة القديمة:

من مزايا هذه المدينة أنها نهضت على قياس حاجات الإنسان، وعلى قدر متطلباته الاجتماعية والأخلاقية، ولكنها لم تعد قادرة على استيعاب تطور الحياة الحديثة ووسائلها المتقدمة وخاصة وسائل النقل، مما دفع إلى تنظيم الأقسام الجديدة في المدينة على أساس متطلبات مرور الحافلات السريع، وكان الشارع المستقيم العريض هو الأساس الذي قام عليه التنظيم العمراني الذي بدا هندسياً منسجماً مع متطلبات المرور وليس مع متطلبات الحياة التقليدية.

لقد تغيرت معالم المدينة العربية تغييراً كلياً، مما أدى إلى تغيير في البيئة الاجتماعية والأخلاقية، وإلى تغيير في العادات والسلوك والعلاقات والأزياء وتغيير في المهن والصناعات.

٣/٥ القديم والحديث في المدينة العربية:

في مدينة واحدة من المدن التقليدية، أصبحنا نرى فئتين مختلفتين متناقضتين من المجتمع، لكل منها سماتها ومتطلباتها، تم ذلك كله بفعل اختلاف الطابع الحضري في

(١) عادل عوض: تلاشي المياه العذبة في الدول العربية - مجلة المدينة العربية - العدد ١٩ ص ٦٢ وما بعدها .

(٢) المعهد العربي لإنماء المدن: نشر أعمال وتوصيات مؤتمر استانبول أبريل ١٩٥٨ بعنوان الحفاظ على التراث المعماري الإسلامي .

قسمي المدينة.

إن حماية الطابع التاريخي في المدينة العربية هو الهدف الأول في عملية تأصيل العمارة والعمران الحديث[1].

٦ - الخلل الحضري

١/٦ أثر التقدم الصناعي في المدينة على المجتمع:

إن التقدم الاقتصادي الذي تكاثف في المدن الكبرى، لم يكن خيراً كاملاً على المدينة، ذلك أن كل رعاية للظروف الاقتصادية، يقابلها إهمال للظروف الإنسانية والاجتماعية، ومن الصعب إيقاف التقدم الاقتصادي في المدينة، إلا إذا تضمن النظام العمراني فصل المنطقة الاقتصادية ومرافقها وسكانها عن المدينة الكبرى، وهذا أمر مخالف لمنطق العمران، ولابد من العناية بالوضع الاجتماعي والثقافي للتمكن من اللحاق بالتقدم الاقتصادي. ومن المؤسف أن معطيات التقدم الاجتماعي كانت مستمدة من معطيات التقدم الاقتصادي، ولقد نتج عن هذا مشاكل كثيرة، أهمها إلحاق النظام الاجتماعي بالنظم الغربية طالما أن عوامل الاقتصاد الحديث هي غريبة.

٢/٦ التحولات الاجتماعية:

لقد انعكست هذه التبعية الغربية في نظام الأسرة التي تحولت بفعل التقدم الاقتصادي إلى الاستهلاك دون الإنتاج، وإلى الربح والتجارة دون العلم والمتابعة، وإلى الرفاه الرخيص دون الجد والمسؤولية. كما تحولت الأسرة بفعل وسائل الإعلام إلى الميل المَرَضي لكل ماهو مستورد من أفلام وأشرطة موسيقية وإلى ازدياد وتضخم في الرغبات. ولأنه ليس من السهل تلبية الحاجات العارضة بسبب اختلاف معدلات الكسب واختلاف أشكال التربية، فلقد تفتت المجتمع المدني رغم وحدة الثقافة، غير أن إهمال الثقافة وعدم دعمها وتشجيعها لم يترك لهذه الوحدة الثقافية دوراً في تحقيق الوحدة الاجتماعية.

٣/٦ سيطرة النظام الاستهلاكي:

إن تضخم الطابع الاستهلاكي في المدن الكبرى التي تهافت إليها القرويون وسكان المدن الصغيرة، مازال سبباً أساسياً في أزمة المدينة العربية. لقد أفسد الطابع الاستهلاكي الأخلاق والتربية وخفف من الاهتمام بالثقافة والفنون، ودفع الناس وبخاصة الفقراء لصرف جهدهم مبكراً للعمل والكسب السريع لمجاراة الآخرين على استهلاك مبتكرات الموضة إن ظاهرة افتتاح بوتيكات الملابس الجاهزة والعطور ودور الفيديو والديسكو والمقاهي والمطاعم الترفة، والسيارات المفخمة الغالية الأسعار، والتي يعادل سعر الواحدة منها سعر عشرة مساكن لعشر عائلات فقيرة، كل هذا هو من المظاهر التي لم يستطع النظام السياسي الانتباه إليها، وكثيراً ما اعتبرها مظهراً من مظاهر الازدهار.

٤/٦ التقنيات الحديثة:

لقد انتشر الكمبيوتر بسرعة مذهلة حتى

---

(١) دارة الملك عبد العزيز: نشرت أعمال مؤتمر المدينة المنورة – مارس ١٩٨١. وموضوعه (العلاقة بين التراث الحضاري الإسلامي ونمو المدينة العربية).

أصبح معيار التقدم في العالم، واستخدم هذا الجهاز في كثير من الأغراض التي تساعد المدينة على مجابهة تحديات المستقبل. لقد أصبح موضوع الدولة الإلكترونية شاغل مخططي المدن، لمراعاة التحولات الكبرى في علاقة المواطن بأجهزة الدولة مما يلغي ويعدل كثيراً من المنشآت المعمارية.

إن هذا مثال على الوجه الجديد الخطير للوسائل التقنية الحديثة، والتي يجب مراعاتها عند تقريرها للإسهام في مجابهة التحديات المستقبلية.

٧ - قصور التخطيط العمراني

١/٧ نظام تخطيط المدينة القديمة:

لم تكن المدينة العربية القديمة دونما تنظيم أساسي، فالمدن التي أُنشئت بعد الإسلام مثل الكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة والقيروان وفاس، قامت على مخطط تنظيمي متشابه.

أما المدن القديمة، مثل دمشق وحلب وتونس وقرطبة، فلقد تطورت باتجاه النظام العمراني الإسلامي.

٢/٧ مبادئ عمرانية:

ثمة مبادئ ثابتة في تنظيم المدينة الإسلامية نراها واضحة في العمران الإسلامي، هي الاتجاه في المساكن والمساجد نحو القبلة، وإظهار المساكن خارجياً بمظهر متقشف، ومراعاة حرمة السكان والجوار في تحديد الفتحات وارتفاع البيوت وإطلالات السطوح.

٣/٧ النسيج العمراني:

يمتاز مخطط المدينة الإسلامية بالانسجام العضوي بين المساكن والمؤسسات الدينية والثقافية والتجارية، كي يسهل على الساكن الترابط وسهولة الاستفادة من المباني العامة، واستغلال الطرقات لتسهيل وصوله، وتحقيق تفاعله مع البيئة الجتماعية، ووقايته من العوارض الطبيعية والمناخ.

وهكذا فإن النسيج العمراني للمدينة الإسلامية العربية ليس عفوياً أو فوضوياً، بل هو نتيجة دراسة دقيقة للعوامل الحضارية والمعاشية والاجتماعية، وللعادات والقيم السائدة[1] .

وبعبارة أخرى إن النسيج العمراني يقوم على مقياس إنساني.

٤/٧ ضرورة تجديد التخطيط العمراني:

إن التطور الحضاري السريع في المدينة العربية، تجاوز دائماً جميع التصورات التي قام عليها المخطط التنظيمي العمراني الذي وُضِع في العصر الحديث لأكثر المدن العربية التي تعرضت إلى تضخم مفاجئ في توالد السكان أو في هجرتهم من القرى إلى المدن. وما تبع ذلك من خلل ذكرناه، لذلك كان لابد من إعادة النظر بالمخططات هذه، وخاصة ونحن نستقبل القرن الحادي والعشرين، بما يحمله من مفاجآت في تضخم الفعاليات الصناعية والتجارية في المدينة، وتطور في الوسائل التقنية التي تتطلب وعياً وجاهزية تنفيذية عالية[2].

(١) محمد قدورة : التنظيم السكاني للمدينة العربية - العدد ٢٣ ص ١٥.

(٢) انظر كتاب رياض النقيب ومحمد عز الدين (الهندسة والعمارة في القرن الحادي و العشرين منشورات جمعية النهضة الأسرية)- الكويت ١٩٧٨ .

الفصل الحادي عشر

دمشق في مجابهة التحديات

١- الحلول والخطط اللازمة لمجابهة تحديات القرن الجديد في دمشق ـ مثالاً

٢- تخفيض التضخم االسكاني

٣- الجسور والعقد الطريقية في دمشق

٤- أساليب التخلص من النفايات

٥- أخطار الفضلات

٦- تأمين المياه النظيفة

٧- مراحل تأمين مياه الشرب وتوزيعها في دمشق والمشروع الجديد

٨- تنظيم جمع القمامة

٩- حماية وترميم المدينة القديمة

١٠- حماية دمشق القديمة

١١- إصلاح الخلل الاجتماعي

دمشق في مجابهة التحديات

١ - الحلول والخطط اللازمة لمجابهة تحديات القرن الجديد في دمشق

١/١ حل مسألة النمو الصناعي في المدن، والسيمائية:

التحدي الكبير الذي يجابه المدينة العربية هو النمو الحضري المتسارع وتضخم المدن. ويعود ذلك إلى مركزية النشاط الاقتصادي وبخاصة الصناعة في المدن مما يدعو إلى زيادة السكان بسرعة عن طريق الهجرة الريفية.

إن أحادية السيماء[1] التي تتصف بها المدينة الحديثة تعود إلى سيطرة الفعالية الاقتصادية. وتقول فرانسواز شواي[2] ((إن سيطرة الطابع الاقتصادي في المدن القائمة على ثنائية الإنتاج والاستهلاك، تجعل النسيج الحضري للمدينة ذا طبيعة سيمائية تهدد وجود البشر لأنها تؤدي إلى إغفال الإنسان في المجتمع)).

إن ظاهرة السيمائية هذه. تبدو أكثر وضوحاً في المدينة العربية مثل دمشق، التي لحقت مؤخراً بركب الصناعة بزخم مفاجئ.

إن معالجة السيمائية تبدو من أهم المسائل المستقبلية وأصعبها، ذلك أن جميع المحاولات لتقليص التأثير الاقتصادي لم تقدم حلولاً مناسبة. ذلك أن رجال الاقتصاد يتحكمون في تثبيت هذه السيمائية وفي تكريسها لضمان استقرار مشاريعهم وفعالياتهم.

٢/١ خطة دولية:

لقد دأب صندوق الأمم المتحدة للنشاطات السكانية على لفت الأنظار إلى المشاكل المتأتية عن سرعة زيادة السكان وتضخم الطابع السيمائي الاقتصادي في المدينة.

ولقد عقد الصندوق في روما عام (١٩٨١م) مؤتمراً عالج هذه المشاكل فكان ((بيان روما)) المشهور الذي تضمن النقاط التالية:

١- رسم خطة قومية متكاملة تتضمن سياسات سكانية.

٢- رسم سياسات تتوخى التوازن في التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

٣- اتخاذ سياسات تهدف إلى تحسين المناطق الحضرية وارتقائها.

٣/١ ديمقراطية الإصلاح:

لقد أكد بيان روما على ديمقراطية الإصلاح ووجد أن أية خطة مستقبلية لابد

---

(١) تعني السيمائية تقدم الصناعة في المدينة على حساب المجتمع .
(٢) ف - شواي وآخرون : معنى المدينة ، ترجمة عادل العوا ، الثقافة - دمشق ١٩٧٨ .

أن تستوفي الشروط التالية:

١- أن تكون من خلال السكان.

٢- أن لاتكون قمعية.

٣- أن تحقق التوازن في تنمية المدن.

٤- أن تضع برنامجاً حازماً لتنظيم الأسرة.

٥- أن تعمد إلى رفع مستوى الريف.

هكذا فإن وضع خطة مستقبلية إلزامية ليس من الأمور الناجحة كلياً. ولابد من وضع هامش عريض لديموقراطية الإصلاح. بمعنى أن نسمح لسكان المدن بالمشاركة الفعلية في اتخاذ القرارات المصيرية التي تؤثر عليها وتنظم تكاثرهم، ولابد من توفير الظروف المناسبة لاتخاذ القرارات المتعلقة بالأوضاع الاقتصادية والشؤون الاجتماعية والثقافية. ويبقى هاماً التخطيط لدعم اعتماد الإنسان على نفسه في تطوير مدينته بالتعاون مع السلطات.

٤/١ سياسة ضبط الهجرة الداخلية:

لابد أن تتضمن الخطة تحقيق توازن سليم في توزيع الخدمات والفرص بين المدن والأرياف. ولقد قامت محاولات قمعية لمنع هجرة سكان الريف، باءت بالفشل. فليس من المقبول منع الريفيين من دخول المدن، وليس من المقبول منع الخدمات والإسكان عنهم إذا هم انتقلوا إليها بشكل ما .

لقد أدت هذه المحاولات القمعية إلى تدهور معيشتهم وتفاقم الأزمة الاجتماعية في المدن.

٥/١ نحو التوازن الاقتصادي الاجتماعي:

إن القضاء على السيمائية الاقتصادية أو تحقيقها في المدن كان هدفاً لخطط التنمية، ولكن أقصى ما توصلت إليه هو إيجاد طرق التعاون الشعبي لتحقيق توازن اقتصادي ثقافي في المدن التي أصبح أكثر سكانها تابعين للنشاط الاقتصادي.

٢- تخفيض التضخم السكاني

٢/١ توزيع الفعاليات بين المدن:

لقد تبين أن العاصمة تتحمل غالباً العبء الأكبر من آثار التضخم، فكان ثمة اقتراح بتقسيم العاصمة إلى قسمين أو أكثر، قسم ثقافي وإداري، وقسم اقتصادي. واقتراح آخر، هو خلق مدن جديدة تُخصَّص للفعاليات الاقتصادية أو الإدارية الثقافية، ولكن هذه المشاريع والاقتراحات لم تكن حلاً كاملاً لمسألة السيمائية وتضخم السكان، وكان موضوع توزيع الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية بين المدن وعدم حصرها في مدينة واحدة، هو الحل الذي جرت عليه أكثر الدول العربية لتحقيق التوازن الحضري.

٢/٢ تنظيم الأسرة:

إن متابعة مشاريع تنظيم الأسرة والتخفيف من زيادة السكان إلى الحد الطبيعي ١٪ عن طريق نشر الثقافة الصحية ورفع مستوى الوعي الاجتماعي، هو من أهم المشاريع التي تمارسها المنظمات الدولية والوطنية.

٣/٢ رفع مستوى الريف:

يبقى رفع مستوى الريف وتقديم الحوافز الإنتاجية وتأمين الشروط الأساسية للتحضر، هو من أوليات الخطط لمجابهة التضخم السكاني في المدن والحد من هجرة الريف.

٣- تنظيم المواصلات في المدينة

١/٣ تنظيم النقل والانتقال الداخلي:

أمام انتشار التحدي الصناعي المتفاقم، كان لابد من وضع خطة منهجية لتنظيم النقل والانتقال في المدينة العربية، وبخاصة تلك المؤلفة من قسمين، قديم وحديث، والخاضعة لتخطيط حضري جديد، وتتضمن هذه الخطة مايلي:

١- جعل المدينة القديمة أو أجزاء منها حسب الظروف، منطقة مشاة وتخصيص شوارع للمارة.

في الأجزاء التجارية من المدينة القديمة، ضمن برنامج يومي لتموين هذه المنطقة.

٢ - تخفيض ضغط السيارات على المدينة الحديثة، ومنع دخول الشاحنات إليها والاكتفاء بالطرقات المحلقة.

٣ - تأمين مبارك شاقولية للسيارات.

٢/٣ الجسور والعقد الطرقية في دمشق:

إذا كانت الأنفاق المخصصة للسيارات، أو المترو هي الأقل ضرراً على نسيج المدينة، فإن إنشاء الجسور والعقد الطرقية في مداخل المدن، قد خفف كثيراً من الضغط على المدينة وأدى إلى تنظيم الدخول والخروج من المدينة وربطت المدينة مباشرة بالطرق الدولية والإقليمية، إذ أن الطرق المحلقة تؤمن ترابطاً سريعاً بين أطراف المدينة المتباعدة، دون الاضطرار إلى اختراق المدينة.

٣/٣ مشروع مدخل دمشق:

إن جميع الطرق والجسور التي لوحظت على المخطط التنظيمي قد نفذت مما خفف الضغط على المدينة وسهل اتصالها خارجياًمن جميع الجهات.

إن أهم مشروع تنظيمي وخدمي بوشر به مؤخراً هو مشروع تنظيم مدخل مدينة دمشق من جهة المطار الدولي. وتبلغ مساحة المشروع ٣٠٠ هكتار أوهو مؤلف من أربع مناطق، ثلاث منها لبناء وحدات سكنية، والمنطقة الرابعة ترفيهية رياضية سينشأ فيها.

١- ناد رياضي.

٢- مسبح.

٣- ملاعب مكشوفة.

٤- مواقف سيارات.

٥- موتيل.

و يعتبر هذا المشروع رائداً وسوف يعمم في مناطق أخرى حسب المصور التنظيمي العام، سعياً وراء القضاء على المخالفات، وفي سبيل تأمين سكن صحي ملائم، وإنشاء مناطق رياضية متكاملة.

٤ - أساليب التخلص من النفايات

١/٤ تزايد النفايات:

إن أهم مسألة تعترض المخطط الحضري الحديث، هي كيفية مجابهة الأضرار المتزايدة والناشئة عن الفضلات السامة أو النفايات الفاسدة التي أصبحت نذيراً خطيراً يهدد حياة السكان وصحتهم ومستقبل مدينتهم. بعد أن بلغت ٣٣٠ كغ للفرد سنوياً.

على الرغم من تعدد الأساليب والخيارات للتخلص من هذه الفضلات والنفايات، فإن النتائج ليست حاسمة في مجال الحماية فما زالت أكثر المدن تلجأ إلى دفن هذه النفايات تحت الأرض، أو التخلص منها في الأنهار والبحار، أو عن طريق الحرق وهي طرق

سهلة قليلة الكلفة لاتقضي على الأضرار بل قد تؤيدها.

٢/٤ الاستفادة من النفايات:

لقد اتجهت الدراسات إلى ضرورة الاستفادة من المواد التي تؤلف النفايات وهي ٢٣٪ رماد ٣٢,٥٪ ورق ٢٠٪ مواد نباتية ثم مواد أخرى.

وتبين أنه يمكن استخلاص طاقة حرارية من النفايات (زيت، غاز، فحم) كما يمكن استخلاص بروتينات وكحول بطريق التحليل بالماء. كذلك يمكن تحويل النفايات إلى سماد.

٥- التخلص من الفضلات البشرية والكيميائية

١/٥ أخطار الفضلات:

إن ارتفاع مستوى الحياة في دمشق وتضخم الإستهلاك والإنتاج الصناعي فيها، مع زيادة السكان الطارئة، وضع السلطات البلدية أمام مشكلة زيادة الفضلات البشرية والحيوانية والفضلات الكيماوية التي تطرحها المعامل المختلفة[1].

إن هذه الفضلات المتزايدة تشكل خطراً ماحقاً على المجتمعات البشرية التي تعيش قريباً من هذه الفضلات، وذلك بفعل روائحها الكريهة وانتشار البعوض والذباب، أو بفعل المواد السامة التي تفرزها المعامل. وكان لابد من إيجاد حلول حاسمة لحماية البيئة.

٢/٥ الطريقة الراهنة لدرء أخطار الفضلات:

الطريقة المتبعة اليوم في مدينة دمشق هي طريقة الأكسدة الطبيعية في مقالب فسيحة خارج المدينة ومن ثم استعمال هذه القمامة بعد تحولها إلى سماد عضوي، لأعمال الزراعة.

و لاتخلو هذه الطريقة من محاذير تسرب الروائح والبعوض وانتشار الأمراض، ولابد من اللجؤ إلى طريقة الحرق بالأفران العالية الحرارة، ثم تجفيفها ناعمة وتعبئتها لتوزيعها على المزارعين.

٣/٥ محطات المعالجة الكيمائية:

لقد عانت دمشق الكثير من الفضلات الكيمائية وبخاصة معامل دبغ الجلود التي سممت الأنهار والمزروعات، ونشرت الروائح الكريهة في أحياء كاملة. ولقد وضعت محافظة دمشق خططاً لمنع التلوث بنواتج المعامل، وفرضت على أصحاب الصناعات إقامة محطات للمعالجة ولاشك أن هذه المحطات ذات تكاليف عالية، ولابد من مؤازرة القطاع الصناعي وتشجيعه على إقامة هذه المحطات.

٤/٥ الصرف الصحي:

على الرغم من وجود شبكة مجاري قديمة في دمشق، إلا أنها تصب في فروع نهر بردى، مما جعل هذا النهر وسيلة لنقل الأوبئة وتلويث مزارع الغوطة ونباتاتها.

وتقوم أجهزة المحافظة (بعد تأخير

---

(١) راجع في ذلك :
روبرت لافون : التلوث – مطابع الأهرام التجارية – القاهرة ١٩٧٧ .
جون كوارلس : مكافحة البيئة – دار غريب للطباعة – القاهرة ١٩٧٧ .
اليونسكو : المشكلات البيئية الرئيسية في المجتمعي المعاصر – الوثيقة ٨ مؤتمر تبليسي ١٩٧٥ .

المصطلحات

كهاريز ـ المرحلة الأولى

كهاريز ـ المرحلة الثانية

ضخ رئيسي

مخطط الصرف الصحي الحديث

كبير) بتنفيذ مشروع المياه العذبة والصرف الصحي، الذي يهدف إلى إنشاء خطوط رئيسية لجميع مصبات مجاري مدينة دمشق، ومحطة لمعالجة مياه الصبيب عند الحدود الشرقية من المدينة، وإنجاز أعمال صناعية أخرى هدفها المحافظة على نظام الري الصحي.

٥/٥ المشروع الجديد للصرف الصحي : ويتكون المشروع من الأعمال التالية:

١- إنشاء مجاري لجميع المياه المالحة.

٢- إقامة محطة ضخ في اليرموك.

٣- إقامة محطة معالجة، لتعالج مياه المجاري ميكانيكياً وحيوياً وكيميائياً لينتج عنها مياه صالحة للري الزراعي.

٤- إعادة توزيع المياه على الأنهر بعد معالجتها.

٥- القيام بأعمال ومنشآت لضبط جريان فروع بردى.

لقد تم تنفيذ المشروع ، ومن المأمول أن يكون متكاملاً ولكنه مع ذلك لايحقق التقنية الكاملة لمياه الصرف، ولا بد من مشروع تطويري.

٦- تأمين المياه النظيفة

١/٦ تلوث المياه:

يزداد تفاقم الأمراض السارية الطفيلية في دمشق مع زيادة السكان والتركيز الصناعي في المدينة أو زيادة الحاجة إلى استهلاك المياه، مما يؤدي إلى استنفادها، ويدفع إليتسرب المياه الملوثة من المصانع ومن مجاري المياه المالحة إلى مياه النهر، لقد وصل نهر بردى وفروعه إلى مرحلة فقد القيمة، لما تراكم فيه من تلوث مياه الصرف.

٢/٦ التركيب الكيميائي لمياه الصرف:

تتألف مياه الصرف من مواد عضوية ومعدنية وجراثيم، ويُكشف التلوث بواسطة اختبار، يحدد نسبة التلوث العضوي ونسبة الجراثيم. ومع أن حماية مياه الشرب وصلت مرحلة جديدة بعد تحسين مجاري نبع عين الفيجة، ولكن استخدام مياه الصرف بشكل مباشرٍ أو غير مباشر في أعمال الري في الغوطة التي تعتمد على مياه الأنهار، كان مدعاة لانتشار الجراثيم عن طريق المزروعات التي تغذي المدينة.

و كما ذكرنا، فلقد وضع موضع التنفيذ مشروع الصرف الصحي والمياه العذبة منذ عام (١٩٩١م). هو في طريقه إلى نهايته.

٣/٦ تنقية المياه بالكلس:

إن تنقية مياه الينابيع من الجراثيم لجعلها صالحة للشرب كان الهاجس الأساسي، ولقد تم ذلك بواسطة التخثير با لكلس، فالكلس يقضي على عدة أنواع من البكتريات ويزيل الفيروسات وبيوض الطفيليات.

٧- مراحل تأمين مياه الشرب وتوزيعها في دمشق والمشروع الجديد

١/٧ نبع الفيجة:

إن أهم سبب لاستمرار مدينة دمشق عامرة منذ قبل التاريخ وحتى اليوم، هو وجود المياه النقية فيها ونبع الفيجة الذي يمتاز بنقائه يمد المدينة بخمسة وعشرين مليوناً من الأمتار المكعبة سنوياً من الماء.

و يبتعد النبع عن دمشق حوالي (١٨كم)، وتصل مياهه إلى المدينة بالراحة دونما ضخ لتصب في خزانات التوزيع. وكان الرومان هم أول من جر مياه عين الفيجة إلى دمشق. وتأكد ذلك من المجاري التي شقت في جبال وادي بردى، وما زالت ظاهرة للعيان.

٢/٧ تنظيم جر وتوزيع مياه الفيجة:

في عام (١٩٠٨م) قام الوالي المصلح ناظم باشا بتنظيم عملية جر وتوزيع مياه الفيجة بواسطة قساطل من الفونت قطر (٢٥٠مم). وكانت المياه تصب في خزانين في سفح قاسيون خزان العفيف وسعته (٢٠٠٠م٢) ومنسوبه (٧٢٠م)، ما زال حتى الآن، ولقد استعمل صالة للفنون الجميلة، والثاني خزان ظبيان وسعته (٥٠٠م٢) ومنسوبه (٧٦٠م) وتم تمديد شبكة من الأنابيب لمختلف أنحاء المدينة، كما أقيم (٤٠٠ سبيل) موزعة في الأحياء المختلفة.

٣/٧ لجنة مياه عين الفيجة:

في عام (١٩٣٢م) تم مشروع توزيع مياه الفيجة إلى منازل دمشق بجهود مجموعة من تجار دمشق أنشؤوا لجنة دائمة ذات امتياز، لها الحق في بيع أمتار من الماء على السكان، مقابل نفقات المشروع وتكاليف صيانته.

٤/٧ خطة طموحة لتأمين المياه العذبة وتوزيعها:

و في عام (١٩٦٩م) وضعت مؤسسة مياه عين الفيجة خطة جديدة بعيدة المدى لتأمين الماء اللازم، والمتناسب مع تطور المدينة عمرانياً وسكانياً واقتصادياً.

و لقد أنجزت هذه الخطة بكاملها، ولكن كميات المياه اللازمة ما زالت تفوق المصروف من نبع الفيجة، وبخاصة في سنوات الجفاف التي امتدت خلال الثمانينيات. ولابد من خطة جديدة لتلافي النقص.

٨- تنظيم جمع القمامة

١/٨ ارتفاع حجم القمامة وأضرارها:

إن اتساع عمران المدينة وزيادة سكانها أورث ضخامة في الفضلات الاستعمالية، وكان لابد من البحث عن وسيلة عملية لجمع القمامات إلى مقالبها بعيداً عن أضرارها. ولقد اتبع في ذلك عدة حلول ٢/٨ حلول تنظيمية لجمع القمامة في دمشق:

لقد وجدت مصلحة التنظيف أن أفضل حل لجمع القمامة هو التالي:

١- وضع حاويات من مختلف الأحجام في المدينة.

٢- جمع القمامة بطرق آلية بسيارات خاصة وترحيلها إلى المقالب.

٣- رش الشوارع والحدائق وبؤر تكاثر الحشرات بالمبيدات.

٤- شطف الشوارع ليلاً.

٥- إزالة الفضلات والأتربة في الشوارع.

٦- تصنيع القمامة بمعدل (٧٠٠ طن) يومياً وتحويلها إلى سماد.

٣/٨ معالجة القمامة:

لقد تم تصميم وتنفيذ معمل معالجة القمامة بكلفة (١٥٠ مليون ل س).

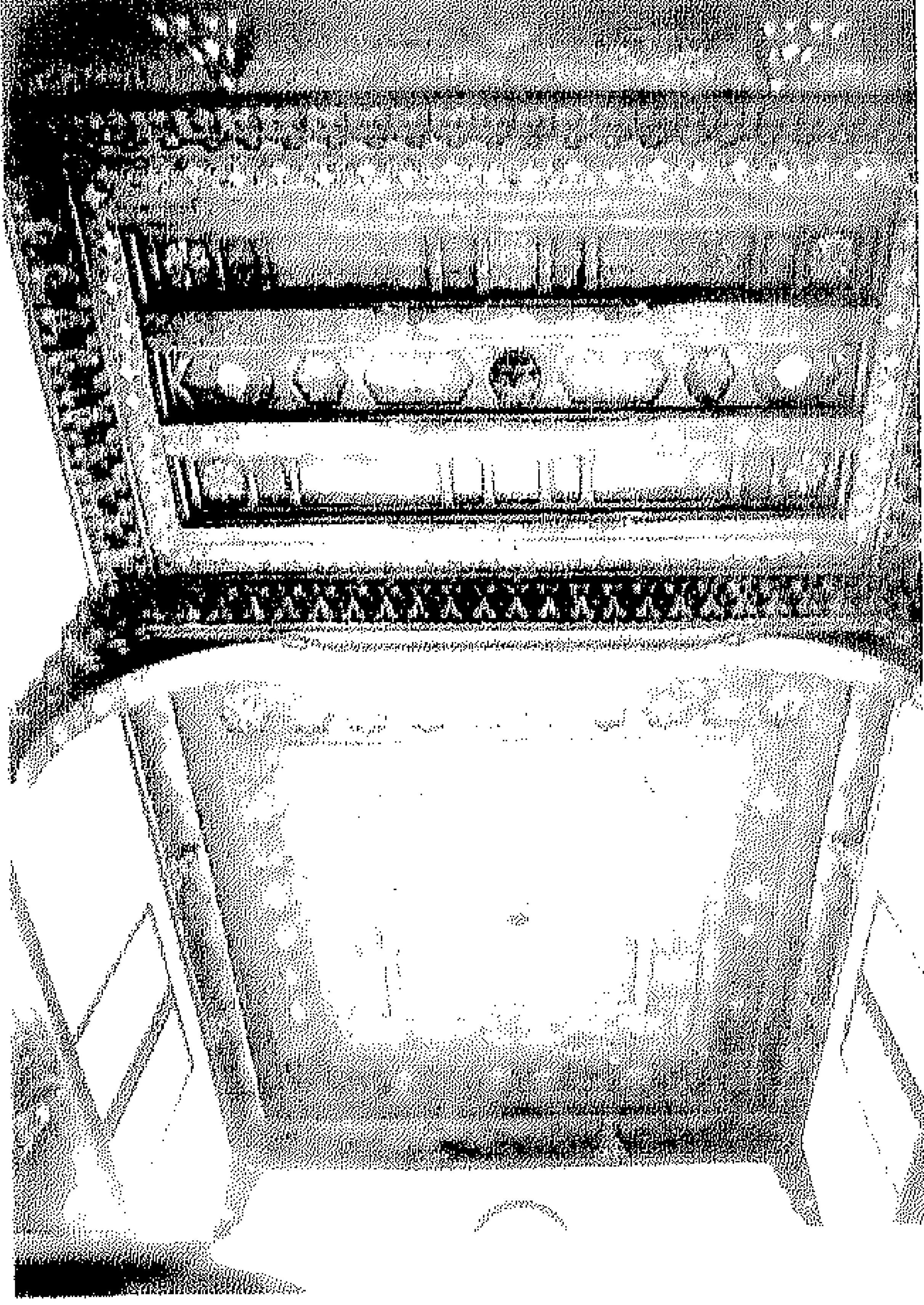
٩- تنقية الهواء الملوث

١/٩ المرشحات والتشجير:

إن أفضل وسيلة لمكافحة التلوث الهوائي هي التخلص من الفضلات والمخلفات الضارة في المعامل والسيارات حيث مواقع



ذكريات العمارة الأصيلة في دمشق



صيانة خشبيات بيوت دمشق القديمة

نشوئها، وذلك بوضع مرشحات مع فوهات المواسير، ومع ذلك فإن كمية هائلة من السموم تتسرب من الفوهات غير المجهزة بالمرشحات. ولابد من العناية بالتشجير الذي يعمل مع المناطق الخضراء على تأمين عملية الترشيح لتنقية الهواء من بعض المركبات الغازية، مثل كلوريد الهيدروجين. وبذلك يتحقق تغيير الهواء مع مسار الرياح الناقلة للغازات باتجاه بعيد عن المدن. ومن المفضل أن تكون الأشجار دائمة الخضرة للاستفادة منها في فصول الشتاء.

١٠- حماية وترميم المدينة القديمة

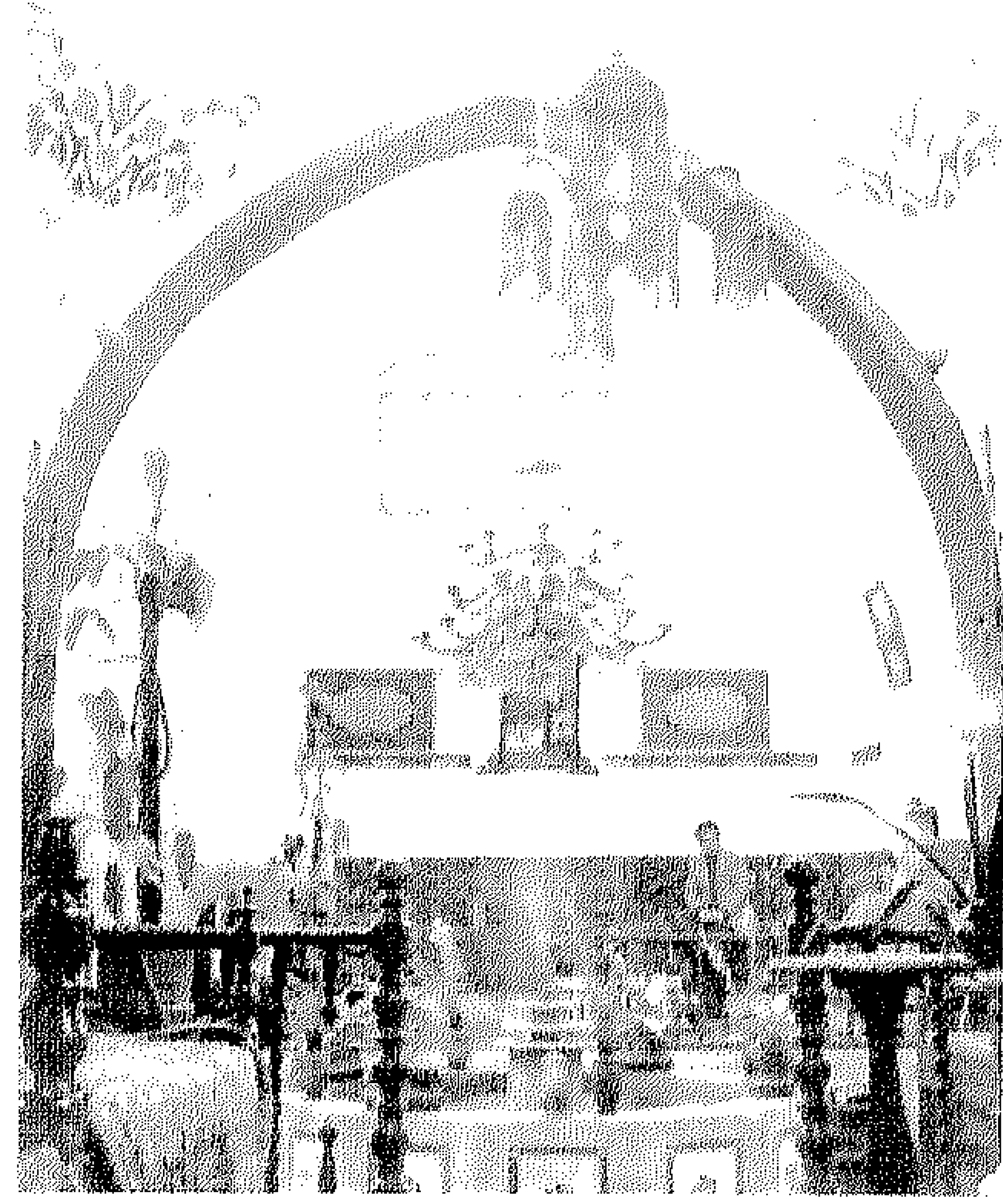
١/١٠ شروط ترميم المباني والأحياء:

إن صيانة وترميم المباني القديمة تخضع لشروط معروفة لدى مرممي الآثار، وهي التقيد الكامل بالشكل المعماري الأصلي وبالمواد التي كانت مستعملة لإنشاء هذه المباني. ومن الممكن دائماً تحسين شروط الاستعمال الوظيفي، وذلك بإمداد هذه المباني بالماء والكهرباء والمجاري ووسائل التدفئة التي لاتغيّر من طابع المبنى المعماري، ولا يجوز إضافة طوابق جديدة أو تغيير الملامح الخارجية للمبنى.

٢/١٠ إعادة التوظيف العمراني:

أهم مشاكل المدينة القديمة والبيت القديم في عصر التحدي الاستهلاكي هي تغيير وظائف استعماله، فلقد نزح ساكنه القديم عنه ولجأ إلى أقسام المدينة الحديثة، وترك البناء بين أيدي التجار والصناع يستعملونه مستودعاً أو معملاً أو متجراً. وهذا التحول يقضي تماماً على ملامح المدينة الأصلية وعلى الطابع المعماري للمبنى القديم.

لذلك كان لابد من تشجيع السكان على



حمام نور الدين بعد ترميمه ١٩٧٨



بيت عنبر بعد ترميمه ١٩٨٠

العودة إلى مبانيهم القديمة، وعلى استعمالها بما يتفق مع الوظيفة الأساسية لها. ومن الممكن توظيف هذه المباني بل الأحياء أيضاً، لأغراض السياحة أو أغراض الثقافة والمتاحف.

والواقع أن المدينة القديمة لم تعد في غالبية مبانيها مدينة سكنية، بل مدينة تجارية سيطرت عليها الأسواق القديمة، وتهافتت عليها السكان والسياح لشراء السلع التقليدية وغير التقليدية.

ولابد من مراعاة هذا التحول، مع التحفظ الدائم بضرورة إعادة الحياة السكنية الاجتماعية إلى الأحياء الأخرى. ويبقى أساسياً أن المقصود من حماية المدينة القديمة، ليس جعلها متحفاً مفرغاً من الحياة الاجتماعية اليومية، بل أن تحافظ فيها على جميع التقاليد التي كانت سائدة، والحرف والصناعات، كما هو الأمر اليوم في مدينة فاس أو مدينة دمشق.

٣/١٠ السيارة والمدينة القديمة:

وتبقى قضية طغيان وسائط النقل الحديثة، السيارة والناقلات، من أصعب ما تواجهه، لمدينة القديمة، ولعل إيجاد وسائط نقل وانتقال صغيرة وضيقة، هو الحل المفضل.

ولابد من الاقلاع عن أي مشروع من شأنه تعديل مخطط المدينة لتعريض الطرقات أو شق الشوارع لصالح وسائل النقل الحديثة.

ولكن المشكلة تبدو أكثر صعوبة عندما نريد اقتحام السيارة في نسيج المدينة القديمة التي لم تصمم للاستيعاب هذه الوسيلة القاهرة. وكان على (المصلحين) أن يتصوروا فتح منافذ وطرقات على حساب الأحياء القديمة التي آلت إلى التقطيع والتجزؤ.

١١- حماية دمشق القديمة

١/١١ مخطط إيكوشار العمراني:

حسب مخطط (١٩٦٧م) لحظ فتح شوارع لتسهيل دخول وسائط النقل إلى مركز المدينة القديمة. ولقد أوقفنا هذا التنظيم بعد تسجيل المدينة القديمة في السجلات الأثرية وفي قائمة الممتلكات الثقافية العالمية[1].

٢/١١ مشاريع إصلاحية:

ثمة مشروع استملاكي قديم ضمن المدينة القديمة كان لابد من الموافقة على تنفيذ تنظيمه، وهو مشروع تنظيم المنطقة الغربية والجنوبية من الجامع الأموي الكبير والتي ساعدت على إبراز الجامع وتحسين محيطه بإزالة المباني اللاصقة والخطيرة عليه. والمشروع الثاني هو الكشف عن قلعة دمشق من الجهة الغربية والشرقية والجنوبية (دون الجنوبية المتاخمة لسوق الحميدية).

٣/١١ ترميم قلعة دمشق

أنشئت قلعة دمشق عام (١٢٠٢م)، في عهد الملك العادل الأيوبي ومساحتها (٣٣٠٠٠م٢)، وتقع عند مدخل دمشق القديمة الغربي[2].

لقد قمنا (في المديرية العامة للآثار والمتاحف) بترميم القلعة بعد الكشف عنها، وأصبحت جاهزة لاستيعاب النشاط الثقافي والسياحي.

٤/١١ تنظيم المقبرة الكبرى:

لقد تم تنظيم حدود مقبرة الباب الصغير الأثرية بإزالة المنشآت الطفيلية وأبراز مدافن هامة، منها مدفن معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان، وبلال الحبشي وكعب الأحبار ومجموعة من آل البيت وسكينة بنت الحسين والمؤرخ فخر الدين بن عساكر والفارابي الفيلسوف.

٥/١١ فتح طريق باتجاه المناطق الأثرية في قلب المدينة القديمة:

و لقد تم تنفيذ فتح طريق بين الجامع الأموي وقلعة دمشق مما سهل الوصول إلى المباني الأثرية المتاخمة لهما وهي المدرسة العادلية والمدرسة الظاهرية وقبرصلاح الدين الأيوبي وقبر نور الدين محمود بن زنكي[3].

١٢- إصلاح الخلل الاجتماعي

١/١٢ التقدم وآثاره السيئة:

إن التقدم الاقتصادي وزيادة السكان، قد دفع إلى نمو معماري مادي استطاع أن يعبر عن الترف والازدهار المادي، ولكنه لم يستطع القضاء على أزمة الإسكان التي لم تحل إلا بإنشاء بيوت الطين والصفيح مما أحدث تبايناً طبقياً مجسماً.

ثم إن تدني حجم الخدمات الاجتماعية وانهيار وسائل الضبط الاجتماعي التقليدية، قد وضع المدينة العربية أمام مشكلات ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية ودينية وسياسية وأخلاقية.

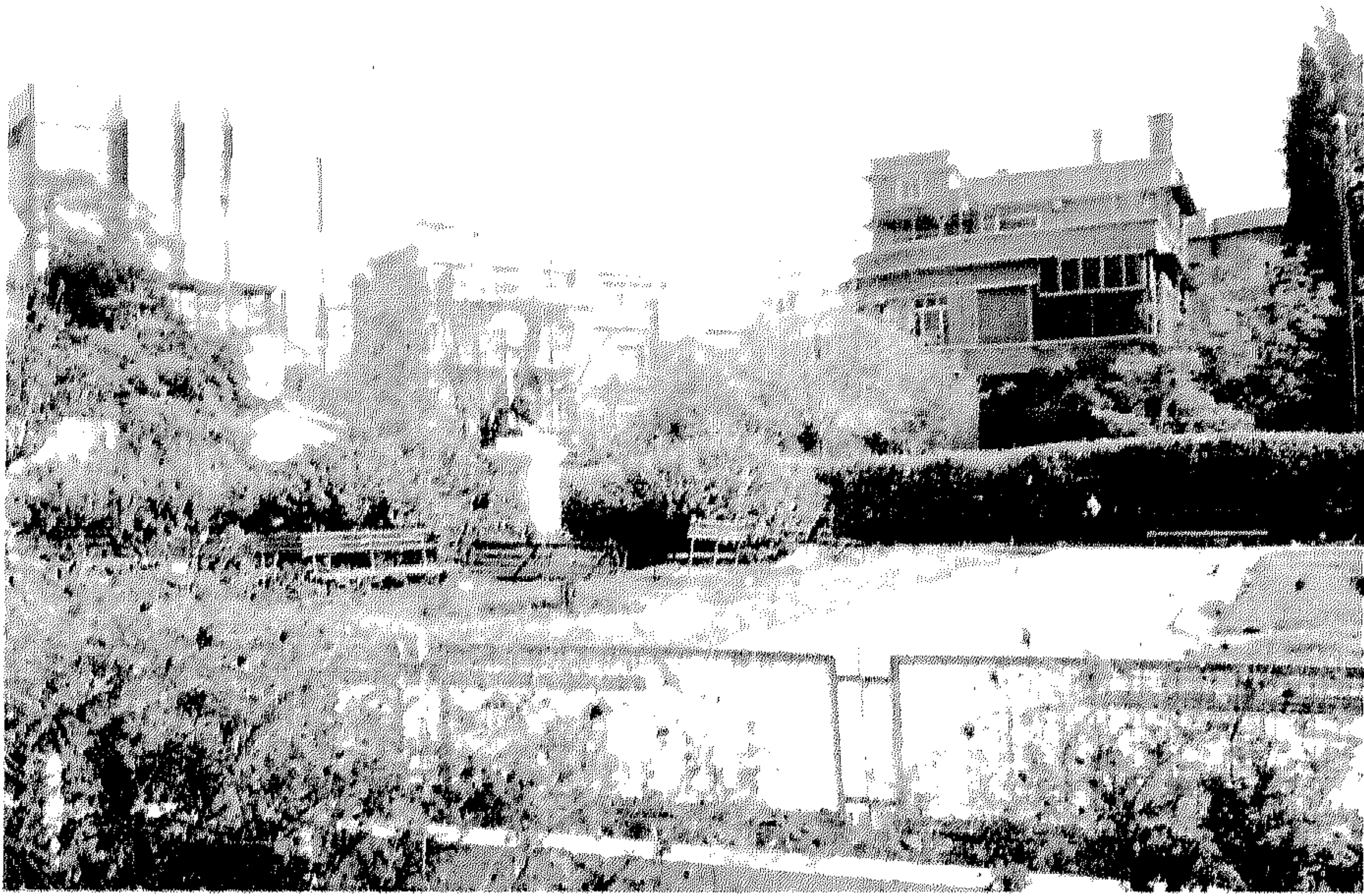
٢/١٢ الهجرات الاستثنائية نحو دمشق:

إن مدينة دمشق التي تعتبر أكثر المدن

(١) سجلت مدينة دمشق القديمة ، مدينة أثرية بموجب القرار رقم ١٩٢ تاريخ ١٩٧٦/٨/١٦ .

(٢) عبد القادر ريحاوي : قلعة دمشق ، مطبوعات وزارة الدفاع - دمشق ١٩٧٩ .

(٣) أبو الحسن علي بن أبي الهروي : الإشارات في معرفة الزيارات - دمشق ١٩٥٣.



الحدائق في دمشق - حديقة ابن سينا

السورية تهديداً بتفاقم المشكلة الاجتماعية، وبخاصة بسبب هجرة استثنائية تمت من المناطق المحتلة (القنيطرة والجولان) ومن المحافظات الأخرى (دير الزور وحوران) ومن عائلات الجنود المرابطين في خطوط الدفاع المتاخمة لدمشق، دمشق تعيش أزمة اجتماعية مكبوتة لابد من إيجاد حلول هادئة لها.

٣/١٢ اقتراحات لتصحيح الخلل الاجتماعي في دمشق:

نعرض هنا أهم المنطلقات التي يجب تبينها لتصحيح الخلل الاجتماعي في دمشق:

١- تشجيع البحث العلمي الاجتماعي.

٢- تطوير الخدمات والبرامج الاجتماعية.

٣- وضع سياسة حكيمة لتشجيع الطارئين على المدينة للعودة إلى مدنهم.

٤- وضع حد للمناطق المخالفات بالتخفيف منها وتنظيم المناطق التي لابد من إلحاقها بمخطط المدينة.

٥- الاستمرار بأعمال البناء في محافظة القنيطرة ووضع خطة إسكانية في منطقة الجولان لاستيعاب العائدين إليها بعد تحريرها المرتقب.

٦- وضع برامج وقائية لمنع تفاقم الأزمة الاجتماعية وانفجارها.

٧- زيادة عدد المرافق الثقافية الترويحية.

٨- تشجيع بيوت المسنين والمعاقين.

٩- خصيص برامج إعلامية تخفف من الأزمة الاجتماعية.

١٠- مراعاة الناحية الاجتماعية في المخطط التنظيمي العتيد لمدينة دمشق.

١١- إعادة الحياة الاجتماعية للمدينة القديمة والتخفيف إلى أقصى حد من الفعاليات.

الفصل الثاني عشر

مخطط دمشق والنظام الإداري

١- المخطط التنظيمي المستقبلي للمدينة

٢- إعادة تنظيم مدينة دمشق

٣- الأساليب الإدارية الحديثة

٤- دور المنظمة العربية للمدن

٥- الخاتمة اقتراحات لوضع أسس مخطط تنظيمي لمدينة دمشق في عصر الدولة الإلكترونية

مخطط دمشق والنظام الإداري

١ - المخطط التنظيمي المستقبلي للمدينة العربية

١/١ أهمية التخطيط العمراني:

التخطيط العمراني للمدينة، هو الدليل الذي يستوعب نمو المدينة وتطورها العمراني والمعماري، ويحدد استعمالات الأرض ضمن الحدود الجغرافية وبمساحة محددة، على أن يكون هذا التخطيط معتمداً لفترة زمنية محددة.

ويقضي أن يتصف المخطط التنظيمي بالخصائص التالية: الشمولية، وطول المدة، والمرونة، وإمكانية التنفيذ، والتخطيط العلمي، واستيعاب التراث المعماري والتقاليد الجماهيرية.

٢/١ مسائل التخطيط العمراني:

يلاحظ المخطط التنظيمي المسائل التالية:

السكن العام والخاص، الحي السكني، المرافق الصناعية، الخدمات الاجتماعية، الخدمات التحتية والتمديدات والمجاري والنفايات والماء والمناطق الزراعية والحدائق.

٣/١ أهداف المخطط التنظيمي:

إن الهدف الأساسي للمخطط التنظيمي، هو الارتقاء بالبيئة العمرانية. ولتحقيق هذا الهدف لابد من التمييز بين أجناس المناطق العمرانية، فهي إما أن تكون مناطق تاريخية أثرية، وفيها لابد من مراعاة الصورة الحضارية لهذه المناطق وحمايتها، ومنها المناطق المتخلفة حيث ينخفض المستوى الحضري للمجتمع، وفيها لابد من رفع المستوى الثقافي والاقتصادي لسكان هذه المناطق.

وفي المناطق الحديثة ذات الطابع الغربي لابد من معالجة الهجانة والبحث عن عناصر الأصالة.

ونظراً لسيطرة الطابع الاقتصادي الصناعي على المدينة، كان لابد من ضبط هذه السيطرة والحد منها عند إعداد المخطط التنظيمي، إذيجب ((أن نخضع التصنيع للعمران وليس العمران للتصنيع))،

٢ - إعادة تنظيم مدينة دمشق (مثال راهن)

١/٢ يمتاز المخطط التنظيمي لمدينة دمشق والذي وضع للتنفيذ منذ عام (١٩٦٨م)، أنه راعى إيجاد مناطق سكنية وصناعية وتجارية ومشيدات حكومية، ولكنه فرّط في حماية المناطق الأثرية والتاريخية وفي حماية المناطق الزراعية

(الغوطة). ولم تكن توقعاته بالنمو الحضري صحيحة، مما أدى إلى إهمال المناطق الأثرية وتجاوزها وإلى اكتساح أقسام كثيرة من الغوطة تنفيذاً للمخطط أو تجاوزاً له. وكان لابد للمخطط من الاتساع النظامي باتجاه الشرق (برزة) واتجاه الغرب (المزة).

٢/٢ مناطق المخالفات:

تجاوزت مناطق المخالفات الحدود المنطقية إذ توصلت إلى ضعفي مساحة المدينة المخططة نفسها وعلى الرغم من إصلاح بعض الخطأ، وذلك بوقف أي تعديل في دمشق القديمة، ووضع قوانين لحماية المناطق الخضراء بين الأشجار، وتشجيع غرس الأشجار بشكل جيد وتشجير جبل قاسيون فإن تعديل المخطط التنظيمي أصبح ضرورة لازمة تدرس اليوم في أروقة المحافظة.

٣/٢ مناطق التوسع السكني حسب المخطط:

لقد لحظ المخطط التنظيمي مناطق للتوسع السكني وكان مجموع المصورات سبعة عشر مصوراً يضاف إليها مصورات مناطق الضواحي ومصورات الكتل، أما المناطق المنظمة سابقاً فتركت كما هي:

ولقد تم تنفيذ المناطق التنظيمية التالية حسب مصوراتها:

١- منطقة تنظيم ما بين العدوي والإنشاءات.
٢- غربي أبي رمانة.
٣- غربي الميدان.
٤- شرقي الميدان.
٥- شرقي المرجة.
٦- البحصة وسوق ساروجا.
٧- غربي سوق الهال.
٨- ركن الدين الموحد.
٩- ساحة عرنوس.
١٠- شمالي المستشفى العسكري.
١١- شرقي المستشفى العسكري.
١٢- المنطقة الرابعة في الميدان.
١٣- القابون الصناعية.

ومازال مناطق أخرى في طريقها إلى التنفيذ وهي:

١- منطق تنظيم كفرسوسة.
٢- شرقي المواساة.
٣- منطقة شرقي الباب الشرقي.
٤- منطقة غربي القصر العدلي.
٥- منطقة شارع الملك فيصل.
٦- منطقة جنوب الميدان.

٣- الأساليب الإدارية الحديثة

١/٣ مجلس المحافظة:

إن نظام الإدارة المحلية الذي صدر بالقانون (١٥ لعام ١٩٧١م)، هو من أحدث الأساليب الإدارية ويهدف إلى تنظيم العلاقة بين السلطة المركزية وبين الوحدات المحلية، وإلى إيجاد الأسلوب الأمثل للإدارة الديمقراطية الشعبية المتمثلة بالمجالس واللجان.

ويبلغ عدد أعضاء مجلس محافظة مدينة دمشق مئة عضو منتخب يرأسه المحافظ.

٢/٣ المكتب التنفيذي:

ويجتمع مجلس المحافظة مرة كل شهر، بدورة عادية تستمر أسبوعاً. وينبثق عن مجلس المحافظة المكتب التنفيذي المؤلف

من عشرة أعضاء ينتخبهم المجلس، ويختص كل عضو بقطاع خدمي محدد، مثل الأبنية – النقل – التربية – التخطيط – المالية – والإحصاء – الشؤون الاجتماعية – الشؤون الصحية – الخدمات والمرافق – الزراعة – التموين. ويرأس المكتب المحافظ نفسه.

٣/٣ دوائر الخدمات:

وأمام إتساع مدينة دمشق بما يفوق تقديرات المخطط التنظيمي، كان لابد من البحث عن حل إداري لتقديم الخدمات المستمرة لمناطق المدينة الواسعة. ولم يكن أفضل من العودة إلى المفاهيم الإدارية التقليدية، فلقد كانت دمشق في العصور السابقة مقسمة إلى ثمانية مناطق يطلق على كل منطقة اسم الثُمن[1]. وهكذا أنشئت بلديات صغيرة تحت اسم (دائرة الخدمات والمرافق) وعددها أربع عشرة دائرة موزعة على أطراف دمشق، صدرت بالقرار رقم ١٤٩/م لعام (١٩٨٢م).

٤/٣ التطوير الإداري:

إن فن الإدارة من جهة، والتشريعات الجديدة من جهة أخرى أوجبت إعداد دورات تعليمية وتدريبية لتطوير الثقافة والتجربة الإدارية عند رؤساء الدوائر والعاملين الرئيسيين. والغرض رفع مستوى الأداء وتحسين أسلوب العمل الإداري، وتطوير البناء التنظيمي في المحافظة.

ولقد قام مركز تطوير الإدارة والتنسيق بمهام إقامة هذه الدورات التعليمية. ولقد تبين أنه لابد من استمرارية التوجيه والتثقيف الإداري، فأنشئ في المحافظة إدارة تحت اسم مكتب تطوير الإدارة.

٤- دور المنظمة العربية للمدن

١/٤ ندوة دبي (١٩٩٤م):

لقد اهتمت المنظمة العربية للمدن بإثارة الانتباه إلى التحديات القائمة والمقبلة في مجال التطوير الحضري والتقني، وصدرت عن مؤتمراتها التوصيات اللازمة، وخصصت ندوة علمية في دبي عام (١٩٩٤م) لبحث المشاكل الراهنة ووضع الخطط اللازمة لتطوير أنظمة المدن.

ولقد تولى المعهد العربي لإنماء المدن، وهو الجهاز العلمي الفني الاستشاري المتخصص للمنظمة، بجمع الآراء والدراسات اللازمة لتعبئة حملة تطويرية عمرانية انطلاقاً من مقررات الندوة في دبي.

٢/٤ مجلة المدينة العربية:

لقد قامت مجلة المنظمة (المدينة العربية) بنشر أبحاث علمية سلطت الأضواء على المشاكل الصعبة التي تجابه المدينة العربية، مثل مشكلة التضخم الحضري والسكاني والاقتصادي والعمراني ومشكلة التلوث ومشاكل السيارات، والطرقات، وحماية التراث العمراني

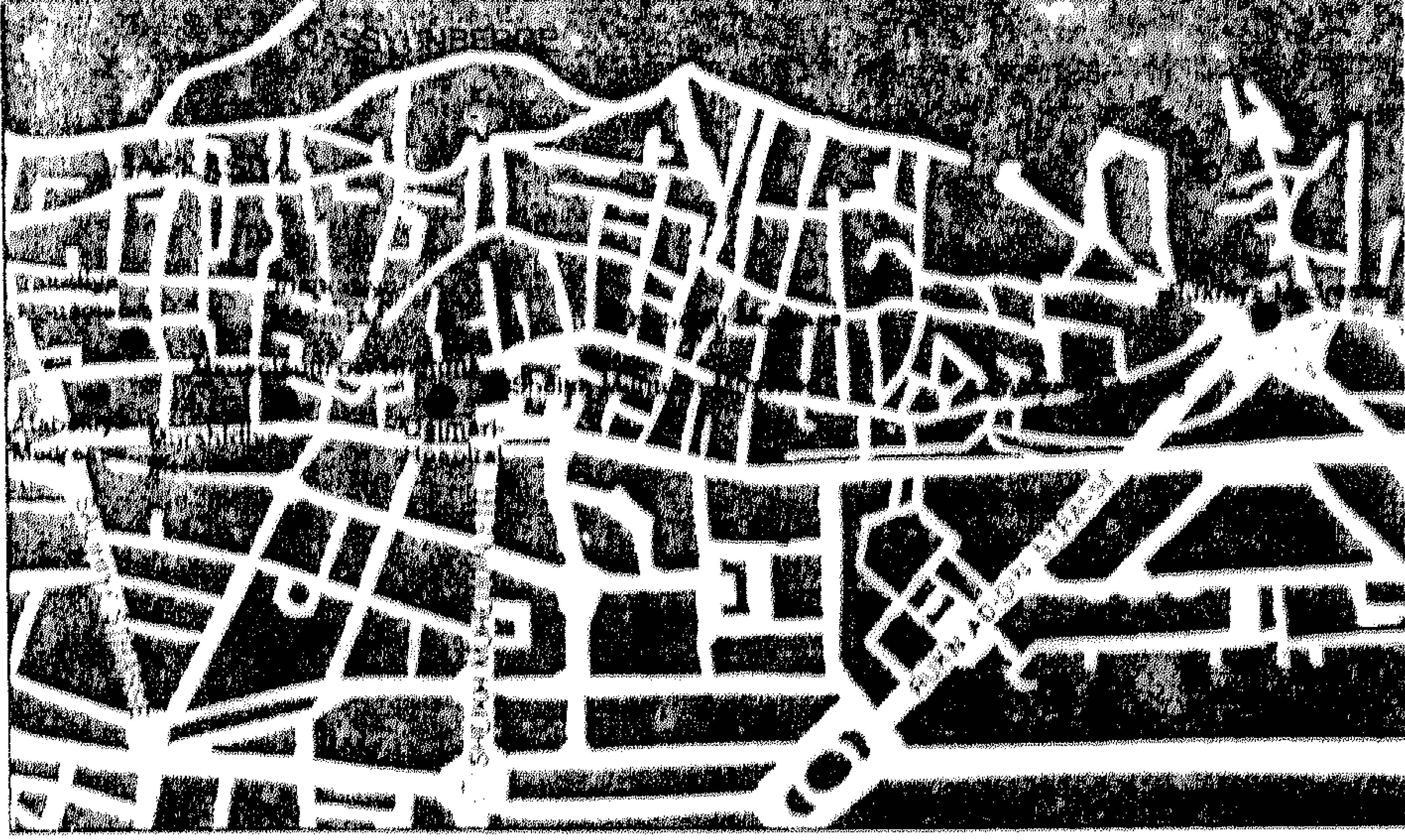
وجميع هذه الدراسات هي مادة مرجعية تساعد على إيضاح صورة الواقع المتردي وأخطاره، وعلى بيان الطرق العلمية المساعدة على تصحيح هذا الواقع.

٣/٤ اقتراحات:

وفي هذه الندوة تمت الموافقة على

---

(١) فخر الدين بن عساكر : صاحب كتاب تاريخ دمشق (تاريخ ابن عساكر) ويقع في ثمانين مجلداً نشر بعضه.



الصالحية ـ ركن الدين

اقتراحاتنا التالية:

١- نشر جميع الدراسات والأبحاث التي قدمت في ندوة دبي (١٩٩٤م).

٢- الطلب إلى جميع المدن الأعضاء تقديم تصوراتها وخططها المستقبلية.

٣- الاتفاق على قواعد أساسية لتخطيط المدن الجديدة.

٤- الإلحاح المستمر على هوية أصلية للعمارة العربية.

٥- تقديم قروض ومساعدات لترميم الأحياء والمباني القديمة.

٦- فتح سجل أثري لتسجيل المدن والأحياء والمباني القديمة والتاريخية على غرار ما تفعله منظمة اليونسكو.

٧- الإعداد لندوة موضوعها، نقص الطرقات ودور الأنفاق والمترو في المدينة العربية.

٨- دعم وتطوير جوائز المنظمة المعمارية والتراثية.

٥- الخاتمة واقتراحات لوضع أسس ومخطط تنظيمي جديد لمدينة دمشق في عصر الدولة الإلكترونية

تشهد المدينة العربية أكثر من غيرها، تحديات حضرية مكثفة ومتزايدة مع السنين، وكان لابد من تطوير هذه المدينة لكي تنسجم مع التطور الحديث، ولم يكن الأمر سهلاً لأن أكثر المدن العربية، قديمة تاريخية، لايمكن العبث بنسيجها العمراني وتعديلها لأضمن خطة حذرة جداً. أما الأقسام الحديثة من المدن، أو المدن الحديثة كمدن دول الخليج، فإنها أقدر على استيعاب التطوير التقني والآلي.

ومع ذلك فإن الزيادات السكانية التي تمت بنتيجة التكاثر والهجرة. وكثافة السيارات في المدينة. وتصاعد الفعاليات الاقتصادية وبخاصة الصناعية وما يسببه

هـذا كـلـه مـن أضـرار وتجاوزات ومـطـالب طارئة، دفع المسؤولين في المنظمات العربية والمؤسسات الإدارية والبلدية الوطنية، إلى تقديم الخطط والمشاريع التي تخفف أو تصحح الخلل العمراني والاجتماعي في المدن العربية.

وتتجه الدراسات كلها إلى ضرورة إعادة النظر بالمخططات التنظيمية للمدن العربية وتعديلها على ضوء تشكل الدولة الإلكترونية. ولقد استفدنا في هذه الدراسات من تلك الآراء، وفيما يلي نقدم اقتراحات نضيفها إلى أفكارنا التي فصّلنا الحديث عنها لتكون دليلاً عند وضع المخططات العمرانية العتيدة في دمشق.

أ- الاهتمام بالثوابت الحضرية التاريخية والتقليدية

١- دراسة الطابع التاريخي والحضاري لكل مدينة عربية على حدة، نظراً لتنوع هذا الطابع.

٢- وضع منطلقات تكيف المدينة الحديثة مع المدينة التقليدية.

٣- العناية بعمليات الحماية والصيانة للممتلكات الثقافية وفق خطة علمية.

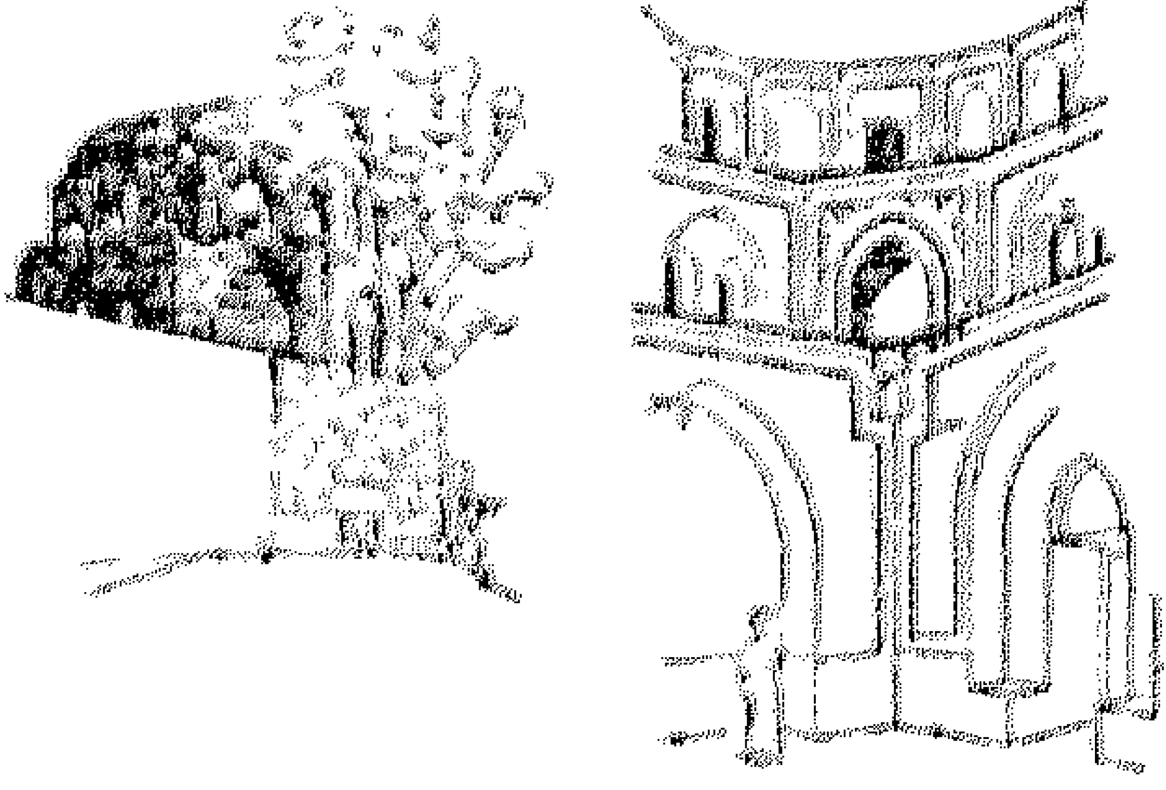
٤- التعاون مع المنظمات المعنية والتقيد بالاتفاقيات والأنظمة.

ب- دراسة الناحية الديموغرافية وإيجاد التوازن السكني

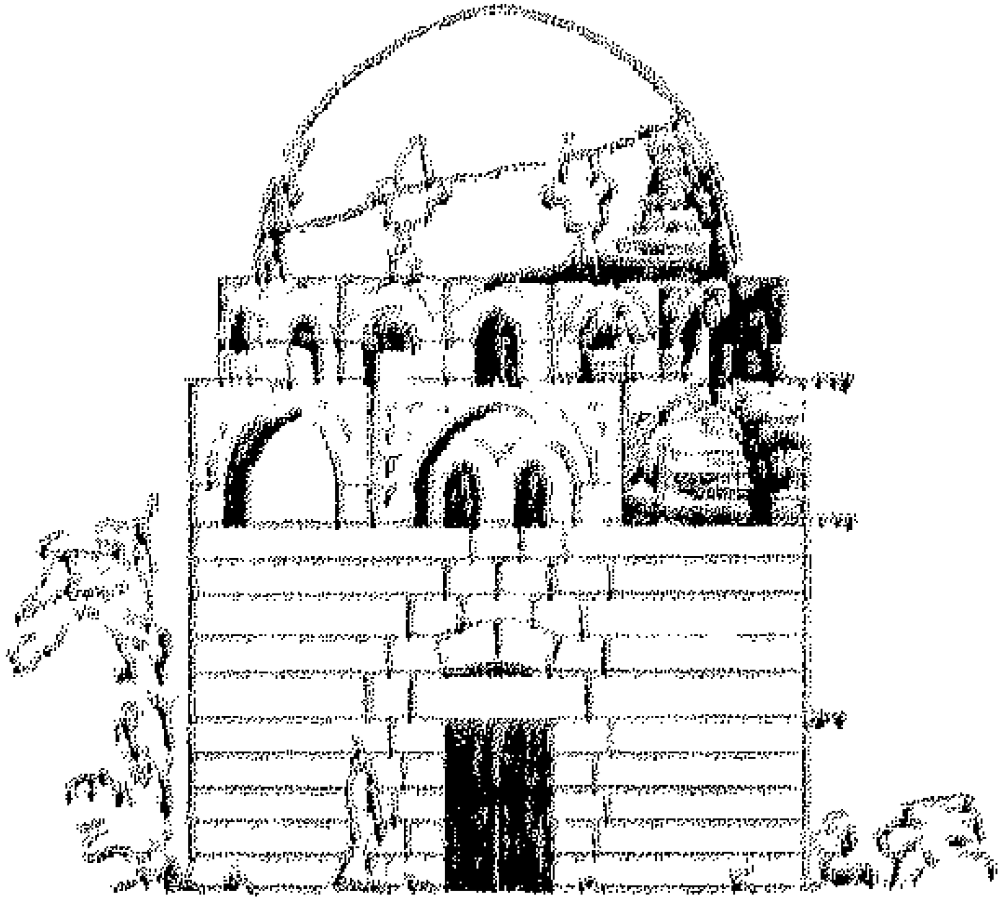
١- دراسة أسباب التزايد السكاني ووضع خطة لتنظيمه. ٢- تنظيم الهجرة الداخلية والخارجية.

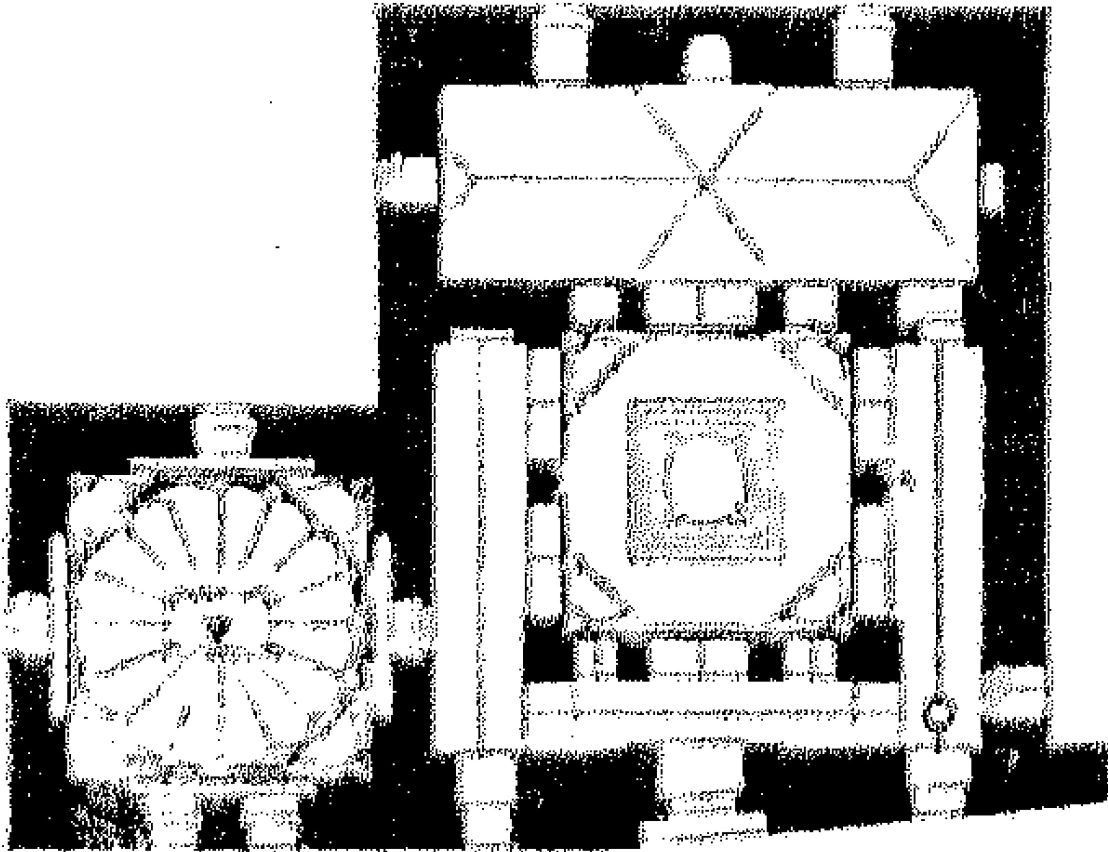
٣- تحقيق التوازن الديمراغرافي والحضري بين المدن.

٤- تطوير القرية الزراعية والاعتناء بالمناطق السياحية والترفيهية، ذات الإشغال الموسمي.



مباني الصالحية





القبة التكريتية

جـ- التصورات المستقبلية ووسائل التطبيق

١- تحديد إشكاليات الواقع الحضري.

٢- تحديد الحلول والآمال.

٣- إعداد الوسائل والخطط أو الميزانيات لتحقيق الهدف التخطيطي.

د- التحديات المستقبلية خلال القرن الجديد

١- المحافظة على الأصالة المعمارية في المنشآت العامة والخاصة وفي تخطيط المدن.

٢- توجيه الإنشاء العمراني الحديث بعيداً عن المدينة القديمة.

٣- وضع خطط للمدينة الحديثة.

هـ- تطوير المدينة الصغرى والقرية

١- تحديد المدن الصغرى المؤهلة للتوسع ووضع خطة التوسيع.

٢- تعزيز الحياة الحضرية في القرية ضمن الوظيفة الزراعية الأصلية للقرية.

٣- العناية بالمناطق الخضراء وزيادتها ومقاومة التصحر وقطع الشجر

٤- تحديد القرى المؤهلة لكي تصبح مدناً صغرى ووضع خطة حضرية وزراعية لها.

و- مقاومة التحديات الإمبريالية والاستهلاكية

١- دراسة البدائل الطبيعية وقليلة الكلفة والمحلية للمواد والأدوات والوسائل.

٢- مقاومة التلوث بجميع أشكاله ومنع المبيدات.

٣- العودة إلى المواد الإنشائية الطبيعية (الطين - الحجر - الخشب) والاستغناء عن المواد المستوردة ما أمكن.

٤- الاهتمام بوسائل التكييف والصحة التقليدية والاستغناء ما أمكن عن الوسائل الكهربائية المكلفة وغير الصحية.

٥- تنظيم المرور والطرقات والعناية بالأنفاق لتسيير القاطرات السريعة (المترو).

٦- العناية بالطرقات والأحياء المخصصة للمشاة وتحديد مرور السيارات في الأحياء القديمة[1].

---

(١) في سلسلة عالم المعرفة الكويتية ، يمكن الرجوع إلى مصادر عامة تفيد مواضيع هذا البحث .

جاك لوب : العالم الثالث وتحديات البقاء - عالم المعرفة ١٠٤ الكويت .

أنطونيوس كرم : العرب أمام تحديات التكنولوجيا - عالم المعرفة ١٠٤ الكويت .

محمد عمارة : العرب و التحدي - عالم المعرفة ٢٩ الكويت .

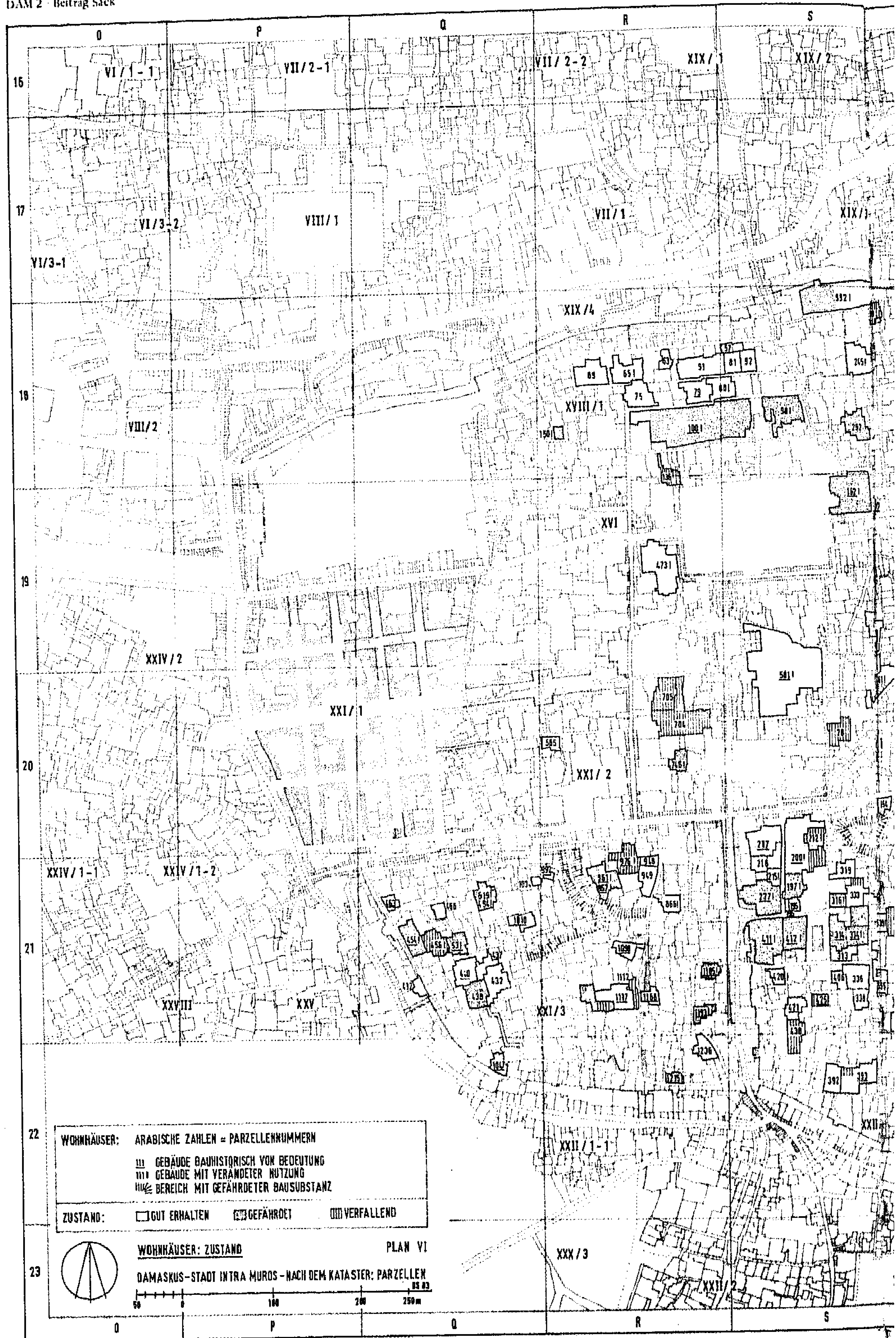
رشيد الحمد (محمد سعيد صباريتي) - البيئة ومشكلاتها عالم المعرفة ٢٢ الكويت .

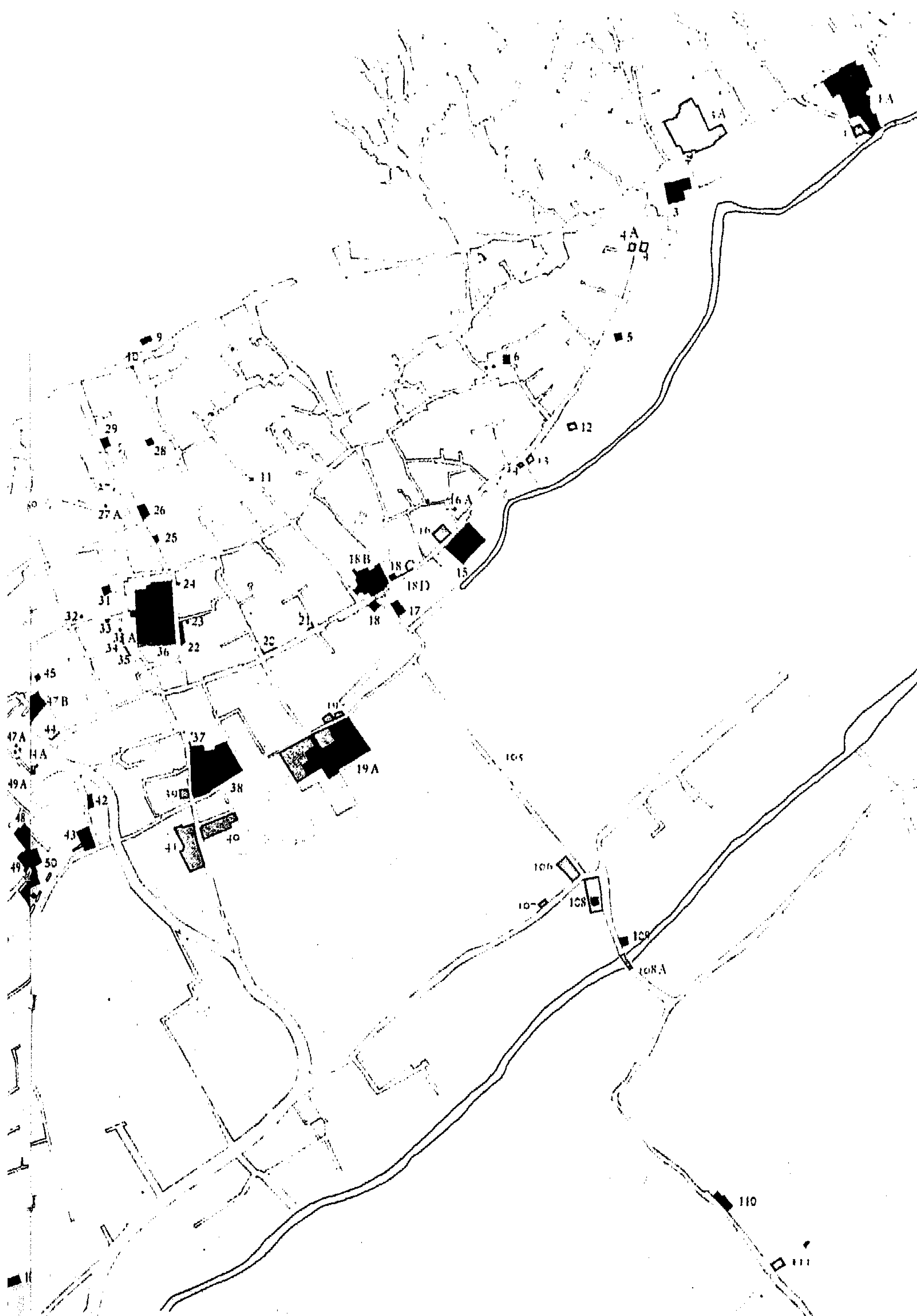
الملاحق

- موقع أهم مباني دمشق القديمة مثبتة على مخطط (دوروتي ساك).
- أهم المباني الأثرية في الصالحية مثبتة على مخطط (ماينكه)
- أهم المباني الدمشقية عبر التاريخ
- المراجع
- المحتوى



T
U
V
W
X
16
17
18
19
20
21
22
23
XX / 3
XX / 6
XV / 2
XX / 2
XX / 1
XV / 3
XVII
X / 5
XIV
IX
XII / 1
X / 1
X / 2
X / 3
XII / 2
XI / 2
XI / 1
X / 4
XIII / 2
XXII
XXIII
XXIII
T
U
V
W
X


O
P
Q
R
S
16
17
18
19
20
21
22
23
VI / 1 - 1
VII / 2 - 1
VII / 2 - 2
XIX / 1
XIX / 2
VI / 3 - 2
VIII / 1
VII / 1
VI / 3 - 1
XIX / 4
XVIII / 1
VIII / 2
XVI
XXIV / 2
XXI / 1
XXI / 2
XXIV / 1 - 1
XXIV / 1 - 2
XXVIII
XXV
XXI / 3
XXII / 1 - 1
XXX / 3
WOHNHÄUSER: ARABISCHE ZAHLEN = PARZELLENNUMMERN
GEBÄUDE BAUHISTORISCH VON BEDEUTUNG
GEBÄUDE MIT VERÄNDETER NUTZUNG
BEREICH MIT GEFÄHRDETER BAUSUBSTANZ
ZUSTAND: GUT ERHALTEN GEFÄHRDET VERFALLEND
WOHNHÄUSER: ZUSTAND
PLAN VI
DAMASKUS-STADT INTRA MUROS - NACH DEM KATASTER: PARZELLEN
50 0 100 200 250m



3
4A
5
6
9
10
12
13
15
16
16A
17
18
18B
18C
18D
19
19A
20
21
22
23
24
25
26
27A
28
29
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
47A
47B
48
49
49A
50
105
106
108
108A
109
110

D



64
64 A
47 A
49 B
49 A
48
61 A
63
65
66
62
49
52
61
53
53 A
60
59
54 A
54 B
67
67 A
58
56
55
54
78
68
71
69
72
73
74
104
76
86
103
102
81
84
[85]

مواقع أهم المباني الأثرية
حسب مخطط (دوروتي ساك)

١- منطقة البحصة والسنجقدار VII / 1

VII / 1	قلعة دمشق	سلجوقية - أيوبية	(أثري - ١٢).
VII / 1	باب الفرج	٥٤٩هـ / ١١٨٤م	(أثري - ٩).
٢- القيميرية	القيميرية IX		
1 X / 27	مدرسة الشيخ عبد الله	؟	
1 X / 42	جامع العمادي	ق / ١٢.	
1 X / 44	جامع وحمام البكري الحمام ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م/ المسجد ١٠٦٩هـ/١٦٥٨		
1 X / 54	بيت السادات	النصف ١ق / ١٩	
1 X / 70	بيت عناية	النصف ١ق / ١٩	
1 X / 84	بيت السفرجلاني	ق / ١٨ (٧٩)	
1 X /103	حمام القيمرية	منتصف / ١٩	(أثري ١٣٤)
1 X /123	بيت الصواف (القاعة)	منتصف / ١٩	
1 X /124	بيت صالح المحايري	منتصف ١ / ١٩	
1 X / 131	ق / ١٩ - ٢٠	رقم ١٩٥٢	(أثري ١٠٦)
1 X / 133	مسجد ومدرسة القيمرية الكبرى مملوكي وتسمى مدرسة القطط (أثري ١٨٢)		
1 X / 158	بيت بهلول	ق / ١٩	(٣٣)
1 X / 160	بيت القدسي	١٢٨٧هـ / ١٨٧٠	(٢٠)
1 X / 212	باب السلام	٥٦٧هـ / ١١٧١ رقم ٦٤١هـ / ١٢٤٣	(أثري)
1 X / 917	طاحون باب السلام	عثمانية	(أثري)
1 X / 235	بيت النابلسي	١١٩٣هـ / ١٧٧٩م أقام فيه فوزي الغزي	
1 X / 252	بيت المجلّدنهاية ق / ١٨		(أثري ١٤٢)
1 X / 272	بيت بشير الخانجي / العظمة نهاية ق / ١٩		
1 X / 275	بيت السمان	النصف ٢/ ١٩	(أثري ١٩٤)
باب توما XI			
X / 1	باب توما	٦٢٥هـ / ١٢٢٧م	(أثري ٥)
X / 1 - 36	برج الصالح أيوب	٦٤٦ / ١٢٤٨	(أثري ٣)
X / 1 - 87	بيت الشطة	النصف ٢ / ق ١٩	

X / 1 - 66	بيت صارحي	ق ١٩
X / 1 - 160	بيت عبد الله البدري	النصف ٢ ق ١٩
X / 1 - 170	جامع السادات (الأقصاب)	١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م
		رمم ١٢٧٧هـ / ١٩٦٠م
X / 1 - 183	بيت أنطون ناقوس	(٦٢)
X / 1 - 25	كنيسة حنانيا	(أثري ١٤)
X / 1 - 278	جامع العمري / العمارة ١١٢٥هـ / ١٧١٣م (أثري)	
X / 1 - 280	بيت شلهوب	النصف الثاني / ق١٩
X / 1 - 307	بيت الجناوي	
X / 1 - 323	بيت الأسبان (دادا)	النصف الثاني / ١٩
X / 1 - 324	كنيسة الفرنسيسكان ق. ٩-٢	
X / 2 - 339	بيت أنطون فرنجيه (المساميري) نهاية - ق١٨	
X / 2 - 348	كنيسة البروتستان نهاية ق١٩	
X / 2 - 354	بيت الخطيب	النصف الأول ق١٩
X / 2 - 397	بيت شامية	النصف الثاني ق١٩
X / 2 - 471	كنيسة ومدرسة يوحنا الدمشقي	ق ٢٠
X / 2 - 494	بيت العجمي	النصف الثاني ق١٩
X / 2 - 500	بيت النمساوي	نهاية ق ١٩
X - 2 - 505	بيت عبد النور	
X / 2 - 508	بيت عريضة	ق١٩
X / 2 - 518	بيت قبوات	النصف الثاني ق١٩
X / 2 - 524	بيت الزيات	
X / 2 - 556	جامع ورباط / أبو البيان	٥٥١هـ / ١١٥٦م
		المئذنة ٧٨٢هـ / ١٢٨٠
X / 2 - 578	بيت كسّاب	النصف الثاني ق١٩
X / 3 - 742	خان باب الشرقي	
X / 3 - 773	بيت النعسان	ق١٩ (٦١)
X / 3 - 779	الباب الشرقي	روماني (أثري ٤)
X / 4 - 787	بيت عزت الشاوي	النصف الأول ق١٩ (٢)
X / 4 - 815	بيت قبوات	
X / 4 - 837	باب كيسان	٧٦٥هـ / ١٣٦٣م (أثري)
قظ الخراب		
X1 / 2 - 119	بيت فارحي	النصف الثاني ق١٩
X1 / 2 - 120	بيت فارحي / دحداح	ق١٨ (٧٧)
X1 / 2 - 121	كنيس (أثري)	
X1 / 2 - 140	بيت توفيق الشطة	ق١٨
X1 / 2 - 156	جامع الأحمر	رمم ١٩٧٩ - ١٩٨١
X1 / 2 - 259	المكتب القديم	ق١٧
X1 / 2 - 268	بيت لنغادو	النصف الأول ق١٩ (أثري ١٩٥)

X1 / 2 - 277	بيت فارحي /	المعلم ق١٨
X1 / 2 - 323	قوس الخراب	روماني (أثري ١٢٦)
X1 / 1 - 467	بيت ماري قطاش	النصف الثاني ق١٩ ٧٣
X1 / - 494	بيت ليشبونا	ق١٨ (أثري ١٩١)
XII	كنيسة القديسة مريم	ق١٩ - ٢١
X11 / 1 - 53	بيت القدسي	ق١٩ - ٢١
X11 / 1 - 63	بيت المرادي	النصف الأول ق١٩ / هدم
X11 / 1 - 94	بيت الخرسا	النصف الثاني ق١٩ (٧١)
X11 / 1 - 98	المدرسة القيمرية الفاتحية	١١٥٦هـ / ١٧٤٣م (أثري ١٦٤)
X11 / 1 - 204	جامع السفرجلاني	١١٠٩هـ / ١٦٩٧م
	زاوية الجباوي ق ١٧ - ١٨	
X11 / 2 - 215	المئذنة البيضاء / عيسى /	الشرقية أموية وأيوبية (أثري ٢١٧)
X11 / 2 - 262	بيت دلوق	نصف ١ ق١٩
X11 / 2 - 269	جامع حي الأمين	؟
X11 / 2 - 276	خان جلود	؟
X11 / 2 - 281	بيت العظم	النصف الأول ق١٩ (٨٣)
X11 / 2 - 282	جامع تحت القناطر	؟
X11 / 2 - 297	بيت يوسف أفندي عنبر	منتصف الأول ق١٩ (٨٣)
	مكتب عنبر	
X11 / 2 - 324	جامع الإصلاح	؟
X11 / 2 - 345	جامع الحسينية / علي بن أبي طالب	ق٢٠
X111 / 1 - 63	جامع القادري / السفرجلاني	منتصف ق١٧
X111 / 1 - 147	بيت النقار	النصف الثاني ق١٩
X111 / 1 - 157	بيت السعّيد	النصف الثاني ق١٩
X111 / 1 - 169	جامع الشلاح / حبالين المئذنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٨ المسجد ق٢٠ (١٩)	
X111 / 1 - 200	بيت حمدان	ق١٨
X111 / 1 - 212	بيت الصواف	النصف ٢ ق١٩ (٣٤)
X111 / 1 - 214	مدفن الولي السباعي	؟
X111 / 1 - 215	بيت العيطة	النصف ٢ ق١٩
X111 / 1 - 216	بيت جبري	النصف ٢ ق١٩ (أثري ١٣٥)
X111 / 1 - 217	بيت الخطيب	نهاية ق١٨
X111 / 1 - 227	بيت أحمد السباعي ١١٨٣هـ / ١٧٦٩م مستملك (أثري ١٢٧)	
X111 / 1 - 281	مدفن معاوية الصغير	؟
X111 / 1 - 282	مسجد المدرسة القليجية	٦٤٥هـ / ١٢٤٧م (أثري)
X111 / 1 - 295	خان الصواف	؟
X111 / 1 - 314	بيت نظام	ق١٩ مستملك (٧٤) (أثري)
X111 / 1 - 319	بيت اللحام	نهاية ق١٨
X111 / 1 - 351	بيت القباني / قصاص	نهاية ق١٨ / معدل
X111 / 2 - 352	حمام الناصري	ق١٤

363 - 2 / X111	جامع الإمام	؟	
394 - 2 / X111	بيت البيبلي / دلول	؟	
411 - 2 / X111	بيت القوتلي	نهاية ق١٨	
412 - 2 / X111	بيت القوتلي	النصف ٢ ق١٩	
425 - 2 / X111	بيت الغنام	النصف ٢ ق١٩	
509 - 2 / X111	بيت شمعايا	النصف ١ ق١٩	(أثري)
526 - 2 / X111	بيت أحمد نظام	النصف ٢ ق١٩	
261 - 2 / X111	قصر أسعد باشا	١١٦٣هـ / ١٧٤٩م	
XIV	الجورة		
VIV	باب السلام وباب توما		(أثري)
X17 - 1	حمام الجورة / رسلان	ق١٩ / ٢٠	
XIV - 12	جامع الشيخ رسلان النصار	٥٤٠هـ / ١١٤٥م	(أثري)
XIV - 13	جامع عبد الرحمن الفرج	المئذنة ق١٧ – ١٨م	
XVI	باب البريد		
XVI - 12	جامع العصرونية	ق٢٠	
XVI - 53	المدرسة العادلية الصغرى	٦٦٩ / ١٢٧٠م	(أثري ١١١)
XVI - 118	المدرسة الصادرية ومسجد	٤٩١هـ / ١٠٩٧م هدمت	
XVI - 118	المدرسة البلخية ومسجد	٥٢٥هـ / ١١٣٠م	
XVI - 144	المدرسة العزيزية ومدفن صلاح الدين	٥٩٢هـ / ١١٩٥	(أثري ٢٢)
XVI - 150	المدرسة الجقمقية ومدفن	٨٢٢هـ / ١٤١٩م	(أثري ٤٤)
XVI - 156	الجامع الأموي	٨٦ – ٩٦هـ / ٥٠٧ – ٥١٧	(أثري)
- 157	المدرسة السميساطية	٢٠٧	
XVI - 158	المدرسة الإخنائية / الرشائية	٨١٦هـ / ١٤١٣	(أثري)
XVI - 162	بيت العجلاني / قصر جيرون	ق١٨ – ١٩	
XVI - 235	حمام النوورة	ق١٧ – ١٨	
XVI - 269	دار الحديث النورية	٥٦٦هـ / ١١٧٠م	(أثري ٧٥)
XVI - 305	مدرسة سليمان باشا العظم	١١٥٠هـ / ١٧٣٧م	(أثري ١٧٠)
XVI - 315	المدرسة الظاهرية	(القاعة) ق١٧ – ١٨	(أثري ١٢٨)
XVI - 327	بيمارستان نور الدين	٥٤٩هـ / ١١٥٤م	(أثري ١٧)
VIX - 357	المدرسة المجاهدية / الحجازية	٥٢٩هـ / ١١٣٤م	(أثري)
XVI - 358	خان الزعفرنجية	ق١٩	(أثري)
XVI - 372	خان الجمرك / بازستان مراد باشا	١٠١٧هـ / ١٦٠٨	(أثري)
XVI - 373	خان شيخ قطنا	ق١٨ – ١٩	(أثري ٩٢)
391 - 364 XVI	خان المرادية	ق١٦ – ق٢٠	
393 - 394 XVI	خان الحرير / درويش باشا	٩٨١هـ / ١٥٧٣	(أثري)
XVI - 399	خان التوتون	ق١٨ – ١٩	(أثري ١٦٧)
XVI - 404	المدرسة الأمينية	٥١٤هـ / ١١٢٠	
XVI - 450	الحرمين / الجوار	النصف ٢ ق١٩	
XVI - 474	بيت شيخ قطنا	النصف ١ ق١٩	

XVI - 478	حمام القيشاني	ق١٦ - ١٩ (أثري ١٤١)	
XVI - 487	خان الصدراني	منتصف ق١٨	(أثري ١٦٦)
XVI - 530	سوق الصاغة منتصف ق١٨		
X VIII	عمارة جوانية		
X VII / 1	بين باب الفرج وباب الفراديس ٥٤٩ - ٥٦٩هـ / ١١٥٤- ١١٧٩م(أثري١٠)		
X VIII / 1 - 5	جامع العمارة / المدرسة العمري ٧٢هـ / (١٣٢ مكرر)		
X VIII / 1 - 49	جامع باب الفرج ق١٩ - ٢٠		
X VIII / 1 - 57	بيت محمد النحلاوي	؟	(٧٨ مكرر)
X VIII / 1 - 63	بيت البزرة	؟	
X VIII / 1 - 81	بيت أبو رياح	النصف ٢ ق١٩	(٥٩)
X VIII / 1 - 92	بيت الجزائري	النصف ٢ ق١٩	
X VIII / 1 - 100	بيت السمان / مرادي / القوتلي نهاية ق ١٨ (أثري ١٩٤) (٧)		
X VIII / 1 - 100	حمام الملك الظاهر / العقيقي ٣٦٨هـ / ٩٧٨م		
X VIII 1 - 102	الظاهرية مدفن ومدرسة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧ (أثري ٣٠)		
X VIII / 1 - 107	حمام السلسلة	ق١٢ - ١٣ (أثري)	
X VIII / 108	المدرسة العادلية الكبرى ٥٦٨هـ / ١١٧٢ (أثري ٢٤) .		
X VIII / 1 - 130	حمام المناخلية	ق١٨ - ١٩	
X VIII / 1 - 170	مقام السيدة رقية	أيوبي جدد كلياً ١٩٨٧	
X VIII / 1 - 200	جامع الكتّاب	مملوكي (أثري ١٥٨)	
X VIII / 1 - 204	بيت الحلبي	نصف ٢ ق١٩ (١٠٤)	
X VIII / 1 - 226	بيت صادق الدبسي	نصف ٢ ق١٩ (٦٩)	
X VIII / 1 - 253	المدرسة المقدَّمية	٥٨٣هـ / ١١٨٧	
X VIII / 1 - 262	المدرسة الناصرية	٦٥٣هـ / ١٢٥٥م	(أثري ١٠٢)
X VIII / 2 - 275	مسجد - مدرسة - البدرية	٥٦٦هـ / ١٢٢٧م	(أثري ١٠٣)
X VIII / 2 - 242	بيت سقا أميني	مملوكي (أثري ١٣١) مستملك	
X VIII - 2 - 356	حمام سامي / أسامة	٦٠١هـ / ١٢٠٤م	(أثري)
X VIII / 2 - 356	تربة معاوية بن أبي سفيان -	جدد ٦٥٠ / ١٢٥٢م (أثري ١٢٣)	
X VIII / 2 - 48	بيت القوتلي	ق١٨	مستملك
X VIII / 2 - 411	بيت جبري	النصف٢ ق١٩	(أثري ١٥٣)
XIX	عمارة برانية		
®áX 3 - 984	باب الفراديس / العمارة	٦٣هـ / ١٢٣٢م	(أثري ١٠)
XIX - 3 - 992	بيت عبد القادر الجزائري	نهاية ق١٨	
XIX - 3 - 989	المدرسةالمجاهدية	٥٣٩هـ / ١١٤٤م	
XXI	شاغور جواني		
XXI / 1 - 90	جامع الأحمدية	٩٤٤هـ / ١٥٣٧م	
XXI / 1 - 307	باب الجابية	روماني	
XXI / 1 - 355	سبيل سيدي شركس الحربة	٨٠٧هـ / ١٤٠٤م	
XXI / 1 - 382	مئذنة القلعي	١٤٧٠هـ	
XXI / 1 - 418	برج نور الدين	٥٦٩هـ / ١١٧٣م	

XXI / 1 - 432	بيت القباني	النصف١ ق١٩	
XXI / 1 - 436	بيت أحمد السعّيد	نصف٢ ق١٩	(٤)
ßXI / 1 - 438	XXI / 1 - 4540 بيت العلوي / السباعي	نصف١ ق١٩	
XXI / 1 - 488	خان سوق القطن؟		
XXI / 1 - 531	بيت البارودي	نصف١ ق ١٩	
XXI / 1 - 560	خان الدكّه؟		
XXI / 1 - 681	خان الزيت	ق١٦	(أثري ١٦٨)
XXI / 1 - 592	المحكمة الشرعية	١٢٢٨هـ / ١٨١٣م	
XXI / 1 - 626	خان جقمق	٨٢١هـ / ١٤١٨م	
XXI / 1 - 645	المدرسة النورية الكبرى	٥٦٣هـ / ١١٦٧م	(أثري ١٩)
XXI / 2 - 646	المدرسة النجيبية	٦٦٥هـ / ١٢٦٨م	(أثري ١٩)
XXI / 2 - 649	التربة الكوكبائية (النحلاوي)	٧٣٠هـ / ١٣٣٠م	(أثري ٨)
XXI / 2 - 659	مدرسة عبد الله باشا العظم	١١٩٣ / ١٧٧٩م	(أثري ١٤٧)
XXI / 2 - 597	سوق الخياطين	ق١٨	(أثري ١٤٦)
XXI / 2 - 671	خان الجوجية	(أثري ١٤٦)	
XXI / 2 - 672	حمام الخياطين	١٧٣٠	(أثري ١٤٦)
XXI / 2 - 681	جامع الخياطين / مدرسة أسعد باشا	١١٣١هـ / ١٧١٨م	(أثري ١٤٦)
XXI / 2 - 756	خان الصنوبر الفوقاني	ق١٨	
XXI / 2 - 716	حمام البزورية (نور الدين)	٥٤٩هـ / ١١٥٤	(أثري ١٨)
XXI / 2 - 795	خان أسعد باشا	١١٦٦هـ / ١٧٥٢م	(أثري ٥٧)
XXI / 2 - 806	خان الرز ق١٨		
XXI / 2 - 875	خان سليمان باشا	١١٤٥هـ / ١٧٣٢	(أثري ٧٩)
XXI / 2 -802	دار الحديث التنكزية / العثمانية	٧٢٨هـ / ١٣٢٧م	(أثري ٧٩)
XXI / 2 - 902	مسجد الرشادية / النبهان	١٣٠٧هـ / ١٨٨٩م	
XXI / 2 - 923	جامع ومئذنة هشام	٨٣٠هـ / ١٤٢٦م	(أثري ٤٥)
XXI / 2 - 937	بيت حورانية	نهاية ق١٨ (أثري ١٣٢)	
XXI / 2 - 970	بيت زينب / فواز	ق١٨	(أثري ١٣٣)
XXI / 2 - 1017	مسجد ومدرسة الحيدرية	٨٧٨هـ / ١٤٧٣م	(أثري ١١٠)
XXI / 3 1050	برج المدينة		
XXI / 3 - 1068	جامع الياغوشية	١٠٠٥هـ / ١٦٩٣م	(أثري ١٦٥)
XXI / 3 - 1106	طاحون السجن (السياغوشية) ق١٢		
XXI / 3 - 1112	بيت الصفدي نصف١ ق١٢		
XXI / 3 - 1117	بيت رضا باشا الركابي	نصف١ ق١٩	
XXI / 3 - 1185	بيت الطيبي	نهاية ق١٨	
XXI / 3 - 1195	بيت الحلواني	١٢٢١هـ / ١٨٠٦م	(أثري ١٤٥)
XXI / 3 - 1239	زاوية الصمادية	٩٢٦هـ / ١٥٢٠م	(أثري ٢١٨)
XX11 شاغور براني			
XXII / 1 - 106	باب الشاغور / الصغير	٥٥١هـ / ١١٥٦م	(أثري ٧)
مدينة دمشق القديمة			(أثري ١٧٤)

أهم المباني الأثرية في الصالحية ومواقعها على مخطط (ماينكه)

٣- المدرسة الركنية: ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م ركن الدين منقورس الفلكي أيوبية مسجلة أثرياًرقم٦٢

٣ / آ- بيت شمدين آغا: القرن ١٩ نقلت أهم خشبياته وبلاطاته إلى القاعة الدمشقية عثماني

١٣ - التربة القرجية: مسجد أبي النور ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م أيوبي

١٦- التربة الصاوية: شهاب الدين محمد الصاوي مسجلة برقم ١٤٩

١٥- المدرسة الصاحبية: ٦٢٨ هـ/١٢٣٢م لربيعة خاتون أيوبية مسجلة برقم ٦٦

١٨- تربة ابن سلامة الرقي: ٦١٠ هـ/١٢١٣م أيوبية عبدالله الحسن ابن سلامة مسجلةرقم٩٧

١٨ / ب- بيت أجليقين: ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م عابد محمود بيك عثماني

١٩/آ - جامع عبد الغني النابلسي: ١١٤٣هـ/١٧٣١م عثماني مسجل برقم ١١٧

٢١- مسجد الطشتدار: ٦٣٧ هـ/١٢٤٠م عبد الرحمن الطشتدار أيوبي مسجل برقم ١٥١

٢٤- المدرسة الضيائية: ٦٤٣ هـ/١٢٤٥م ضياء الدين محمود القدسي أيوبية مسجلة برقم ١٥٢

٢٥- التربة الكنجية: ٦٥٢ هـ/١٢٥٤م صالح الكنجي أيوبية مسجلة برقم ١٥٣

٢٦- تربة ست ياسمين: ٧٠٣ هـ/١٣٠٣م مملوكية أنشأها عز الدين أيبك الحموي

٢٨- تربة ابن نجدة: ٦٠٢هـ/١٢٠٥م عبد الرحمن بن نحدة مسجلة برقم ١٥٤

٢٩- تربة غبرلو: ٧١٩هـ/١٣١٩م سيف الدين غبرلو مسجلة برقم ١٢٠

٣١- تربة إينباك: القرن ٧هـ/١٣م أيوبية مسجلة برقم ١٥٥

٣٢- التربة الصارمية: ١٢١٤م ثم ٧٠١هـ/١٣٠١م صارم الدين برقش العادلي مسجلة برقم١٧٢

٣٥- التربة النظيفية: ٦٠٢ هـ/١٢٠٦م أيوبية محمد بن علي نظيف مسجلة برقم ١٥٧

٣٦- الجامع المظفري: ٦٠٤هـ/١٢٠٨م أيوبي مظفر الدين غوكبري أيوبي مسجل برقم ٦١

٣٨- المدرسة العمرية: ٦٠٧هـ/١٢١٠م أيوبية الشيخ أبو عمر محمود المقدسي أيوبي مسجل برقم ٥٨

٣٩- مسجد عز الدين: ٥٦٩هـ/١١٧٤م أيوبي

٤٢- المدرسة القاهرية: ٦٣١هـ/١٢٣٣م أيوبية القاهر اسحق مسجلة برقم ١٥٩

٤٣- دار الحديث وخانقاه القلانصية: ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م مملوكية عز الدين حمزة القلانصي

٤٤- مسجد سراقة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م السلطان المملوكي العادل طومان باي مسجلة برقم ١٥٨١

M. Meincke Der Survey des Damaszener Alstadrivrtels as-Salihia Tefln 54-56
Damaszener Mittei lungen PP.212-236 Sand 1-1983

٤٨- التكية السليمية: ٩٢٤ هـ/١٥١٧م عثماني السلطان سليم بن بايزيد مسجلة برقم ٥٠

٥١- البيمارستان القيمري: ٦٥١هـ/١٢٥٣م أنشأه الأمير الأيوبي سيف الدين أبو الحسن القيمري مسجل برقم ٦٧

٥٢- التربة القيمرية: ٦٥٤هـ/١٢٥٦م أيوبية مسجلة برقم ٤٨

٥٤- تربة مثقال الجمدار: ٦٢١هـ/١٢٢٤م أيوبية مسجلة برقم ١١٦

٥٦- التربة الخاتونية: ٦٨١ هـ/١١٨٥م الأميرة عصمت الدين مسجلة برقم ٥٩

٦٠- المدرسة الشركسية: ٦٣٥هـ/١٢٣٧م وتضمن مسجداً ومدفناً للأمير الأيوبي فخر الدين قركاس مسجلة برقم ٩٦

٦١- التربة العمادية ٥٦٥ هـ/١١٧١م للأمير الزنكي العمادي تتضمن مسجداً مسجلةبرقم١٢٧

٧٦- التربة الأسدية: ٦١٨ هـ/١٢٢٢م أيوبية علي ابن عبد القادر الأسدي مسجلة برقم ١٦٠

٩٦- المدرسة الأتابكية: ٦٤٠هـ/١٢٤٢م للأميرة تركان خاتون زوجة الأشرف موسى مسجلة برقم ٦٥

٧١- التربة التكريتية: ٦٩٨هـ/١٢٩٩م للوزير تونة بن علي التكريتي مسجلة برقم ٦٩

٧٢- دار الحديث الأشرفية: ٦٣٤هـ/١٢٣٧م للأشرف موسى الأيوبي مسجلة برقم ١١٤

٧٣- المدرسة المرشدية ٦٥٠هـ/١٢٥٣م للأميرة خديجة خاتون معلمة المعظم عيسى الأيوبي مسجلة برقم ١٠٠

٧٤- التربة الفرنتية: ٦٢١هـ/١٢٢٤م الشيخ علي الفرنتي أيوبية مسجلة برقم ٩٨

٨١- التربة الكجكرية: ٧٢٢هـ/١٣٢٢م للأمير كجكن المنصوري المملوكي مسجلة برقم ١١٣

٨٢- تربة أمة اللطيف: ٦٤٠هـ/١٢٤٣م أيوبية مسجلة برقم ٦٤

٨٤- قبة الريحان: ٦٤١هـ/١٢٤٤م ريحان ابن عبدالله أيوبية مسجلة برقم ١٦١

٨٩- جامع الأفرم: ٧٠٦هـ/١٣٠٧م أقوش الأفرم المملوكي

٩١- تربة كتبغا: ٧٠٢هـ/١٣٠٣م السلطان العادل كتبغا المملوكي مسجلة برقم ١١٦

٩٢- الزاوية القوامية: ٦٥٨هـ/١٢٦٠م الشيخ أبو بكر ابن القوام مسجلة برقم ١٢٥

٩٣- قبة السيار: للأمير سيار الشجاعي (؟) مسجلة برقم ٧٠

٩٦- المدرسة الأسعدرية: ٨١٧هـ/١٤١٤م ابراهيم الأسعدري

١٠٠- المدرسة الماردانية: ٦٢٤هـ/١٢٢٦ م لزوجة المعظم عيسى الأيوبي مسجلة برقم ٦٣

١٠١- المدرسة الدلامية: ٨٤٧ هـ/١٤٤٣م وفيها مدفن أحمد بن دلامة مسجلة برقم ١١٥

١٠٢- حمام العفيف: القرن ٦هـ/١٢م أزيل في منطقة العفيف

١٠٣- مسجد العفيف نفس التاريخ جدّد

١٠٤- حمام المقدم مجدد

١٠٨- المدرسة الشبلية: ٦٢٣هـ/١٢٢٦م شبل الدولة كافور الحسامي

١٠٩- المدرسة البدرية: ٦٣٨هـ/١٢٤٠م قبة مرممة مسجلة برقم ٦٠

١١٠- التربة الحافظية ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م أيوبية مسجلة برقم ٩٩

أهم المباني الدمشقية عبر التاريخ

١- العصر الآرامي: الألف الأول ق.م

- معبد حدد والقصر خلال الألف الأول ق.م لم يكتشف.
- **العصر الروماني: ق٤.**
- معبد جوبتير، وما زالت آثاره حول الجامع الأموي وفي الجدار القبلي للجامع.
- الأبواب والأسوار: ما زالت آثارها باقية، الباب الشرقي وباب الجابية الغربي وباب كيسان والباب الصغير في الجنوب وباب توما وباب الجنيق وباب الفراديس في الشمال.
- الطريق المستقيم: ولقد تم اكتشافه ومن آثاره الظاهرة قوس النصر.

٢- العصر البيزنطي: القرن ٤م

- الكنائس: زالت كنائس المصلبة والمقسلاط ومريم وبولص واليعاقبة.
- الأديرة: زالت وهي: دير مران، دير سمعان، الحوراني، النساء.
- القصور: قصر البريص الغساني.
- ولقد أقيمت كنائس بديلة وهي الكنيسة المريمية وكنيسة القديس يوحنا الدمشقي واستعمل هيكل المعبد الروماني كنيسة.

٣- العصر الأموي: ٦٦١ - ٧٥٠م

- الجامع الأموي (في قلب المدينة) هو في موقع المعبد أنشأه الوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٥م.

٤- العصر السلجوقي ونور الدين ١٠٧٥ - ١١٧٤م.

- قلعة دمشق: أنشئت سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م.
- البيمارستان: أنشأه نور الدين سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م، وأكمله سنة ٦٣٧هـ /١٢٣٨م، ابن قاضي بعلبك.
- مدرسة نور الدين وتربته: أنشئت سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م وفيها دفن نور الدين (ت ٥٦٧هـ / ١١٧١م).
- أسوار وبرج: أنشئ البرج ٥٦٩هـ / ١١٧٣م وجدده قلاوون ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م.
- حمام نور الدين: أنشئ في عهد نور الدين وما زال، ويقع في (سوق البزورية).

٥- عهد صلاح الدين والأيوبيين ١١٧٤ - ١٢٥٩م.

- المدرسة العزيزية: أنشأها العزيز عثمان ابن صلاح الدين، وفيها دفن صلاح الدين بعد نقل رفاته من قلعة دمشق. ولقد أضيف إلى القبر الخشبي قبر رخامي سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م وتقع شمالي الأموي.
- المدرسة الفرخشاهية والتربة: أنشئت سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م وتنسب إلى عز الدين فرخشاه (ت ٥٧٨هـ) وما زالت التربة فقط (موقعها أسفل شارع الجلاء).
- جامع الحنابلة: أنفق عليه الملك المظفر كوكبري صاحب أربيل ويعرف الجامع بإسمه، ويعود إلى عام ٥٩٨هـ - ٦٠٤هـ / ١٢٠٢ - ١٢٠٧م ويقع في الصالحية وقد سكنه المقادسة الحنابلة من بني قدامه.
- المدرسة الجهاركسية: وتنسب إلى الأمير قمر الدين شركس (ت ٦٠٨هـ / ١٢١١م) وتعود إلى سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م) (وتقع في الصالحية).

- قلعة دمشق الأيوبية: أنشأها الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب شقيق صلاح الدين سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨ - ١٢٠٨م وتقع في الزاوية الغربية الشمالية من دمشق القديمة.
- المدرسة العمرية: تنسب إلى الشيخ أبي عمر قدامه (ت ٦٠٧ / ١٢٠٩م) وجددت كلياً وتقع في الصالحية جنوبي جامع الحنابلة.
- المدرسة العادلية الكبرى: أنشأها نور الدين سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م واكتمل بناؤها في عهد عيسى بن الملك العادل ٦٢٠هـ / ١٢٢٢م وهي مقر مجمع اللغة العربية وتقع شمالي الجامع الكبير.
- المدرسة الشامية: أنشأتها مع المسجد والمدفن ست الشام أخت صلاح الدين سنة ٥٨٧ - ٦١٦هـ / ١١٩١ - ١٢٢٠م. وفيها دفنت مع أخيها توران شاه بن أيوب وابنها حسام الدين، وعرفت المدرسة بإسم الحسامية وتقع في منطقة سوق ساروجا.
- المدرسة البدرائية: كانت داراً ثم أصبحت مدرسة سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م وموقعها شمالي الجامع الكبير.
- المدرسة الماردانية: هي مدرسة وتربة أنشأتها زوجة الملك المعظم عيسى، ولم تدفن فيها، وتعود إلى عام ٦١٠هـ / ١٢١٣م ثم ٨١٦هـ / ١٤١٣م وموقعها في الجسر الأبيض.
- المدرسة البدرية: أنشأها بدر الدين حسن ولم يبق منها إلا التربة وتعود إلى بداية القرن ١٣ وموقعها ساحة الميسات.
- التربة التكريتية: وتنسب إلى الوزير علي مهاجر التكريتي (ت ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م) وموقعها جسر النحاس.
- الركنية البرانية: جامع وتربة الأمير ركن الدين منقورس الفلكي أنشئت سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٣م.

- العزية: مدرسة وتربة أنشأها الأمير عز الدين أيبك نائب صلخد وفيها دفن مع ابنه من بعده، وتعود إلى عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م وموقعها شمالي التكية السليمانية.

- الشبلية: مدرسة وتربة أنشأها الأمير شبل الدولة كافور الحسامي (ت ٦٢٣هـ / ١٢٢٥م) بقيت التربة، وتعود إلى عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م وتقع على طريق ركن الدين.

- الأشرفية: الأشرفية البرانية وتقع في الصالحية بين المدارس، أنشأها الملك الأشرف موسى داراً للحديث سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م والأشرفية الجوانية في العصرونية.

- الصاحبية: مدرسة وتربة أنشأتها أخت صلاح الدين ربيعة خاتون (ت ٦٤٣هـ) وفيها دفنت وتقع في الصالحية.

- الأتابكية: مدرسة وجامع ويعرف بإسم التابتية تنسب إلى زوجة الملك الأشرف موسى (ت ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م) وتعود إلى نفس العصر ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ولكن المئذنة اختفت سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٦م وتقع في الصالحية بين المدارس.

- باب السلام: وهو باب الجنيق أنشئ سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م.

- القيلجية: مدرسة وتربة دفن فيها سيف الدين علي بن قليج النوري (ت ٦٤٥هـ) وتقع في البزورية خلف قصر العظم.

- اليغمورية: مدرسة أنشأها نائب دمشق جمال الدين يغمور سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م وتقع في محلة العفيف - الصالحية.

- بيمارستان القيمري: أمر بإنشائه الأمير سيف الدين أبو الحسن القيمري (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) وما زال سليماً ويقع في الصالحية.

- المدرسة الحافظية: وتنسب إلى السيدة خاتون أرغون، حافظة القرآن ومربية الأمير حافظ أرسلان بن الملك العادل أنشئت سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م.

- المدرسة الناصرية: أنشأها صلاح الدين حفيد الملك الظاهر غازي وبقيت واجهتها وتعود إلى سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م.

- التربة التكريتية: وتضم قبر الوزير تقي الدين التكريتي، أنشئت سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م وتقع في الصالحية.

- حمام الجوزة: أنشئ عام ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م.

- المدرسة المرشدية: مسجد ومدرسة ومدفن لإبنه الملك المعظم عيسى (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) أنشئت سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م وتقع في الصالحية.

- الترب الأيوبية: وأكثرها في الصالحية تربة ابن المقدم، إبراهيم شمس الدين (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م).

- التربة الحافظية: وتربة ابن زنكي الأمير محمود بن مودود (ت ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م).

- التربة الفرنتية: وفيها قبر الشيخ علي الفرنتي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م)، تربة مثقال: المجاهد أبو سعيد الجمدار (ت ٦٢١هـ / ١٢٢٣).

- التربة الصارمية: ومنها ضريح صارم الدين برغش العادلي (ت ٦٠٨هـ / ١٢١٠م).

- التربة النجمية: نسبة إلى نجم الدين أيوب دفن فيها حفيده الملك المنصور إبن صلاح الدين (ت ٥٧٥ هـ).

- التربة النظيفية: وتنسب إلى محمد بن علي بن نظيف (ت ٦٠٢هـ / ١٢٠٤م).

- تربة إبن سلامة وتنسب إلى الحسن بن سلامة (ت ٦١٠هـ / ١٢١٢م).

- التربة الخاتونية: وفيها ضريح الخاتون عصمة الدين زوجة نور الدين ثم صلاح الدين، (ت ٥٨١هـ / ١٠٨٤م).

- تربة المسجف: وفيها ضريح أبي القاسم بن غنائم العسقلاني المسجف (ت ٦١٥هـ / ١٢١٧م).

- تربة الريحان: أنشئت سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م.

- التربة الكاملية: وتنسب إلى الكامل بن الملك العادل (ت ٦٣٥هـ). التربة الأسدية ٦١٨هـ / ١٢٢٠م).

٦- العصر المملوكي: ١٢٥٩ - ١٥١٦م

- قلعة دمشق: إضافات الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م إلى القلعة الأيوبية.

- المدرسة الظاهرية: هي مدرسة وتربة الملك الظاهر بيبرس وكانت بيت العقيقي (ت ٣٦٨هـ) وفيها دفن بيبرس سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٨م ثم ابنه السعيد سنة ٦٧٨هـ ولقد حول البيت إلى مدرسة سنة ٦٧٨هـ / ١٢٩٠م وإلى جانب المدرسة حمام الظاهري أو العقيقي.

- حمام السلطان: وينسب إلى السلطان الملك الأشرف قايتباي في أواخر القرن الثالث عشر / م. وهو أقدم حمام مملوكي ويقع في محلة الأقصاب وقد هُدم.

- الترب المملوكية: التربة التكريتية، التربة الكجكنية ٧١٢هـ / ١٣١٣م.

- الدوباجيه ٧١٤هـ / ١٣١٤م، تربة الأمير غورلو (٧١٩هـ / ١٣١٩م).
- تربة آراق ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م وفيها مدفن الصحابي صهيب الرومي، التربة الأفريدونية ودار قرآن ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م.
- التربة العادلية البرانية: وتضم قبر السلطان الملك العادل كتبغا (ت ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م) وعليها قبتان وتقع في أعلى شارع المالكي.
- التربة الكوكبائية: وتضم ضريح السيدة ستيتة بنت الأمير كوكباي المنصوري وهي زوجة الأمير تنكز (ت ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م) وتقع في زقاق المحكمة وتسمى زاوية النحلاوي.
- جامع تنكز: ويضم تربة الأمير سيف الدين تنكز الذي قتل في الإسكندرية (٧٤٤هـ / ١٣٤٣م) ولقد أنشئ سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧م وجدد ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م وبعد حريقه أعيد بناؤه ١٩٦٠م وبقيت مئذنته سالمة.
- الولي الشيباني: تربة جددت سنة ١٢١٦هـ / ١٨٠٠م وكانت قد أنشئت سنة ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م واسمها الأول التربة الجيبغانية نسبة إلى الأمير آلجي بغا (ت ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م) وتقع على طريق الحج في الميدان.
- جامع منجك: أنشأه المير منجك الناصري قبل عام ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م.
- قبة النصر على سوار: وتقع في أعلى جبل قاسيون ولقد هدمت كلياً عام ١٩٤٠م.
- خانقاه اليونسية: ويسمى جامع الطاووسية أنشأه الأمير يونس الدوادار سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٣م ولقد رمم مؤخراً وأضيفت له مئذنة سنة ١٩٨٠م.
- مئذنة هشام: هي ما تبقى من مسجد أنشأه القاضي بدر الدين بن زهر سنة ٨٣١هـ / ١٤٢٧م وتقع في سوق الصوف.

- جامع التينبية: وتربة نائب السلطان تنم الحسني أو الظاهري (ت ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م) وتقع في الميدان.

- مسجد الأقصاب: أنشئ سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م ويسمى السادات أو سدة الزينبية: وجدده الأمير ناصر بن منجك سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م ثم جدد سنة ٨١١هـ / ١٤٠٩م.

- المدرسة الأخنائية وتربة: ودفن فيها القاضي شمس الدين الأخنائي الشافعي سنة ٨١٦هـ / ١٤١٣م.

- المدرسة الجقمقية: أنشأها نائب السلطنة سيف الدين جقمق واكتملت سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م وفيها ضريحة وضريح والدته تقع شمالي الجامع الأموي وأصبحت بعد ترميمها متحفاً للخط العربي.

- جامع التيروزي: أنشأه الأمير غرس الدين التيروزي سنة ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م وملحق به تربة فيها ضريح التيروزي وتقع في محلة باب السريجة.

- الدلامية: مدرسة أنشأها ابن دلامة البصروي سنة ٨٤٧هـ / ١٤٤٧م وهدمت سنة ١٩٧٥م.

- جامع السنجقدار: بناه أرغون شاه سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م وفيه دفن. وقد جدد سنة ١٠٠٨هـ وما زال بحالة حسنة.

- جامع الورد: أنشئ سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٥م وينسب إلى الأمير بارسباي الناصري (ت ٨٥٢هـ) وفيه دفن وإلى جانب الجامع حمام الورد.

- الشابكلية، الشاذبكية: نسبة إلى الأمير شاذبك (ت ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م) وتقع في القنوات وتتألف من مسجد وتربة وسبيل.

- جامع المعلق: بناه سيف الدين بردايك سنة ٨٦٢هـ / ١٤٥٧م، وسمي المعلق لإرتفاعه عن مستوى الشارع في محلة العمارة - شارع فيصل.
- المدرسة الصابونية: أنشأها شهاب الدين أحمد الصابوني سنة ٨٦٣هـ / ١٤٥٨م وتقع في طريق باب الجابية وفيها مسجد صغير.
- جامع النحاسين: وكان خانقاه أنشأها شمس الدين بن النحاس (ت ٨٦٢هـ / ١٤٥٧م).
- تربة مختار: أو مدرسة الشيخ حسن راعي الهمة، وفيها دفن ظهير الدين مختار (ت ٧١٦هـ) وأنشئت سنة (٨٦٣هـ / ١٤٥٨م).
- مادنة الشحم: أنشئت سنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م ولم يبق منها إلا القسم السفلي.
- الأفريدونية: وهي تربة أنشأها أفريدون العجمي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٧م) وفيها دفن وتقع في طريق باب الجابية.
- جامع القلعي: وأشهر ما تبقى منه المئذنة الجميلة، ويعود إلى القرن ٨ هـ، ويقع في سوق الصوف.
- المدرسة الخيضرية: أنشأها قاضي القضاة إبن خيضر سنة (٨٧٨هـ / ١٤٧٣م) وتقع في الخيضرية - سوق الصوف.

٧- العصر العثماني: ٩٢٢هـ / ١٥١٦ - ١٩١٨م

- مجموعة السيبائية: هو جامع ومدرسة تنسب إلى الأمير سيباي نائب الشام سنة (٩٢١هـ / ١٥١٥م) وتقع في طريق الجابية.
- تكية السليمية: مطبخ وبيت مرق أنشأه السلطان سليم وجدده ابنه سليمان بعد حريقه. أنشئ سنة (٩٦٢هـ / ١٥٥٤م) جانب جامع الشيخ محيي الدين.

- جامع الشيخ محيي الدين: جامع وتربة الشيخ الصوفي محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م) أنشئ في عهد السلطان سليم الثاني في منطقة الصالحية.

- مجمّع السليمانية: ويتألف من مسجد وتكية كبرى وتكية صغرى وهي من تصميم المعمارسنان أنشئ في عهد السلطان سليمان القانوني سنة (٩٦٢ - ٩٧٤هـ / ١٥٥٤ - ١٥٦٦م).

- جامع الجراح: أنشئ سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م.

- مجمع النقشبندية: وهي تكية ومسجد أنشأها مراد باشا سنة (٩٧٦هـ / ١٥٦٨م) وتسمى المرادية وهي مقر الصوفية وتقع في الميدان.

- مجمع الدرويشية: وتتألف من جامع ومكتب وسبيل ومدفن مستقل عن ضريح الوالي درويش باشا الذي أنشأها سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م.

- خان الحرير: أنشأه درويش باشا مع التكية الأحمدية خلال ولايته (٩٧٩ - ٩٨٢هـ / ١٥٧١ - ١٥٧٤م) ويقع ج غ الجامع الكبير.

- مجموعة السنانية: شيدها سنان باشا سنة (٩٩٥هـ / ١٥٨٦م وتقع في باب الجابية).

- زاوية سعد الدين الجباوي للطريقة الجباوية سنة (٩٧٠هـ / ١٥٦٢م) وتمتاز بألواح القيشاني.

- جامع العسالي: واصلة تكية للحجاج ويقع في محلة القدم، أنشأه الوالي أحمد باشا كوجك سنة (١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م) للصوفي العسالي وفيه مدفنه.

- مدرسة إسماعيل باشا أو مدرسة سوق الخياطين أنشئت (١١٤١هـ / ١٧٢٨م).

- خان سليمان باشا: أنشئ سنة (١١٤٥هـ / ١٧٣٢م) ويقع في محلة باب البريد.

- جامع فتحي: أنشئ فتحي الدفتري مع حمام سنة (١١٥٦هـ / ١٧٤٣م) ويقع في القيمرية.

- خان أسعد باشا: أنشأه أسعد باشا العظم والي دمشق وأمير الحج الشامي سنة (١١٦٧هـ / ١٧٥٣م).

- قصر العظم: أنشأه أسعد باشا العظم سنة (١١٦٣هـ / ١٧٤٩م) وحالياً يضم متحف التقاليد الشعبية.

- جامع الياغوشية: أنشأه الوالي سياغوش باشا سنة (١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م) في محلة الشاغور.

- مدرسة عبد الله باشا: أنشأها والي دمشق عبد الله باشا سنة (١١٩٣هـ / ١٧٧٩م) وهي مدرسة نموذجية ذات مصلى وتقع قرب النورية.

- جامع الأكراد أنشئ سنة (١٢٥٨هـ / ١٨٤٣م) في حي الأكراد.

- بيت عبد الرحمن باشا: أصبح ملكاً لخالد العظم واستملك ليصبح متحفاً لدمشق ومركزاً للوثائق.

- الحمامات: أهم الحمامات العثمانية، حمام فتحي، الرفاعي، القاشاني، الخياطين.

- الخانات: من الخانات العثمانية خان الجمرك، قطنا، الحرمين، الزعفرنجية، التتن، السفرجلاني.

المراجع

- أبو البقاء البدري: نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة ـ ١٣٤١هـ.
- عبد القادر النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس، المجمع العلمي بدمشق ١٩٤٨ ـ ١٩٥١م.
- البديري الحلاق : حوادث دمشق اليومية، القاهرة ـ ١٩٥٩م.
- محمد كرد علي : خطط الشام دمشق ١٩٢٥م.
- محمد كرد علي : غوطة دمشق، المجمع العلمي – دمشق ١٩٥٢م.
- الحافظ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ـ المجلدة العاشرة، تحقيق دهمان، دمشق ١٩٦٣م.
- محمد بن طولون الصالحي : أعلام الوري ، فيما ولى من الأتراك دمشق الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، منشورات وزارة الثقافة ١٩٦٤م.
- محمد بن طولون الصالحي : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، دمشق ١٩٤٩م.
- علي الطنطاوي:دمشق ـ صور وعبر ، دار الفكر بدمشق ١٩٥٩م.
- عبد الباسط العلموي: مختصر تنبيه الطالب و إرشاد الدارس، تحقيق صلاح المنجد منشورات المديرية العامة للآثار و المتاحف – دمشق ١٩٤٧م.
- د.صلاح المنجد : دمشق القديمة ـ أسوارها ـ أبراجها ـ أبوابها، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف دمشق ١٩٤٥م.
- د.صلاح المنجد : مدينة دمشق عند الجغرافيين و الرحالين المسلمين، دار الكتاب الجديد ـ بيروت.

- جميل الشطي : أعيان دمشق، المكتب الإسلامي دمشق ١٩٧٣م.
- د.صفوح الخير : مدينة دمشق، منشورات وزارة الثقافة ١٩٦٩م.
- د.نقولا زيادة : دمشق في عصر المماليك، مكتبة لبنان ١٩٦٦م.
- عبد القادر ريحاوي : مدينة دمشق، دمشق ١٩٦٩م.
- عبد القادر ريحاوي : قلعة دمشق، وزارة الدفاع - دمشق ١٩٨٠م.
- أحمد حلمي العلاف : دمشق في مطالع القرن العشرين، أعده علي نعيسة، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٦٩م.
- د. قتيبة الشهابي: دمشق، تاريخ وصور، وزارة الثقافة - دمشق ١٩٨٦م.
- منير كيال: الحمامات الدمشقية وتقاليدها، وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦١م.
- يوسف الحكيم: سورية والعهد العثماني، دار النهار - بيروت ١٩٦٦م.
- يوسف الحكيم: سورية والعهد الفيصلي، دار النهار - بيروت ١٩٨٠م.
- عبد القادر بدران: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال - دمشق ١٣٧٩هـ.
- نعمان قساطلي: الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت ١٨٧٩م.
- ابن الفضل العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - القاهرة ١٩٢٤م.
- ابن طولون الصالحي: إعلام الورى بمن ولّي من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، دار الفكر - دمشق ١٩٨٤م.
- ابن طولون الصالحي: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق دهمان، مجمع اللغة - دمشق ١٩٨١م.
- ابن جبير: الرحلة، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ابن بطوطة: الرحلة (تحفة النظّار..) دار الرسالة - بيروت ١٩٧٩م.
- عفيف البهنسي: الشام لمحات فنية وآثارية، وزارة الأعلام - بغداد ١٩٨٠م.
- عفيف البهنسي: منطقة دمشق وريفها، وزارة السياحة - دمشق ٢٠٠١م.

- عفيف البهنسي : القصور الأموية، وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٨٧م.
- عفيف البهنسي : الألواح الخزفية، دار الكتاب العربي -القاهرة ١٩٩٨م.
- عفيف البهنسي: جمالية الزخرفة العربية، مكتبة لبنان - بيروت ١٩٩٨م.
- عفيف البهنسي: مجاهل الأسماء في دمشق الفيحاء، الحوليات الأثرية، دمشق ١٩٧٧م.
- عفيف البهنسي : الجامع الأموي، دار طلاس- دمشق ١٩٨٨م.
- عفيف البهنسي : الشام الحضارة، مطابع وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٨٦م.
- عفيف البهنسي : الفن الإسلامي، دار طلاس ـ دمشق ١٩٨٧م.
- عفيف البهنسي : دمشق الشام، دار الجنوب ـ تونس ١٩٨١م.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
٩ ـ العامل الحضري	٥٢
١٠ ـ العامل الاقتصادي الدولي	٥٧
١١ ـ أهمية آسورا عربايا	٥٨
١٢ ـ أثر التجارة في تاريخ الشام	٥٩
١٣ ـ التوسع التجاري	٦٠
١٤ ـ التبادل والاستقرار	٦٢
١٥ ـ العامل الثقافي	٦٤
١٦ ـ العامل السياسي	٦٧
• **الفصل الثالث: دمشق القديمة من خلال مشاهدات الرحالة والجغرافيين**	٦٩
١ ـ وصف المهلبي لدمشق قبل ألف عام	٧١
٢ ـ دمشق من خلال ابن جبير	٧٢
٣ ـ وصف جامع دمشق	٧٥
٤ ـ وصف الربوة	٧٧
٥ ـ قبور الأنبياء والصحابة	٧٩
٦ ـ دور الشفاء والتعليم	٨٢
٧ ـ أخلاق الدمشقيين وعاداتهم وآدابهم	٨٢
٨ ـ رغبته بدمشق، ودعوته المغاربة للإقامة فيها	٨٥
٩ ـ وصف دمشق شعراً من خلال رحلة ابن بطوطة الطنجي	٨٦
١٠ ـ ملاحظات لابن بطوطة لم يذكرها ابن جبير	٨٩
• **الفصل الرابع: تكون المناطق والأحياء**	٩١
١ ـ دمشق وجولة في التاريخ	٩٣
٢ ـ المنطقة الأولى ـ دمشق القديمة	٩٣

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تصويب:

ورد خطأ في الصفحة ١١٢ السطر ٧
الخطأ: ١٨٦٩ وكان الوصي على عرش بروسيا.
الصواب: ١٨٩٨ وكان ملك ألمانيا.


Bibliotheca Alexandrina
1240613